السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر
في تاريخ الجزيرة العربية
وبلدان الخليج
رقم (٢)

حياة تيموتشجين (جنكيز خان) الذي فكر في السيطرة على العالم

الشخصية والعصر

تأليف: ي.إ.كيتشانوف

تقديم ومراجعة
قسم الدراسات والنشر بالمركز





معهد الدراسات الشرقية
المجمع العلمي الروسي
(فرع سان بطرسبورغ)

مركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث
دبي

السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر
في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج
رقم (٢)

حياة تيموتشجين (جنكيز خان)
الذي فكر في السيطرة على العالم

الشخصية والعصر

ي. إ. كيتشانوف

ت / د طه [illegible]

تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر بالمركز

معهد الدراسات الشرقية المجمع
العلمي (فرع سان بطرسبورغ)

مركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث - دبي

السلسلة المشتركة
البحوث والمصادر في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج

هيئة التحرير:
يوري بيتروسيان، يقيم ريزفان
أنس خالدوف

حياة تيموتشجين (جنكيز خان)
الذي فكر في السيطرة على العالم

الشخصية والعصر

ترجمة: د. طلحة الطيب

فورمة: أوليغ شاكروف

First Publication: Dubai, Juma al Majid Center for Culture and Heritage, 2004.

تقديم

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وبعد:

في إطار التعاون العلمي والثقافي القائم بين مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ومعهد الدراسات الشرقية للمجمع العلمي الروسي فرع سان بطرسبورغ، قررت المؤسستان الاشتراك في ترجمة سلسلة من البحوث والدراسات الروسية المتعلقة بالجزيرة العربية، وبلدان الخليج ونشرها، ومن بينها هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للباحث العربي والمسلم في جميع أنحاء المعمورة، والموسوم بـ: **حياة تيموتشجين (جنكيز خان) الذي فكر في السيطرة على العالم - الشخصية والعصر - تأليف : ي. إ. كتشانوف.**

وينبغي أن نشير هنا إلى أن ما يرد من الآراء في هذه البحوث والدراسات، لا يعبر عن رأي المركز، ولا اتجاهه، وإنما القصد من التعاون في نشرها تمكين الباحث العربي والمسلم من الاطلاع على وجهة النظر الروسية في تقييمها وتحليلها للقضايا محل الدراسة والبحث، إضافة إلى وجهة النظر الغربية التي يدركها من قبل.

ومثل هذا العمل نعتقد أن له أثراً كبيراً في إثراء الفكر، وتوسيع مجال التفكير والاستنباط، والتمكن من فهم الأمور بشمولية أكبر من ذي قبل، والوصول إلى تفاصيل ما كان لها أن تظهر لولا الله ثم الرأي الآخر المعاكس.

ونحن نأمل أن يتحقق من إصدار هذه السلسلة الغاية والأثر الذي قصده المركز، والمشار إليه أعلاه، خدمة للأمة والإنسانية، وتقريبها من الحقيقة أقصى ما يمكن.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

قسم الدراسات والنشر

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

ويلون وإيسوغاي باتور

«في غضـون ذلك كـان بعيـداً يحارب
بضراوة وعدم استعجال أزفت ساعة
الميلاد وهبه الإله ابناً بطول ذراع»
أ. بوشكين

يقال إن إيسوغاي باتور، والد تيموتشيجين ـ الذي صار فيما بعد جنكيز خان ـ كـان لديه عـدة زوجـات من قـبـائل مـخـتلفـة، وأكـبـر زوجـاته ويلون، والدة تشيموتشجين، التي فاز بها قسراً من إكي تشيلدوّ الميركيتي.

وإليكم تفاصيل الواقعة:

«عندما كان إيسوغاي يصطاد الطير على ضفاف نهر أنبون، التقى بغتة إيكي تشيلدو المركيتي، الذي كـان عائداً من حفلة زفاف إحدى فتيات قبيلة أولوخون، وعندما نظر إيسوغاي إلى العربة راعه حسن جمال الفتاة النادر، فأسرع عائداً إلى المنزل للاستعانة بشقيقه الأكبر نيكون تايتشجي، والأصغر دارتياي أوتشيغين، عندها تملك الخوف إكي تشيلدو، فأسرع يضرب بفخذيه فرسه خوردون خوبا محاولاً الاختفاء بين التلال. ولكن الأشقاء الثلاثة اقتفوا أثره من غير توقف، ولما بلغ تشيلدو قمة التل، عاد ثانية إلى عربته، فخاطبته ويلون سائلة:

- ألم تدرك مرام هؤلاء الرجال؟ إن سماتهم تدل على أن الأمر يدور حول حياتك، فإذا ظللت على قيد الحياة معافى فإن النساء في كل عربة لموجودات، والزوجات في كل دار قابعات، ومن الواضح سيكون عليك أن تطلق اسمي «ويلون» على فتاة أخرى، أنقذ نفسك وارحل.

وحينها برز الأشقاء الثلاثة من خلف الأكمة، ساعتها انطلق تشيلدو واخزاً بمهمازيه حصانه خوردون خوبا مبتعداً عن مطارديه على مجرى نهر أونون، فاقتفى الأشقاء الثلاثة أثره إلى مسافة سبعة فراسخ، وبعدها عادوا لويلون فأخذ إيسوغاي بعنان فرسها، بينما تقدمهم الأخ الأكبر نيكون، أما الأصغر داريتاي فكان يسير ملاصقاً لهم، وساعتها قالت ويلون:

- يا أبتاه تشيلدو لم يداعب الهواء خصلات شعرك المتجعد، ولم تجع يوماً بالأرض اليباب، ماذا جرى لك الآن؟

بصوت عال لدرجة أن:

نهر الأونون انفعل

وطار الصدى على الجبل

وقريباً من المنزل أخذ داريتاي يهدئ من روعها:

سارق قلبك عبر الفيافي والقفار

والذي تبكينه قطع الحقول والأنهار

فمهما صوّت فلن يعيرك نظرة

ومهما بحثت فلن تجدي أثره، فكفى حسرة!

وهكذا هدأ من روعها داريتاي، ثم أخذ إيسوغاي ويلون إلى داره، وهكذا تم اختطاف ويلون أوتشجيني. [السيرة المكنونة، ص٨٤-٨٥].

لم يكن للفتيات المغوليات في قديم الزمان الحق في اختيار أزواجهن، بل كان وليد المصادفة أو من اختيار الوالدين. لم يكن في العرف المغولي الزواج من ذوي القربى، بمعنى أن المغولي لا يحق له الزواج من ذوات القربى.

عاشت العشائر المغولية على أراضي رعوية مشتركة، وعندما يريد المغولي الزواج من فتاة كانت عشيرته تهاجر من أجلها إلى مسافات بعيدة، وهذا في الغالب

الأعم يخص الأسر المتميزة، التي تلتزم بالمحافظة على العادات والتقاليد الزوجية. ومن أجل الزوجات كانوا يرحلون إلى أبعد المسافات لاختطافهن، كان تشيلدو ينتمي لنبلاء الميركيت (وهذا ما ينفي قول إيساي كالاشنيكوف في روايته «القرن القاسي» حيث جعل من تشيلدو أجيراً فلاحاً شبه حر. نحن نعرف على وجه الحق كيف حصل تشيلدو على ويلون. أعن طريق التآمر مع والديها أم اختطفها عنوة، ولكن من الواضح أن ويلون كانت معجبة به، وإلا ما كانت تهديه قميصها في ساعة الوداع، ولم تبك عليه ولا على مصيرها، وعندما أخذوها باكية للمربط لم تكن تعرف أن الذي نظر إليها في عربتها وخاطفها من حبيب قلبها تشيلدو بيد سيد قومه، آخذاً بعنان فرسها إنه إيسوغاي باتور، وأنه قد كتب عليها أن تكون أماً لابن ذكر. اسمه فقط يبث الذعر في شعوب بأكملها من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي...

❁❁❁

الهجرة غربا

«داكنة هنا مراتعنا على السفوح صيفاً
تغطيها الأغنام بأبيض الألوان وتشعلها
الشمس بلون أحمر قان شتاء يكسوها
الجليد بالضياء حيث تجاذب الحديث ثلاثة
فتية عن الألوان»

أ. ن. مايكوف

من هم المغول ومن أين جاؤوا؟ سؤال ليس بالسهل الإجابة عنه. من المؤكد علمياً أن المساحة التي تشغلها الآن جمهورية منغوليا الشعبية، حيث تدور أحداث روايتنا، فعلى مشارف عهدنا الحديث عاشت شعوب الغون الذين ينتمون عرقياً لشعوب (الترك؟ المنغول؟ الصاموديين؟) وسيطروا عليها، وهذا غير مؤكد، تلاهم مباشرة في السيادة على المنطقة الجونجوانيون ذوو الانتماء (الأفاري، الأوبوريون ذوو الأصول الروسية) والسيانبيون، ثم تلاهم في السيادة عليها الكاغانات التركية والأويغورية والقرغيزية، في المدة من القرن السادس إلى العاشر الميلادي.

أصل كلمة «مغول» كما ورد في الطبعة الأخيرة من كتاب تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية في التفسير الحديث، تحتمل عدة شروح»، كما أن علم التاريخ الحديث حتى يومنا هذا لا يمتلك تفسيراً موحداً لمعنى كلمة «مغول». «إن الاقتراح الأقرب للواقع أن أصل كلمة «مغول» ـ التي كانت تعني في البداية قبيلة واحدة ـ أصبحت اسماً جامعاً يحمل في ثناياه الشعوب والقبائل المغولية كافة» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية ١٢٤].

يرى رشيد الدين أن أصل كلمة «مغول» كانت تعني «الواسن»، أو «الضعيف»، أو «بسيط السريرة»، أو «صافي القلب» [رشيد الدين، المجلد الأول، ص١٥٤].

يعتقد الأكاديمي ي. شميدت ـ عضو أكاديمية العلوم الروسية أن «مغول» تعني «شجاع»، أو «متفاني»، أو «غير هياب»، ويرى ب. راتشنيفسكي في تفسير هذه الكلمة تقليلاً من الشأن، فيورد كلمة «مونغّوو» بمعنى «غبي»، وعليه يصبح بودونتشار مونغكاكا «بودونتشار الغبي»، أو «بودونتشار العبيط». [راتشنيفسكي، ص٥].

ويورد راتشنيفسكي وجهة نظر جذابة في مونوغرافيته: إن من المعلوم أن أسرة لياو الكيدانية ـ التي حكمت في أواسط آسيا وشمال الصين في بداية القرن العاشر، وسميت بـ «الحديدية» ـ في الغالب أنها أبيدت وقامت دولة خاماغ منغول أولوس[1] في منتصف القرن الحادي العشر، ولقد أسماها المغول بـ «مونغو»؛ أي «الفضية». وقد استتب لهم الحكم في أواسط مانتشحوريا عقب إسقاطهم سلطة الكيدانيين وقضائهم على دولة لياو تشجورتشجينية، ثم أسموا دولتهم تسيزين أي «الذهبية» [المصدر نفسه] إن في هذا الرأي لشيء من المنطق.

إن المصادر الصينية تقدم الدلائل المقنعة، التي تسمح بتتبع تاريخ المغول القديم حتى قبائل السيابي، إن صلة القربى المباشرة بين المغول الأوائل والغون ـ التي يكتب عنها أحياناً ـ لا تعدو أن تكون أمنية مجردة، وذلك على ضوء الدلائل العلمية التي بحوزتنا اليوم.

ورد اسم المغول أول مرة باسم مينيو أو مينو في القصص التاريخية القديمة والحديثة لأسرة «تان» الصينية (٦١٨-٩٠٨م) باسم «تسزيو تان شو» وسط قبائل

(١) أولوس: وتعني دويلة. المعرب.

«الشيواي» . في صياغات التاريخ القديمة لأسرة «تان» «تسزيو تان شو» ورد أن «الشيواي مجموعة خاصة داخل أسرة كيدان ، الواقعة دولتهم على بعد سبعة آلاف «لي»[1] . لا يوجد فيها ملك ولا أولياء ، بل يوجد سبعة عشر من كبار الحكام المسمين بـ «مخيفو» ، ويتوارثون الحكم على الرغم من أنهم يعتمدون على الترك . كانوا يستخدمون الأقواس القرنية والسهام الخشبية «خو» (تالنك؟ من أنواع العتاد الحربي) ، وبلغوا في ذلك شأناً[2] ، وأحياناً يخرجون إلى الصيد بالحراب[3] . وبعد انتهاء الأمر يتفرقون ، كما كانوا يفلحون الأرض أيضاً ولا يدفعون عليها ضرائب ، ويشيدون منازلهم ويسقفونها بالجلود ، كانت المجموعة السكنية تضم عشرات العائلات وأحياناً تصل إلى المئات .

تصنع المحاريث عندهم من جذوع الأشجار التي يدببون رؤوسها ، ويحرثون بها الأرض من غير أن يضعوا لها رؤوساً معدنية ، ولفلاحة الأرض تستخدم القوة البشرية عوضاً عن الثيران ، التي لا يسمح باستعمالها لحرث الأرض . في الصيف يكثر الضباب والأمطار ، وفي الشتاء الجليد والصقيع .

يربون الكلاب من الحيوانات الأليفة والخنازير للأكل ، أما الجلود فيتم دبغها ويحيكون منها أزياءهم . وإذا نظرنا إلى مظهرهم نلاحظ أن الشعر منكوش ، وأن ملابسهم تزرر على الجانب الأيسر ، أما الأسر الغنية فكانت تستعمل أنواع اللؤلؤ المختلفة ذات الألوان الخمسة للزينة .

القوانين التي تنظم الزواج هي : قبل دخول بيت الزوجية ينبغي على الخطيب العمل في بيت أهل خطيبته ثلاثة أعوام ليتعرف خطيبته عن كثب ، وبانقضاء مدة

(١) لي : وحدة قياس صينية قدرها ٦٠٠ متر . المعرب .

(٢) إن المصادر اللاحقة تشير إلى أن المغول كانوا يصنعون سهاماً من أعواد الصفصاف ، أما الباحثون المعاصرون فيسمون المغول «رماة السهام المهرج» .

(٣) إن الحربة ظلت واحدة من الأسلحة الأساسية عند المغول في منتصف القرن الثاني عشر .

العمل تحمل أسرة العروس الزوجين نصيبهم من الممتلكات على عربة مصحوبين بالرقص وضرب الطبول إلى بيت الزوج.

يقولون إنه في عهد أسرة تان الحاكمة توجد تسع قبائل من «الشيواي»، وشمال الجبال الكبرى تعيش قبائل الشيواي الكبرى قرب نهر «فانتسزيانخي»، تقع منابع هذا النهر على الحدود الشمالية الشرقية من المناطق التي يسيطر عليها الترك في بحيرة تسزيويلون، ومنها ينطلق متعرجاً إلى الشرق عبر الشيواي الغربية، ويواصل جريانه مجدداً نحو الشرق مخترقاً الشيواي الكبرى، وفي أقصى الشرق يجري شمال بحيرة مانو شيواي [شيواي المغول]، ومن ثم يواصل جريانه شرقاً إلى البحر». [تسزيو تان شو، تسزيوان (وتعني حرفياً «الفصل» ١١٩٦، ص١٦٧٣].

توجد مفارقات وإضافات في أصول مخطوطات التاريخ الحديث لأسرة تان «سين تان شو» على الرغم من أن مكان استيطان الشيواي ومركز انطلاقهم يسمى «خوانلون»، المنطقة التي تبعد شمالاً من المدينتين الحديثتين شانيان وكايوان الواقعتين في مركز مانتشجوريا، التي تحتل كل مساحة جيرينيا إلى الشرق حتى الحدود الداخلية لمنغوليا.

لا يسمّى حكام الشيواي «موخيفو» بل «موخيدو»، يضاف إلى ذلك أن الضعفاء منهم، قرابة ألف عائلة، يقومون بخدمة العائلات الأكبر قوة، الذين يفوق عددهم الآلاف من العائلات.

«يعيشون مشتتين على ضفاف الأنهر باحثين عن الماء والكلأ»، ولم يخضعوا بعضهم لبعض «على الرغم من أنهم كانوا مقدامين وغير هيابين ويحبون الحرب، إلا أن قواتهم لم تكن بالكفاءة المواتية لإنشاء دولة قوية»، بينما يضيف «تسزيو تان شو» أن فلاحتهم الأرض لا تعود عليهم إلا بمحصول قليل. أما عن العادات والتقاليد الأسرية فيؤكد أنه في حالة موت الزوج لا يحق للزوجة الزواج مرة

أخرى، وفي طقوس الدفن لكل مجموعة من الشيواي مقابر جماعية معدة على شكل سقائف، وعليها يضعون جثث موتاهم ويلبسون ثياب الحداد عليها ثلاثة أعوام، أما في حالة موت الحاكم فإن ابنه يرث الحكم من بعده، وإذا لم يكن للحاكم ابن يرثه يؤول الحكم إلى الشجاع والحاسم.

تتنقل قبائل الشيواي على عربات تجرها الثيران، يصنعون منازلهم من الضفائر التي تغطى بالجلود، أو يحنون جذوع الأشجار ويسقفونها بالضفائر، ولعبور الأنهار كانوا يعدون طوافات وقوارب جلدية.

أما الخيول فيرعونها بصحبة شخص، يضاف إلى ذلك أن النعاج تفتقد في عداد الحيوانات المنزلية، ويلاحظ قلة اهتمامهم بالخيول. يسمي الشيواي ملابسهم المحاكة من الجلود «موخا»، يقال إن هناك أكثر من عشرين قبيلة من الشيواي بدلاً من التسع المذكورة عند تسزيو تان شو، إن النص الذي يهمنا عن قدماء المغول ورد كما يأتي: «في الشمال جبال كبيرة وخلفها يعيش الشيواي الكبار، الذين يقطنون على ضفاف نهر شيتسزيانخا؛ (أي أعالي أمور الاسم الذي بقي في تسمية نهر شيلكا)، هذا النهر ينبع من بحيرة تسزيلولون، ويجري شرقاً، وجنوبه تعيش قبيلة مينوا، وشمالها قبيلة لوتان» [تسين تان شو، الفصل ٢١٩ ص١٦٧١].

تسمى الشيواي في المصدرين سلالة خاصو من الكيدانيين، ومن اسم هذا الشعب كلمة «الصين» (كيتاي بالروسية). إن صلة القربى بين قبيلة الشيواي والكيدانيين ذكرت بشكل واضح في المصادر الأكثر قدماً، وبخاصة عند «سُوي شو» الذي قال: «الشيواي والكيدانيين من أصل واحد، فالذين كونوا الجزء الجنوبي أسموهم بالكيدانيين، أما الشمالي فأسموهم الشيواي» [سُوي شو، الفصل ٨٤، ص٦٠٢].

إن مجموعة من الباحثين، ولعلهم محقون في ذلك، يرون أن أول ذكر لكلمة شيواي كان من أصل الكلمة المعروفة لدينا (سيبيريا). إن الباحثين في تاريخ الصين في أعمالهم الأخيرة يصنفون كل الشيواي كتتار، كما ورد عند [يوان تشاو شي المجلد الأول، ص٦][(١)]. في عهد مملكة لياو، وبالأحرى في القرن العاشر والربع الأول من القرن الحادي عشر أطلق على التتار ـ الشيواي في المصادر الصينية ـ تسمية تسزويو. إن قبائل الشيواي التي ينتمي إليها المغول ـ كما يبدو لنا جلياً ـ تربطهم صلة القربى بالكيدانيين، وفي بعض المصادر كونوا القسم الشمالي منهم، بما أن صلة العلاقة بين اللغة المغولية والكيدانية في الوقت الراهن لا تخضع للشك من قبل العلم الحديث إنما تسمع بالتأثير الواضح للغات التونغوتو المانتشوجورية، فمن المحق لنا أن نعدّ الشيواي مجموعة قبائل متكلمة في الأساس باللغة المنغولية، يتبقى لنا سؤال حول أماكن وجود المغول القدماء.

توصل كوماي يوسياكي إلى أن مجموعة قبائل الشيواي التي تسمى المغولية عاشت على الضفة الجنوبية لنهر آمور، غرباً من مصب نهر سونغاري في آمور، وشرقاً من سلسلة جبال خينغان الصغرى. [كوماي يوسياكي، ص٣٢٩-٣٣٠].

توصل العالم الياباني تامورا دزيتسودزو أيضاً إلى أن «المغول آنذاك عاشوا حياة تنقل على السهول الواقعة جنوب نهر أرغون». [تامورا دزيتسودزو، ص٣-٤].

توصل ل. غامبيس على ضوء المصادر نفسها إلى أنّ المصادر القديمة تذكر أن المغول توطنوا في الغرب من المجرى العلوي لنهر نونّي، ومن الجائز في الجزء

(١) إن تسمية التتار قد وردت في الاستعمال الأوربي عند الراهب يوليان سفير الملك المجري بيلي الرابع، وكان يطلق هذه التسمية على البولوفيين في الأعوام ١٢٣٥-١٢٣٧، وفي محاولته لفهم هذه أو «دار الحشر». لفظ التتار في معنى بلاد التتار استعملها أيضاً أ. مايكوف (انظر العبارة المقتبسة في مقدمة هذا الفصل).

الشمالي من المقاطعة الواقعة بين بحيرة ونهر كيوليون حيث ينبع نهر أرغون المكون الأساسي للجزء الأعلى لنهر أمور وجنوبه [ل. غامبيس، التاريخ، ص١٣٠].

بناءً على ما سبق توحدت آراء المتخصصين على أن المغول القدماء عاشوا جنوباً في أواسط مجرى نهر آمور بين خينغان الصغرى والمجرى الأسفل لنهر سونغاري، أو على الضفة الجنوبية للمجرى الأسفل لنهر أرغون، والأعلى لنهر آمور. أما رشيد الدين فيسمى المكان الذي عاش فيه قدماء المغول أرغونا كون، لماذا، كيف ومتى غادرها المغول للاستيطان غرباً على الأراضي التي تقع عليها حالياً جمهورية منغوليا الشعبية الحديثة؟ يبدو جلياً أن الأسباب هي الحروب الداخلية، وهجمات الجيران.

يربط الباحثون الصينيون الهجرات بقضاء القيرغيزيين على الكاغان الأريغوري، ويعتقدون أن من اسم الأويغور جاء اسم التتار (الترك الشيواي)، ومن ثم دخل التتار إلى المناطق الصينية إثر سقوط سلطة الأويغوريين في منتصف القرن التاسع الميلادي وهجرتهم من غرب وجنوب الشيواي مستفيدين من ضعف دولة القيرغيزيين وسلطتها السياسية في منطقة وسط آسيا، فبدأوا في استيطان «الأماكن الشاغرة»؛ ومن المعلوم أن الشيواي قد هوجموا من قبل القيرغيزيين عام ٨٤٧م والكيدانيين بين الأعوام ٨٨٥-٨٨٧م، إذا كان مذكوراً في النصوص التركية (نقوش في ذكرى كيول تيغين) أن التتار قد ورد ذكرهم أول مرة في الأعوام ٧٣١-٧٣٢ فقد ورد في النصوص الصينية في أعوام أقرب لهجرتهم أي ٨٤٢م.

إن واقع هجرة المغول تجدها قبل كل شيء في الأساطير المغولية الشفوية، «كان جد جنكيز خان بورتيتشينو مولوداً بإرادة السماء العليا، زوجته كانت غوامارال، وقد ظهروا إلى الوجود عابرين تيغيس (بحر داخلي)، مارسوا الرعي في منابع نهر أنون، على بورخان خالدون، ومن أنجالهم كان باتا تشيغان. [الأحاديث المقدسة، ص٧٩].

تنسب المصادر المغولية الحديثة الملتزمة بتقاليد التدوين البوذي سلالة جنكيز خان بورتي تشينو إلى التبت، تلك الدولة التي جاءتهم منها الديانة البوذية.

من الجائز أن بداية حركة المغول إلى الغرب بدأت في منتصف القرن الثامن[1]، ومن الجائز أن تكون الحروب مع الكيدانيين هي الدوافع إلى الهجرة، كتب في ذلك رشيد الدين: «لقد تعرض المغول لبطش ومذابح على أيدي القبائل الأخرى التي انتصرت عليهم، ولم يبق منهم غير رجلين وامرأتين، ومن الهلع والخوف هربت هاتان الأسرتان من مطارديهم، سالكين الأماكن الوعرة غير المطروقة التي تحدها الجبال والغابات، ولا يمكن الوصول إليها، ولا توجد فيها طرق، عدا درب ضيق المسلك، لا يمكن عبوره إلا بصعوبة جمة، وسط هذه الجبال سهل مليء بالأعشاب، وذو مناخ طيب، وتسمى هذه المنطقة ارغوني كون، ويرجع معنى كلمة «كون» منحدر صخري، وكلمة «ارغوني» حاد، أي بمعنى آخر الهضبة الجبلية ذات الانحدار الشديد، أما اسما هذين الشخصين فهما نوكوز وكيان اللذان سكنا تلك المنطقة، ومن بعدهم أنجالهم الذين بقوا مدة طويلة وتكاثروا. [رشيد الدين. الجزء الأول، الكتاب الأول، ص١٥٣].

من الممكن أن هذا قد تم قبل هجوم الكيدانيين، فمنذ هروب المغول من الأعداء استقطنوا في ارغوني، كون منطقة على خنغان الأكبر ونهر أرغوني، إن المغول ظلوا ضعفاء إلى وقت ما. «كلمة "مغول" كانت تلفظ "مونغول"؛ أي بمعنى الضعيف والمغفل].

---

(١) افترض رشيد الدين أنه عندما حانت ولادة جنكيز خان (يناير ـ فبراير عام ١١٥٥) كانت سلالته قد بلغت من العمر «قرابة الأربعمئة عاماً» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٨] أي إنه بدأ تقريباً من منتصف القرن الثامن، والسبب في بداية هجرة التتار، فلقد رأى رشيد الدين «الصراع مع القبائل الأخرى».

تكاثر المغول في منطقة أرغوني كون، وأصبحوا ذوي مهارة عالية في صهر الحديد وأعمال الحدادة، وحسبما تذكر الروايات القديمة كان الفضل في خروجهم من قبضة الجبال الضيقة إلى السهوب المغولية الفسيحة، حيث يجري نهر كيرولين الأزرق، وأوتون الذهبي يعود إلى مهارتهم في صهر الحديد، «وهكذا وجدوا منطقة غنية بخام الحديد، حيث مارسوا صهره بشكل دائم، لممارسة الصهر كانوا يلتقون مع بعض لجمع الأخشاب والفحم الذي تبلغ أوزانه قناطير، ثم يذبحون سبعين رأساً من الثيران والخيول، ويتم سلخها، صانعين من جلودها منافيخ للحدادة (أكوار)، وبعد إعداد المكان توضع الأخشاب والفحم على سفح المنحدر الجبلي حيث إن المنافيخ السبعين عندما تعمل تحت الخشب والفحم تؤججها بالنيران إلى أن ينصهر السفح الجبلي، وهكذا تم الحصول على كميات غير محدودة من الحديد، ومن ثم شق ممر للعبور استغلوه للانتقال من المكان الضيق الذي عاشوا فيه إلى السهوب الرحبة». [رشيد الدين. المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٥٤].

من المؤكد أن سلف جنكيز خان بورتي تشينو كان من هؤلاء الذين خرجوا من مضائق أرغوني كون، ومن الواضح أن الجبل الذي تحتم صهره كان من الممكن تجاوزه بالمرور من حوله، وهذا بالفعل ما قام به الخونغيراتيون وبعض القبائل المغولية الأخرى، وفي عهد جنكيز خان صارت أسطورة «صهر الجبل» مشكوك فيها. يقول رشيد الدين: «إن مجموعة المغول التي عاشت في ذلك الوقت وعاصرت أسطورة أرغوني كون تؤكد أنه على الرغم من صعوبة المكان للمعيشة إلا أنه ليس إلى ذلك الحد الذي يقولون عنه، والهدف الوحيد من صهر الجبل فتح طريق آخر للمجد» [المصدر نفسه].

على كل الأحوال إن أسلاف جنكيز خان ينحدرون من أصول صناع المعادن المشهورين، عبر القرون عاشت أحداث هذه الحبكة الروائية وتطورت، التي

نصادفها عند السيانبيين في المدة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين. إن الترابط بين أساطير المغول والسيانبيين أيضاً يلاحظ في رواية أخرى، ومغزاها يعود إلى أن كل غصن على حدة يسهل كسره، ويستحيل ذلك وهي مجتمعة[١].

كانت لدى دوبون ميرغان ـ سلف جنكيز خان ـ زوجة تدعى آلان غوا «جميلة جداً، ومن أصل نبيل . . . وعندما وطأت أقدامها دار دوبون ميرغان ولدت ابنين يدعيان بوغونوتاي وبيلغونوتاي . . . عاجلاً أم آجلاً وافت المنية دوبون ميرغاي»، وبعد موته ولدت أرملته من غير زواج ثلاثة أولاد، هم بوغو خاداغي، وبوخاتو سالتشجي، وبودونتشار الأهبل، أما بيلغونوتاي وبوغونوتاي الأبناء الكبار المولودون من دوبون ميرغان فصارا يتحدثان خفية عن أمهم قائلين: «ما أمر والدتنا قد أنجبت ثلاثة أبناء ولم يكن لديها لا إخوة آبائنا ولا أبناء عمومته ولا حتى زواج[٢]، والرجل الوحيد في الدار الذي يفترض أن يكون من صلبه هؤلاء الأولاد الثلاثة هو ماآليخ باياوديتس».

بلغ هذا القول سمع أمهم، وفي يوم ربيعي أعدت آلان غوا لأبنائها طعاماً من لحم الضأن المجفف، الذي بلغ لونه الإصفرار، وأجلست حولها أبناءها الخمسة: بيلغونوتاي، وبوغونوتاي، وبوغو خاداغي، وبوخاتو سالتشجي، وبودونتشار الأهبل، وأعطت كلاً منهم غصناً جافاً، وطلبت من كل واحد أن يكسر غصنه، ففعل كل واحد منهم ذلك بسهولة، عند ذلك أعطت كل واحد منهم حزمة من خمسة أغصان جافة ومربوطة ببعضها، وطلبت منهم كسرها، فهبوا في لحظة واحدة ضاغطين بقبضاتهم لكسر الحزمة الغصنية، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك،

---

(١) كما قال الشاعر العربي:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت أحاداً. المعرب.

(٢) مورست عند قدماء المغول عادة توارث الزوجات، فإن الشقيق كان يرث زوجة شقيقه المتوفى، بل من الواجب عليه أن يتزوجها.

عندها قالت آلان غوا: «أبنائي بيلغونوتاي وبوغونوتاي، حكمتما علي، وفيما بينكما تقولان إنني قد أنجبت ثلاثة أبناء، فمن هو والدهم؟ ولعلكما محقان في شككما، ولكن كل ليلة عندما تظلم ويضاء السراج داخل بورتا[1] يدخل علي رجل أشقر عبر مخرج الدخان، فيمسح على جوفي، وحينها يلج نوره إلى جوفي، ويخرج عند التقاء القمر والشمس مخربشاً كأنه كلب أصفر، فما هذا الهراء الذي تقولاه يا أبنائي؟ فإذا حكمنا العقل في كل ما جرى فإن أبنائي موسومون بختم سماوي، فكيف تجرأتما على التقول عليهم كما تتحدثون عن البسطاء الزائلين؟ فعندما يصبحون قياصرة القياصرة وخانات على الجميع، عندها سيدرك البسطاء الحقيقة».

واصلت آلان غوا في وعظ أبنائها قائلة: «يا أبنائي الخمسة! كلكم خرجتم من رحمي كمثل الأغصان من تلك الحزمة، فإذا انفرد كل منكم بفعله وقراره سهل كسره كالأغصان الخمسة على الانفراد، أما إذا عشتم في وئام وتوحدتم كتلك الحزمة من الأغصان فكيف يتأتى أن تكونوا لقمة سائغة؟». [السيرة المكنونة، ص٨٠-٨١][2].

يرجع نسب جنكيز خان إلى بودونتشار الابن الأصغر لألان غوا. وينقسم المغول إلى قبائل نيروانية وبورجيغينية (دارليكينية) إلى الابنين الأوليين لألان غوا

---

(١) يورتا: خيمة من الشعر عند القبائل المغولية، لها فتحة لمخرج الدخان في قمتها. المعرب.

(٢) حسب ما ورد عند رشيد الدين إن آلان غوا قد حبلت من أشعة النور «عبر فتحة الدخان في اليورتا دخل شعاع وتغلغل في أحشائها، لقد اندهشت لهذه الواقعة وروعت منها، ولم تخبر كائناً من كان بذلك، وبعد مرور مدة من الزمان فهمت بأنها حبلى» عللت لأبنائها الذين آخذوها على ذلك بقولها: «في كل ليلة أرى في الحلم شخصاً أشقر الشعر وأزرق العينين بطيئاً بطيئاً يقترب مني وبهدوء يرجع إلى الخلف، إنني أراه بأم عيني». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٤].

ودبون ميرغانا. ويرجع نسل النيروانيين (الأنقياء) الذين هم أجداد السلجيوتيين والخاتاكينيين (الأنقياء)، تميز نسل بودونتشار البورجوغيون بشعرهم الأمغر وعيونهم الصافية (الزرقاء واللازوردية)[1].

إن أسطورة الميلاد العجيب ليست بالغريبة ولا النادرة في تلك المنطقة، إننا نعلم بوجودها عند مجموعة من الشعوب، مثلاً أقرباء المغول من الكيدانيين لديهم أسطورة مماثلة.

في ذات ليلة وفوق ذلك المكان الذي نام فيه أباوتسزي مؤسس أسرة لياو الكيدانية «بزغ نور أفزع وأدهش جميع من حوله»، وعند مخاض شوليوي بابنها ـ الذي صار فيما بعد الإمبراطور تاي تسوزون ـ «غطت سحابة سوداء خيمة الشعر (يورتا) ولمعت نار، وصارت أصوات مسموعة كهزيم الرعد».

«ذات يوم عندما خرج تاي تسوزون مصطحباً تاي تسزو، وعند وصولهما إلى منطقة سيلاو ظهر فوقهما نور أحمر وسحب أرجوانية اللون، الشيء الذي حير جميع من كان حولهم». [ي لون لي، ص٤١-٥٤].

في «التاريخ السري» تختلط الأسطورة والواقع بشكل إعجازي، فالحكاية التي تروى عن أسلاف المغول ذوي العجائب مربوطة بالأساطير التركية القديمة التي تستعملها في الوقت الراهن جنكيز أيتماتوف في عملية الروائيين «الباخرة البيضاء» و «النطع»، فإننا نجد من بين أسلاف جنكيز خان أن دوفا سوخور كان متصل

(١) في عام ٨٤٠م كسر القيزغيزيون شوكة منعة الكاغنات الأويغور، وسط القيرغيزيون عدد لا يستهان به من ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، وأكثر من مرة ذكرت فرضية أن ألان غوا جدة جنكيز خان قد ولدت أبناءها الثلاثة الأخيرين من رجل قيرغيزي، ففي الوقت الراهن مثل هذه الفرضية يؤيدها ب. راتشنيفسكي الذي يفترض أن مآليخ بابادوتس من الترك هو الأب الفعلي لسلالة جنكيز بودونتشار. [راتشنيفسكي، ص١٣].

العينين، كما نجد بوندونتشار الابن الأصغر لألان غوا أنه ليس إلا «إيفاد الأهبل»[1] المغولي، الذي كان في واقع الأمر أكثرهم ذكاء ووجد في نفسه المهارة الكافية لتكوين قبيلة قوية، ونصب أشقاءه كمؤسسين للقبائل المغولية، وفي الأسطورة المغولية تصادفنا أقصوصة شائعة عن الابن الأصغر الذكي الذي نعته أشقاؤه الكبار بالغباء، وبعد وفاة أمه (والدته) خدعه أشقاؤه في الميراث، «أبعد عمر طويل أو قصير ماتت ألان غوا ولكن بعد وفاتها شرع الاخوة الخمسة في تقسيم الميراث فيما بينهم، ولكن حصيلة القسمة أن أخذ الاخوة الأربعة كل الميراث ولم يتركوا لأخيهم بودونتشار حصته؛ لأنه غبي وغير مؤهل، ولا يمت لهم بصلة رحم»، عاش بودونتشار فقيراً بعد أن ترك إخوته «حتى صار يقتات من فضلات أكل الذئاب، ولكن على الرغم من ذلك إلا أنه أشار على إخوته على أن يأسروا «الهاملين» من البشر، «ويتم استخدامهم كخدم لقطعان الخيول وفي المطبخ». [السيرة المكنونة، ص٨١-٨٢].

إن أبناء بودونتشار أضحوا مؤسسين للقبائل المغولية، وإن عهد آلان غوا يمكن أن ينسب إلى نهاية القرن العاشر أو بداية القرن الحادي عشر[2]. كان للهجرة نتيجتان مهمتان: دخل المغول في علاقة اتصال مباشرة أكثر التصاقاً مع القبائل التركية، وأصبحوا يمارسون الرعي المتنقل[3] على السهوب والسهول الغابية.

---

(١) إيفان الأهبل: بطل من الحكايات الشعبية الروسية. المعرب.

(٢) أشار رشيد الدين إلى أن آلان غوا عاشت قبل ثلاثمئة عام قبل أن يكتب مؤلفه. [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٠٣]، وحسب إفادة ألتان توبتشي في القرن الثامن عشر ولد بودونتشار ابن آلان غوا الذي هو الجد المباشر لجنكيز خان في عام ٩٧٠م. [المدونة التاريخية المغولية، القرن الثامن عشر، ص١٣٨].

(٣) يشير ل. ر. كيزلاسوف إلى أن عند المغول مصطلحاتهم الخاصة التي تدل على الكلاب والخيول والخنازير، أي بصورة أدق تلك الحيوانات المعروفة عند الشيواي، أما المصطلحات الرعوية وتسمية الأغنام والثيران والجمال والبغال فإن المغول قد اقتبسوها بكاملها من الترك، =

بعد أن تأسست دولة لياو، وضع الكيدانيون سكان نهر خالخي تحت سيطرتهم في عام ١٠٠٤، ثم تكوين إدارة حدودية سيبايلو تشجاوتاوسي ومركزها المدينة التي تسمى بالصينية تشتشجاو، وبالتركية كيدون (أي خاتون)، الواقعة جنوباً من المجرى الأسفل لنهر خالخي، وفي عهد أسرة تسيزين التشجور تشجينية كانت مدينة سيبايلو تشجاوتاوسي تقع خارج المنطقة التي استوطنها التتار المغول، كانت تحكم القبائل الحدودية بوساطة زعمائها بقيادة إمبراطورية تسيزين وجلبت المواشي عندئذ تعدّ حارسة لحدود الإمبراطورية وتعمل لخدمتها.



= وقاموا بدورهم جالبين معهم من منطقة منتشجوريا النمط المستقر للعيش، وذلك مثل المنازل المربعة من غير أساس، وذات حوائط هيكلية ومدافئ، ويبدو أنه خلال القرن العاشر والحادي عشر تم استيعاب ما تبقى في خالخا أو ما يسمى بجمهورية منغوليا حالياً من السكان الترك، واختلاطهم بالمغول، انظر: ل. ر. كيزلاسوف المغول القدماء في سيبريا وآسيا الوسطى والشرقية في القرون الوسطى، التاريخ والثقافة لشرق آسيا، المجلد الثالث، نوفوسيبيرسك، ١٩٧٥، ص١٧٠-١٧٧.

الدولة المغولية الأولى

«كل منا خالد سرمدي

كل منا بلا حدود

كل منا له الحق على هذه الأرض»

أويتمان

يرجع تأسيس الدولة المغولية الأولى «خاماغ منغول أولوس» إلى منتصف القرن الثاني عشر، وفي زمن أسرة لياو الكيدانية ـ جزء من أعيان المغول ـ منحوا مناصب وألقاب شرف من الكيدانيين، مثل لينفسين[1] أو سياوفين[2]، إن المغول التتر بشكل عام كانوا يدينون بالولاء لأسرة لياو، التي تربطهم بها صلات قربى اثنية، على الرغم من أن بعض القبائل المغولية ـ مثل جاجيرات وميركيت ـ كانت تحارب الكيدانيين حروباً دامية، إلى أن تم إنهاكهم في عام ١٠٩٤م، بعد سقوط دولة لياو ساند المغول يليوي داشي تمثل أسرة حاكمة بعد أن فقدت دولتها ودعموه بجيش يزيد عدده عن عشرة آلاف مقاتل، على الرغم من عدم تمكن يليوي داشي من إعادة السلطة لأسرة يليوي، إلا أن هذا الدعم شكل خطراً لتشجورتشيجنين، وأدى بدوره إلى صدام بينه وبين المغول.

في الأعوام من ١١٣٥ حتى ١١٤٧ خاض المغول حرباً مع تسيزين بسبب محاولة قتل التشجورتشيجنيون لقائد المغول خابول خان. يروي رشيد الدين أن خابول خان شخصياً وأبناءه كافة «كانوا موهوبين وذوي شجاعة منقطعة النظير» حباً

(١) لينفين: قائد الحرس الحدودي.

(٢) سياوفين: منصب يعادل منصب الوزير.

في تطبيع العلاقة مع المغول «وتعبيد الطريق الواسع للصداقة والوحدة» دعا الإمبراطور التسيزيني خابول خان إلى مقره، ولكن في أثناء الضيافة «ساور خابول خان الخوف من أنهم دسوا له السم في الأكل . . . فكان يخرج بين الفينة والأخرى . . . حينها كان الطقس حاراً . . . كان خابول خان يغطس في الماء باستمرار بحجة الانتعاش»، وبما أنه قد تمرن على البقاء تحت الماء ـ مصداقاً لقول بعض المصادر ـ «اكتسب تحمل البقاء تحت الماء لزمن يكفي لأكل خروف بكامله»، وهكذا كان خابول خان في أثناء فترة الضيافة يخرج باستمرار للترويح، فيغوص في الماء للتخلص من الأكل والشرب، ويعود للمائدة من جديد، «لقد خلقه الإله العلي قوياً وسعيداً، إن أكل لا يشبع، وإذا شرب لا يسكر ولا يتقيأ»، ولكن على الرغم من محاولته عدم السكر إلا أن النبيذ فعل فعله، فينتهي الأمر بأن تقدم إلى الإمبراطور التسيزيني «ألتان خان راقصاً ومصفقاً ثم قبضه من لحيته فأذله»، حينها أمسك بعض الحراس به فتلاشت نشوة السكر، ثم تقدم باعتذاره للإمبراطور منتظراً عقابه الحتمي، ولكن إمبراطور تسيزين قرر أنه لهذا السبب التافه» لا يمكن قطع العلاقة مع المغول، «فكظم غيظه وعفى عنه» محملاً إياه بالهدايا، وأطلق سراحه. [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٣٥).

لكن تم بعث إرساليتين مؤخراً لخابول خان الواحدة تلو الأخرى طالبين منه المثول أمام قيادة دولة تسيزين، ولكنه رفض وقضى على رسل الإرسالية الثانية، الشيء الذي ـ بالإضافة للأسباب السابقة ـ ساعد على نشوب الحرب بين المغول ودولة تسيزين، إضافة إلى الأسباب السابقة. ولقد كانت الحرب ناجحة بالنسبة للمغول، ففي عام ١١٤٧ عقد صلح سلام بين المغول والتسزينيين، تم بموجبه التنازل عن سبع عشرة محمية شمال نهر سينينخا، الذي أصبح حداً فاصلاً بين الدولتين.

تنسب المصادر الصينية هذه الحقبة إلى تولي الخان المغولي أولو بوتسزيلي (أولون بابلي) الحكم لدولة مينفو؛ (أي مينفو غو تشجو)؛ ولكن أولو غالبا لم يتمتع بلقب الحاكم في حدود محمياته، وإنما نال اللقب الإمبراطوري تسزويوان خواندي؛ أي الإمبراطور المؤسس للأسرة الحاكمة، الذي رفع شعار تيان سين بمعنى «الفجر المهدى من السماء»، ورد أولو بالرفض على اقتراح الأسرة التسيزينية للتمتع بلقب غوفان. كثير من الباحثين يطابقون بين أولو بوتسزيلي وخابول خان. [كوماي يوسياكي، ص٣٣٦-٣٣٨][1].

ورد في «التاريخ السري» لخابول خان «أن خابول كاغان قاد كل المغول، ومن بعده آلت قيادته إلى أمباغاي كاغان»، الذي تمتع بلقب «الكاغان الشعبي وحاكم كل الأولوس»[2]. [السيرة المكنونة، ص٨٤]. إن عبارة أولوس أون إيجين المغولية التي تعني «حاكم الأولوس» إذا لم تطابق الكلمة الصينية خواندي؛ أي «الإمبراطور» فلعلها في إطلاقها تماثل لقب غو تشجو، أي «حاكم الدولة». يسمى رشيد الدين خابول خان (الخان المغولي) «الحاكم والقائد لقبائله كافة والخاضعين له» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٣٥]. نلاحظ أن الحكام المغول القدامى كانوا يحملون اللقب السيانبي الجوانجواني التركي وهو كاغان (خاغان). أما اللقب «خان» ـ الذي يماثل اللقب كاغان ـ فقد ظهر مؤخراً.

لقد كان خابول خان ابناً لخايدو، الذي كان له ابن آخر يدعى باي شينكور دو كشين «الذي ينحدر من سلالة جنكيز خان نفسها، ومنه تنحدر قبيلة الكيات الذين برز منهم جنكيز خان، كما كان لدى خايدو ابن ثالث يدعى تشاراكاي لينكو، الذي

---

(١) يورد ف. "فرانكي" أن إيسوغاي كان أحد حكام خاماغ منغول أولوس، أي أولو بوتسزيلي هو إيسوغاي [فرانكي، ص٩٢]، ولكن هذا من غير الممكن، لأن إيسوغاي كان فارسا فقط؛ أي باتور، ولم يحمل في حياته لقب خان.

(٢) أولوس: الدولة.

انحدر منه تايتشيوتيون، وكما كتب ل. غامبيس «أن المؤسس للمملكة المغولية الأولى» خاماغ لمنغول أولوس كان خابول خان، لهذا إن أجداد جنكيز خان كانوا ينتمون إلى سلالة الخان بشكل مباشر، لكن بصورة فرعية [غامبيس، ص١٤]. إن «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية» يعترف بأن خاماغ مغول أولوس تعدّ اتحاداً حكومياً بدائياً. [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص١٣].

بعد استتباب العلاقات الأمنية مع دولة تسيزين ـ حسب بعض المصادر ـ استطاعت خاماغ منغول أولوس أن تورد سنوياً خمسين ألف رأس من الماشية إلى دولة تشجورتشجينيين، التي قامت بدورها بتصدير خمسين ألف كيس من الحبوب، وثلاثمائة ألف قطعة من الحرير الناعم، ومثيلها من الحرير الخشن.

لم يدم حكم خاماغ منغول أولوس وتفكك في حوالي عام ١١٦٠، إن العداوة والحرب مع التتار تعدان من أهم أسباب التفكك، وساهم في تذكية أوراهما التشجور تشجينيون، والسبب المباشر للحرب مرض حاكم الخونغراتيين ساين تيغين شقيق زوجة خابول خان، فلعلاج المريض استدعي طبيب تتري، ولكن لم يأت العلاج بنتائج إيجابية، ومات ساين تيغين، ووقتها قتل أقرباء ساين تيغين الطبيب، وفي غمار المعارك الحربية أسر التتار أوكين باركاكا الابن الأكبر لخابول خان، وتم تسليمه لإمبراطور تسيزين، الذي أعدمه على «البغل الخشبي». يبدو أن الحديث يدور عن نوع القصاص «لين تشي» الذي ظهر في شمال الصين في عهد أسرة لياو الكيدانية، التي تتلخص في أن المصلوب على العمود «البغل الخشبي» كان لمدة طويلة أو لأيام عديدة تنهش القطع الهشة من لحمه، حتى المفاصل والأطراف.

سلالة تيموتشجين ـ جنكيز خان ـ يمكن سردها كالآتي:

آلان غوا وزوجها المعجزة المختار

بودونتشار المغفل

وخايدو (ابن الحفيد بودونتشار)

باي شينكور دوكشين

تومبيناي سيتش (الجد الثالث لجنكيز خان)

خابول خان (الجد الثاني لجنكيز خان)

بارتان باتور (جد جنكيز خان)

إسوغاي باتور (والد جنكيز خان)

لا نعلم شيئاً ذا بال عن جد جنكيز خان بارتان باتور غير أنه كان جداً لفاتح العالم في المستقبل في دولة خاماغ منغول أولوس. «بعد وفاة خابول خان، لم تؤل السلطة كالمعتاد لأبنائه، إنما آلت لأمباغاي كاغان حفيد خايدو وابن أخ الجد الثاني لأمباغاي كاغان، على الرغم من أن لخابول كاغان سبعة أبناء من صلبه» [السيرة المكنونة، ص٨٤]. بينما يرى رشيد الدين أن أمباغاي كاغان فقط «حاكم لقبيلة تايجيوت» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٤٢]. إن «التاريخ السري» يرى أن أمباغاي كاغان كان «حاكماً شعبياً وحاكماً للدولة» لمدة طويلة.

خرج أمباغاي كاغان ذات يوم مودعاً ابنته إلى زوجها التتري المنتمي لقبيلة أيريود بويروود القاطنين على نهر أورشيون بين بحيرتي بويور تاور وكولين ناور، وفي هذه اللحظة اختطفه التتار التشجونيون، وأخذوه إلى ألطان كاغان الكيتادي، على يد بالاغاتشي رسوله من السلالة البيسودية. أوصى خاتولي للأوسط من أبناء خابول كاغان السبعة أن يقوم بتوصية الذي يليه خادان تايتشجي . . . من بين أبنائه العشرة: «انتقموا لشخص الذي قام بنفسه مودعاً ابنته ككاغان شعبي وحاكم الشعب، وانتقموا بلا انقطاع مشخنين العدو بالجراح، وواصلوا الطعن حتى لو تفقدوا الأظافر الخمسة، بل حتى إن لم تبق حتى الأصابع العشرة». [السيرة المكنونة، ص٨٤].

إن رواية رشيد الدين تختلف عن رواية «التاريخ السري». حسب معلوماته أن أمباغاي كاغان «سافر ليختار لنفسه زوجة»، حينها أسره التتار وأخذوه إلى إمبراطور تسيزين، الذي «حسب العادات المتعارف عليها عند الخيتاي أمر بصلبه على "البغل الخشبي"»، وقبل الموت طلب أمباغاي كاغان أن يبلغوا إمبراطور تسيزين ما فحواه أنه بقتله له سيجلب على نفسه نقمة «القبائل ودولة المغول»، «ولا شك في أنهم سينهضون من أجل القصاص والانتقام منك، فلذا ليس من المعقول إعدامي».

إن نبأ موت أنباغاي كاغان أوصله بالأغاشي إلى المغول مرسلاً من قبل الإمبراطور التسيزيني، «عند وصوله أخذ يتحدث بإسهاب عن أمباغاي كآن والملابسات التي صاحبت اغتياله لابنه كادان تايشي، وكذلك لابن هذا الأخير توداي، ولكوتولا كآن الذي كان حاكماً لتلك القبيلة، ولإيسوغاي باخادورو الذي كان ابن عم والد خامباغاي كآن». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٤٢-٤٣].

مرة أخرى نريد أن نلفت الانتباه إلى أن رشيد الدين لا يخبرنا عن أن أمباغاي كاغان كان حاكماً للمغول كافة، بل يسميه حاكم التايتشيوتيين، فلعل من الجائز أن بقية المغول من خاماغ منغول أولوس السابق كان يحكمهم خوتولا، لعله على الرغم من ذلك بعد موت خابول كاغان تقسم الخاماغ منغول أولوس على إدارتين، لكن رشيد الدين يناقض نفسه، حيث ذكر في بداية سرده أن خاتولا «تم تنصيبه بمرتبة خان» وذلك بعد اغتيال أمباغاي كاغان في مجلس الشعوب الذي ناقش كيفية الانتقام للكاغان المقتول. [المصدر نفسه، ص٩٣].

تميز خاتولا كاغان بقوة بدنية غير عادية «صوته أشبه بالصوت البالغ السموات العليا، وكفه كبرثن دب بلغ من العمر ثلاثة أعوام، ترأس خاتولا الحملة الانتقامية

على إمبراطورية تسيزين، وعند عودته بعد الانتصار تعرض في طريق العودة إلى داره للهجوم، ولم تنقذه إلا قوته ومراوغته ـ عند عبور بحيرة صغيرة مليئة بالقاذورات ـ تمكن من القفز من على صهوة حصانه إلى الشاطئ، ثم انتشل فرسه من الأوساخ ممسكاً به من عرفه، قاذفاً به إلى «الأرض المستوية واعتلى ظهره من فوره وركض تاركاً العدو بالجانب الآخر من البركة». [المصدر نفسه، ص٤٤].

ليس هناك شيء واضح عن مشاركة إيسوغاي باتور والد تيموتشجين في الحملة على تسيزين.



والد تيموتشجين

«فيه اجتمعت
قوة ألف مارد
وجبهة نمر، وقلب من حجر»
ماناس

إن كلمة «إيسوغاي» تعني بالمنغولية «التاسع»، ولعله كان ابناً تاسعاً لبارتان باتور، ولكنه الولد الثالث، «الابن الثالث كان إيسوغاي باخادور والد جنكيز خان، تأخذ قبيلة كيات بورجيغين أصلها من سلالته، وتعني كلمة "بورجيغين" "ذو العيون الزرقاء" ولعله من الغريب، وإلى يومنا هذا أن سلالة إيسوغاي باخادور والذكور من أبنائه في الغالب الأعم ذوو شعر أشقر وعيون زرقاء، حسب أنباء [المغول] هذه علامات تدل على السلطة القيصرية». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٤٨].

على الرغم من أن رشيد الدين يدلل على أن إيسوغاي باتور كان «حاكماً لغالبية القبائل المغولية» إلا أن في ذلك ضرباً من المبالغة، فلقد كان لديه أولوس، وكان محارباً جسوراً، «امتاز بالإقدام والشجاعة»، «وكثيراً ما حارب وعارك». المصدر نفسه ص٥٠] ولا سيما مع التتار، وفي الأولوس التابع لإيسوغاي بعد موت أمباغاي كاغان كان السواد الأعظم من قبيلة التايتشيوتيين إذا لم يكونوا كلهم، إيسوغاي لم يكن خاناً، في «التاريخ السري» سمي خاناً لمرة واحدة فقط. [السيرة المكنونة، ص٩٥]، في عام ١٢٦٠ منح إمبراطور أسرة يوان خوبيلاي

إيسـوغـاي لقب لي تسـزو شين يوان خـواندي (أي «الإمـبـراطور الإلهي أو السماوي»)، لقد كان إيسوغاي متآخياً مع حاكم الكيريتيين ولعله كان تابعاً له.

كان لدى إيسوغاي العديد من الزوجات، وأكبرهن ويلون، والدة تيموتشجين كما ذكر سابقاً ل. غامبيس، جزاء على اختطاف أيسوغاي لويلون من تشيلدو، فإن انتقام الميركيتيين طارد تيموتشجين طيلة شبابه، ولم يقف هذا الأمر إلى أن أباد تيموتشجين كل العائلة الميركيتية الحاكمة التي ينتمي إليها تشيلدو، الذي تأذى من والد تيموتشجين. [غامبيس، ص٢١].

أما خواتشين - التي صنفها إيساي كالاشنيكوف في روايته كخادمة وشبة مربية من الصين - فمن النتائج التي توصل إليها ب. راتشنيفسكي، أنها من الأقرب أن تكون الزوجة الثالثة لإيسوغاي، وأما لبيكتير وبيلغوتاي فليست خادمة عندهم. [راتشيفسكي، ص١٥].

ولد تيموتشجين في وقت عاد فيه والده من إحدى غزواته المعتادة على التتار. «عندما صار خوتلا كاغانَ قاد خادآن تايتشجي حملات ضد كل التتار، ثلاث عشرة مرة عند كوتون باراخ وتشجيلي بوخ، ولكنه لم يقدر أن ينتقم لأمباغاي كاغان، ولم يرد الصاع صاعين، وحين آب إيسوغاي باتور أسراً تيموتشجين أوغي وخري بوخا وآخرين من التتار ويلون فوتشجين في أواخر أيام حملها وفعلاً في ذلك الوقت ولدت ابنها جنكيز خان في كثيف ديلون بالداخ على نهر أونون، وكما شاء له القدر أن يولد فقد ولد قابضاً في يده اليمنى بعلقة في حجم عظمة الظلف، صادف يوم ولادته أسر تيموتشجين أوغي التتري، فلذا سمي بتيموتشجين». [السيرة المقدسة، ص٨٥-٨٦].

عند رؤية إيسوغاي للمولود قابضاً عند ولادته نقطة الدم المتخثرة عد هذا بمنزلة إشارة بالرسالة العليا الملقاة عليه في الحياة كمقاتل، ومصيره في الحياة كفاتح، ولهذا أطلق عليه الأعداء اسم الأسير.

يفترض بعض العلماء أن مدلول اسم تيموتشجين في اللغة المغولية القديمة يحمل معنى «الحداد».

الطفل المولود وفي قبضة يده علقة من الدم المتخثر رواية شعبية شائعة عن الهند البوذية، وفي إيران ميلاد كهذا يعني ظهور فاتح لا يرحم، من الصعب بدقة تحديد موقع ديلون بولداك حيث ولد جنكيز خان، البعض يفترض أنها ديلون بولداك الحديثة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر أوتون، وبالتقريب على بعد ٢٥٠ كيلو متر من نيرتشينسك الواقعة على مقربة من مصب نهر بالجي.

يرى كل من ب. بيليو، ول. غامبيس أن هذا تل («ديلون بولداك» حرفياً «التل الشبيه بالطحال»)، الواقع على ضفة نهر أوتون بالجوار لإيخي أرال «الجزيرة الكبرى». [بيليو وغامبيس، ص١١]. هذا المكان يقع في محافظة تشيتا الحالية. أو في منطقة بورخان خالدون حيث انقضت سنوات طفولة تيموتشجين وشبابه، وهذا يقع أكثر جنوباً في خينتاي الحديثة على مقربة من الجبال التي تعدّ منبعاً لنهر أوتون وتول وكيرولين، ومن الصعب الجزم القاطع أيهما الأصح. كذلك يصعب على وجه الدقة ذكر تاريخ ميلاد تيموتشجين جنكيز خان. حسب رواية رشيد الدين أنه ولد عام ١١٥٥، و «ديوان شي» يورد تاريخ ميلاد تيموتشجين عام ١١٦٢، هذا التاريخ نفسه يرد عند «شين أوتسين تشجين أو»، عدد آخر من المصادر الصينية بشكل غير مباشر يشير إلى عام ١١٦٧، ويأخذ بول بيليو التاريخ الأخير عاداً إياه من أفضل ما يتفق مع السيرة الذاتية لجنكيز خان.

ويرى مؤلف هذه السطور أنه سياقاً مع طريق تيموتشجين الصعب لتوحيد منغوليا واعتلائه كرسي العرش كخان لجميع المغول، التاريخ الأقرب احتمالاً هو عام ١١٥٥.

كتب كي شاومين كاتب المؤلفات الأكثر حداثة «سين يوان شي» (أي «التاريخ الحديث لأسرة يوان الحاكمة») قائلاً: «تاي تسزو الذي ولد قابضاً بيده اليمنى على كتلة دم متخثرة كالحجر الصلب، والوجه كان مشعاً، كان هذا العام عام إ خاي أي العام الثالث من حكم تشجين يوان التسزيني الحاكم على منطقة لان»؛ أي العام ١١٥٥. [نقل عن السيرة الكاملة، ص١١٧].

كتب ن. ت. مونكويف: يبدو أن عام ١١٥٥ أقرب احتمالاً لكونه عام ميلاد الخان المغولي، لا ننسى أن نضع في الحسبان أن تشاو خون زار المغول وجمع معلوماته في أثناء حياة جنكيز خان في عام ١٢٢١، في الوقت الذي كان فيه مقاتلو هذا الأخير يتمتعون بمعلومات كافية عن حياة قائدهم، ولا سيما عن عمره [السيرة الكاملة، ص١١٧].

من المعلوم أن ١٨ آب عام ١٢٢٧ يعدّ التاريخ المؤكد لوفاة جنكيز خان، وتختلف المصادر عن عدد سنوات عمر جنكيز خان حينما مات. «يوان شي» و «شين أو تسين تشجين لو» و «ألتان توبتشي» والمصادر المغولية المتأخرة كافة انطلاقاً من أن جنكيز خان تبعاً لمعطيات «يوان شي» قد قضى نحبه عن عمر يناهز ٦٦ (٦٥) عاماً، إن المغول مثل الصينيين يحسبون عام الميلاد من بداية الحمل، وليس من لحظة الميلاد، فلذلك يرجعون تاريخ ميلاد جنكيز خان لعام ١١٦٢.

«كان معروفاً للقياصرة والأمراء كافة وذوي الرتب الرفيعة وما تعدى حدود العلنية أن عمره قد بلغ الاثنين والسبعين عاماً، ومات بعد دخوله في العام الثالث والسبعين من عمره». [المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٧٤]. ولعلم رشيد الدين بهذه المعلومات فقد توصل عن طريق الحساب إلى أن تاريخ ميلاد جنكيز خان يصبح ١١٥٥.

شك ب. بيليو في كلا التاريخين، والشيء الذي أثار ريبه أن تيموتشجين صار أباً في الثلاثين من عمره (أوغيداي ولد عام ١١٨٦ وتشاغاتاي عام ١١٨٥، أما تاريخ ميلاد تشجوتشي فمشكوك فيه)، أخضع شعوب وسط آسيا في الخمسين، ولم يقم بحملاته على الدول المجاورة إلا في الستين، وعندما بلغ الثانية والسبعين قاد حملة على التانغوتيين، وعلى ضوء ما ذكر صغر عمر تيموتشجين وعدّ عام ميلاده العام نفسه حسب التقويم الحيواني (الذي يعتمد على الدورة الحيوانية قوامها إثنا عشر عاماً) ولكن بتأخير دورة أي عام ١١٦٧ بدلاً من عام ١١٥٥. [بيليو، ملاحظات، ص٢٨٥-٢٨٧].

هذا السؤال يبقى معلقاً مثل التواريخ كافة المتعلقة بأحداث حياة جنكيز خان قبل بداية القرن الثالث عشر، وأيضاً نود أن نضيف رأي راتشنيفسكي القائل إن جنكيز خان نفسه لم يعلم بالتحديد تاريخ ميلاده. [راتشنيفسكي، ص١٧].

ومن روايات المصادر المغولية المتأثرة بالبوذية المتأخرة نأخذ أن تيموتشجين عندما ولد كان ممسكاً بيده ليس علقة إنما خاتم دولة. إن جنكيز تيموتشجين كحداد باقٍ في الذاكرة الشعبية، ولا يزال اعتقاد المغول في القرن الماضي بأن سندان جنكيز خان مصنوع من معدن قان، الذي يحمل صفات النحاس والحديد الموجودين في جبل دارخان إلى أعلى من قرية نوفوسيلينغينسك، على الضفة الشمالية لنهر تشيكوي يوجد جبل أجرد من غير غابات ذو قمة مسطحة، يقال إنها سندان جنكيز خان، وهنا كان العملاق الحداد يطرق الحديد واقفاً برجله على الضفة اليمنى وأخرى على اليسرى.

لقد ذكرنا سابقاً أن إيسوغاي باتور كان زعيماً للأولوس وموحدَ جزء كبير من القبائل المغولية، ومن ضمنها القبائل التايتشيوتية، لقد قضى حياته في الحروب والغزوات، «وخوفاً من جسارته وقوته خضع له معظم أصدقائه وأعدائه حفاظاً

على أرواحهم، فلذا كان وضعه وأعماله على ما يرام وفي أحسن الأحوال».
[رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٧٥]. في الواقع يمكن أن نتخيل أن طفولة تيموتشجين في ظل حماية والده كانت مستتبة ومستقرة، وعندما بلغ تيموتشجين التاسعة من عمره أراد والده ـ حسب التقاليد المغولية القديمة ـ أن يخطب له عروساً من القبيلة الأولخونوتية نفسها التي تنتمي إليها والدته ويلون، توجه مسافراً مصطحباً الغلام، وفي الطريق قابلهم داي سيتشين من قبيلة أو تغيرات سائلاً:

– إلى أين تتجه يا أيها النسيب إيسوغاي؟

– إنني مسافر لأخطب لابني عروساً.

ناظراً لتميوتشجين قال داي ستشين:

– لابنك نظرة كالنهار، ووجه مضيء كالفجر، حلمت في هذه الليلة أيها النسيب إيسوغاي كأنما طار وهبط على يدي صقر أبيض قابض في مخالبه الشمس والقمر، فسألت نفسي عندما رأيتكما: بأي شيء يبشر هذا؟ إن قبيلة أو تغيرات منذ أمد بعيد بلا منازع مشهورة بجمال فتياتها ولطفهن، فعرج علينا أيها النسيب إيسوغاي، ابنتي صغيرة فلا بد لك أن تراها.

حين نظر إيسوغاي إلى بورتي ابنة داي سيتشين التي في العاشرة من عمرها ووجهها كالفجر، وعيونها كالنار، بات الضيفان ليلتهما، وعند الصبح بدأت الخطبة، جادل داي شيتشين بقدر ما تطلبه الأعراف السائدة آنذاك مقرباً الخاطب الوجيه ورغبة في الوصال مع إيسوغاي بعد المساومة، فقال:

– ليس مصير الأنثى أن تعمر على عتبة دار أبيها، إنني موافق على منح ابنتي كزوجة، اترك ابنكم في كنفي كصهر وخطيب.

وهكذا تم الاتفاق فقدم إيسوغاي فرسه الجامح هدية لداي سيتشين، وطلب منه مراعاة ابنه:

- إنني هلع يخاف الكلاب، فأنت النسيب احمه منها.

ومن ثم ارتحل تاركاً تيموتشجين ابن التاسعة عند خطيبته ابنة العاشرة حسب العادات المغولية القديمة عند نسيبه داي سيتشين المنحدر من قبيلة أو تغيرات. (هكذا ورد في «السيرة المكنونة» ص٨٦-٨٧).

وفي طريق عودته التقى إيسوغاي بمجموعة من التتار يحتفلون، كان منهكاً من العطش ومعتقداً أن التتار لا يعرفونه من وجهه، فقرر أن يشاركهم الاحتفال من أجل أن يرتاح، فعرف أحد التتار أطفالاً صغاراً، ولكنهم لم يغامروا بقتله علناً، فوضعوا له السم في الشراب، وفي الطريق أحس إيسوغاي بشيء غير مألوف، وبعد ثلاثة أيام من بلوغة داره مرض ولزم الفراش، قبل الموت نادى على المقرب له مونليك وقال:

- ابني العزيز مونليك! إنك تعلم أن لدي أطفالاً صغاراً، وقد أهلكني التتار سراً واحسرتاه! خذ في كنفك أقربائي كافة بما فيهم الصغار والأيتام من إخوتي الصغار، وأرملتي وزوجة ابني. ابني العزيز مونليك! أسرع بإحضار صغيري تيموتشجين! (هكذا ورد في السيرة المكنونة، ص٨٧].

بهذه الكلمات أسلم إيسوغاي الروح، إذا كان جنكيز خان قد ولد في عام ١١٥٥، فإن إيسوغاي بارح الحياة في عام ١١٦٣، إذا أخذنا في الحسبان ميلاده عام ١١٦٢، فإن هذا سيكون في عام ١١٦٥، وإذا أخذنا عام ١١٦٧، فإن هذا حدث في عام ١١٦٥، وإذا أخذنا في الحسبان ما ذكره المصدر من أن عمر تيموتشجين كان تسع سنوات، فعليه بحسابات يكون ثمانية أعوام، أما بحساب رشيد الدين فإن موت إيسوغاي حدث عندما بلغ تيموتشجين الثالثة عشرة (أي بحسابنا الثانية

عـشـرة) تبـعـاً لـذلك كل التـواريخ يجب أن ترجع بثـلاثة أعـوام: ١١٦٦-١١٧٤-١١٧٨.

كـان مونليك من أنصـار إيسـوغـاي المخلصين، فنفـذ وصيـته، وخـوفـاً على تيموتشجين لـم يعلن حينها عن وفاة إيسوغاي، وإنما قال لداي سينتشين:

- إن الأخ الأكبـر إيسـوغـاي باتور تتـعـذب نفـسـه ويحـتـرق شـوقـاً لـرؤية تيموتشجين، وقد حضرت في طلبه.

فرد داي ستشين:

- إذا كان نسيبي ملتاعاً بصغيرة، فاذهب يا تيموتشجين وقابل والدك، ثم ارجع على جناح السرعة.

وفي هذا الوقت العصيب أوصل مونليك تيموتشجين إلى خيمة والده الخاوية، التي انفض من حولها رجال إيسوغاي باتور، وهكذا كان كل شيء يوحي بمستقبل باهر لتيموتشجين، الذي ولد «قابضاً في كفه اليمنى قطعة متخثرة من الدم أشبه بكبد جافة، ومكتوبة على جبينه الدلائل التي تشير إلى أنه منقذ الدنيا وزعيم العالم، ومن هامته تنبثق شعاعات السعادة والقوة». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٧٥]. وهكذا انقضت ثمانية أعوام أو اثنا عشر عاماً، وبحساب رشيد الدين قضى فاتح العالم الأعوام السبعة والعشرين التالية من عمره «في ضياع»، «فخاض المعارك والغزوات»، «وتم أسره وتصفيده بالأغلال من قبل الأعداء أكثر من مرة»، وبشكل عام حلت حقبة غامضة عندما صارت وقائع حياته «غير متسلسلة ومجهولة التفاصيل»، لذلك استنتج المؤرخ العظيم «أنها كتبت باختصار». [المصدر نفسه، ص٨٤].

قبل الدخول في الحديث عن الحقبة العصيبة ستتحدث عن تركيبة القبائل المغولية وجيرانها وتوزيعهم السكاني في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وعن عادات المغول القدماء.

شعب مجهول وغريب

«وهكذا عندما هبطنا ببيئة هؤلاء
البرابرة ـ كما ذكرت سابقاً ـ خيل إلي
أنني أدخل في عالم آخر».
غ. روبروك

انتشرت القبائل المغولية خلف نهر كيرولين في اتجاهات مختلفة، وهنا يهب لنجدتنا رشيد الدين بمؤلفه الخالد حقاً، عاش خاماغ منغول ـ أسلاف جنكيز خان وأقرباؤه ـ على أودية أنهر أونون وكيرولين وطولا، إن قبائل أوريانخات[١] الزاعمين بمشاركتهم في صهر الحديد عاشوا في شمال الشرق من أقاليم منغوليا وما وراء بحيرة بايكال، وقاموا مؤخراً بتشكيل فوج قوامه ألف فارس لحماية رفات جنكيز خان في جبل بورخان خالدون، ومن صلب قبيلة أوريانخات برز القائد سوبيتاي باتور. [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٥٦-١٦٠].

أول من غادر أورغوني[٢] ـ الكونغيراتيون المتصهرون، لقد كانت لديهم أسطورة خاصة عن أصولهم ـ أجدادهم «الأبناء الثلاثة خرجوا إلى الدنيا من وعاء ذهبي»، «وقد تزوج معظمهم وأبناؤهم أيضاً من فتيات ينحدرن من سلالة جنكيز

(١) في هذه الحالة يقصد المغول الأوريانخان وليس الأوريانخات الذين ظهروا لاحقاً وأصبحوا أجداداً للتوفيتسيين، إن ف. تشيفيليخين ـ الذي علم سوبيتاي باتور من الأورينخات ـ زعم أنه ليس مغولياً، فلذا خلط في الفهم.

(٢) ما يثير الفضول أنهم أنجزوا هذا العمل من غير أي صهر للجبل، وفي الواقع حسب الأسطورة عند خروجهم دنسوا منبت أبناء قومهم، ولهذا منوا على ما ارتكبوه بمرض وراثي للأرجل.

خان مقابل تزويجهم من فتياتهم»، إن ويلون أم جنكيز خان وبورتي زوجته الأولى منحدرتان من قبيلة كونغرات. [المصدر نفسه، ص١٦٠-١٦٦] عاش الكونغرات في منغوليا على الحدود مع الدولة الكيدانية، يرى كوماي يوسياكي أن الكونغرات ـ وفقاً للمصادر الصينية في القرن العاشر ـ كانوا يسمون يويتسيويلوي: «في الغرب الترك والإيغور، والشمال الغربي نصل إلى يويتسيويلوي، هؤلاء القوم طوال القامة ذوو رؤوس شعثاء الشعر، والشيوخ منهم إذا طال شعرهم يطبقونه في أكياس بنفسجية، الطبيعة هناك قاسية وباردة، وفي الأنهر تعيش الأسماك الكبيرة التي يحب أكلها الكيدانيون، وأيضاً يوجد كثير من جلود السمامير السوداء والصفراء والبيضاء، التي تكفي حاجة كل دويلات الشمال، إنهم قوم مقدامون، ولم تتجرأ الدول المجاورة بالهجوم عليهم» [كوماي يوسياكي، ص٣٥٩].

انحدر أنصار إيسوغاي وجنكيز خان نفسه من قبيلة أورياوت بقيادة موناليك المعروف لنا، إن ابن موناليك كوكوتشو المفضل لساكني السماء طب تينغري أوحى لجنكيز خان فكرة السيادة الكونية، وخلع عليه لقبه «كان دائماً يتردد على جنكيز خان قائلاً: "أراد الله أن تصبح حاكماً للكون!" وخلع عليك الرسالة الجنكيز خانية قائلاً: "ومشيئة الله أن يكون اسمك هكذا"». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٦٦-١٦٧].

عاش الباياوتيون على طول نهر سيلينغا ورافده نهر جيدا في حدود ما وراء بحيرة بايكال، وعلى طول نهر أونون التايتشيوتيون، ولعل من الواضح أن أقرباء جنكيز خان كانوا من أقوى القبائل المغولية، وعاش الجلايريون على ضفاف نهر كيرولين وعدد خيامهم يقارب سبعين ألف، «فكان أتون جزءاً من محط ترحالهم» وفيه منوا بهزائم نكراء، إما على أيدي الكيدانيين وإما على أيدي التشجورتشجينيين، «في قديم الزمان ارتكب المحاربون الخيتانيون مجازر بحق هذه

المجموعة من الجلاريين حيث استطاعت قلة منهم الفرار» [المصدر نفسه، ص٩٢].
«قام الخيتانيون بالقضاء على القبائل الجيلارية، وأبادوهم حتى الأطفال الذين لم يشبوا عن الطوق، ونهبوا متاعهم وماشيتهم» [المصدر نفسه، الكتاب الثاني، ص١٨-١٩]، فلنحتفظ في ذاكرتنا بهذه الوقائع عندما تطرقوا إلى الحديث عن قسوة جنكيز خان، يرد ذكر الجلاريين في «قصة أسرة لياو الحاكمة» (لياو شي) باسم «تسزويو تشجالا بو» ومعناها «قبيلة تشجالا وسط تسزويو». حسب تقدير يوان تشاو شي، عاشوا جنوباً من نهر أونون حتى منتصف مجرى كيرولين وأعاليه. يرى هؤلاء الباحثون أن الهجوم القاسي على الجلاريين قام به الكيدانيون في المدة ما بين ٩٨٣-١٠١٢. [يوان تشاو شي، المجلد الأول، ص٢١].

يرى الباحثون أن «التتار الحقيقيون كانوا يتكلمون بالمغولية». ويرد ذكر التتار لأول مرة في المدونات التركية في الأعوام ٧٣١-٧٣٢، أما في المصادر الصينية فمنذ عام ٨٤٢، بالتحديد عرف التتار في عهد أسرة لياو وتسيزين بالتسزويو، مع العلم أن الباحث تو تسزي يرى أن هذه التسمية ترجع إلى الكلمة المغولية «حيبا»، ومعناها نوع من السهام، وكانوا يعيشون في الأقاليم الواقعة بالقرب من بحيرات بوير نور وكيولون نور بين النهرين كيرولين وخينغان الأوسط، وهي مناطق غنية بالفضة، وتعدّ مناطق حدودية جنوبية شرقية على مشارف لياو وتسيزين، وتقطنها القبائل الناطقة بالمغولية. «ويسكنون في خيام من الشعر في منطقة بوير ناور» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٠١].

كان التتار أقوياء وجريئين؛ إذ كان بينهم الوئام وليس الخصام، إضافة إلى عددهم الكبير، لم يكن باستطاعة القبائل الأخرى كالصينيين وغيرهم الصمود أمامهم». تميز التتار بين قبائل التتار المغولية «منذ القدم وكانوا دائماً مسيطرين

وحاكمين للسواد الأعظم من القبائل المغولية وأقاليمها ومحتلين من بينهم مركز الصدارة بعزتهم وقوتهم». [المصدر نفسه، ص١٠٢].

إن المرادف الإثنوغرافي لكلمة التتار «أصبح الاسم الجامع لقبائل التتار المغولية كافة». كتب رشيد الدين «بفضل السمو والمكانة الاجتماعية غير العاديتين بقية السلالة[١] التركية الأخرى بتباينها ومستوياتها كافة أصبحت تعرف باسمهم أي التتار، أما السلالات المتباينة فعدوا سموهم وعزتهم في انتسابهم للتتار، وصاروا يعرفون باسمهم، كما هي الحال في الوقت الراهن، وبفضل جنكيز خان وسلالته ونسبه؛ لأنهم والمغول يعدون قبائل تركية متباينة كالجلاريين والتتار والأونغوتيين والكيريتيين والنايمانيين والتانغوتيين وخلافهم، التي يحمل كل منها اسمها وكنيتها الخاصة بها، وكل أعضاء القبائل المذكورة من أجل التفاخر سموا أنفسهم بالمغول على الرغم من أنهم في قديم الزمان لم يعترفوا بهذا الاسم إلى درجة أن خلفهم الخاليين يخيل إليهم أنهم منذ القدم ينتسبون لاسم المغول «ويسمون أنفسهم به»، وفي الواقع أن الأمر ليس كذلك، حيث إن المغول كانوا في القدم قبيلة واحدة من مجموعة القبائل التركية. [المصدر نفسه، ص١٠٢-١٠٣].

إن اسم التتار أصبح يطلق على القبائل التركية فقط «نتاجاً لقوتهم وجبروتهم»، لهذا السبب وإلى يومنا هذا . . . في مناطق القيرغيزيين والكيلاريين والبشكيريين في منطقة ديشت إكيبتشاك[٢] والنواحي الشمالية منها . . . كل القبائل تسمى بالتتار [المصدر نفسه، ص١٠٣].

كانت ميركيت أقوى قبيلة مغولية «من بطون القبائل المغولية»، «قبيلة . . . كثيرة العدد»، كان لها «جيش قوي وعارم» [المصدر نفسه، ص١١٤]. ذكرت

(١) من المعلوم جيداً أن رشيد الدين كان يسمي كل القبائل التتار المغولية «بالقبائل التركية، التي تعرف الآن بالقبائل المغولية».

(٢) أي جمهورية قازاخستان الحالية. المعرب.

ميركيت عدة مرات كقبيلة في شكل ميليتسزي في «لياو شي»، في الأعوام ١٠٩٣-١٠٩٦ قاد القائد الكيداني فوتيلا غزوة على ميركيت وهزمها، في ربيع ١٠٩٤ ترجى الحاكم الميركيتي خابولا أن ترد إليه الأراضي القديمة التي سلبها منه الكيدانيون مقدماً لهم الهدايا، وفي عام ١١٠٢ أيضاً تعرضت ميركيت للغزو الكيداني. [كوماي يوسياكي، ص٣٥٤]، عاشت قبيلة ميركيت في المجرى الأسفل لنهر أورخون وسيلينغ وعلى بورخان خالدون أيضاً، إن مؤلفي «يوان تشاو شي» يعدّون ميركيت من أوائل القادمين، و «تجري في عروقهم دماء أويغورية». [يوان تشاو شي، المجلد الأول، ص٢٢]. يعدّ ب. راتشنيفسكي أن جزءاً من ميركيت، بعد سقوط دولة لياو، ذهبوا غرباً مع بليوي داشي؛ لأنهم في عداد ثماني عشرة قبيلة، التي ساعدت هذا المحارب في استعادة السلطة للأسرة الكيدانية الحاكمة. [راتشنيفسكي، ص٥].

حسب رأي مؤلفي «يوان تشاو شي» أن أقوى قبيلة وسط القبائل المغولية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر قبيلة الكريت، التي عاشت إلى الجنوب من نهر كيرولين، وشرقاً حتى جبال خانغاي في الغرب، على طول المجرى الأسفل لنهري طولا وأورخون على الشمال حتى صحراء غربي على الجنوب، إن أماكن توقف الخان الكيريتي فان صيفاً كانت تقع على دالان دابا عند منابع أورخون، وعند بحيرة غوسي نور جنوباً من نهر طولا، أما في الشتاء فعلى نهر أونغين غول في منطقة مدينة أرباي خيري (في جمهورية منغوليا الشعبية). يرى رشيد الدين أن الكيريت يمثلون «أصل المغول»، كانوا من الأوائل من الشيواي الذين هاجروا غرباً ولعدة قرون عاشوا في جوار واختلاط مع الترك، ولذا تعرضوا لتأثير قوي من قبلهم، وبين الأعوام ١٠٩٢-١١٠٠ ورد في سيرة «لياو شي» ثورة الحاكم الكيريتي موغوصي (ماركوس) ضد الكيدانيين، إن أولوس الكيريت تمتع بجهاز دولة

متطور، واعتنق الكيريت المسيحية على المذهب النسترياني، عدّ راتشنيفسكي أن الكيريت بشكل ملحوظ قد زادت من قوتها بعد انهيار خاماغ منغول أولوس في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، إنه يعد الكيريت من البداية من الترك وليس من المغول (بيلة كيرية وسط القيرغيزين والكازاخستانيين). كانوا يعيشون قبل طردهم من نهر إرتيش وجبال ألطاي بين النايمانيين والقيرغيزين[1]، وبعد ذلك تراجع الكيريت إلى الشرق تحت وطأة ضغط النايمان، واتصلوا بالمغول، وسرعان ما صاروا مغولاً، كان الكيريت في عداء قديم مع النايمان والتتار، وجزء من المغول دخلوا معهم في تركيبة أولوس. [راتشنيفسكي، ص٣]. يؤكد ل. غامبيس أن التشورتشجينين كانوا دائماً يؤججون أوار الخلاف بين التتار والكيريت. [غامبيس، ٢. ١١-١٢].

قطن النايمان الجزء الغربي من منغوليا، [رشيد الدين. المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٣٧] يتحدثون عن الانتماء الاثني النايماني بشيء من الحذر: «كانوا في تقاليدهم وأدبهم أشبه بالمغول». في سيادة لياو وتسزين عرف النايمان باسم نانباغي ونانباسي، كانوا في عهد سيادة أسرة تسزين خاضعين لدولة قارة كيتاي الواقعة غرباً من لياو، إن منطقة ألطاي كانت مركز استيطان نايمان، تمتد مراعيهم في الغرب حتى إرتيش وأليا وأعالي نهر أوب، من الشمال كانوا يحدون القيرغيزيين، ومن الشرق يجاورهم الكيريت، أما في الجنوب فتنبسط حتى إرتيش الأسود، إن مؤلفي «يوان تشاو شي» مطوري فكرة «خان خولين» يفترضون أن النايمان من المحتمل أن يكونوا جزءاً من القيرغيزين الذين هاجروا إلى الجنوب بعد أسرة «تان». [يوان تشاو شي، المجلد الأول، ص٣٣]. يعتقد ب. راتشنيفسكي أيضاً أن النايمان من الترك. ويؤيدهم أن النايمان تسمية مغولية تركية «شكيز أفوز» (أي

(١) إن المؤرخ الصيني خان جولين يعدّ النايمان جزءاً من القبائل القيرغيزية.

«ثمانية أفرز»، ويقطنون في منطقة ألطاي بعد قضاء القيرغيزين على الكاتخان الأويغوري في عام ٨٤٠م. أبعد النايمان القيرغيزين إلى نهر ينيساي وأيضاً أزاحوا الكيريتيين أيضاً من ألتاي وإرتيش إلى الشرق [ب. راتشنيفسكي، ص٢]. وقع النايمان تحت وطأة التأثير الثقافي الأويغوري، إنهم ـ كما يرى الباحثون ـ كانوا يتمتعون بنظام دولة متطورة جداً، وسط المجموعات التي كانت تقطن مناطق ألطاي وخانخين، ويرد ذكر حاكمهم في مولف «لياو شي» قبل عام ١٠٩٧، ينسب العالم المنغولي المعاصر تشولوني دالاي النايمان «إلى القبائل المتجولة أويرات المغولية»، ويواصل كاتباً «أن النايمان العائشين في نهاية القرن الثامن عشر بجوار القبائل الأويغورية والتركية الأخرى الواقعين تحت التأثير الثقافي لهم، يبدو أنهم منذ القدم كانوا يستعملون حروف الهجاء المغولية الأويغورية، ولكننا نعتقد أنه ليست هنالك مسوغات تدعو للموافقة على نتائج الباحثين الذين يرون أن النايمان من أصول تركية أويغورية»، «أو أنها قبيلة مغولية تتحدث باللغات التركية»، وأبجدية ألفباء التي كانوا يستخدمونها «كانت كتابة أويغورية بحتة». [تشولوني دالاي، ص١٥١] والنايمان أيضاً كانوا مثل الكيريتيين يدينون بالمذهب المسيحي النسترياني.

على الأنهر الثمانية (أي سيكيزمورين) المكونة حوض نهر ينيساي عاش «أوي أرات» التي تعني «رجال الغابات»، وفي مرحلة صبا جنكيز خان ورجولته عاشوا بين نهري أنغارا وينيساي» يرى مؤلفو «يوان تشاو شي» أن القبائل الأربعة الويراتية الأساسية منذ القدم عاشت على المجرى الأعلى لنهر ينيساي، وعلى أعالي نهر أولوك كيم الحالي، رأيهم يثير التعجب؛ إذ كان قدماء القيرغيزين (الساغاسيون) في عهد يوان يسمون تسزيلي تسزيسي بينما كان المكان الذي عاش فيه الأويرات يسمى شيسي تسزيسي. [يوان تشاو شي، المجلد الأول، ص٢٤].

هذه معلومات عامة عن شعوب خالخي وألطاي في الأعوام التي سبقت توحيد منغولي، نود أن نختتمها مسترشدين بمؤلف «يوان تشاو شي»: «في الحقبة من القرن العاشر حتى الثالث عشر على الهضبة المغولية الواقعة شرق سلسلة جبال خانغاي إلى جبل خينغان الأكبر برزت إلى الوجود مساحة سكنتها القبائل الناطقة بالمغولية، إلا أن هجرتها إلى الغرب بلا شك جعلتها تضم في تركيبتها القبائل الناطقة باللغات التركية المتبقية في المكان نفسه، وهذا أثر بشكل فعال في اللغة المغولية والعادات والمنظومة الإدارية، وأدى بدوره أيضاً إلى تحولات عميقة عند المغول» [يوان تشاو شي، المجلد الأرل، ص٣٢].

حظيت هذه المعلومات بالاعتراف العلمي في غضون عشرين السنة.



نجد الإشارة إلى المغول في عهد لياو ١١٨٠ في المصدر «تسيدان غوتشجي» بي لون لي، حيث يقول: «شمالاً تمتد الأراضي الكيدانية حتى الممتلكات المنغولية، لا يوجد على هذه الأراضي حاكم يدير شؤون الشعب، والسكان لا يمارسون فلاحة الأرض، بينما يمثل نشاطهم الأساسي الصيد، ولا يقيمون بصفة دائمة في مكان واحد، بل يتجولون على حسب فصول السنة الأربعة سعياً وراء الماء والكلأ الجيد، وغذاؤهم من اللحم ولبن الخيل المتخثر، إنهم لا يتحاربون مع الكيدانيين، بل يتاجرون معهم بالسلع المصنوعة من الجلود وشعر الأبقار والخيل والجمال». [بي لون لي، ص٣٠٥]. إن الباحثين الصينيين لا يتوانون في أن ينسبوا لأنفسهم التطور السريع ونجاحات المغول في القرن الثاني عشر، وخير مثال في هذا الصدد النص الآتي: «منذ قيادة تيان تسزيوان (١١٣٨-١١٤٠) بدأ المغول امتعاضهم، فلذا أرسل عليهم القائد العام تسزون بي جيوشه عدة مرات، ولكنه لم يتمكن من

إخضاعهم، وحينها وزع جيوشه التي سيطرت على المواقع الاستراتيجية الأكثر أهمية، ومن جانب آخر أسبغوا عليهم العطايا الثمينة، وسمي والي ولايتهم تسزويون خواندي، أي بمعنى "الإمبراطور مؤسس الأسرة الحاكمة". كانوا يثيرون الشغب على الحدود، فإذا أهدي إليهم الشباب والفتيات حجار اليشب والدباج، فإنهم يتذكرون واجباتهم المنزلية ثم يسحبون قواتهم عائدين، وبما أنهم كانوا يهجمون على مملكة تسزين فإنهم كانوا يسبون ويختطفون الفتيات والأطفال الصينيين والكيدانيين ويجعلون من [الفتيات] زوجات وخليلات. منذ تلك الأزمنة أصبح الأبناء المولودون [من هذه الزيجات والعلاقات] لا يشبهون المغول بتاتاً، وتدريجياً صار [المغول] يأكلون الطعام المسلوق، وعند مجيئهم لحاشية الحاكم كانوا يسمون دولتهم دا مينغو غو، أي دولة المغول العظماء، (مقتبس من [كوماي يوسياكي، ص٣٣١]. في هذه الحالة، وبناء على ما ورد سابقاً، نصادف الفكرة الصينية عن دور الزيجات المختلطة في انصهار الغرباء.

إن المعلومات عن حياة المغول في القرن الثاني عشر وما قبله شحيحة، فإذا لم يتسنَّ لنا الأمر بشكل فاحص فدعونا ننظر إلى حياتهم في النصف الأول من القرن الثالث عشر بأعين معاصريهم، مثل: القس الدواسي تشان تشون، الذي حاول جنكيز خان الحصول منه على سر الخلود، كذلك الدبلوماسيون الصينيون أمثال تشان تشون الذي زار منغوليا في الأعوام ١٢٢٠-١٢٢٤، وتشجاو خون السوني في عام ١٢٢١، وكذلك الدبلوماسي السوني بان دايا ١٢٣٣، والدبلوماسي سوي تين في الأعوام ١٢٣٥-١٢٣٦، والدبلوماسي السوني تشجان ديخوي في عام ١٢٤٨، وكذلك الروس والأوروبيون مثل القس الإيطالي بلانو كاربيني، الذي زار منغوليا في الأعوام ١٢٤٦-١٢٤٧، والقس المينوريتي الفلاماندي غيليوم روبروك في الأعوام ١٢٥٣-١٢٥٥ المرسل من قبل الملك الفرنسي لويس التاسع، وكذلك

زارهم أيضاً عطا مالك جويني الفارسي ابن أحد حاشية قصر خراسان، الذي حضر برفقة والده لانتخاب الخان الجديد في عام ١٢٥١، وأخيراً ابن الرحالة الشهير ماركو بولو التاجر من البندقية في عام ١٢٤٧.

زار كل هذا الحشد العظيم منغوليا وكتب عنها في أوج مجدها وجبروتها، وبهذا فإنهم ومعاصروهم فقط من الذين كتبوا عن حياة المغول نقلاً عن الآخرين، واحتكوا بهم كغزاة فاتحين، فشاهدوا هذه البلاد عن كثب كما كانت في سنوات شباب تيموتشجين، فتحت أبواب عالم جديد، «عالم مجهول وغريب»، كل منهم تطلع إلى أن يعكس ما رآه لأبناء جلدته (وطنه)، لكنهم كلهم حسب وجهة نظره الخاصة اتفقوا على إقناع الآخرين، مثل بلانو كاريبيني «الواجب عليكم التصديق من أجل منفعتكم وأن تأخذوا حذركم مما نكتب، لأن في هذا أكثر أمناً لكم، وما نكتبه شاهدناه بأم أعيننا، متجولين لديهم، أو معهم، أو منغمسين في بيئتهم». [الرحلات، ص٢٤].

جذبت منغوليا خيال الغرباء الوافدين إليها. كتب تشان تشون: «بقدر ما جال البصر لا ترى حداً للجبال والأنهر، الريح والضباب لا ينقطعان، والأنهر دائمة الجريان، لأي سبب سطر الخالق عند صنعه الكون على هؤلاء البشر بأن يرعوا البقر والخيول؟» [سي يوي تسزي، ص٢٨٩]. وكتب جويني أن «بيت التتار، ومنشأهم ومكان ميلادهم واد عملاق أبعاده سبعة أو ثمانية أشهر من المسير طولاً وعرضاً، شرق هذا الوادي يحد أرض الصين، وفي الغرب الإيغور، شمالاً القيرغيزيين ونهر سيلينغا، وفي الجنوب التانغوت والتبتيين». [جويني، المجلد الأول، ص٢١-٢٢].

قسم الجيران المغول إلى سكان الغابات وسكان السهوب إلى بيض وسود أيضاً أو متوحشين، سكن الأجزاء الشمالية لسكن القبائل المغولية السيان الشرقية

وسلسلة تانو أولا وألطاي الجنوبي ما يسمى بقبائل الغابات، ومارسوا الصيد واصطياد السمك، عاشوا في عشش من لحاء شجرة البتولا والأشجار الأخرى، وروضوا الحيوانات المتوحشة وبخاصة الأيائل الآسيوية، متغذين من لحومها وألبانها، واستخدموها وسيلة لنقل متاعهم داخل الغابات، وكذلك كانوا يستخدمون الخيول، أما في الشتاء فكانوا يصطادون على الزلاقات الجليدية ويخيطون الملابس من جلود الحيوانات، وقضوا على كثير من السمامير والسناجب التي يشتهر إقليمهم بكثرتها.

يمكن تصنيف كثير من المغول كرجال غابات تبعاً لنمط حياتهم وطرق إدارتهم في مناطق شمال منغوليا قبل انتقالهم إلى نظام الرعي.

كانت أعالي نهر أنون وكيرولين وطولاً في سنوات شباب تيموتشجين جبلية وكثيفة الغابات، ولكن في هذا الوقت عاشت قبائل الغابات على الأطراف الشمالية البعيدة، ولم يلعبوا دوراً ذا أهمية في الأحداث العاصفة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، هذه الأحداث تصاعدت ونضجت في السهوب الفسيحة، حيث عاشت القبائل السهوبية والكتلة الرئيسة للقبائل التتار المغولية التي مارست رعي الماشية.

قسم الصينيون التتار المغول إلى بيض وسود أو متوحشين، التتار البيض (الأونغوتيون) تنقلوا على طول سور الصين العظيم، ممارسين الرعي، وكانوا بيضاً لأنهم بشكل ملحوظ تشربوا بمنجزات الحضارة الصينية، بينما عاش التتار المغول السود في أواسط منغوليا. كتب تشجاو خون «الذين أسموهم بالتتار المتوحشين عاشوا حياة فقيرة جداً وإضافة إلى كونهم بدائيين لا يحظون بأي مواهب [والشيء الوحيد الذي يجيدونه الركوب على ظهور خيولهم يتبعون الآخرين». [التدوين

الكامل، ص٤٨]. «إن جنكيز خان الحالي وكذلك قواده ووزراؤه وأصحاب الرتب ما هم إلا تتار سود [المصدر نفسه، ص٤٩].

أذهل مظهر المغول الخارجي كل الرحالة وبخاصة الأوروبيون، كتب بلانو كاربيني: «مظهر الوجه الخارجي يختلف عن البشر كافة، تحديداً ما بين العينين وما بين الخدين أوسع عما هو عند سائر الناس، الخدود تبرز بشكل ملحوظ عن عظام الوجنة، الأنف مفلطح وصغير، العيون صغيرة، الأهداب مرفوعة حتى الحاجبين، في الخصر عموماً نحافة ما عدا القلة النادرة، فجميعهم تقريباً غير طوال القامة، اللحية عندهم تنمو صغيرة جداً، عند بعضهم تنمو شعيرات قصيرة على الشفة العليا واللحية التي لا يحلقونها، ويضفرون شعر الرأس جديلتين ويعقدون كل واحدة منهما خلف الأذن، وأيضاً الأرجل عندهم ليست بالكبيرة». [الرحلات، ص٢٦].

أخبرنا ألبيريك (المتوفى في عام ١٢٤١). أن «الرأس عندهم كبير والعنق قصير والصدر عريض جداً، والأيادي كبيرة، والأرجل صغيرة، ولديهم قوة مدهشة، ليست لديهم عقيدة، إنهم لا يهابون أي شيء، ولا يؤمنون بأي شيء، ولا يقدسون شيئاً، وملكهم يسمى ملك الملوك» [المصدر نفسه، ص٤]. حسب أقوال المؤلف الأرمني أنهم عريضو المنكبين ذوو أيدي مفتولة العضلات، كبيرو الرؤوس، ذوو شعور ناعمة شعثاء، ضيقو الأعين، عريضو الجباه، مسطحو الأنوف، خفيفو اللحى، أما علاقاتهم مع البشر فأشد قسوة من الحيوانات المتوحشة، واسمهم الحقيقي كان قاراتتار» [المصادر الأرمنية، ص٤٤]. كتب تشجاو خون أن «التتار في أغلب الأحيان ليسوا طوال القامة، وطولهم لا يتعدى خمسة أقدام وبوصتين أو ثلاث بوصات، لا يوجد بينهم السمين أو الممتلئ، عريضو الأوجه، وكبيرو الوجنات، العيون بلا أهداب عليا، واللحى خفيفة جداً، المظهر الخارجي ليس

بالجميل إلى حدّ بعيد». [التدوين الكامل، ص٤٨]. وبهذا فإن طول قامة المغول ـ حسب رواية تشجاو خون ـ يتراوح ما بين ١٦٢-١٦٥ سم.

ينبغي أن نتوقف بصورة خاصة على طريقة تصفيف شعر قدماء المغول من الرجال «إنهم يحلقون رؤوسهم تاركين ثلاث نواصي . . . عندما تنمو النواصي التي بالمقدمة قليلاً فإنهم يشذبونها قليلاً، أما الاثنتان الأخريان فيربطونهما على شكل حزام، ويسدلونهما على الأكتاف» [المصدر نفسه، ص٧٥]. كتب تشان تشون «الرجال يجدلون شعرهم ويسدلونه حتى أذانهم». يذكر مصدر صيني آخر: «أنهم يحلقون دائرة يافوخهم وما تبقى في الأمام من الشعر يقص قصيراً ويهدل بغير ترتيب، ولكن الشعر على كلا جانبي الرأس يقسمونه على عقدتين منسدلتين حتى الملابس من اليمين والشمال، وبعضهم يجمع الشعر من كلا الجهتين في جديلة واحدة مسدولة فوق الملابس مباشرة». أما في «كوريو سا» (أي «تاريخ دولة كوريو») فوصفت تصفيفة الشعر عند المغول كما يأتي: «عند المغول عادة حلاقة اليافوخ حتى الجبهة». [المصدر نفسه، ص٧٦].

يخبرنا ن. ت. مونكويف أن الشعر المسدل على الجبين يسمى كيغيول، والحزم المتدلية من على جانبي الرأس تسمى شيبيلغير، ويرى أن هذا النوع من تصفيف الشعر مارسه رجال المغول القدماء، ويرجع «لسكان سيبيريا القديمة» [المصدر نفسه، ص١٨٦]. بينما في الواقع ليس الأمر كذلك، يحتمل أن وا من شعوب سيبيريا مارس هذا النوع من تصفيف الشعر بعد العهد الكيداني خاصة، ولكن من الواضح أن هذا النوع من التصفيف قد آل إليهم من الكيدانيين، من المعروف أن هذه الطريقة لتصفيف الشعر المسماة عند الصينيين «توفا»؛ أي الرأس المحلوق من أعلاه وقفاه والخصل المتروكة والجديلتين المتروكتين بالأطراف غالباً من الأصداغ مارسها الكيدانيون، يوجد كثير من النقوش الكيدانية على هذه الشاكلة في

ضرائح الأباطرة الكيدانيين خاصة، التي تعد المصادر الأولية لهذه النقوش الملونة، اقتبس تانغوت دولة سي سيا هذا النوع من التصفيف من الكيدانيين وأدخله يوان خاو إمبراطور التانغوت في عام ١٠٣٦ كتصفيفة شعر حكومية، ويمكننا القول أيضاً مع التأكيد إن المغول أيضاً اقتبسوا هذا التصفيف من الكيدانيين، أما التغيير الذي صاحب الضفيرة فيعد من تأثير تشجورتشجيني؛ لأن الضفيرة كانت زينة الرجال التشورتشجينيين، في عهد أسرة تسين المانتشجوريون تزين بها أنسالهم، وفرضت على كل الصينيين أيضاً حيث أصبح الشكل الموحد لتصفيف الشعر ذا مغزى حكومي، ويعني الولاء والخضوع للسلطة، إذ لم يتزين المغول قبل توحيد منغوليا بتصفيفة «توفا»، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن جنكيز خان فرضها كإجراء يؤدي إلى توحيد وخضوع وفرض هوية واحدة لكل البلاد.

يستعرض تشان تشون، كواحد من أوائل من زاروا منغوليا، انطباعاته في كتاب «يوميات رحالة» فيقول: «السكان كثيرون بشكل ملحوظ، ولكنهم يعيشون في مركبات سوداء، وخيام شعر بيضاء، رعي الماشية وصيد الوحوش واحد من عملهم العادي، يرتدون ملابس من الجلود والفرو، أكلهم مكون من اللحم واللبن . . . السكان يتنقلون من مكان لآخر جرياً وراء الماء والكلأ للرعي» [سي يوي تسزي، ص٢٨٨-٢٨٦]. أكتب فيما بعد تشجان ديخوي «أن المغول عامة مع حلول الصيف ينتقلون إلى الأماكن العالية والباردة، أما عند قدوم الشتاء فيرحلون إلى أماكن أكثر دفئاً، مكشوفة عند منتصف النهار، حيث يمكن بسهولة الحصول على الماء والوقود، بعد انقضاء هذه الفصول ينتقلون من مكان إلى آخر، اليوم يسيرون وغداً يتوقفون، حيث الماء والعشب، هذه حوائج وعادات البلد». [تشجان ديخوي، ص٥٨٦]. «الأراضي غنية بالماء والكلأ وطيبة لرعي الخراف والخيل [التدوين الكامل، ص٦٨]. تحدد الظروف الطبيعية للمنطقة وحجم القطيع

البعد الأقصى لمسارهم، ولم يعتد المغول على تخزين العشب للشتاء، ولكنهم كانوا يحاولون قدر جهدهم العيش في مكان يغطيه جليد خفيف حيث تتمكن الماشية من أن تطعم نفسها بنفسها بالأعشاب النامية في حقولها.

تقدم خيمة الشعر عند المغول على البيت سواء أكانت مقامة على الأرض أو على مركبة، فلننظر ما كتب بلانو كاربيني عن الخيمة المغولية: «الدعائم مصنوعة على شكل دائري، كما تصنع الخيمة العادية، وهي معدة من الأغصان والأعواد الرقيقة، في منتصفها الأعلى توجد نافذة مستديرة، عبرها يسقط الضوء، وأيضاً يخرج الدخان؛ لأن النار توقد دائماً في وسط الخيمة، الحيطان والسقف مكسوة باللباد، وأيضاً الأبواب مصنوعة منه». [الرحلات، ص٢٧].

وفق معلومات تشان تشون الهيكل الخشبي (الدعائم) لخيمة الشعر تصنع في العادة من خشب الصفصاف [سي يوي تسزي، ص٢٨٨]. خيام المغول موضوعة على المركبات (بيروت على عجلات) كتب عنها بشكل جيد غ. روبروك قائلاً: «البيت الذي ينامون فيه يضعونه على عجلات مصنوعة من الأغصان المضفورة، أعمدته تصنع من الأغصان المتجهة إلى أعلى مكونة في أعلاها دائرة صغيرة، ومنها تخرج مدخنة الموقد على شكل عنق، وتغطى بلباد أبيض، وغالباً يشبع اللباد بالجير المطفأ، أو التراب الأبيض، ومسحوق العظام، وذلك لكي يلمع بشدة، وأحياناً يستعملون اللباد الأسود، يزينونه برسوم جميلة ومتنوعة، أما عند المدخل فيعلقون لباداً متنوع النسيج مرقش، يقومون بحياكته مكونين فيه دوال عنبية وشجرية، طيور وحيوانات، إنهم يصنعون بيوتاً كبيرة إلى درجة أنها تبلغ ثلاثين قدماً في العرض . . . ويقول: لقد عددت في إحدى المركبات اثنين وعشرين ثوراً يجرون بيتاً، أحد عشر في صف، وأحد عشر أمامهم، ومحور المركبة كان بحجم سارية المركب الشراعي، وشخص واقف بباب البيت يهش الثيران [الرحلات، ص٩١]. يخبرنا

ماركو بولو أن هذه الخيام القائمة على المركبات تحمي المغول من رداءة الطقس بشكل آمن «المركبات مغطاة بلباد أسود بشكل جيد إلى درجة أن المطر لو استمر هطوله طوال اليوم ما استطاع أن يبلل شيئاً في داخلها، ويشدونها بالثيران المخصية والجمال، ويركب عليها النساء والأطفال» [ماركو بولو، ص٨٨]. تفكيك الخيام وإعادة نصب غير المشيدة على المركبات من صميم عمل النساء فقط، تنصب في كل مكان جديد ودائماً تكون مداخلها متجهة نحو الجنوب، في حالة السير تسير القافلة صفوفاً من خمس مركبات.

الخيام المغولية القديمة تختلف عن الحديثة، أما الخيام المقامة على العجلات (المركبات) فلا يستعملونها حالياً بتاتاً، لا يوجد في منغوليا الحديثة النوع القديم من الخيام ذات الرقبة، ولكن يوجد عند المغول الأفغانيين الخازاريين، وأيضاً في أورودوس وإيدجين خورو، حيث مات جنكيز خان، وتم تشييد ضريحه من خيام اللباد، ترى ل. ل. فيكتوروفا أن الفرق بين خيام الترك والخيام المغولية في أن سقوف خيام الترك قبابية، أما المغولية فمخروطية، ومداخل خيامهم شرقية أما المغول فجنوبية [فيكتوروفا، ص٥١-٥٤]. إن الاختلافات الأخيرة لا يمكن أن تكون نهائية، وذلك لأن للمغول القدماء وجهتي الشرق والجنوب، وذلك لأن يدهم اليمنى تعني الجنوب والغرب، أما اليسرى فتعني الشمال والشرق.

عندما يتوقف المغول في أثناء ترحالهم كانوا يضعون خيامهم على شكل دائري، مكونين معسكراً؛ أي «كورين» تتوسطه خيمة (يورتا) زعيمهم. يمثل المعسكر (أي كورين) حماية قوية من الهجمات المباغتة للأعداء، ولكن ملاك القطعان الكبيرة يستحسن لهم أن يرعوا أنعامهم، وينتقلون إلى المراتع الجيدة بشكل منفصل، لذلك كان بإمكانهم أن يعيشوا مع المعسكر، ويترحلوا معه، بحكم الرابطة التي تجمعهم على شكل علاقات أسرية أولية أو «ثانوية». إن الماشية ترعى

بشكل منفصل، والأسر متجمعة في المعسكر، حسب رأي فلاديمير تسوف: «إن اتحاد العلاقات الاقتصادية التي عمادها المعسكر مع الأسرة أصبحت عند المغول في القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر أمثل علاقة» [التركيبة الاجتماعية، ص٣٧-٣٨]. ثم بدأ عصر انحلال المعسكر (كورين) مؤخراً بانفصال العائلة عن المعسكر، وبعد أن تكونت الدولة المغولية الموحدة بدأ نظام المعسكر (كورين) يمثل وسيلة اجتماعية للعيش في الخفاء، مع العلم أن نظام المعسكر (كورين) كان يوفر الأمان.

وفقاً لقوانين التانغوت في القرن الثاني عشر الميلادي؛ أي في عهد شباب جنكيز خان، لم يكن لدى الفرد المترحل مع الجماعة أو المحسوب عليهم أن يتركهم، فإذا تركهم أصبح من غير حماية، فيتعرض للنهب، وبذلك يتحمل عقوبة جنائية لتركه إياهم.

بقي المعسكر (كورين) وقتاً طويلاً عند المغول نظاماً لتوزيع الجنود خلال الراحة والمبيت.

كانت المراعي الصيفية والشتوية لكل قبيلة محددة، وفي داخل القبيلة الواحدة أيضاً محددة الأفخاذ والبطون. إذا كانت الماشية مملوكة للعائلة فإن المرعى يستعمل بشكل جماعي، وتمثلت أحقية ملكية أي مجموعة للمرعى في اعتراف المجموعات الأخرى بهذه الحقوق، وليس في وضع المجموعة يدها عليه. نظم رؤساء هذه المجموعات تنقل الأشخاص الذين يخضعون لهم.

قام المغول بتربية الخيول والأبقار والثيران والأغنام والضأن، وبقدر أقل الجمال. وفرة الماشية التي وجدها المعاصرون عند الرعاة المترحلين قد بهرتهم. كتب بلانو كاربيني أنهم «أغنياء جداً بالمواشي، من جمال وثيران وخراف وأبقار وخيول ودواب الحمل عندهم، ولا يوجد لها مثيل في العالم» [الرحلات، ص٢٨].

«ولذلك فإن الشخص الذي يمتلك في بلادهم حصاناً واحداً لديه ستة أو سبعة خراف تبعاً لما يملك، فإذا كان الفرد يملك مائة حصان، فلا بد أن يكون لديه قطيع من ستمائة أو سبعمائة من الخراف» [التدوين الكامل، ص٦٩]. «الرجال والنساء مع بعض يرعون الشياه والأغنام وأحياناً يحلبها الرجال وأخرى النساء» [الرحلات، ص١٠١]. يضيف ماركو بولو إلى هذه المعلومات أن «الشيخ، أو من يملك كثيراً من الماشية، يسم الخيل والأفراس والجمال والثيران والأبقار والماشية كافة بعلامته، وبهذا الوسم يطلقها للرعي من غير حراسة في السهول والجبال، فإذا ما اختلفت الماشية فإنهم يعطونها لصاحب العلامة الذي ترعى أغنامه وشياهه. الماشية عندهم سمينة وفخمة وممتازة». [ماركو بولو، ص٩١]. الوسم أو الدمغة (تامغا) الذي يوسم بها الحيوان تعدّ العلامة الشاهدة على الحق في تملكه.

أثارت قوة تحمل الخيول المغولية وسلاسة قيادتها إعجاب المعاصرين، كتب تشجاو خون يقول: «إن الخيول في عامها الثاني أو الثالث تروض بقوة وتدرب في السهول، ثم تترك لتنمو ثلاثة أعوام، وبعد ذلك يعيدون تدريبها مرة أخرى»، الخيول عندهم لا تصهل ولا تهرب «لا يطعمونها خلال اليوم الحشيش الجاف، ولكن يطلقونها في الليل للمرعى . . . وعند الفجر يسرجونها للسير . . . وكلما تأهب التتار للمسير يأخذ معه عدة خيول يركبها بالتناوب كل يوم، ولهذا فإن الخيول لا تنهك» [التدوين الكامل، ص٦٨-٦٩]. كما قال قدماء المغول: «إذا لم يكن بالإمكان ركوب الخيل والرمي من القوس، فليست هناك متعة أخرى»، استعمل المغول الأفراس الخصيّة للركوب في أكثر الأحوال.

الحرفة الثانية عند المغول بعد الرعي هي الصيد المغولي، حسب تعريف ب. فلاديميرتسوف «راعٍ متنقل وصياد». الصيد يعدّ وسيلة بقاء ومدرسة جيدة للفروسية، «التتار يولدون وينشؤون على سرج الخيل، ويعلمون أنفسهم بأنفسهم

فنون القتال، من الربيع حتى الشتاء يطاردون ويصطادون، وهذه تعدّ وسيلة للبقاء، وذلك لأنه ليس لديهم قوات مشاة، فكلهم فرسان أو قوات خيالة» [التدوين الكامل، ص٦٦-٦٧]. وبجانب الصيد العادي الفردي كانوا يقومون بصيد المطاردة الذي يشارك فيه العديد من العائلات والكورين، ومن عاداتهم الرمي بالأقواس والصيد، وعندما يقوم الحاكم بصيد المطاردة فلا بد أن يجتمع عدد كبير من الناس، إنهم يحفرون حفراً ويدفنون فيها أوتاداً متصلة مع بعضها بحبال من الشعر، وعلى الحبال يربطون قصاصات من اللباد والريش، الحبال تمتد في دائرة بمسافة ١٠٠-٢٠٠ لي (٥٠-١٠٠ كم) وبما أن الرياح تحرّك قصاصات اللباد والريش لا تجرؤ الحيوانات الخائفة على العبور، وبعد هذا يأخذون في إحاطة المسافة الكبيرة، ويأخذون في تضييق الخناق على الحيوانات، دافعين بها نحو قلب الدائرة؛ ليمسكوا بها» [بين دا يا، سيوي تين، ص١٣٩-١٤٠].

من المعروف جيداً أن الرعي المتنقل بشكل خالص عملياً لا يعرفونه، ولكنهم عرفوا فلاحة الأرض أيضاً «في دولتهم يوجد مكانان أو ثلاثة ينمو فيها دخن أسود لزج يصنعون منه العصيدة» [التدوين الكامل، ص٦٩-٧٠]. يورد المعلقون الصينيون، بناء على مقطوعة من مؤلفات تشجاو خون، معلومات من مصادر أخرى عن شعوب تمت بصلة القربى لهم، وتقوم «بطبخ العصيدة في أوعية ذات قعر مسطح، ويشربونها بإضافة الماء البارد» [المصدر نفسه، ص٧٠].

يقوم الرجال والنساء في العائلة المغولية بأعمالهم، «الرجال يصنعون الأقواس والسهام، ويعدون الركاب واللجيمات ويصنعون السروج، ويبنون البيوت والمركبات، ويقومون بحراسة الخيول وحلب الإناث، ويخضضون (الكوميس) أي لبن الخيل الرائب، يصنعون وعاء يحفظون فيها الروب، ويقومون بحراسة الجمال ويحملونها بهذه الأوعية»، «أما مهام النساء فتتلخص في قيادة المركبات وتحميلها

بالبيوت وإنزالها، وحلب البقر وتحضير السمن والغورت (اللبن المجفف)، وإعداد الجلود وحياكتها بخيوط العصب» [الرحلات، ص١٠١]. «يقدمون على المسير آخذين معهم الأطفال والنساء، وهم يقولون إن النساء مهمات للاهتمام بأشياء مثل المتاع والملابس والنقود والأغراض الأخرى. ونساؤهم يقمن بشد الخيام اللبادية وتركيبها ويستقبلن أحمال خيول الركوب لإنزالها وإخراجها وأشياء أخرى، إنهن موهوبات في ركوب الخيل» [التدريس الكامل، ص٧٩-٨٠]. كل الباحثين في عادات المجتمع المغولي القديم يؤكدون على أن النساء يتمتعن باستقلالية وبمكانة عالية في المجتمع. اعتمد المغولي القديم على الماشية والصيد اللذين وفرا له الأكل والشرب والكساء «المغولي الصائد والراعي المتجول»، ومن جلود الحيوانات خاط المغول لأنفسهم الملابس كالقمصان والسراويل الجلدية والمعاطف، حسب أقوال غ. روبروك: «الأغنياء يبطنون لأنفسهم الملابس بنسيج ناعم جداً، خفيف ودافئ، أما الفقراء فيبطنونها بالصوف الخشن» [الرحلات، ص٩٩]. ولكن يبدو أن هذه الدلائل نعكس حقباً أكثر حداثة بعد أن ظهر عند المغول كثير من المنسوجات عقب فتوحاتهم. إن ملابس المغول الشتوية أكثر قرباً، إن صح التعبير، لأسلافهم. يخبرنا غ. روبروك «أنهم يقومون بصنع ردائين على الأقل، أحدهم يصنع بحيث يكون الصوف للداخل والآخر للخارج، مواجهاً الريح والثلوج، وغالبية المعاطف الفرائية تحاك من جلود الذئاب والثعالب، أما معاطف الفقراء فتحاك من جلود الكلاب والأغنام» [الرحلات، ص٩٨-٩٩]. يقول تشجاو خون إن «المغول لا ينزعون ملابسهم ولا يغسلونها حتى تهترئ» [التدوين الكامل، ص٧٥]. ويضيف غ. روبروك على ما يبدو قائلاً: «إنهم [يعتقدون] لو نشروها (أي الملابس. تعليق المؤلف) لتجف فالرب يغضب وسيأتي الرعد» [الرحلات، ص١٠١].

تصنع الأغطية الواقية من المطر والقبعات من اللباد، حسب إعادة التصميم الذي قام به الباحثون الإثنوغرافيون للزي الأساسي للمغول القدماء، كان رداءاً بدون خياطة على الكتف، ويلفح على الجانب الأيمن. تميز شعوب المغول القدماء لمنطقة آسيا الوسطى أيضاً بلفحة الرداء، أما عند المغول والشعوب التونغوسية المانتشجورية يلفح الرداء الأعلى على اليمين، والشعوب التركية يلفحونه على الأيسر، ويحزم بحزام خفيف، كتب بين دا يا واصفاً ألبسة المغول في عام ١٢٣٣ «إن عراهم في الجزء الأعلى يلفح على اليمين، والجوانب مربعة، حاكوها سابقاً من الجوخ الرديء والجلد، أما حالياً فتحاك من النسيج والحرير، اللون يختارونه أحمر وبنفسجياً وأرجوانياً وأخضر، رسومات هذه الأنسجة تعكس الشمس والقمر والتنين وطائر الفضاء»، «وبخلاف هذا يفتل التتار شريطاً أحمر وبنفسجياً من الحرير ويحزمون به القميص حول الخصر ويسمونه حزام». [بين دا يا سيوي تين، ص١٤٠].

حملت الأحذية عند الرجال والنساء التفصيلة نفسها، ولكن اختلفت في المقاس والتزيين فقط. الحذاء المغولي كان مهيئاً لركوب الخيل، ساقي الحذاء كانت ذات مقياس واحد في الجزء العلوي والسفلي، وتقص من جزئين، وتقص أيضاً ابطتان اللتان تحاطان بشكل محكم على الساقين، كل هذه الأجزاء تثبت على قاعدة سميكة مفروشة بطبقة من اللباد، أما أنف الحذاء فرقيق ومرفوع إلى أعلى.

إننا لا نزال لا نملك صورة واضحة عن لباس الرأس عند قدماء المغول، يورد غ. روبروك ذكر أغطية الرأس من اللباد، المتزوجات من النساء يلبسن غطاء رأس خاصاً (بوغتات)، هيكل الغطاء مصنوع من السلك «ويزينونه بتطريز بارز بني غامق أو باللآلئ والذهب، يعلوه، أي غطاء الرأس، (بوغتات. تعليق المؤلف) ذوائب راية رأسية تزينها قطعة من الجوخ البني الغامق» [التدوين الكامل، ص٨٠]. حسب

رأي تشان تشون «هذه الذوائب تشبه في مظهرها الإوز أو البط، وتسمى غوغو، فإنهم يتخوفون من أن يصطدم أحدهم عرضاً بغطاء رأسه، ولذلك عند دخولهم أو خروجهم من الخيام راجعين بمؤخراتهم وحانين رؤوسهم». [سي يواي تسزي، ص٢٨٨-٢٨٩].

يبدو أنه من ضمن ملابس النساء الزاهية يمكن أن يضاف قميص بأكمام كبيرة، وهو أقرب ما يكون للمناسبات من أن يكون لباساً عادياً. وحسب معلومات تشيجاو خون يوجد للنساء أيضاً قميص ذو أكمام كبيرة مثل الرداء الصيني المحشو بالريش، عريض وطويل، وتجر أذياله على الأرض، وعندما تسير المرأة يكون بصحبتها خادمان يمسكان ذيل ثوبها» [التدوين الكامل، ص٨١] ترى ل. ل. فيكتوروفا، التي بحثت نصباً من الغرانيت الأغبر في مركز خالخين غول، الذي يرجع تاريخه إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، أن غطاء الرأس الخاص بالمناسبات عند الرجال «قبعة ذات حواف صغيرة، مائلات للأسفل قليلاً، وأعلاها أسطواني، تثبت من الخلف على اليافوخ شرائط من الحرير متدلية على الظهر» [فيكتوروفا، ص٣٩-٤٠].

تغذى المغول القدماء باللحم ولبن الخيل المتخثر (كوميس)، «اللحم يشوونه على النار في تسع حالات من العشر، وفي حالتين أو ثلاث في دنان ذات أرجل ثلاثة» [بين دا يا، سيوي تين، ص١٣٩]. «يشربون لبن الأفراس إذا كان لديهم بكميات كبيرة، وكذلك يشربون لبن الشياه والأبقار والجمال، أما في الشتاء فينعدم لبن الأفراس إذا لم يكونوا من الأغنياء، إنهم أيضاً يسلقون الدخن مع الماء ويسحقونه إلى درجة أنه يمكن شربه عوضاً عن أكله؛ أي إنّ كلا منهم يشرب في الصباح قدحاً أو اثنين، أما خلال اليوم فلا يأكلون شيئاً، وفي المساء يمنح كل منهم

قليلاً من اللحم والمرق، أما في الصيف، لو توفر لبن[1] الخيل، فمن النادر أن يأكلوا اللحم، إلا إذا جاءهم هدية أو أمسكوا بحيوان أو طائر في الصيد» [الرحلات، ص٣٦] «وهم أيضاً شديدو التحمل، ففي حالة الجوع يصبرون يوماً أو يومين دون تعاطي أي شيء، ولا تبدو عليهم مظاهر التبرم» [المصدر نفسه، ص٣٤]. «عندما يسافرون في حملاتهم التأديبية إلى دولة التتار الوسطى يأكلون الشياه التي في طريقهم وكل ما يصطادون من الأرانب والخنازير بغرض الأكل» [التدوين الكامل، ص٦٩]. «أحكي لكم يا أصحابي أنّ الأمر يتطلب العدو على ظهور الخيل عشرة أيام دون أكل وإيقاد نار، يتغذون من دماء خيولهم بوخز عرق الحصان ثم يشربون دمه» [ماركو بولو، ص٩١]. يعدّ اقتسام المائدة مع ابن السبيل من الأشياء الطبيعية عند المغول، «وعندما يحين موعد الغداء فإنهم (المغول العابرين. تعليق المؤلف) يجلسون بلا حرج مع صاحب المائدة». [سي يوي تسزي، ص٢٨٩]. يقول تشان تشون: إن هذه العادة كلفت والد تيموتشجين إيسوغاي حياته.

من المحتمل أنه في غابر الأزمان حمل الطعام رمزية الألوان والتعددية النوعية، فالأكل الأبيض هو اللبن ومشتقاته، أو الأصفر الدهون، والأحمر اللحم ومشتقاته، والأخضر جذور النباتات البرية والأعشاب والبصل وغيره، أما الأسود فحساء اللحم والماء، ويضاف إليها الشاي دون حليب، دم الحيوان يعد مأوى الروح، فالماشية عند ذبحها لا يتركون الدم يسفح منها، وذلك عن طريق فتحة أسفل الصدر وإدخال اليد عبرها، وبالإبهام المعقوف تقطع الشرايين، إذا لم تتم إراقة دم الحيوان فهذا يعني أنه نائم، «فإذا كان الحيوان نائماً مؤقتاً ينتقل إلى العالم

---

(١) كما أخبرنا الباحث تشجاو خون «أن لبن المهرة الواحدة يكفي لإشباع ثلاثة أشخاص». [التدوين الكامل، ص٦٩].

غير المرئي، ولكنه عالم حقيقي، وفيما بعد يمكن أن يعود إلى أنساله، وبهذا ينتفي إمكان حدوث خسارة في عدد القطيع» [فيكتوروفا، ص٢٦].

قام المغول بتقطير العرق من اللبن، وشرب الخمر لم يعد عندهم عادة سيئة بل العكس، فإن الضيف الثمل يبعث السرور في نفس صاحب الدار «حسب عادات التتار يمسك صاحب الدار في أثناء الاحتفال بيده طبقاً وكأساً ويستدرج الضيف إلى الأكل والشرب . . . فإذا تبقى في كأسه ولو قطرة فإن صاحب الدار لا يأخذ منه الكأس راجعة. عندما يرى التتار أن الضيف قد احتسى الكأس إلى آخره يسرون»، «في كل مرة عندما يشربون الخمر فإنهم قبل كل شيء يهرقون الخمر للإله، وفي كل مرة عندما يرى التتار أن ابن السبيل قد سكر وأخذ يحدث ضوضاء ويخرق قواعد اللياقة، أو بدأ يتقيأ، أو داهمه النوم، فإنهم يكونون مسرورين ويقولون: إذا ما ثمل الضيف فإن هذا يعني أنه معنا الروح بالروح» [التدوين الكامل، ص٨٢-٨٣]. وقع تشجاو خون، الذي أوردنا المقتطف أعلاه من مؤلفه، ضحية للكرم المغولي، عندما أغرقه القائد موخالي بستة أقداح من الخمر؛ لعدم حضوره للمشاركة في لعبة بولو الخيلية، «وعند نهاية اليوم كان سفيركم قد ثمل تماماً وهكذا انقضى» [المصدر نفسه، ص٨٢]. كان من الكرم المتبادل أن المحتفلين يتبادلون أقداح الخمر، من الواجب القول، على رأي رشيد الدين إنّ جنكيز خان سعى للحد من السكر وأصدر قراراً يقضي «إذا لم توجد وسائل للحد من الشرب فإن على الشخص أن يتعاطاه ثلاث مرات في الشهر، فإذا ما تعدى الثلاثة يعدّ مذنباً ويتوجب عقابه، إذا احتسى الشخص الخمر مرتين فقط فهذا أفضل، أما إذا تعاطاه مرة واحدة فهذا يستحق الثناء، فإذا لم يشرب ألبتة فما الذي يكون أفضل من ذلك؟ ولكن أين نجد هذا الشخص الذي لا يشرب ألبتة؟» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٦٣].

اصطدم الأوروبيون ببعض التقاليد الغريبة المرتبطة بتناول الطعام عند المغول، كتب غ. روبروك أنهم «لا يغسلون الأطباق مطلقاً، ليس ذلك فحسب، بل إن الطبق الذي يودون وضع اللحم فيه بعد سلقه يغسلونه بالمرق الساخن ثم يدلقونه مرة ثانية في الدن» [الرحلات، ص١٠١]. الشيء الذي بدا للأوروبيين غير عادي على الإطلاق أنواع الأكل، مثل الكوميس، لم يكتف غ. روبروك بالكتابة عنه بالتفصيل وعن طريقة تحضيره، بل تعدى ذلك إلى الإحساس بمذاقه عند أول مرة: «في تلك الأمسية أعطانا الخادم الذي رافقنا قليلاً من الكوميس، عند الجرعة الأولى غطاني العرق نتيجة الخوف والإحساس الجديد؛ لأنني لم أتذوقه قبلاً قط، على الرغم من ذلك إلا أنه بدا لي لذيذ الطعم جداً كما هو الأمر في واقع الحال» [المصدر نفسه، ص١٠٤] لاحظ أن غ. روبروك بوصفه مخبراً متمكناً متمكن أنه قد لاحظ خلال الاحتفالات يراعى ترتيب معين في الضيافة، «قبل تقديم لحم الشاه للضيوف يأخذ صاحب الدار لنفسه ما يطيب له من اللحم، فإذا وهب لأي كان قطعة خاصة فإن المتلقي يترتب عليه أن يأكلها وحده دون أن يمنحها لأي شخص آخر، وإذا تعذر عليه أكلها إلى النهاية فعليه أن يأخذها معه أو يهبها لخادمه» [المصدر نفسه، ص٩٦].

من علامات الترحاب المغولية معانقة بعضهم بعضاً عند اللقاء، على رأي تشجاو خون أن طبائع المغول بسيطة «المغول يحتقرون الضعف ويحترمون القوة»، «إنهم يجدون المتعة في الشرب والاحتفالات»، «التتار بحكم عاداتهم لا يغسلون أيديهم، يأكلون اللحم والسمك بأيديهم المتسخة، وعندما يظهر الشحم على أيديهم فإنهم يمسحونه بملابسهم التي لا يخلعونها ولا يغسلونها إلى أن تبلى» [التدوين الكامل، ص٧٥]. من ملاحظات المعاصرين أن المغول القدماء كانوا أقوياء ومصقولين وشرفاء «وحين يهبون كلمتهم لا ينكصون عنها» (شهادة تشان

تشون، انظر [سي يوي تسزي، ص٢٨٩]، وكذلك «لا يرفعون الأشياء الضائعة الساقطة على الطريق» [بين دا يا، سيوي تين، ص١٤٤]، التقويم الزمني يبدؤون تعداده آخذين في الحسبان ظواهر الطبيعة المحيطة «عندما تخضر الأعشاب يرون أنه قد مرّ عام كامل، وعند أول ظهور للهلال يكون قد انقضى شهر كامل» [بين دا يا، سيوي تين، ص١٤١][1].

إذا سئل المغولي عن عمره فإنه يجيب أن في حياته كذا وكذا ربيعاً وكم مرة اخضرت السهوب بالأعشاب. لم يعرف قدماء المغول الكتابة على وفق شهادة تشان تشون، الذي زار منغوليا آنذاك، ويذكر أن الاتفاق يتم شفاهة، ويتم عقده عن طريق حفر علامات في شجرة الأحكام تطبق كالآتي: «السارق حتى ولو شيئاً قليلاً عقابه سبع ضربات بالعصي أو سبع عشرة أو سبع وعشرون أو سبع وثلاثون أو سبع وأربعون، وهكذا حتى يبلغ العقاب الثلاثمئة وسبعة؛ أي بزيادة عشر ضربات حسب جسامة الجريمة، ومن هذه الضربات يموت الكثيرون، أما الذي يسرق حصاناً أو شيئاً من هذا القبيل فعقابه الموت بالسيف تمزيقاً، أما القادر على دفع الفدية مقابل المسروق بعشرة أمثاله فلا يقتل» [ماركو بولو، ص٩١].

---

(١) يحكي تشجاو خون أنهم «يحسبون مرور العام ببداية اخضرار الأعشاب»، «وعندما كان الناس يسألونهم عن أعمارهم، كانوا يردون: "بكم من مرة ظهرت الأعشاب" كانوا عندما كان تشجاو خون يسألهم عن أيام وأشهر ميلادهم كانوا دوماً يبتسمون ويردون عليه بأنهم لا يعرفون هذا قطعاً، وحتى لم يكن بوسعهم أن يتذكروا أن هذا في الربيع أو الخريف، وفي كل وقت عندما يرون القمر قد استدار، يعدون شهراً كاملاً قد مر، وعندما يشعرون بأن اخضرار الأعشاب قد تأخر، يدركون أن في هذا العام ثلاثة عشر شهراً» [التدوين الكامل، ص٤٩] قسم المغول القدماء الشهر إلى ثلاثة أقسام: الهلال والبدر وآخر الشهر، وفي التقويم السنوي كانوا يستخدمون نظام الاثني عشر عاماً وهو النظام التقليدي لآسيا الوسطى والذي يسمى فيه كل عام باسم حيوان، مثال: الفأر، الثور، النمر، الأرنب، التنين، الحية، الحصان، النعجة، القرن، الدجاجة، الكلب، الخنزير.

«أما عن الأعراس فمن المعروف أنها تتم بشراء الزوجة» [الرحلات، ص١٠١]. «يتم الزواج بالصورة الآتية: كل رجل يحق له الزواج بأي عدد من النساء، إذا كان بإمكانه الإنفاق عليهن، حتى ولو مائة زوجة» [المصدر نفسه، ص٢٦] «الصداق يعطى لأم العروس، أما الزوجة فلا تحضر لزوجها أي شيء بتاتاً، الزوجة الأولى ـ لو تعرفون ـ توقر بصفتها الكبرى والأكثر عزة» [ماركو بولو، ص٨٨]، الأثرياء مالكو الماشية يقيمون حفلات أعراس فخمة، شاهد تشان تشون عرساً من هذا القبيل، فكتب واصفاً: «شيوخ الرعاة الرحل من محيط الجوار حتى خمسمائة لي (٢٥٠ كم) يفدون جالبين معهم لبن الخيول للمساعدة، المركبات السوداء وخيام اللباد تقف على مقربة، ويبلغ عددها الآلاف» [سي يوي تسزي، ص٢٨٧]، النساء يتزيّن ماسحات جباههن بمساحيق صفراء.

«عندهم الأرامل لا يتزوجن بناء على إيمانهم بأن من كان في خدمتهم في هذه الحياة سيخدمهم في الحياة القادمة، وعلى هذا الأساس فإن الأرملة ـ حسب اعتقادهم ـ بعد الموت ستعود لزوجها الأول، انطلاقاً من هذا المفهوم، انتشرت بينهم عادة أن الابن الأكبر أحياناً يرث كل زوجات والده ما عدا أمه، وهكذا يترتب عليه العناية الكافية بجميع زوجات والده، اللاتي يؤلن إليه ودار أبيه، وهكذا يمكنه معاشرتهن كزوجات، ولا يخامره الإحساس بالغبن بسبب عودة المرأة بعد وفاتها لزوجها، بحكم أنه والده» [الرحلات، ص١٠١]، «إنهم لا يسمحون لأنفسهم البتة النوم مع نساء الآخرين، لأن هذا يعدّ عملاً قبيحاً ودنيئاً» [ماركو بولو، ص٨٨].

كما رأينا سالفاً في حالة تيموتشجين، اتفاقات الزواج تعقد من قبل الآباء، في حين أن الأزواج المقبلين ما زالوا أطفالاً صغار السن، العلاقات من غير الزواج عدّ على ما يبدو عاراً وغير جائزة. على كل حال العادة التي وصفها ماركو بولو تشهد

على أن الآباء كانوا حريصين للحصول على اتفاقات الزواج حتى للأبناء الذين ماتوا. «إذا مات لدى شخصين طفلان، أحدهم ابن في الرابعة أو حوالي ذلك، والأخرى ابنة، فإنهم يزوجون البنت الميتة بالطفل الميت، ويكتبون اتفاقاً ثم يحرقونه، وعندما يتصاعد الدخان في الهواء يعني أن الاتفاق انتقل إلى العالم الآخر لأبنائهم؛ لكي يحترموا بعضهم كزوج وزوجة، ثم يقيمون حفل فرح وينشرون الأكل هنا وهناك، قائلين إن هذا لأبنائهم في العالم الآخر . . . وبنهاية هذا يحترمون بعضهم بعضاً كما لو كانوا متصاهرين وبينهم قرابة، ويحرصون على العلاقة كما لو أن أبناءهم أحياء» [المصدر نفسه، ص٩٢].

في وقت الربيع يؤبن المغول موتاهم، يذبحون الخيول، ويقسم اللحم بين أفراد العائلة بحسب مدى القرابة، أما الجلود فتعلق على صار قرب مكان دفن الأسلاف. خلال نحر القرابين يقوم أكبر شيخ بين البكوات في ملابس بيضاء وعلى حصان أبيض يؤدي «الإنشاد العظيم» إلى الأسلاف ويناجيهم. توجد المقابر العائلية في أماكن منغولية غالباً تحت الجبل أو الصخرة، عندما مات قائد الجيش خويلدار أمر جنكيز خان بدفنه في منطقة خالخا تحت صخرة بارزة.

«من عاداتهم أنهم يوقرون الأرض والسماء بصورة خاصة، وفي كل صغيرة وكبيرة يرد ذكر السماء». [التدوين الكامل، ص٧٩] فإضافة إلى تنغري «السماء الزرقاء الخالدة» وإيتوغين آلهة الأرض يوقر أيضاً الإله أوط روح النار. توجد التماثيل التي تعكس شكل الإله أونغون في كل خيمة، وقد حفظت أوصافهم في كتابات ماركو بولو: «كانوا يعتقدون في إله يسمى ناتشيغاي، ويقال إنه إله دنيوي، يحفظ أبناءهم وماشيتهم، وخبزهم، يبجلونه ويصلون له كثيراً، وهو موجود عند كل فرد في داره، يصنعونه من اللباد والجوخ، ويحتفظون به في ديارهم، وأيضاً يصنعون له زوجة وأبناء، الزوجة توضع على شماله والأبناء أمامه، ويصلون

عليهم أيضاً. عند الأكل يمسحون فمه بقطعة من الأكل كثيرة الشحم، والزوجة والأبناء أيضاً، والعصارة المتبقية يدلقونها خارج باب الدار قائلين إن بعملهم هذا يكون الإله قد أكل وشرب مع خاصته، ثم يبدؤون الأكل والشرب». [ماركو بولو، ص٩٠].

يحمل التقديس الحربي للراية مغزى كبيراً، فمن أجلها قدمت التضحية، وفي عهد جنكيز خان من الجائز التضحية بأرواح بشرية. حسب رأي غ. بولا أحد المعلقين على «كتب ماركو بولو». التسمية المقدسة «ناتشيغاي» لها مرادفات في اللغة البورياتية «نوغايت»، «نوغوت»، هذه الكلمات تعني معنى «أونغوت» نفسه. عند التونغوس تعني الآلهة ذوي المراتب الدنيا (السفلى)، من مجموع هذه الأصنام الإلهية يبرز المغول بشكل خاص زياغتشي؛ أي حارس المصير والإله الذي يجلب السعادة، وكذلك إيميغلجي حارس القطيع، الذي يصنع تمثاله من جلد كبش وينصب أمام باب الخيمة.

ارتبط كثير من الاعتقادات والتنبؤات عند قدماء المغول بالإيمان في الأرواح، فقد مارسوا التنبؤ على كتف كبش، يحرقونه على النار ومن ثم يضربونه بمطرقة حديدية إلى أن تظهر تصدعات، مفسرين إياه، وبعدها يتنبؤون «وفيما يخص تنبؤاتهم، فإنهم يحرقون كتف الكبش، ويحددون السعادة أو عدمها من كيفية توجه الشقوق عليها، إلى الأمام أو العكس، بهذه التنبؤات يتم تحديد كل شيء: شاءت السماء أن تعطي أم لا». [بين دا يا سيوي تين، ص١٤٩].

من المعروف أن جنكيز خان قد مارس التنبؤ عن طريق رجل الكبش، يخبرنا غ. رويروك بأن «الشخص عندما يداخله الإحساس بالسقم يرقد على الفراش معلقاً علامة في أعلى داره، حتى يعلم الناس بوجود مريض؛ لكي لا يدخل أحد... إنهم يخشون دخول الناس خوفاً من دخول الأرواح الشريرة أو الريح»

[الرحلات، ص١٠٣]. لعل الأمر كذلك، ولكن الأهم في الأمر أن العلامة الخاصة في أعلى اليورتا من أجل منع انتشار المرض. مارس المجتمع المغولي القديم عدداً من المحرمات المرتبطة بالاعتقاد في الأرواح كالاستحمام في النهر أو جلب الماء بإناء فضي أو ذهبي، أو ذبح الماشية بقطع عنقها أو وطء عتبة الدار بالقدم، أو استخراج اللحم من الدن بالسكين، أو ضرب الحصان باللجام أو تدنيس النار، وهلم جرّا.



من الصعب تحديد مستوى التطور الاجتماعي للقبائل المغولية في القرن الثاني عشر، وللفصل في هذه القضية لا يوجد اتفاق في وجهات النظر، ولكن يمكن القول إن هناك وجهة نظر آخذة في التطور، وعلى ضوئها يرفض الباحثون الاعتراف بأن المجتمع المغولي القديم مجتمع مشاعي بدائي وقبلي عشائري «حربي ديمقراطي».

إن مؤرخي جمهورية الصين الشعبية المعاصرين إلينتشجان ونامويون يعدان المجتمع المغولي في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي؛ أي مجتمع عهد خابول كاغان، مجتمعاً طبقياً [إلينتشجان، ص٧٢، نامويون، ص٩٥-٩٧].

أما مؤرخو جمهورية منغوليا الشعبية والسوفييت في الطبعة الأخيرة لـ «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية» فيكتبون: أن «المجتمع الرعوي المتنقل للقبائل المغولية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي بلغ مرحلة تطور وسائل الإنتاج الاقطاعية» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص١٢٣].

الكثير من باحثي التكوين القبلي العشائري «أوبوك» في القرن الثاني عشر الميلادي لا ينظرون إليه كقبائل وعشائر وما تحمله هذه الاصطلاحات من معاني،

إنما يتعاملون معه كعائلات «فاميليا» («سينشي»)، تقع تحت سيطرتها مجموعة من الأسر [ناموبون، ص٩٥-٩٧]. إن هذا التكون ليس بمجموعة بسيطة من الأقارب ينتمون لجد واحد «إنما تكوين طبقي من عدة مجموعات اجتماعية» [سياو تستسين، ص٩] وفي الواقع أن «التاريخ السري» لا يخبرنا عن وقت تكوين المجتمع المشاعي البدائي عند قبائل التتار المغولية، إن عهد ألان غوا هو الحقبة الواضحة لسقوطها، مرحلة «النزاعات المتبادلة والشجار» حول استخدام أراضي وصيد الوحوش وانهيار أشكال العلاقات النسبية القبلية القديمة، وتبرعم تكوينات عشائرية جديدة «أوبوك»(1) انتقل والد ألان غوا إلى يورخان خالدون من ضواحي أريخ أوسون الكائنة في أراضي خوري التوماتية بسبب «الخصام والشجار حول استغلال أراضي صيد الوحوش» [السيرة المقدسة، ص٧٩]. والد ألان غوا خوريلارتاي ميرغين لهذا السبب «قرر الانعزال مكوناً جيلاً جديداً "أوبوك" تحت اسم خوريلار» [المصدر نفسه، ص٨٠].

عرف المجتمع التتري آنذاك الفوارق الاجتماعية، بيع البشر كرقيق وكخدم، تسبب انهيار التكوينات العشائرية «أوبوك» القديمة في عدم الثقة بين الناس تجاه بعضهم، عندما تقاسم أبناء ألان غوا الخمسة الميراث وتفرقوا، أظهر الجيران عدم الثقة بالابن الأصغر بودونتشار، الذي ارتحل وحده بعد أن منع من نصيبه من الممتلكات ولا حتى اقطاع أرضي مستقل «خوبي»، «فقد عاشوا فيما بينهم حيث لم يسألوا عن هوية بودونتشار أو من أين أتى، وهو بدوره لم يحاول معرفة ماهية هؤلاء الناس» [المصدر نفسه، ص٨٢] . نجد في مجتمع مغول القرن الثاني عشر الأغنياء وهم «بايان» (مثل والد بورتشو كان ثري جبل ناخو أي «ناخو بايان»)،

(1) «كل فرع من فروعه صار يشتهر باسم معين وتعريف محدد، وأصبح بدوره يشكل قبيلة منعزلة قائمة بذاتها، ومصطلح "أوبوك" يقصد به الذين ينتمون لسلالة محددة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٥٣-١٥٤].

ياداغو خوفون هم الفقراء والأرقاء والأحرار بذواتهم، الأرقاء يتقسمون على الأرقاء الذكور «بوغول» والإماء «إندجي».

لقد سبق أن تحدثنا عن «أوبوك» في القرن الثاني عشر الميلادي كرابطة غير دموية، تضم الفقراء والأغنياء، السادة والخاضعين، والرقيق أيضاً، لا اتحاد يضم أبناء الدم الواحد (ذوي القربى). الأقرباء الذكور من جد واحد يشكلون «أوروك» يعني «الأنسال الذكور»، وأعضاؤه لا يحق لهم الدخول في علاقات زوجية فيما بينهم، ويعقدون زيجاتهم مع الغرباء فقط أي «جاد».

تسمى القبائل المغولية التابعة أوتاغو بوغولي «ومعناه ـ كما يحدثنا رشيد الدين ـ ترجع للدارليكين، الذين كانوا في الأصل أرقاء وأسلاف عبيد جنكيز خان» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٥].

إن علاقات العدالة الاجتماعية في القرن العاشر الميلادي أثارت التعجب والاحتقار، إذ يتحدث بودونتشار مخاطباً شقيقه الأكبر بوغو خاداغي: «ما بال هؤلاء القوم الذين يقطنون على نهر تونغيليك يعيشون كلهم متساوين، ليس بينهم فرسان ولا سادة، لا قواد ولا منفذين، إنهم لشعب حقير، دعنا نحتلهم!» «وهنا نهض الأشقاء الخمسة لسبيهم، وتم ذلك، وأصبحوا عندهم خدماً للرعي والطبخ» [السيرة المقدسة، ص٨٢].

يورد المؤرخ الصيني غاو فاندا معلومات تؤكد أن الرقيق كانوا بالفعل لدى جميع أسلاف جنكيز خان بدءاً من الجد الثاني عشر [غاو فاندا، ص٨٢]. إن العبودية عندهم كانت وراثية، وذلك بجانب الاسترقاق العادي للرجال والنساء يوجد أيضاً «جالاو» بمعنى نسل الأرقاء.

إن مصدر الرق الحروب والأسر والبيع والشراء، فيتم شراء الرقيق من خارج الحدود، من عام ١١٣٠ وفي أثناء ترتيب الأحوال في المقاطعات الشمالية من

البلاد، حيث قام التشجورتشجينيون باصطياد فلول الهاربين وأحالوهم إلى رقيق الدولة، قسم منهم تمّ تصديره خارج الحدود، وبدلوهم بخيول عند المغول الآخرين.

ومن أجل مواصلة تكاثر الرقيق أرغمهم المغول على الزواج، يقال في إحدى المؤلفات الصينية: «جمع المغول في زوجين الرجال والنساء، وأرغموهم على أن يكونوا أزواجاً»، الأطفال المولودون صاروا أرقاء للأبد حسب اصطلاح كتاب «التاريخ السري»، ويعدّون من تبقى من الأسلاف أرقاء، وأيضاً في هذا الكتاب نفسه يذكر «عبيد على العتبة» كانوا يفتحون لسيدهم باب البورتا غيرا (أي الخيمة)، ويجهزون السرج، ويقومون بعمل كل شيء يخص المنزل وأفراد أسرته.

عندما أعطى جنكيز خان لعائلة خويلدار مائة أسرة من التشجورتشجيريين أمر أن يعطي الأرقاء من الرجال كل قواهم العضلية لأسرة خويلدار، أي أن يعملوا لديهم، والإماء أن يقمن بخدمة كل من هو «على اليمين أو اليسار». ويسمى الأرقاء الحرفيون المنتمون لأسر الأعيان والخانات غار إن كيوبيغييود، أي بمعنى «أبناء الخيمة». أدى الرقيق الحرفيون إضافة إلى خدمة سيدهم وحرفتهم الأساسية العمل الرئيسي في المنطقة وهو رعي الماشية، فلنذكر بودونتشار الذي أرغم أسراه على رعي الخيول، فإن خان الكيريتي ـ الذي ستتحدث عنه فيما بعد ـ أرسل الأسرى «لرعي الإبل والشاء»، كانوا يخضخضون الكوميس، ويجزون صوف الشياه، كما في مجتمعات العالم كافة. إن الرقيق لدى المغول يقارنون بالماشية.

هنالك رأي [غاو فاندا] يقول: إن الرقيق في أملاك المغول الغنية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين لم يكونوا أكثر من قوة مساعدة فحسب، بل القوة الأساسية العاملة، كان العبد ملكية خاصة لصاحبه، ويتطلب منه الطاعة العمياء، قال جنكيز: «إذا لم يخضع العبد لسيده فاقتلوه»، حسب رأي غاو فاندا

«قبل أن يقول جنكيز خان بتوحيد المغول كان المجتمع المغولي عبودياً» [غاو فاندا، ص٨٧]. هذه النتائج متفق عليها في الطبعة الأخيرة لـ «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية»، وتطالع «أن العبودية لم تشغل ذلك الحيز الكبير في منغوليا؛ لكي تكون تشكيلة اجتماعية اقتصادية أساسية، ولكنها وجدت كترسبات من المجتمع الإقطاعي المغولي في عهد تطوره الأولي». [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص١٢٧].

الأحرار في المجتمع المغولي بذواتهم ليسوا بأرقاء، وينقسمون على: ساين خوفون؛ أي نبلاء، وكاراتشو أي عامة البسطاء، وسط النبلاء تبرز؛ «السلالات الذهبية» و «الخانات الطبيعيون»، وإلى السلالة الذهبية ينتسب جنكيز خان، كما هو حال السلالة الذهبية عند مجتمعات أخرى من المغول، مثل الخونغيرانيين والإكيريسيين، وغيرهم من النبلاء المسمون عمداً بالنويان أي (النبيل المغولي) منذ عهد لياو المغول الكاغان والتيوان، حملوا ألقاباً حصلوا عليها من الكيدانيين والتشجورتشجينيين[1]، اللقب الأميري «فان» تقلده كل من فان كاغان وإيتانتش خان النايمان وبايبوس خان التتار البيض. تقلد جنكيز خان في أثناء حروبه مع التتار لقب تشاوتخوري، أي «المئوي».

كان هذا باختصار نمط حياة قدامى المغول ومستوى تطورهم الاجتماعي الذي نقلته المصادر الأولية والحديثة، هكذا كان الشعب الذي خرج منه ابنهم تيموتشجين، هذه هي البيئة التي ضمنت يتيماً منبوذاً ليصير جنكيز خان القوي

(١) من الألقاب على سبيل المثال لقب سينغيون (من الكلمة الصينية تسزيانتسزيون، وتعني جنرال)، ولينغوم (من الكلمة الصينية لينغون، وتعني رئيس السكرتارية الحكومية تشجنونشولين)، وتايشي (من الكلمة الصينية تايتسزي، وتعني وريث العرش)، وسيانفان (من الكلمة الصينية سيانغون، وتعني الوزير)، وغويان (من الكلمة الصينية غو فان، وتعني أمير)، وتايان (من الكلمة الصينية تاي فان، وتعني الأمير العظيم).

العظيم، لا يوجد خطأ أكبر من الجزم والتقدير بأن المجتمع المغولي بدائي ومتخلف ومتوحش ومنعزل عن العالم الخارجي، فإن هذا النمط من التفكير لا يساعد في فهم الظروف، وتلك البيئة التي أنجبت قوة قادرة على اجتياح الجزء الأعظم من أواسط آسيا والشرق الأقصى، وكذلك الشرق الأوسط وشرق أوروبا.



«غاضت ينابيع المياه
وتصدع أبيض الصوان»

«لا أصدقاء لنا تبقوا عدا ظلنا، ولا
جدائل لنا بقيت سوى ذيول خيلنا».
السيرة المكنونة

بقي الأولوس متماسكاً بفضل قوة شخصية إيسوغاي، وعندما غاب عن مسرح الأحداث تغيرت علاقات المجتمع بشكل مفاجئ تجاه أسرته، وأصبحوا أقل احتراماً لويلون. في ذلك الربيع ذهبت زوجات أمباغاي - الذي ذاق العذاب على يد التشجوتشجينيين - لزيارة «أرض الأسلاف»؛ أي مقبرة العائلة، بغرض تقديم القرابين، بدون ويلون أرملته، التي تأخرت بغير إرادتها، ولم ينتظرها أحد، وبعد أكل اللحم وتوزيعه وشرب نبيذ الأضحية ونهاية طقوس تقديم القرابين فزع فؤاد ويلون التي تخلى عنها أبناء جلدتها، الذين لا يودون أن يذكروها أو حتى أبنائها أمام الأسلاف، عنَّ لها خاطر رهيب، قد يصل الأمر إلى أن يرحلوا دونها ويتركوها وأبناءها في السهل، وحينها خاطبت أورباي وسوخاتاي أرملتي أمباغاي خان غاضبة:

- لماذا أرغمتموني وفوتم علي التضحية والتأبين مع اللحم والنبيذ؟ هل لأنه قد مات، إيسوغاي باتور قد مات فلا يحق لأبنائه أن يشبوا؟ وبالفعل أراكما تستطيعان أن تأكلا على مرأى من أعين الناس ولم تقاسموهم الزاد، وأن ترحلا دون إخطار؟

فكان ردهما المتعجرف يؤكد على تنبئها: فقد قرر أقارب زوجها هجرها حتى لا يشب أبناؤها، وتكون لهم فروع جديدة ذات أصول إيسوغائية.

- من الواضح، ولأن أمباغاي كاغان قد مات، تستطيع ويلون أن تضللنا، إنها تستطيع أن يدعوها ولا يعطوها شيئاً، وعليها أن تأكل ما تجده، حقاً أقول من الأفضل ترك هذه الأم وأبنائها في المرعى، ولا نسمح لها بالذهاب معنا! (هكذا ورد في «السيرة المقدسة»، ص٨٨).

أصبح واضحاً لويلون أنه قد قضي الأمر، وأن التايتشيوتيين الطائعين للأولوس الإيسوغائي بدأوا يظهرون الحسد لسلطة إيسوغاي، الأقارب الآخرون والنوكير (الأصدقاء)، أو «أنصار الدفاع» رفضوا أيضاً الإنصياع لأرملة إيسوغاي، وانحازوا إلى جانب التايجوت، مما أدى مباشرة لتحول التايجوت إلى زعماء مستقلين لأولوس عظماء الباتور، بالطريقة السابقة نفسها، كما كان إيسوغاي، كان التايجوت الواقعون تحت أمر تارغوتاي كيريلتوخ وتودوين غيرتاي من ضمن الأولوس التابع لإيسوغاي، وتحت نفوذه، هجروا ويلون وأبناءها في اليوم الثاني للخصام الذي وقع في أرض الأسلاف، واتجهوا إلى الجنوب على مجرى نهر أنون، وحينها حاول الشيخ تشارخا بيوغين وحده إيقاظ ضمير المرتحلين، ولكن لم ينصاعوا إليه، بل قام تودوين غيرتاي بوخز العجوز في ظهره بالرمح حتى لا يبلبل أفكار القوم، ويلجأ لإحياء الضمائر النائمة:

غاضت ينابيع المياه
وتصدع أبيض الصوان

وهكذا تمزق الأولوس الذي بناه إيسوغاي أمام أعين ويلون.

وعندما ذهب تيموتشجين ليعود الشيخ الجريح تشارخا بيوغين، خاطبه الشيخ قائلاً:

- لقد دفعت الثمن غالياً عندما حاولت أن أثني القوم المرتحلين عن عزمهم، في محاولة لاصطحاب جميع الأولوس الذي جمعه والدك النبيل. (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص٨٨).

غادره تيموتشجين غارقاً بالدموع، وهو ما زال يافعاً وعديم القوى، حتى يرث عمل والده ويواصله، إلا أن الأم الباسلة ويلون وجدت في نفسها القدرة على الكفاح حتى النهاية، وقد جمعت حولها كل ما تبقى من البشر، وسارعت في أثر المرتحلين، وبعد الصدام تمكنت من جمع الكثيرين في بداية الأمر، ولكنهم رجعوا للمظهر فقط، وسرعان ما ارتحلوا تاركين ويلون وأبناءها والزوجة الثالثة لإيسوغاي وذريتها وقليلاً من الخدم كانوا يوماً ما في خدمة أسرة باتور المجيد في السهل العريض.

يتحتم علينا لإدراك ما حدث الحديث باختصار عن الأولوس التتار المغولي في القرن الثاني عشر الميلادي، فإن الأولوس، الذي يعني «الشعب» يمكن أن يكون، بغض النظر عن قوته وتأثيره، كمثل «أولوس الحيازة» وأولوس الدولة أيضاً.

كتب ب. فلاديمير تسوف أن «الأولوس عند قدماء المغول عبارة عن تجمع قبائل وعشائر وأجيال، منظور له من زاوية ارتباطه بقائد (خان)، مشكلين بذلك "حكومة حيازة"» [ب. فلاديمير تسوف: النظام الاجتماعي، ص٩٧]. شكل البشر عند المغول أهمية كبرى من الأولوس وليس مساحته، وعلى رأسه يقف قائد من عداد النبلاء (نويون)، الذين تقلدوا من الألقاب المغولية الأصلية مثل (باتور، سيتشين، ميرغين، بيلغي، بوكا وخلافهم...)، أو خلعوا عليهم رتبة أو لقباً صينياً.

حمل إيسوغاي والد تيموتشجين لقب باتور وامتلك أولوس الذي انهار بعد وفاته إثر تفرق القوم الذين كانوا خاضعين له، وبهذا يكون الناس العامل الأهم-

كما يؤكد ب. فلاديمير تسوف ـ في تعريفه للأولوس بأنه كان قبل كل شيء «شعب موحد» وليس أي مساحة كائنة.

كان الأولوس بطبيعة ارتباطه بالحياة الرعوية متنقلاً، ولكنه كان يحتفظ لنفسه بمساحة رعوية محددة، تسمى «نونتوك»، النونتوك التي تتبع للقبائل المغولية الأساسية، ومساحات الأولس التابعة لهم بكاملها في القرن الثاني عشر الميلادي كانوا بشكل نسبي ثابتين ومعروفين بصورة معلومة، من أجل استمرار الأولوس تبقى رعية الموحدين فيه أكثر أهمية من مساحته، إن تغير المساحة الرعوية المحددة «نونتوك» لم يؤد إلى نهاية الأولوس، ولكن خروج الناس يعني الانهيار، ولهذا كان الأولس يشتت الرعية أو يجمعهم ويوحدهم، الأشخاص الذين لا يتوحدون تحت لواء الأولوس يسمونهم «إير كين»؛ أي «ناس» ولا يطلق عليهم اسم أولوس وفق «التاريخ السري». سنرى فيما بعد أن فان خان عندما أهداه تيموتشجين الفرو وعد الأخير قائلاً: «شكراً لك على فرو السمور الأسود، سأوحد أولوسك المتفرق، وشكراً على فرو السمور، سأجمع أولوسك المتشتت!» [السيرة المكنونة، ص٩٦].

يشدد المؤرخ المغولي المعاصر من الصين ناموبون أيضاً بشكل خاص على مفهوم «تجميع الشعب» (شووتسزي باسين) لتكوين الأولوس [ناموبون، ص١٠٠] أساس الأولوس كان الذكور من أنجال قائده (الخان)، الذين يسمون أوروك، وفي تركيبة الأولوس أيضاً يدخل الغرباء أي «جاد»، وبينهم تمايز أقارب زوجات الأوروك الذين كانوا أصهارهم أي «خودا»، أدان بالطاعة للقبيلة القائدة كل من سقط سابقاً من القبائل أوتاغو بوغولي؛ أي القبائل التي تم استرقاقها، إن الأولوس لم يكن مؤسسة قبلية ولا اتحاد قبائل، ويمكن ملاحظة هذا من التركيبة الأولية لأولوس تيموتشجين الذي دخل في تركيبه ممثلون لقبائل جاليار وبارولاس

ومانخوت وأرولات وأوريانخات وأولخونوت وغيرها . . . وأصبح الارتباط الشخصي أكثر أهمية من الصلة القبلية، من الأقرب للاحتمال أن الأولوس تكون في بنائه الداخلي على النظام الإداري الحربي، متوالي العشرات أي بآلاف، ويسمون معسكرات «كورين»، يفسر رشيد الدين مصطلح «كورين»، ويعني المصطلح الآتي، «عندما تتوزع مجموعة من البيوت المقطعة في دائرة، ويصنعون حلقة في السهل، فإنهم يسمونها بالكورين، آنذاك * هنا يعني رشيد الدين القرن الثاني عشر الميلادي. تعليق المؤلف * أن الألف بيت التي تنظم بهذا الشكل تمثل كورينا واحداً» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٨].

ليس الأولوس مجموعة من البشر فقط بل أناس منظمون على أسس معينة، عكس أسلاف الحاكم الخان أو الأوروك، يعود الدور الأعظم في الألوس للنوكير (أي حراس وأصدقاء الخان) إن كبار الخانات كافة في سهوب منغوليا كان لديهم في القرن الثاني عشر الميلادي حراس أي نوكير، وكان لدى تارغوتاي كيريلتوخا التايتشيوتي مجموعة من الحراس النهاريين (أي تورخاوت)، ومن عهد فان الخان؛ أي من عام ١٢٠٣ بلغ عددهم آلاف الحراس النهاريين أي «التورخاوت». كتب ب. ي. فلاديمير تسوف أن «القادة المغول في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين كانوا لا يفترقون عن حراسهم (نوكيرهم)، الذين يأتمرون بإمرتهم، ودوماً بجوارهم مكونين حاشية. عندما يكون النوكير في معية قائده يقوم بدور الخادم، وفي حالة الحرب أو الغزوات محارب، أما في المطاردة فإنه مساعد، فهو دوماً على رأس كل مبادرة ومراقباً، ويعدّ جزءاً من تركيبة الحاشية، ويعدّ الصديق والمستشار لقائده» [ب. ي. فلاديمير تسوف، التركيبة الاجتماعية، ص٩٣].

حسب رواية يوان شي إن من ضمن أوائل حرس جنكيز خان كان النوكير؛ أي أصدقاؤه المقربون «في عهود تاي تسزو إن موخالي وتشيلاوفان وبورخو وبور

تشجو كونوا مجلساً رباعياً لقيادة الحرس الدولي، الذي يقوم بالخدمة في حراسة الإمبراطور، وسمّو هؤلاء الأربعة دارين كولود (أي أربعة أبطال)، وأمر تا تسزو أن يمارس هؤلاء الأربعة هذه السلطة بالميراث، أي قيادة المجلس الرباعي "تسزي"، التي تعني الحرس الذي يؤدي خدمته بشكل دوري» [يوان شي، الفصل ٩٩ ص١أ].

إن الحرس والنوكير كانوا يمثلون جزءاً من الطبقة الحاكمة في المجتمع المغولي، فكان النوكير يتمثلون في المحاربين والحراس والإداريين والحاشية التابعة للخان الحاكم أيضاً. إن السلطة المغولية السابقة لم تعرف التقسيم الوظيفي، كحراسة مقر قيادة الخان، وإدارة البلاط الخاني، وإدارة الدولة، من وجهة نظرنا أن أولوس من قبائل التتار المغولية، التي تمثلت في خاماغ منغول أولوس وأولوس التتار والميركيت والتايجوت وأولوس الكيريت والنايمان، كانت عبارة عن شكل بدائي للدولة، على الرغم من أن وجهة النظر هذه لا يشاركنا فيها الكل.

من المحتمل أنّ أولوس إيسوغاي كان جزءاً من الخاماغ منغول أولوس الذي انهار، على كل إن إيسوغاي لم يكن خاناً للمغول كافة، وبعد وفاته آلت السلطة إلى التايجوت، تصدع أولوس إيسوغاي بعد خروج النوكير التابعين له، الذين لم يعد لديهم من يقومون بخدمته، وأيضاً لم يبق من يشاركهم الغزوات الجسورة، وأيضاً بعد خروج أقربائه من التايجوت ومن صحبهم من القوم الذين لم يدخلوا البتة في أولوس إيسوغاي. لقد ذكرنا سابقاً أن إيسوغاي الذي ينتمي للكيات من ضمن أجداد جنكيز خان، ذلك الفرق الذي يمثله أنسال ابن تومبيناي سيتشينا؛ أي خابول خاغان وأنسال ابنه الأكبر ياكين باركاك، كما للكيات أحفاد خابول خاغان الكبار، إيسوغاي ـ حسب رأي خان جولين ـ كان زعيم الكيات. [خان جولين، ص٩].

يرجع أصل التايجوت إلى تشارا كاي لينكو الابن الثالث لخايدو، حسب المصادر الصينية. إن تشار كاي لينكو وابنه سيانكونبيلغي كانا ديوانيين رفيعي الدرجة بالوراثة في دولة لياو، تنازع التايجوت مع الكيات على السلطة، وحسب ما يرى خان جولين إنهم تاقوا إلى الاستغلال وبغضوهم سراً [المصدر نفسه، ص٩] لذلك عندما قتل إيسوغاي لم يكتف التايجوت بالانتقام من التتار فقط بل هزموا رجال إيسوغاي وأخذوهم، تاركين أسرته تحت رحمة القدر.

كان لدى تيموتشجين الذي فقد والده ثلاثة أشقاء صغار، هم خاسار، وخاتشيون، وتاموغي، وشقيقة اسمها تامولين، إضافة إلى ذلك كان في الأسرة أخوان غير شقيقين من زوجة إيسوغاي من زوجة إيسوغاي الثانية، هما بيكتر وبيلغوتاي. إن زوجتي إيسوغاي (ومن المحتمل أكثر من الاثنين) قد تركتا لحال سبيلهما مع أطفالهما وحفنة من الرجال الذين احتفظوا بولائهم لهما، كانوا من السهل أن يكونوا لقمة سائغة لأي نبيل أو خان، إلا أن الأصل النبيل، الذي لا يزال يراعى تقديره على أسوأ الفروض، حتى لأقرب القريبين إضافة إلى المجد السابق للأب والزوج والفارس إيسوغاي، هما اللذان شكلا لهما الحماية.

حسب العادات المغولية بعد موت الزوج تكون الزوجة الأولى الرئيسة الراعية الوحيدة للأسرة وأملاكها إلى أن يشب الأبناء ويتزوجون.

أصبحت ويلون وعائلتها في مسيس الحاجة؛ لانعدام الماشية، وبديهياً اللبن واللحم، فأخذت ويلون تركض على طول نهر أنون صعوداً ونزولاً جامعة التفاح البري وبطم الشمال والثوم البري، وأيضاً أحضرت الجذور الصالحة للأكل، كما قام أبناؤها بمساعدتها بصناراتهم وشباكهم لصيد السمك في نهر أنون «عندما ارتحل الأخوة التايتشجون تاركين ويلون أوتشجين الأرملة وصغارها في المراعي صار الأمر كما يأتي:

زوجة حكيمة نشأت منذ ميلادها ويلون
وشب صغارها على ذلك الدأب ناشئون
وأحكمت رؤوسهم بالطواقي بشكل متين
وبالأحزمة شدت على قمصانهم
مهرولة صعوداً ونزولاً على ضفاف نهر الأونون
جامعة لحبيبات بطمة الشمال والتفاح البري
صباحاً ومساء لصغارها مطعمة
أوتشجين أم قد ولدت جسورة
وهكذا أنشأت صغارها المبروكين
بحشفة بصلة في السهوب هائمة الجبين
لصغارها تجمع الجذور وتسلقها
من بطمة الشمال وببصيلات لهم طاعمة
حتى بلغوا منزلة الخان
بحق إنهم أبناء أمهم
فصاروا حكماء وعادلين
وفقط ببصيلات ثوم عند أمهم مشبعين
فشبوا عند أمهم مقدامين
وكانوا بالشجاعة والإقدام متفردين
وأقسموا بأنهم لأمهم لمطعمون
فعلى منحدر نهر أونون الرؤوم
جلس الأشقاء للسنانير يصلحون
بالأسماك الرديئة كطعمة يهيئون
وللأسماك الطيبة يصطادون

وللسمك النهري الكبير الشباك ينسجون
ويحب البنين لأمهم كانوا مطعمين
[السيرة المكنونة، ص٨٨-٨٩].

يرى ب. راتشنيفسكي أن «التاريخ السري» تعمداً يضخم من مأساة ما حدث لأسرة إيسوغاي؛ لكي يؤكد أن طريق تيموتشجين يمكن أن يوصف بأنه «من الجحور إلى القصور» [راتشنيفسكي، ص٢١]، كما يورد رشيد الدين كثيراً من التفاصيل التي تؤكد أن الأمر في الواقع لم يكن بتلك البساطة والعادية، التايتشيوت الذين «حملوا البغضاء والحسد لإيسوغاي» تقاعسوا عنه، والبقية من المنتمين لأولوسه تركوه «تدريجياً»: «لأن التايتشيوت كانوا من أكبر الفروع المنتسبة لقبيلته، سار الأمر تدريجياً، حتى إن الأقرباء الآخرين والمحاربين الذين عارضوا إيسوغاي باخادورو وائتمروا له أيضاً تخلوا عن أطفاله، وانحازوا إلى جانب التايجيوت، وبفضل الالتفاف حولهم ظهرت لهم قوة وعظمة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٨٤]. لم تحاول ويلون إعادة الخارجين عن طاعتها بمساعدة بضعة أشخاص فقط، بل دخلت في عراك ومطاردة أخذت طابع العمليات الحربية؛ لأن «ويلون بشخصها اعتلت ظهر المطايا رافعة الراية. أي بونتشوك (توك) وأركبت أيضاً المحاربين الخيول، وأرسلتهم لمطاردة المحاربين وإعادتهم، وعند التقاء الجمعين، وتبعاً للنظام الحربي، انتظموا وجهاً لوجه، وبدأ النزال» [المصدر نفسه، ص٨٥]. فإذا احتكمنا إلى ما كتبه رشيد الدين علمنا أن تيموتشجين كان حاضراً كل هذه المعارك، الشيء الذي يعد منطقياً إذا أخذنا في الاعتبار التسلسل التاريخي عند رشيد الدين الذي بموجبه كان تيموتشجين حين وفاة إيسوغاي قد بلغ الثالثة عشرة من عمره [المصدر نفسه، ص٨٥].

يطرح ب. راتشنيفسكي مزيداً من الأسئلة المنطقية «المحقة»، لماذا كانت عشيرة إيسوغاي واقفة ضد ويلون؟ ولماذا لم يقف أخوة إيسوغاي في صفها؟ ولماذا أيضاً لم يأخذ قانون ميراث الزوجات قوته؟ ويتم زواجها من أي من أشقاء إيسوغاي؟ [راتشنيفسكي، ص٢١]. فإذا تبعنا من جديد رشيد الدين يتضح لنا أن تيموتشجين الأخ الأصغر لإيسوغاي داريتاي أوتشيغين «في بادئ الأمر عندما انحاز جنكيز خان وجيشه وقبيلته إلى قبائل تايجوت وقف بجانب قوتهم المحارية، ولكن اختلط مع قبائل تايجوت بعد مضي مدة من الوقت» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٤٨].

إن خاتشور ابن نيغون تايشي الأخ الأكبر لإيسوغاي وابن عم تيموتشجين كان بارعاً في رمي السهام، حتى صار مضرباً للمثل، فيقال: «إن سهم خوتشار ينطلق ومن سرعته لا يمكن رؤيته»، «في الوقت الذي فقد فيه جنكيز خان أباه وهو طفل وانحازت قبائله إلى جانب تايجوت حيث عقد مع جنكيز خان حلفاً لمدة ما، وائتمر بأمره وخدمه بتفان» [المصدر نفسه، ص٤٧]. من الواضح أنه كان لدى ويلون وتيموتشجين منذ البداية ما يعتمدان عليه، ليست لدينا الوثائق التي تسمح لنا بتفاصيل الحكم على انهيار أولوس إيسوغاي، كما كتب رشيد الدين «بسبب وفاة إيسوغاي باخادور تشابكت مصائرهم، وتفاصيل حياتهم وظروفها أصبحت غير معروفة في تلك الحقبة» [المصدر نفسه، ص٧٦].

مهما كان الأمر فإن الأخوة من زوجات مختلفات لم يستطيعوا التفاهم، فقد كثرت الخصومات فيما بينهم، وغالباً لأسباب تافهة، أما ويلون التي لم يبارح ذهنها فكرة الانتقام من تايجوت لخيانتهم، فعملت على تقوية الأسرة وتوحيد الأخوة الذين عليهم أن يأخذوا بالثأر لأبيهم وللهوان الذي لحق بالأسرة، ولمعرفتها الجيدة بـ «القصص القديمة» كانت تحكي لهم جنسهم وعن جدتهم الحكيمة آلان غوا وجدهم

بودوتشار، وعن مآثر أسلافهم المجيدة خابول كاغان وأمباغاي كاغان، والعملاق خوتول كاغان، ووالدهم العملاق إيسوغاي، كان تيموتشجين حسب الأحقية في تسلسل الولادة الأكبر، وكان من المفروض أن يرث الوضع الاجتماعي ولقب والده. على ما يبدو أن بيكتير الابن الأكبر للزوجة الثانية أفصح عن مطامعه، ذات مرة اصطاد تيموتشجين في نهر أونون سمكة جميلة، فأخذها بيكتير وبيلغوتاي من تيموتشجين وأخيه خاسار، جرى الأخوة شاكين لأمهم ويلون، ولكنها أحست ببادرة غير طيبة، وأخذت تؤاخذهم قائلة:

- آه ما عساني أن أفعل معكم؟ ما لكم تعيشون مع أخوكم في غير وئام؟ علينا بالتفكير في رد إهانة تايجوت، وأنتم منغمسون في الخصام بعضكم مع بعض.

ولكن حقد الأخوة كان أقوى من الكلمات العاقلة:

- ولكنهم قبل قليل انتزعوا منا قبرة، والآن يكررون ذلك مرة ثانية، فكيف نعيش معهم في وئام؟

خرج الأخوة غاضبين وصافقين الباب، وكلهم مصمم على رد الإهانة [حسب ما ورد في السيرة المكنونة، ص٩٠].

كان بيكتير ساعتها يرعى الخيول على التل، وتسلل إليه أبناء ويلون بأقواسهم وسهامهم، تيموتشيجين من الخلف، وخاسار من الأمام، فأخذه الخوف وقال:

- هل فكرتم بمن ستستعينون لمساعدتكم في الانتقام من تايجوت، الشيء الذي لا قدرة لكم عليه وحدكم؟ ما لكم تنظرون إلي كما لو كنت شظية في العين أو شطفة في الأسنان؟

فهم من سيماء وجوههم أنه لا ترجى منهم الرأفة، ناطقاً بالكلمات الآتية بعد أن جلس القرفصاء أمام أشقائه قائلاً: «لا تمزقوا عشيرتي ولا تقتلوا بيلغوتاي»،

اخترقت سهام خاسار وتيموتشجين جسد بيكتير، ثم قفلا راجعين تاركين جثة شقيقهم الهامدة نازفة دماؤها ملقاة على التل، وأدركت ويلون من تعابير وجوه أبنائها على التو ما حدث، فصرخت:

- سفاحون! لم يكن اعتباطاً خروج هذا من بدني قابضاً بيده على علقة! لقد قتلموه كالكلاب المسعورة التي تمزق أجساد أمهاتها! من سيساعدكم في الانتقام من تايجوت؟ ليس لديكم الآن من حل سوى ظلكم! وسوى الذيل. [كما ورد في السيرة المكنونة، ص٩١] فيما بعد تحدثت الأسطورة الشعبية بلسان ويلون قائلة:

هذا الذي خرج من بدني
قابضاً بيده على علقة،
قتلتموه كالكلاب المسعورة
التي لأجسادها ناهشة،
كالطيور الجارحة
على القمم منقضية،
مثل أسماك الكراكي
في غمضة عين لكل ما حولها مبتلعة،
مثل ذكور الإبل
لما بين أفخاذ النياق ناهشة،
كالذئاب في يوم ماطر هاجمة،
كالرخم آكلة صغارها
حين تعجز عن حملها،
كابن آوى في ثورة حماس
هاج على من انتهك عرينه،

كالفهد بلا تباطؤ ناهشاً،
ككلاب الحراسة
هاجمة دون تمييز!

ولمدة طويلة استمرّ غضب ويلون على أبنائها لقسوتهم الزائدة.

عاش بيلغوتاي شقيق بيكتير حتى بلغ مائة وعشرة أعوام، ومات في عام ١٢٢٥م[١]، وعن مقتل تيموتشجين لأخيه يرد ذكره فقط في «التاريخ السري»، بينما لا نجده في «يوان شي»، ولا عند رشيد الدين، وأيضاً لا نجده في «شان أ تسين تشجان لو». حتى إن خان جولين لا يذكر هذه الحقيقة في مؤلفه «حياة جنكيز خان»، ففي المؤلفات الأخيرة التي صدرت عن حياة جنكيز خان في أوروبا لا يداخل مؤلفيها الشك حول مقتل جنكيز لأخيه، كتب ب. راتشنيفسكي،: «نحن لا نملك أي أساس للشك في صحة واقعة قتل تيموتشجين لشقيقه» [ب. راتشنيفسكي، ص٢٢]. يلاحظ ل. غامبيس أن «كلمات الأم لم تحرك ساكناً عند تيموتشجين، ولم يداخله أي إحساس بوخز الضمير من جراء ما فعله، بل كان يرى أنه على صواب، حيث إنه لم يدع الفرصة تفلت من يده، فرصة الحيازة على الشيء الذي يرى أن لديه حقاً عليه لا يجادل فيه، وهذه الصفة في طبعه تلقي الضوء على كل مسار حياته؛ لأنه لا يستوعب أي وجهة نظر تبعث الشك في سلطته وإرادته، فلقد طبق هذا المبدأ طيلة حياته، لم يتنازل ولم يساوم، ومارسه بتطرف ظاهر، ولكن، على الرغم من ذلك، وفي واقع الأمر، لم يكن قاسياً وسفاكاً للدماء».

---

(١) استناداً على هذه الحقيقة لاعتراضات بيكتير على الأقدمية، يسمح الباحث راتشنيفسكي بفكره أن بيلغوتاي كان أكبر في عمره من تيموتشجين، وهذا يعني أن بيكتير أكبر منه بمراحل، لهذا القول لم تكن ويلون زوجة أولى لإيسوغاي [راتشنيفسكي، ص٢٤]، ولكن على الرغم من ذلك إلا أن غالبية الباحثين لا يشاطرونه الرأي، ويرون أن ويلون كانت الزوجة الأولى لإيسوغاي، وتيموتشجين يعد الابن الأول والأكبر من الزوجة الأولى.

يطلق ل. غامبيس فرضية حول قتل تيموتشجين لشقيقه بأن هذا «كان إظهاراً لغريزة السيادة والسلطة» [غامبيس، ص٢٧].

حتى في تلك الأعوام عندما كان النهب والغارات والقتل أمراً مألوفاً، كانت حادثة مقتل الشقيق حدثاً فاق تصور الجميع، الأمر بالطبع لم يكن في السمكة التي نزعت بقوة من تيموتشجين، إنما تيموتشجين رأى في شقيقه بيكتير منافساً، فلذا أقصاه بمساعدة أخيه خاسار، الذي كان يوصف بضخامة جسده وقلة ذكائه.

من الواقع، وخلال عدة سنوات، بعد انهيار أولوس إيسوغاي، كبر الأخوة وصاروا شباباً، وآن الأوان لأن يرث أحدهم مكان والدهم، وبيكتير أيضاً استوعب الخصام حول السمكة، الذي يعدّ واقعاً لإقصائه، وحينها قبل أن يسلم زوجة طلب من أشقائه أبناء ويلون أن لا يقتلوا أخاه الأصغر بيلغوتاي، وأن لا يمزقوا عشيرته، وهكذا بلغ تيموتشجين مراده بعد قتل أخيه بيكتير، وأصبح رب الأسرة.

انتشر خبر القتل وعم السهوب، ومن الجائز أن أول من بلغهم الخبر تايجوت، الذين كانوا على علم بما يدور بخلد ويلون، التي كان هاجسها الانتقام، والتي كانت تغذي أبناءها بهذه الفكرة. إن تايجوت كانوا يتهيبون بتيموتشجين الذي نمى وترعرع، وبهذا الحدث أتاحت لهم الفرصة إمكان التخلص منه (على الرغم من أن هذا يبدو غير ممكن لدواعي آداب القربى وقواعدها) أو على الأقل بإخضاعه لسيطرتهم بصورة أكثر أماناً، حضر تارغوتاي كيريلتوخ إلى دار ويلون بصحبة حراسه (نو كير) طالباً تسليم تيموتشجين المذنب في حادثة القتل، ولكن تيموتشجين تمكن من الهرب، واختبأ في الغاب في أعلى جبل وعر المسالك، ولكن تايجوت أحاطوا بالغابة واستمروا ينتظرون ظهوره، ولكن بعد خمسة عشر يوماً لم يحتمل تيموتشجين الجوع، فخرج من الغابة، فقبض عليه تايجوت، وأخذه تارغوتاي معه لأولوسه، وأخضعه «للعقاب القانوني المستحق»، فوضعوا في عنق تيموتشجين حلقة دائرية ثقيلة الوزن، وعينوا من يقوم بحراسته، وبما أنه لم يكن

بالأولوس مكان بمنزلة السجن فإنه كان يرحل من خيمة (يورتا) إلى أخرى لقضاء الليل، بدا كما لو أن تايجوت قد قاموا بحراسة عدوهم المستقبلي بشكل آمن، إلا أن رأس تيموتشجين كان مشغولاً بفكرة واحدة هي الهرب.

إن هذا المقطع من السنوات الأولى لحياة جنكيز خان لا يبدو واضحاً في «التاريخ السري»؛ أي أسر تيموتشجين الشاب [كما ورد في السيرة المكنونة، ص٩١-٩٢]. يحكى في بادئ الأمر عن قيام تارغوتاي كيريلتوخ بأسر تيموتشجين وعزمه على إخضاعه «للعقوبة المستحقة»، ولكن يرد في المصدر نفسه فيما بعد كيف كان تارغوتاي كيريلتوخ واقعاً في الأسر لدى رعاياه راجياً إطلاق سراحه لأن الأمر سيان، فإن جنكيز خان ليس قاتله قائلاً: «أتدرون أن تيموتشجين لا يمكن ولا ينبغي له أن يقتلني، فعندما كان طفلاً أرجعته لداره، عالماً بأنه يتيم بدون أب، ولا يملك سوى:

«نظرة كالنار
ووجه كمطلع الفجر

أرى أنه متمكن وقادر على الفهم إذا علموه، فلقد درسته ودربته كما تدرب الخيول الأصيلة، فهل سيقتلني؟ لا، وأظن أنه لا يقدر على ذلك، ولا ينبغي له» [المصدر نفسه، ص٢٠-٢١].

ولعله من الجائز أن علاقات قائد تايجوت مع تيموتشجين وأسرة المتوفى إيسوغاي لم تكن عدائية بشكل قاطع[1]، حسبما ورد عند رشيد الدين، فإن

(١) يتشكك الباحث ب. راتشنيفسكي في الارتباط المباشر بين اختطاف التايجوت لتيموتشجين وقتله لأخيه بيكتير، بناءً على أن تيموتشجين وقع في الأسر أكثر من مرة في شبابه، ومن المحتمل ليس عند التايجوت فقط [راتشنيفسكي، ص٢٤]، ولكن نعتقد بأن المواد الموجودة تؤكد هذا الارتباط، إذا أخذ في الاعتبار أن هذا لم يكن أسراً فقط بل عقاباً على مقتل واحد من ذوي القربى.

تيموتشجين قد أسره ميركيت، بعض وقائع قصة أسر تيموتشجين على أيدي تايجوت وميركيت تتطابق، ففي «التاريخ السري» يحكى أنه بعد مقتل بيكتير «ظهر» على رأس حراسة تارغوتاي كيريلتوخ، الذي أدرك الأمر جيداً إنه :

قد كبرت إليهم
وكفّ سيلان لعابها من شدة الفهم

وحينها فرت الأم وأبناؤها فزعاً مختبئين في غابة التايغا، فقام حينئذ بيلغوتاي ببناء المتاريس من جذور الأشجار الساقطة، أما خاسار فقد تبادل تراشق[1] السهام مع العدو، واختبأ كل من خاتشون وتيموغاي وتامولون في الأخدود، وبرزوا للنزال، عندها أخذ تايجوت يصيحون طالبين «تسليم تيموتشجين الأخ الأكبر لا سواه!»، هذه الكلمات كانت الدافع لتيموتشجين لأن يهرب، وعندما لمح تايجوت انطلاقه نحو الغابة هبوا في أثره، ولكنه تمكن من التوغل في دغل كثيف بأعلى قمة تيرغون، وعندما لم يستطع تايجوت التوغل إلى الداخل أحاطوا بالأجمة وطفقوا يحرسونه [كما ورد في السيرة المكنونة، ص٩١-٩٢].

«أمضي تيموتشجين ثلاث ليال في التايغا، وبعدها قرر الخروج راحلاً وممسكاً بحصانه من لجامه، وفجأة حدث شيء أدى لتأخره، فقد تدحرج السرج من على ظهر حصانه، فأخذ يراقب ما حدث، فرأى أن السرج انزلق على الرغم من أن الحزام الذي يشد على الصدر لم يكن مرتخياً، أهذا هو سبب التأخير؟! وهنا أخذ يفكر فيما حدث مخاطباً نفسه: "الحزام يمكنه الانزلاق، ولكن الثغر الذي يشد الصدر، ما الذي يمكن أن يزحزحه؟ فإذن إنها السماء التي أرادت تأخيري، وقفل لاحقاً وأمضى ثلاث ليال أخرى، ولما قرر أن يخرج مرة أخرى رأى عند المخرج من الغابة جلموداً أبيض ضخماً بحجم اليورتا الراحلة قافلة المخرج، فقال في نفسه:

---

(١) هذه الحقيقة ولمرة إضافية تؤكد أنه كان عند أسرة ويلون محاربون وخدم.

" أليس من الواضح أن السماء تمسك بي؟! " وأمضى مرة أخرى في الغابة عشر ليال من غير أكل، مردداً في داخله: "لا أخالني أدفع نفسي إلى الهلاك المخزي؟ لأخرج الآن!: وأخذ في قطع الجذوع والأغصان بسكينة معداً منها السهام، وقاطعاً الأشجار التي تعترض طريقه، ومحيطة بذلك الجلمود الأبيض بحجم اليورتا الذي سقط من حيث لا يدري أحد قافلاً إلى الطريق، وبصعوبة قاد فرسه المتعثر شارعاً في الخروج إلى الفسحة خارج الدغل، وحينها انقض عليه تايجوت الذين كانوا على أهبة الاستعداد، وتم أخذه» [السيرة المكنونة، ص٩٢].

لا نود أن نكثر من تركيز انتباه القارئ على الإيحاءات في السير الشعبية (الفولكلورية): الغابة تحمي البطل، السماء والقوى الخارقة تحذره من الخروج، ولكنه يجرؤ على مخالفة إرادتهم، ويقع في أيدي مطارديه. لنلق نظرة على ما كتبه رشيد الدين إنه ـ على ما نذكر ـ لم يذكر ولو كلمة واحدة عن مقتل بيكتير، وفي الرواية عن ميركيت يقول: «ذات مرة في صبا جنكيز خان تمكنوا من الفوز عليه، وأخذوه على حين غرة أسيراً، وفي تلك الأيام لم تكن قد جرت العادة بقتل الأسرى فوراً؛ إذ كان من المحتمل أن ينالوا مقابلهم شيئاً ما، وعندها يخلون سبيلهم، وفي هذه الحادثة جرى ما يلي: كان تيموتشجين مسافراً لغرض ما، وعندما بلغ تلاً عالياً وتوجه نحو القمة انزلق السرج وجنكيز من على ظهر الحصان من غير أن يرتخي الحزام أو تنحل أحزمة الصدر (الثغر)، وسقط جنكيز خان مندهشاً من هذه الحادثة مخاطباً نفسه: "من الجائز أن الحقيقة المطلقة لا تريد أن أسلك هذا الطريق، وتعجزني من أمري"، وكان يود الرجوع، ولكن الشيطان تغلب عليه، وسار بهدى قلبه، وفجأة انقضت عليه مجموعة من قبيلة ميركيت، فقبضوا عليه وأخذوه معهم واضعينه تحت الحراسة، وبعد مضي وقت غير محدد أرسلوا في طلبه من دار جنكيز خان، وأخذوه عائداً إلى داره» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١١٥].

كما نرى إن أحداث سقوط تيموتشجين في أسر تايجوت وميركيت متطابقة، إنما رشيد الدين يورد عن أسر تيموتشجين من قبل تايجوت الآتي: «في الوقت الذي سادت الخصومات والعداء، قام هؤلاء الأخيرون متحينون فرصة ملائمة لاختطاف جنكيز خان بغتة»، «ذات يوم سقط جنكيز خان في أيدي الأعداء . . . ولكن حرره سورغان شيرا من قبيلة سولدوس» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٨٦]، وتتطابق في التفاصيل الأساسية حكاية هروبه من الأسر في «التاريخ السري» مع حكاية رشيد الدين، كلا الحكايتين مليئتان بالإثارة، والمؤلف يسمح لنفسه إيرادهما بكاملهما، ويرجو أن لا يسبب هذا للقارئ أيّ مضايقة، وهكذا «التاريخ السري»: «في السادس عشر من أول شهر الصيف، بمناسبة احتفال بيوم اكتمال البدر، أقام تايجوت حفلاً مرحاً على ضفة شديدة الانحدار على نهر أونون، وتفرقوا عند زوال الشمس، وحينها أحضر رجل ضعيف البنية تيموتشجين إلى حيث الحفلة، وساعتها انتهز تيموتشجين فرصة تفرق المحتفلين، وانتزع نفسه من أيدي الشاب ضارباً إياه مرة واحدة بالطوق الخشبي على رأسه، وكان بإمكانه أن يرقد في دغل من شجر البلوط على نهر أونون، ولكنه خاف من أن يلحظوه فغطس في الماء، رقد غاطساً في الماء تاركاً وجهه لأعلى، ومدلياً بالطوق الخشبي لكي يسبح مع التيار، وفي هذه الأثناء أخذ الرجل الذي أفلته يصيح: "المعتقل هرب!"، وعلى أثر صياحه أخذ تايجوت يتجمعون، ومن ثم شرعوا في البحث عنه في دغل البلوط على نهر أونون، حينها كان البدر مضيئاً كأنما الوقت كان نهاراً، وفي هذه اللحظة مر عبر ذلك المكان سورغان شيرا من قبيلة سولدوس، حيث كان تيموتشجين غاطساً في الماء، وعندما لمحه خاطبه قائلاً: "ما هذا الأمر؟ على ما يبدو أنك لست برؤوف تجاه أشقائك، وإنك لماكر، حتى إن:

في النظرة النار
أما الوجه فطلعة الفجر

لكن ارقد ولا تخف، فإنني لن أشي بك! " وسار مواصلاً طريقه، عندما أخذوا في التباحث حول مواصلة البحث نصحهم سورغان شيرا قائلاً: "دعونا نعاود البحث من جديد، كل في مساحته السابقة التي مر عليها" ، وافق الجميع وقفلوا عائدين بطريقهم السابق نفسه منقبين بحرص شديد، وعندما مر عليه سورغان شيرا للمرة الثانية خاطبه قائلاً: "ارقد لحالك، اخوتك بالقرب يشحذون أسنانهم وألسنتهم، ولكن لا تخف! " وواصل سيره مبتعداً، ثم أخذوا في التباحث مرة أخرى، وللمرة الثالثة ينصحهم سورغان شيرا قائلاً: "يا صغاري تايجوت، لقد ضاع منكم شخص في وضح النهار، فكيف يمكن أن تجدوه في ظلام الليل؟ دعونا للمرة الأخيرة البحث جيداً، كل في مساحته السابقة على طريق العودة لمنازلنا، على أن نجتمع صباحاً لمواصلة البحث، فإلى أين سيهرب شخص وفي عنقه طوق خشبي؟ " ، وافق الجميع وتفرقوا معاودين البحث، ومجدداً قدم نحوه على حصانه قائلاً: "اقتنعوا بالتوقف عن البحث، وفي الصباح سنواصل، حالياً انتظر حالماً نتفرق واهرب إلى البيت، وإذا ما شاهدك أيّ واحد كان، حذار من أن تفشي بأنني رأيتك" ، وبهذه الكلمات رحل عنه.

وبعد أن تأكد تيموتشجين من أن الجميع قد تفرقوا ذهب إلى أسفل نهر أونون باحثاً عن يورتا التابعة لسورغان شيرا، وفيما بينه كان يفكر "قبيل البارحة فقط . . . جاء علي الدور أن أقضي ليلتي ها هنا . . . أبناؤه (سورغان شيرا) تشيمباي وتشيلاون يعطفون علي، ليلاً ولمرآهم لمعاناتي كانوا يرخون الطوق الخشبي على عنقي، ويمنحونني فرصة أن أستلقي، وها هو الآن سورغان شيرا على الرغم من أنه رآني واصل مسيرته ولم يشِ بي، أفلا يخلصونني من هذه الورطة؟ " .

كانت خيمة الشعر (يورتا) التابعة لسورغان شيرا ملحوظة، إذ إنهم كانوا طوال الليل يصبون الحليب ويخضون اللبن المختثر (الكوميس) علامات تسمعها الأذن،

وعلى صوت طرقات المخض أخذ تيموتشجين دربه إلى يورتا سورغان شيرا، وما أن ولج داخلها تطلع إليه سورغان شيرا قائلاً: "أو لم أطلب منك أن تغرب عن وجهي؟ لأي شيء حضرت؟" وقتها قال تشيمباي وتشيلاون: "عندما يطارد كاسر طيراً صغيراً ويدخل إلى أجمة، فإنها تنقذه، فكيف يتسنى لنا أن نقول مثل هذه الألفاظ لشخص التجأ إلينا؟"، قاما وهما غير راضيين عن كلمات ولدهما، نزعوا الطوق الخشبي عن عنقه وأحرقوه، ووضعوه على المركبة المحملة بصوف الخراف الواقفة بالقرب من اليورتا، وأوكلوا أمره لأختهم الصغيرة خادان، مشددين عليها بأن لا تنبس ببنت شفة لأي كائن.

وفي اليوم الثالث، وعندما تطرق الشك للقوم بأن أحداً قد خبأه، أخذوا يفتشون الجميع، ولكن عند سورغان شيرا بحثوا داخل المركبات وفي كل مكان حتى داخل المقاعد إلى أن بلغوا المركبة المحملة بصوف الخراف الواقفة خلف اليورتا، نبشوا الصوف العلوي وكادوا أن يبلغوا قاع المركبة، حينها قال سورغان شيرا "كيف يمكن لشخص في هذا القيظ أن يبقى تحت هذا الصوف؟" وساعتها أوقف القائمون البحث وذهبوا، وما كاد البحث ينتهي حتى خاطب سورغان شيرا تيموتشجين قائلاً: "لقد كدت أن تزهق روحي، انطلق الآن، وابحث عن أمك وإخوتك!" معطياً تيموتشجين فرساً غراء مغراء اللون وطبخ له حملاً يبلغ سنتين من عمره، وجهز له قربة وإناءً، ولكنه لم يعطه سرجاً ولا حجر الصوان، بل أعطاه قوساً وزوجاً من السهام، بهذا العتاد أخلى سبيله . . . فقد عثر على ذويه» [السيرة المكنونة، ص٩٤-٩٦).

أما رشيد الدين فيروي أنه «حدث أن تارغوداي كيريلتوك حاكم قبيلة تايجوت الذي كان من أعدائه، أدركه وقبض عليه ضارباً عليه القيد وحجزه، وحينها لم تكن عادة قتل الأسرى. فوراً قد جرت، كانت هناك عجوز من قبيلة تايجو

إيغاتشي اسمها تايجو . . . هذه العجوز كانت تسرح شعر جنكيز خان كل الوقت وقائمة بخدمته، وكما كان الطوق الخشبي قد خدشه وأدمى عنقه وضعت عليه قطعة خفيفة من اللباد، عموماً أبدت نحوه كثيراً من العطف، بعد مرور بعض من الوقت وجد فرصة سانحة وهرب حاملاً في عنقه الطوق الخشبي، وفي تلك الأماكن بحيرة كبيرة، فغطس فيها بطوقه الخشبي، تاركاً أنفه فقط على سطح الماء، وفي أثره انطلقت فصيلة من تايجوت باحثين عنه، وكان بينهم سورغان شيرا من قبيلة السولدوس، الذي كانت خيمته المركبة على العجلات قريبة، وفجأة وقع نظره على الأنف المبروك لجنكيز خان الغاطس في الماء، فعرفه، وبطريقة غير ملحوظة أشار إليه بأن يغطس رأسه أكثر عمقاً، وقال للقوم (أي تايجوت): "واصلوا البحث في الأماكن المجاورة واتركوني لأكون على استعداد هنا!" وبهذه الطريقة تم توزيع القوم على أماكن مختلفة، وعندما أرخى الليل سدوله انتشل جنكيز خان من الماء، ونزع من عنقه الطوق الخشبي، وأخذه إلى منزله وخبأه في مركبة تحت الصوف، وعقب هذا الحادث تتبعت مجموعة من الرجال آثار جنكيز خان حتى مخبأه، وحينها انتابهم الشك بأنه موجود في يورتا سورغان شيرا، فبدأوا يفتشون الخيمة تفتيشاً دقيقاً، حتى إنهم قاموا بطعن الصوف بالسفود عدة مرات، ولكنه لم يخرج من هناك، هكذا الحقيقة العليا أرادت له السعادة، ولم يصب بأذى ولا آلمه جسده المبروك، ولم يعثروا عليه وذهبوا، وبعدها منحه سورغان شيرا مهرة مغراء وقليلاً من اللحم وسيخا لشوائه، وبعضاً من المتاع اللازم للسفر مثل سهام وقوس وغيرهما، بينما لم يعطه بعض الأشياء مثل حجر الصوان، وأخلى سبيله مودعاً» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٧٢-١٧٣].

يواصل رشيد الدين روايته، فيحدثنا عن تولوي الابن الصغير الرابع لجنكيز خان، الذي تنبأ ببراعة بعودة والده من الأسر قائلاً: «ها هو والدي مقبل من الأسر

على ظهر مهرة مغراء، حاملاً جوزاً من السوالق مربوطين على سرجه!»، وخلال ساعة يصل الأب إلى الدار على فرسه المغراء، ومعه زوج من السوالق «وساعتها ذهل الجميع من كلمات تولوي» [المصدر نفسه، ص١٧٣-١٧٤].

وهكذا تتطابق روايتا قصة هروب تيموتشجين من الأسر باستثناء بعض التفاصيل كما ورد في «التاريخ السري»، وكذلك عند رشيد الدين.

هل كان تيموتشجين أسيراً عند ميركيت؟ يبقى الأمر غير واضح. يؤكد ب. راتشنيفسكي على أنه «من الواضح أن تيموتشجين قد وقع في الأسر أكثر من مرة» [ب. راتشنيفسكي، ص٢٤]. إنه ينطلق من أن الأسر آنذاك لم يكن نادراً، لقد أمضى فان كاغان ميركيت سبع سنوات في الأسر عند الكيريت، وعند التتار ثلاثة عشر عاماً، أما شقيقه جاكا غامبو فكان في الأسر أيضاً لدى التانغوت، أما جاموخا المتآخي مع تيموتشجين فكان أسيراً أيضاً عند ميركيت.

عن وقوع تيموتشجين في صباه في الأسر عرف تشجاو خون الذي كتب أن «جنكيز في صباه الباكر سقط في الأسر لدى تسزينتسيين وأخضعوه للعبودية أكثر من عشرة أعوام، وبعدها تمكن من الهرب» [التدوين الكامل، ص٤٩] يرفض ف. ف. بارتولد الرواية التي تشير إلى سقوط تيموتشجين في أسر التشجور تشجينيين والصينيين: «إن معاصري جنكيز خان من الصينيين بالطبع الملازم لهم وكدأبهم حاولوا تفسير نجاحات الفاتح المغولي بالتأثير الصيني، ولهذا السبب اختلقوا الذرائع، وهو أسلوب معروف، فإذا كان تيموتشجين من صغره قد وقع في الأسر لدى قوات تسيزين وقضى أكثر من عشر سنوات في الصين، من الصعب أن يكون ذلك ممكناً، أيجوز أن الأساطير المغولية لم تحفظ أي إشارة واحدة عن مدة عشر السنوات من حياة جنكيز» [بارتولد، نشأة الإمبراطورية، ص٢٦١-٢٦٢]. يؤرخ جوز جاني في «طبقات الناصري» [مصدر القرن الثالث عشر) لأسر تايجوت

لتيموتشجين ٥٨٤ هجرية، ١١٨٧-١١٨٨ ميلادية [راتشنيفسكي، ص٢٤]. إذا أخذنا في الحسبان التواريخ المختلفة لميلاد تيموتشجين، الأعوام ١١٥٥-١١٦٢-١١٦٧ وتبعاً للتاريخ الذي أورده جوزجاني فإن تيموتشجين يكون قد بلغ من العمر ٣٢ أو ٢٥ أو ٢٠ عاماً، على كل الأحوال إنه قد تعدى ليس مرحلة الطفولة فقط بل مرحلة الصبا، حسب رواية رشيد الدين فإنه عند موت إيسوغاي كان عمر تيموتشجين ثلاثة عشر عاماً (أي إنّ هذا حدث عام ١١٦٧). عاش تيموتشجين مع والدته حتى أسره من قبل تايجوت عشرين عاماً، فليس من قبيل المصادفة أن يكون لديه أربعة أبناء، فمن البديهي أن مثل هذا التسلسل للأحداث لا يمكن أن يكون على صواب وتشوبه الشوائب، يفترض ب. راتشنيفسكي أنه عند موت إيسوغاي بلغ تيموتشجين الثامنة أو التاسعة من عمره، وفي الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره قتل بيكتير، وبعد هذا وقع في أسر التايجوت [راتشنيفسكي، ص٢٦].

مهتدون بأصل النص، فإن تيموتشجين عقب هروبه من أسر تايجوت عاش مع عائلته، معتمدين في غذائهم على صيد السوالق وفئران الجبال. كما يلاحظ ب. ي. فلاديمي تسوف «وهكذا عاش طفولته الشخص الذي فيما بعد ارتعدت أمامه فزعاً القيصريات الجبارة، والذي لم يقابل أي صعوبات لغاياته» [فلاديميرتسوف: جنكيز خان، ص٨١].

هنا وفي عزلة كاملة ثويت أسرة ويلون، وشب الأطفال تدريجياً، وصار تيموتشجين فتى قوياً، ولكنه اختلف عن أقربائه ليس بقوته الجسمانية، ولكن بذكائه ومكره، وهكذا تدريجياً صار رباً للعائلة، وظهرت لديه بوادر حرسه الخاص (نو كير).



«فليكونوا أقناناً عند عتباتكم»

«لأحطم أعداءكم
وأدرك طريدتكم وأحضرها»
ألتان توبتشي

ذكر فيما مضى أن رجالاً من قبيلة غريبة اختطفوا ثمانية أحصنة خصية من عائلة ويلون، يبدو أنهم كانوا على علم بأن ويلون كانت من غير حماية، فلذا تجرؤوا على ذلك بوقاحة أمام أعين الجميع، لقد شاهدت ويلون بأم عينيها الاختطاف، ولكنها لم تتمكن من عمل أي شيء، لم يبق في المربط أي حصان عدا فرس بيلغوتاي، الذي ذهب به لصيد السوالق، وعند عودته بدأ الجدال بين الأشقاء حول مطاردة اللصوص، حينها قال بيلغوتاي:

- أنا ذاهب للمطاردة.

فرد عليه أخوه خاسار:

- ليس بمقدورك، سأذهب أنا!

فرد تيموتشجين بحكمة الأخ الأكبر:

- ليس بمقدوركما، سأطاردهم أنا!

اعتلى تيموتشجين ظهر فرسه مقتفياً أثر الأحصنة المسروقة، وبعد ثلاث ليال مر بقطيع من الخيل وشاب في مقتبل العمر كان يحلب فرسه، فقال الشاب:

- رأيت بالقرب عند الصباح الباكر وقبل طلوع الشمس رجالاً يطردون ثمانية أحصنة.

ثم استبدل لتيموتشجين فرسه المتعب بآخر من قطيعه، وقال:

- لقد أنهكك الطريق يا صاحبي، وعند الفرسان النبلاء بلاء واحد، سأرافقك، إن والدي يدعى ناخو بايان، وأنا ابنه الوحيد، واسمي بوورتشو.

فذهبا إلى مطاردة اللصوص وردا الأحصنة المسروقة، وعند عودتهم تجمع الأصدقاء عند قطيع بورتشو، وحينها عرض تيموتشجين على بوورتشو أجراً لعونه، ولكنه رفض رفضاً قاطعاً، بل أعد ناخو بايان له مستلزمات الطريق، فذبح حملاً وملأ له قربة كاملة من المشروب، وعند الوداع قال:

- إنكما يافعان ومتحابان، فأرجو أن لا تهجرا بعضكما. [السيرة المكنون، ص٩٣-٩٥].

وهكذا وفق الأسطورة اكتسب تيموتشجين صديقه وحارسه الأول بوورتشو، الذي صار أفضل قائد ونصير. هذه الأسطورة في قالبها الشعري[(١)] تتحدث عن قوة تيموتشجين ووفود الحراس (نو كير) والأصدقاء لخدمته، وهذا بالطبع لا يحتم أولية التحاق بوورتشو في خدمته.

ينتسب بوورتشو إلى قبائل أرولات التي كانت تربطها علاقات طيبة مع إيسوغاي، حسبما ورد في «يوان شي» أن بوورتشو التحق بالخدمة عند تيموتشجين عندما كان عمره ثلاثة عشر عاماً، وتميز ببسالته ومعرفته لفنون الحرب وحب المعارك: «بوورتشو كأخ وشريك في الرأي لتيموتشجين، شارك في الغزوات في الاتجاهات كافة، ولم تكن هناك غزوة بدون مرافقته [لتيموتشجين]»، «في الوقت الذي لم يتم فيه إخضاع كل القبائل وترويضها، كان بوورتشو يقسم كل مرة بأن الإمبراطور ليلاً سينام بأمان واضعاً وسادته راقداً [بالقرب من مخدع تيموتشجين]، وكانا يتحدثان في أهم الأمور في بعض الأحيان حتى بزوغ الفجر، إن اتحاد الحاكم

(١) إن هذا المقطع مكتوم بصورة منمقة في كتاب «ألتان توبتشي» لوبسان دانزان.

وخادمه يشبه في جوهره ارتباط الماء والسمك». يحكى أن تيموتشجين ذات مرة في أثناء المعركة أصدر أمراً لا يتقهقر أحد ولو خطوة واحدة، حينها قام بوورتشو بربط نفسه من الركبتين والوسط على فرسه، ولم يتراجع حتى لفيرشوك (٤,٤ سم) من موضعه الأول. [يوان شي، الفصل ١٠٩، ص١٠ب].

يورد رشيد الدين، بناء على كلمات تيموتشجين المشهد الآتي: «ذهبت وبوغورتشي إلى الجبل، وفي كمين في الاتجاه المعاكس تربص لنا اثنا عشر رجلاً، كان بوغورتشي يسير خلفي، فلم أقم بانتظاره معولاً على قوتي وبأسي مهاجماً، ولكنهم في مرة واحدة أطلقوا على سهامهم فتطايرت حولي، وأنا هاجم عليهم، وفجأة أصابني سهم في فمي، فوقعت فاقداً الوعي من حدة الألم، وفي اللحظة لحقني بوغوتشي متحركاً على الأرض بأرجلي ومتدحرجاً كأنني كرة أو كرجل محتضر، حينها أسعفني بوغورتشي بماء ساخن، فمضمضت فمي، بصقت الدم الذي علق في حلقي، وعادت إلي الروح التي فارقتني وإمكانية الحركة والإحساس، فوقفت من جديد، وواصلت الهجوم عليهم، تدحرجوا من على الجبل لافظين أرواحهم من هيبتهم قوتي، السبب في إعفاء بوغورتشي نويون وأنجاله أي أوروغ من ربقة الخان لإبدائه في تلك اللحظة تفان منقطع النظير جدير بالثناء» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٦٥][1].

(١) توجد رواية أخرى أيضاً عن جرح تيموتشجين، إن بوغورتشي «منذ نعومة أظافره . . . كان دوماً برفقة جنكيز خان، ولم يقف قط ضده، بل كان يقدم له خدمات يستحق الثناء عليها، يقولون إن جنكيز خان عندما كان شاباً ذهب في الغزو مع مجموعة من التايجوت، وهناك أصيب بجرح في فمه وحلقه، ورجع بصحبة بوغورتشين نويون وبوراغول نويون، وعندما احتد به الألم في الطريق أنزله من على صهوة فرسه، حينها كان الثلج يتساقط، فرأى بوراغول نويون الممسك بلجام فرس جنكيز أن جنكيز قد ساءت حالته الصحية، فبدأ يحمي له حجراً، وبعد ذلك غمره بالماء، إلى أن تصاعد منه البخار وصلّى رأس جنكيز خان على حرارته، إلى أن أفرغ من حلقه الدم الذي تكور بشكل علقة، حينها تحسنت حالة جنكيز =

* سنعود مرة ثانية لحادثة جرح تيموتشجين في رقبته، ولكن نلاحظ وفق ما ورد في «التاريخ السري» أن من ساعد تيموتشجين حين جرح ليس بوغورتشي وإنما تشجيلمي.

بعد ذكرنا، أكثر من مرة، أنّ التسلسل التدريجي للأحداث الأساسية لطفولة تيموتشجين ورجولته مشوشاً، إن الذي وقع مع بوورتشو وإعادة الأحصنة يمكن أن يكون قد حدث قبل الأسر التايجوتي، إذا أخذنا في الحسبان بعض المصادر التي تشير إلى أنه وقت الأسر التايجوتي كان تيموتشجين أباً لأربعة أبناء، فهل كان الأمر كذلك أم لا، كتاب «التاريخ السري» يربطه بزمن ظهور بوورتشو كحارس (نو كير) عند تيموتشجين في زواجه.

عندما حان وقت زواج تيموتشجين اصطحبه بيلغوتاي إلى حميه ونصيره داي سيتشين وتزوج بورتي الفتاة الموعود بها منذ طفولته، رافقت تسوتان والدة بورني صغيرتها مباشرة إلى أسرة زوجها حيث عائلة ويلون على نهر سونغور في منعزل غوليلغو الجبلي، وبعد زواجه وفق العادات أصبح تيموتشجين رب العائلة حقيقةً بدلاً عن أمه ويلون الأرملة، اصطحب بيلغوتاي حماة تيموتشجين في طريق عودتها وصاحبه وحارسه بوورتشو أيضاً.

دخل بوورتشو في عداد أربعة الأبطال العظماء لتيموتشجين (بوروخول وبوورتشو وموخالي وتشيلاون)، ومن واقع الأمر وبقدر معين كان شقيقاه بيلغوتاي وخاسار أيضاً من حراسه (نو كير)، وليس هراءً عندما يردد تيموتشجين قائلاً: «بسيف بيلغوتاي وقوس خاسار نستطيع الاستيلاء على كل ما وسعته

= الصحية، وتيسر تنفسه، وبحكم أن الثلج كان يتساقط فإن بوغورتشين النويون أمسك فروته بيده مغطياً رأس جنكيز لكي يحميه منه، وظل واقفاً هكذا إلى أن أدركه الصباح، وبلغ الثلج حزامه، دون أن يتحرك من مكانه، وفي الصباح أجلس جنكيز على فرسه وصاحبه إلى مراعيه» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٦٩].

السموات» [يوان شي، الفصل ۱۰۷، ص۱أ]. كان بيلتوغاي دوماً يقاتل في الطليعة، هو وأسرته ورجاله كانوا يشغلون المنطقة الواقعة جنوباً لمقر تيموتشجين، بينما خاسار كان «رجلاً قوياً ومندفعاً جداً»، «يقولون إنه كان عريض الصدر والكتفين، أما خصره فكان نحيلاً إلى درجة أنه عندما يرقد على جنبه يمر كلب من تحته، ومن قوته إذا قبض رجلاً بيده كان يطبقه نصفين كما القوس الخشبي، محطماً عظام ظهره، ولمدة طويلة كان متحداً مع أخيه جنكيز خان ومشاركاً إياه الرأي» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٥١].

والد موخالي «كان يعدّ أن له علاقة قربى بجنكيز خان، وجاره أيضاً، ولهذا كان تحت إمرته» [يوان شي، الفصل ۱۱۹، ص۱أ]، ولقد أنقذ حياة تيموتشجين عندما طارده الأعداء بمنحه حصانه. عند ميلاد موخالي امتلأت اليورتا بالهواء الأبيض، وحينها أعلن الساحر أنه تم ميلاد طفل غير عادي، امتاز موخالي بذكائه ومثابرته ولباقته وبراعته في رمي السهام، كان رجلاً مخلصاً لتيموتشجين. يحكى في مؤلف «يوان شي» أنه ذات مرة عندما مني تيموتشجين ورجاله بالمصائب الواحدة تلو الأخرى، وحين وقعوا في عاصفة جليدية ولم يستطعوا العثور على اليورتا للمبيت، قضوا ليلتهم في مستنقع، فرش موخالي وبورتشو لتيموتشجين الفرو واللباد ومن الأخير صنعوا له حماية من الجليد، فأخفياه مواصلين حمايته من الجليد باللباد حتى بزوغ الفجر دون حركة ولو مرة واحدة. ذات مرة عندما انقض قطاع الطرق على تيموتشجين ورجاله، أفلح موخالي بنجاح في تسديد السهام عليهم، ويقال إنه حينها نزع السرج من على ظهر فرسه حاجباً به تيموتشجين من سهام المهاجمين [يوان شي، الفصل ۱۱۹، ص۱أ - ۱ب]، وعن بوروخول معلوم أنه كان في خدمة تيموتشجين، ويعدّ أحد ألفيته الأولى، ومات على أيدي الأعداء، ساعد تشيلاون ابن سورغان شيرا تيموتشجين في الهروب من الأسر

التـايجـوتي، ومن الواضح أن كل من تم ذكـرهم قـد أتوا لخدمـة تيمـوتشـجين، وأصبحوا حراساً له (نو كير) لأسباب مختلفة، والأوضح أنهم كانوا يبجلونه لنسبه العظيم وصفاته الذاتية، هؤلاء القوم مثلهم والكثيرون ـ الذين سنتحدث عنهم لاحقاً ـ انضموا لتيموتشجين في أثناء الحروب القبلية التي دارت على السهوب المغولية في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي، ولم يخطئوا في تقديرهم.

استناداً على نصوص المصادر أخذ تيموتشجين بعد زواجه يظهر نشاطه كشخص سياسي، قبل كل شيء عندما بدأ يفكر في البحث عن حلفاء للمعارك القادمة ضد الأعداء، عند قدوم بورتي لبيت بعلها أهدت لحماتها ويلون فروة من جلد السمور، ولكن تيموتشجين قرر إهداءها لفان كاغان حاكم الكيريت مسوغاً ذلك «بالتآخي الذي تم بين فان خان ووالده إيسوغاي خان في وقت ما، وبهذا أصبح فان خان مثله مثل والده إيسوغاي خان» [السيرة المكنونة، ص٩٥].

كان تيموتشجين داهية وهو يافع، مدركاً لقيمة الألقاب، ولهذا يبدو أنه في البداية عدّ والده خاناً، فماذا يصير ابن الخان؟ يصبح خاناً أيضاً.

في الواقع أن إيسوغاي باتور تآخى مع فان كاغان ميركيت في وقت ما؛ لأنه قدم له المساعدة وأنقذه من المصائب عدة مرات، إن طريق الوصول إلى السلطة بالنسبة لفان كاغان كان كسائر الخانات التترية المغولية، التي لم يكن طريقها مفروشاً بالورود بل بالرؤوس، كان جده ماركوز أسير التتار الذين أسلموه لقبيلة التشجورتشجينيين، لقد بدأ فان خان طريقه إلى المستقبل بقتل شقيقيه تاي تيمور تايشي وبولا ماغاسو، استغل عمه غور خان هذا الحدث وانقض عليه محتلاً أولوسه «دفع غور خان أون خان (أي فان. تعليق المؤلف) إلى الهروب، بعد أن نهبه مع مئات من رجاله مبتعداً عن مطاردة الأعداء، فانحاز إيسوغاي كآن إلى جانبه، وقال لأنصاره: "يجب علينا مصادقة هذا الرجل". وهكذا صار فان خان

أخاً (اندا بالمغولية) لإيسوغاي خان، إلا أن كوتولا كآن أبدى اعتراضه على مآخاة فان خان قائلاً: "إن الصداقة معه لأمر مشين بحكم معرفتنا الجيدة له، فمن الأفضل أن نتآخى مع غور خان بحكم أنه ذو طبع لين وطيب المعشر، بينما فان خان قتل أشقاءه وبدمهم دنس راية الشرف . . ."، ولكن إيسوغاي باتور لم يقاسم كوتولا الرأي، وأصبح صديقاً وأخاً لفان خان، كما هجم برجاله على غور خان دافعاً إياه للهروب ومملكاً أولوسه لفان خان» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٣٠].

هرب غور خان إلى دولة سي سيا التانغوتية، وقبل ذلك هرب أركي خارا شقيق فان خان إلى النايمان، الذين انقضوا فيما بعد على فان خان، واحتلوا أولوسه، وسلموه لأركي خارا، «ولكن والد تيموتشجين للمرة الثانية قدم مساعدة لأون خان طارداً أركي خارا من أولوسه، منصباً مكانه أون خان الذي كان حاكمه سابقاً» [المصدر نفسه، ص١٣١]. يمكن القول إن تيموتشجين عاش بعيداً تحت وطأة الأسر، إلا أنه على الرغم من ذلك كان على علم بما يجري في السهوب المغولية الكبيرة، فلهذا لم يكن اختياره للكيريت هراء.

إن الكيريت كانوا أقوى قبيلة، وحسب ما أورده رشيد الدين «في الأراضي المغولية آنذاك كانوا جبابرة وبواسل بالمقارنة مع القبائل الأخرى، ولقد بلغتهم رسالة سيدنا عيسى عليه السلام وآمنوا بها» [المصدر نفسه، ص١٢٧]، وهكذا أصبح الكيريت مسيحيين على المذهب النسترياني. إن رعاية وصداقة أقوى خانات السهوب المنغولية مكن تيموتشجين من الدفاع عن نفسه وساعدته في القضاء على أعدائه واستعادة بناء أولوس والده. استقر تيموتشجين على نهر نولا بالقرب من المكان الذي كان فيه معسكر (أوردا) فان خان، قائلاً لفان خان:

- في وقت ما تآخيتم مع والدي، فلذا أصبحتم أيضاً أبي.

وأهدى له فروة والدته المصنوعة من جلد السمور.

يبدو أن فان خان كان على علم بأفعال ابن أخيه إيسوغاي ومقدراته، والأهم من ذلك أهدافه، قائلاً لتيموتشجين هذا ما كان يرجوه:

- وفي العرفان على هذه الفروة سأجمع أولوسك المتشتت.

وبعد عودته من فان خان أقبل إليهم شيخ مغولي وأهدى لهم ابنه تشجيلمي لخدمتهم، وقد كان هذا الشيخ حافظاً لمجد أسرة إيسوغاي، وسبق أن أهدى لهم قماطاً من جلد السمور عند ميلاد ابنهم تيموتشجين، وقال مهدياً ابنه:

مروه بسرج الخيل
مروه بفتح البيوت

وهكذا حصل تيموتشجين على حارسه الثاني (نور كير)، وبهذه العبارة أعطى المغول الآخرون أبناءهم كنو كير في خدمة تيموتشجين، غون فا مهدياً أخاه بوغو وأيضاً موخالي، يزعمون أنه قال:

فليكونوا خدماً عند عتبة دياركم
فإذا ولوا، فاقطعوا عراقيبهم
فليبقوا خدماً متوارثين عند عتبة دياركم قابعين
فإن حادوا عنها فانزع أكبادهم

وقد دبج تشيلاون خايتشي العبارة نفسها عندما أهدى ابنيه تونغي وخاشي كنو كير:

أهديكم إياهم
لكي يكونوا دوماً على عتبتكم الذهبية
فإن حادوا وولوا عن عتبتكم الذهبية

فازهقوا أرواحهم
أهديكم إياهم
لكي يفتحوا خباءكم العريضة
فإن تركوها
فانتزع قلوبهم

(عن «السيرة المكنونة» ص١١٤-١١٥)

من الواضح أن الالتحاق بالنوكيرية لدى الخان آنذاك كان يتم بمرسوم معين وبعبارات وكلمات معينة ومحددة ترمز إلى هبة الابن في الخدمة المخلصة الدائمة لدى الخان، وفي حالة النكوص أو الغدر كان العقاب الموت، كان تشجيلمي من قبيلة أوريانخات، يذكر لنا اسمه الكامل رشيد الدين تشجيلمي أوخي «وتعني "أوخي" سليط وقاطع طريق وجبار، وبحكم أنه كان يحمل تلك الصفات أطلقوا عليه هذا الاسم "أوخي"». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٥٧].

من الواضح أن قوة تيموتشجين أصبحت جلية، محادثاته مع فان خان لم تعجب الكثير، فلذا فكر ميركيت في الانتقام منه بسبب المشكلات القديمة التي قام بها والده إيسوغاي مع حفيدهم تشيلدو، عندما خطف منه خطيبته ويلون، كانت الغارات الجريئة العلنية في القرن الثاني عشر الميلادي في منغوليا شيئاً طبيعياً ومألوفاً، بينما كانت السرقة الخفية تعدّ عملاً مشيناً ووضيعاً، أما الأخذ بالقوة فيعدّ مأثرة رجولية، فلقد كتب جويني عن حياة القبائل التترية المغولية قبل ترقي تيموتشجين قائلاً: «إنهم لم يكونوا متحدين مع بعض، بل كان بينهم العداء والخصومات، ومنهم من كان يرى النهب واستعمال القوة أعمالاً غير أخلاقية، أما شرب الخمر فيعدّ مأثرة وشجاعة» [جويني، المجلد الأول، ص٢١].

أغار ثلاثمائة فارس من ميركيت بقيادة توخشوا بيكي الأخ الأكبر لتشيلدو على عائلة ويلون وابنها تيموتشجين الذين كانوا غير مستعدين، هناك من امتطى ظهر جواده على الفور، ومن كان على أهبة القفز عليه، تم القبض على بورتي زوجة تيموتشجين والزوجة الثانية لإيسوغاي أم بيلغوتاي وأسرهن، فإذا كان تشيلدو حياً فلابد أن يكون من نصيبه بدلاً عن ويلون، فلذا وهبوا بورتي زوجة تيموتشجين عشيقة إلى الأخ الأصغر لتشيلدو المسمى تشيلتشير انتقاماً لخطف إيسوغاي لويلون، والواقع يبدو أن بورتي كانت حاملاً وفي انتظار ابنها الأول تشجوتشي.

ولحاجة الميركيت في العثور على تيموتشجين «قاموا بمطاردته مدة طويلة واقتفوا أثره حتى في المستنقعات والبقاع التي لا تتمكن الحية الشبعى الزحف عليها» [السيرة المكنونة، ص٩٧]. كان تيموتشجين على علم بأنه إذا تم القبض عليه فسيقتله الميركيت، وبعد ذهابهم قال تيموتشجين: «حينها انتابني ذعر رهيب»، قالها بعد متابعة بيلغوتاي وبوورتشو وتشجيلمي للميركيت وتأكدهم من أنهم آبوا لأولوسهم، ولم ينصبوا كميناً للقبض على تيموتشجين.

خرج تيموتشجين ورمزاً للنجاة والتخلص من المصائب بالتضحية للشمس، فاكاً حزامه رابطاً به على رقبته، وخالعاً قبعته ضارباً بها على صدره، راكعاً تسع مرات، وأيضاً أهرق لبن الخيل المتخثر (الكوميس) [المصدر نفسه، ص٩٨] «وهكذا كان المغول يبجلون مقدساتهم بفك الأحزمة وخلع القبعات، معبرين بذلك عن امتثالهم الكامل للإرادة العليا؛ لأن إرادتهم بشكل معين تعني عندهم مظهر الحرية الشخصية لحاملها أي القبعة والحزام» [فلاديمير تسوف: «جنكيز خان» ص٣٧].

يرى رشيد الدين أن ميركيت لم يتركوا بورتي بحوزتهم بل وهبوها لفان خان الذي استقبلها بحفاوة «وتولى أمرها بحكم أنها زوجة ابنه»، وعندما اقترح عليه أن يتزوجها، قال:

- إنها زوجة ابني، ولا يحق له أن ينظر إليها بعين الخيانة.

بعث تيموتشجين رجاله لجلب بورتي، وعند عودتهم ولدت ابنها تشجوتشي «وذلك لخطورة الطريق، فلذا لم يتمكنوا من الوقوف أو حتى من صنع أرجوحة للمولود، بل اكتفوا بصنع قالب طري من العجين، ولفوا به الطفل ثم ربطوه بطرف الثوب، وحملوه برفق، حتى لا تتحطم أعضاؤه، وسموه تشجوتشي بحكم أنه ظهر للوجود بغتة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص٩٨]. ولكن توجد مسوغات، على الرغم من ذلك، تجعلنا نؤمن بما ورد في «التاريخ السري» الذي يحتفظ بالولاء لهذا البطل، تلك المسوغات التي أصبحت أكثر حقيقة وواقعية، ومؤلفوها سمحوا لأنفسهم كتابة ما لم يجرؤ على ذكره رشيد الدين، أي إنه لا يمكن أن تكون زوجة مؤسس الأسرة المالكة عشيقة لكائن من كان، وترجع إلى زوجها بابن قد يكون من غير صلبه!

❂ ❂ ❂

لقد عثرت على ما بحثت

«لثأرنا الدموي لمنفذين

ولقبائل الميركيت أودويت وأوفاس لساحقين

ولبورتي العزيزة علينا لمرجعين»

السيرة المكنونة

مهما يكن من أمر فإن هجوم ميركيت قد تحول فجأة إلى التوفيق بالنسبة لتيموتشجين، الذي كانت زوجته في الأسر الميركيتي، وتعوزه القوة اللازمة لإنقاذها، فلذلك برز المسوغ القانوني لمطالبة الخان الكيريتي فان كاغان للتحول من الوعود إلى الأفعال، لقد سبق أن سافر خاسار وبيلغوتاي شقيقا تيموتشجين إلى ضفة نهر تولا في الحرش الأسود حيث مقر قيادة فان كاغان، الذي وافق على المشاركة في الغارة على ميركيت:

– لأجل فروة السمور السوداء لملقِ الميركيتيين كافة إلى الجحيم بلا استثناء، وسنعيد إليك بورتي.

وعد فان كاغان بأن يقدم جيشين عرمرمين طالباً أن يصطحبه في الغارة جاموخا المتآخي مع تيموتشجين ومن أقربائه البعيدين، الذي كان في يوم ما في أثناء حياة إيسوغاي مشاركاً لتيموتشجين لهو وألعاب طفولته، جاموخا من قبيلة تشجاتشجيرات، وهو من أقرباء تيموتشجين ومتآخ معه، أي «أندا»، كان تحت إمرته عدد غير قليل من الرجال الذين كان من المفروض أن يتبعوا لتيموتشجين. يصف رشيد الدين جاموخا بأنه «رجل ذكي وماكر جداً»، ولذلك لقبوه بالحكيم؛ أي «ستشين»، «كأن جنكيز خان يناديه دوماً بالشقيق (أندا) إلا أنه كان يعد لجنكيز

خان الدسائس، ويدبر له المكائد والخيانة والغش، ودائماً كان يسعى لأن يأخذ زمام الحكم بيده». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٩٠] كان من المفروض على جاموخا أن يحدد المكان والزمان للالتقاء بالفصائل المغولية والكيريتية بناءً على إلحاح فان خان.

إن دعوة جاموخا للمشاركة في الهجوم لم تكن وليدة مصادفة، من الواضح أن فان خان كان على علم بما يدور عند المغول، المؤكد شيء واحد هو أن كثيراً من المغول كانوا يميلون لجاموخا، إن جاموخا وتيموتشجين على حسب الاحتمال آنذاك قد بدا للجميع كمتنافسين لزعامة المغول كافة، حتى فان خان المدان لوالد تيموتشجين لم يرغب من خلال صداقاته التوحيدية أن يفضل أحدهما على الآخر ليس بالقول وإنما بالفعل.

بالفعل رأى تيموتشجين في شخص جاموخا منافساً له، هذا ما يؤكد أن تيموتشجين حفاظاً لكبريائه لم يذهب إلى جاموخا كما فعل سابقاً مع فان خان، بل اكتفى بإرسال أخويه كما فعل مع فان خان طالباً منهم إبلاغ الكلمات الآتية:

- عرش قد تحول إلى هباء منثور، أغرباء على بعض نحن أماذا؟ فكيف سنقوم بالثأر من العار الذي لحق بنا؟

وكما طلب أيضاً تيموتشجين بإبلاغ كلمات خان الكيريت الآتية: «متذكراً بأنني مدان في ذاك الوقت بأفضال والدكم إيسوغاي خان سأحرص على الصداقة، سأكون الجناح الأيمن بجيوشي الحاشدة الاثنين، أرسل وحادث شقيقك الأصغر جاموخا، أفلا يخرج هو أيضاً بجيشيه الاثنين؟ مكان اللقاء وزمانه فليحدده الشقيق جاموخا بنفسه» [السيرة المكنونة، ص٩٩-١٠٠]. حقاً تعين على جاموخا وليس تيموتشجين أن يحدد مكان اللقاء وزمانه، وأيضاً كانت القوة الفعلية للجيشين المحتشدين في يده وليس بيد تيموتشجين، وبعد أن سمع من إخوته رسالة تيموتشجين رد جاموخا قائلاً:

- سترون من على البعد رايتي التي على سارية طويلة، وعلى طبلي المشدود عليه جلد ثور مخصي، غليظ الدوي ضربت، وحصاني ذا الظهر الأسود أسرجت، ولدرعي المحاك بالسيور الجلدية لبست، ممسكاً بمقبض سيفي، ولسهامي ذات الندوب أعددت، وأنا مستعد للقتال حتى الموت ضد ميركيت، هكذا بلغوهم رسالتي.

ما دافع مشاركة جاموخا في الإغارة على ميركيت: جشعاً في الغنيمة؟ أم الرغبة في مساعدة تيموتشجين ووضع منافسه تحت سيطرته؟ أو من الجائز أن الاعتماد على فان خان الذي يحسب وفق الدبلوماسية المتبعة آنذاك بمنزلة أخ أكبر بحكم صغر سن جاموخا؟ الذي يعد نفسه أخاً أصغر؟ من الصعب الرد برأي قاطع. من الجائز أن كل الاحتمالات واردة، وضع جاموخا وفق الاتفاق المبرم خطة الهجوم المباغة للقوات المتحدة، وحدد مكان التقائها في أعالي نهر أونون، أما خاسار وشقيقه بيلغوتاي فشأنهم كرسل يفترض عليهم أن يحفظا حرفياً الأسئلة والأجوبة والرسائل، وينقلوا النتائج والحلول التي توصل إليها ثلاثتهم: جاموخا وتيموتشجين وفان خان.

كانت تسود بين قيادة الحلفاء ـ الذين تعين عليهم أن يلعبوا دوراً مهماً في حياة السهوب المغولية في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ـ منذ البداية، روح عدم الثقة، انتهز جاموخا وفان خان ـ اللذان بحوزتهما جيش مكون من عشرين ألف مقاتل ـ الفرصة لنهب الميركيتيين، ومن الملاحظ قبل هذا أنه لم يعن بخاطر أحدهما مساعدة تيموتشجين إبان اعتقالاته، بينما كان تيموتشجين يأمل في أن ينقذ شرفه ويعيد زوجته، وبالحصول على نصيبه من الغنيمة في ظل النصراء الأقوياء يمكنه إصلاح الأحوال وإعادة بعث أولوسه.

كان يفكر كل واحد منهم بخداع الآخر، وينظرون إلى بعض بتوجس، لما كان مقر قيادة تيموتشجين يقع على الطريق الذي يتحتم على فان خان وجيوشه المرور به إلى المكان المتفق عليه، وعند هجوم الجيش الميركيتي المفاجئ عليه من الخلف ابتعد تيموتشجين عن مقره، إلى أن تأكد من زوال خطر الانقضاض عليه، فانضم إلى جيش فان خان الذي تأخر عن الموعد ثلاثة أيام، أما جاموخا الذي كان بانتظار الحلفاء عند اقترابهم فقام بتنظيم جنوده مستعداً للقتال، وفعل الميركيتيون الشيء نفسه، لم يبدأ الحلفاء هجومهم إلا بعد أن تبادلوا المهاترات حول التأخير، حدث هذا في عام الأفعى الموافق لعام ٥٧٣ الهجري، أي في الأعوام ١١٧٧-١١٧٨ حسبما ورد عند رشيد الدين، وحينها بلغ تيموتشجين من العمر ٢٢-٢٣ عاماً، وبحساب آخر فقد تم الغزو في عام ١١٨٤ الميلادي، (أي انطلاقاً من عام ميلاد ابنه أوغاداي) يشير العالم المنغولي سانداغ إلى العام ١١٨٨ تبعاً للتاريخ الذي يفترض أن يكون قد ولد فيه تيموتشجين فإن عمره يكون ٢٩ (٣٣) أو ٢٢ (٢٦) أو ١٧ (٢١) عاماً.

الهدف الأساسي من خطة جاموخا الانقضاض بغتة على الميركيتيين «وبالأخص على توختوا بيكي الميركيتي مباشرة عبر فتحة الدخان في اليورتا، نحيل ما يعز عليه إلى هباء منثور، نسبي النساء والأطفال بكثافتهم، ونسحق كل مقدس عنده بأقدامنا، ونبيد الشعب عن آخره» [السيرة المكنونة، ص١٠١]. إن المخطط كما نرى كان جاداً ومنذراً بالشؤم، ولقد نجح تقريباً. جيوش فان خان وجاموخا سيتشين «نفذوا عبر فتحة الدخان» كالمطر في نهار سماء صافية، منقضين على الميركيتيين مبيدين أولوسهم «الذي كان يتبع لتوختوا بيكي»، ولكن توختوا بيكي الذي علم بالهجوم من خدمه الذين كانوا حينها يصطادون السمك والوحوش بالقرب من المعسكر، وهرب نفر قليل من خدمه متتبعاً نهر سيلينغا باتجاه بحيرة

بايكال إلى «أرض بارغوتشجين»، كذلك سلك الطريق نفسها تقريباً كل رجال أولوسه مطاردين من قبل قوات تفوقهم في العدة والعتاد «المنتصرون تعقبوهم، قتلوا من قتلوا وأسروا البقية»، أما تيموتشجين فقد كان مشغولاً بأمر البحث عن بورتي «ملاقياً جموع الهاربين كان يصيح بأعلى صوته: "بورتي، بورتي!" وعندما سمعت بورتي صوت بعلها تيموتشجين قفزت من العربة وأمسكت بلجام جواده، وعندما تعرفا على بعض تحاضنا، وبعد ذلك سرعان ما أرسل تيموتشجين رجاله إلى فان خان وجاموخا ليبلغهما الآتي:

- لقد عثرت على ما أبحث، لنوقف المطاردة الليلية ونقضي ليلتنا هنا» [كما ورد في السيرة المكنونة، ص١٠٢-١٠٣].

يرى ب. ي. فلاديميرتسوف أن تيموتشجين «كانت له الأسباب التي تجعله لا يريد أن يرى انسحاق الميركيتيين الكامل»، لم يستطع وقتها بيلغوتاي العثور على والدته؛ أي زوجة إيسوغاي الثانية، وتهدد الميركيتيين بالإبادة الكاملة، إذا لم يرجعوها، المحاربون الميركيتيون الذين هاجموا مقر تيموتشجين وأسروا بورتي ووالدة بيلغوتاي تم إعدامهم، أما زوجاتهم «الملاح النافعات» فتم أخذهن كسبايا «واللائي يناسبن الوقوف بخدمة عتبات الديار» تم اعتمادهن كخدم؛ أي بمعنى آخر أحالوهن إلى رقيق [المصدر نفسه، ص١٠٤].

ختم المنتصرون مسيرتهم عند ملتقى نهري أونون وسيلينغا، وبعد ذلك رجع فان خان إلى معسكره، أما تيموتشجين وجاموخا فبقيا للعيش معاً في معسكر واحد، ويسمى مقرهما خورخونوختشجوتور، فجمعت بينهما تلك القوة الرهيبة، أي الصداقة التي من خلالها لا يستطيع أحد أن يترك الآخر خوفاً من أن يصبح ضحية لها. على الرغم من أن تيموتشجين كان معارضاً للسحق الكامل للميركيتيين عند هجوم الحلفاء الأول، إلا أنه يبدو أنه حاول الاحتفاظ بهم كقوة منفصلة من

أجل الصراع على السلطة في منغوليا، ولكنه لم ينس لهم الهجوم وأسر زوجته، حسب معلومات رشيد الدين «إنه أصدر أمراً ثانياً لا يترك في الأحياء منهم أحداً؛ لأنهم قبيلة متمردة ذات بأس حربي، وأكثر من مرة دخلوا معه في حروب» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١١٦].

من المحتمل أن أصل لفظ الاسم الذي أسمى به تيموتشجين ابنه الأكبر تشجوتشي أي بمعنى «الضيف» كان نتيجة ذلك الإحساس الخفي الذي كان يداخل تيموتشجين بأن تشجوتشي من المحتمل أن يكون قد اكتسب نصفه الثاني من الميركيت.

توجد كل المسوغات للاعتقاد بأن خروج تيموتشجين من هذه الغزوة عارياً من كل متاع الدنيا وعتادها سوى قلة من الرجال من نوكيره وأقربائه، كان وحيداً ومطارداً، ولكن الهبة السماوية والمقدرة القيادية قد برزا عليه بشكل ملحوظ، وسرعان ما أوشك أن يصبح خاناً كما ذكر باستمرار في «التاريخ السري». إن ل. غامبيس يفترض، وبشكل مقبول للغاية، أنه إذا لم يكن لجنكيز خان في أثناء غزوة للميركيتيين حشدان من الجيوش، فقد كان لديه جيش واحد كثير العدد، لقد كتب قائلاً: «حسبما هو وارد في المصادر، فإن هناك مشكلة غير قابلة للحل هي كيف تسنى لتيموتشجين في استعداده للغزو على الميركيتيين أن يجمع جيشاً قادراً على التحدي بندية لاثنين من جيوش فان، وكذلك لاثنين من جيوش جاموخا» [غامبيس، ص٣٦].

يؤكد ب. راتشنيفسكي بحق أن تيموتشجين أثبت وجوده كجزء من المنظومة التي تحكم السهوب المغولية، التي تربط بينها أواصر الدم، كما كان دأب الحال آنذاك في مناطق آسيا الوسطى والصين:

فان كاغان: الأب والأخ الأكبر لـ

وتيموتشجين الابن　　　　　تشاموخا الأخ الأصغر

بقدر ما كان الفرق بين الأجيال مهماً من خلال جيل واحد، كانت مكانة جاموخا بصفته أخاً أصغر لفان كاغان أعلى من مكانة تيموتشجين الابن الذي «يعدّ من أبناء جيل أصغر» [راتشنيفسكي، ص٣٣].

من الواضح والجلي أن الأحداث الأكثر صدقاً مرتبطة بالغزو على الميركيتيين، حتى ولو على الشكل الملحمي، قد وردت في «التاريخ السري»؛ أما عن الغزوة على الميركيتيين وأسر بورتي زوجة مؤسس الأسرة الحاكمة، فإن «يوان شي» و «شان أ تسين تشجان لو»؛ أي مصادر العصر الإمبراطوري فتلزم الصمت على كل هذه الأحداث بشكل تام، كما سبق أن علمنا من كتابات رشيد الدين الذي سرد عن الغزوة وأسر بورتي، ولكن وجد طريقة لإخراج بورتي من أسرها، فإن إعادتها فوراً من قبل الميركيتيين لفان كاغان (من المحتمل، والشيء الأقرب للواقع، أنهم كانوا مرتبطين به، أي بمعنى أنهم يعترفون له بوصفه أكبرهم في تلك المنظومة التي أشرنا إليها سابقاً في حديثنا)، ويقوم فان كاغان بإعادتها لتيموتشجين، فإذا افترضنا جدلاً أنّ تيموتشجين تسلم بورتي من فان كاغان فإن من المحتمل أيضاً أن الغزوة على الميركيتيين تكون غير ذات معنى، وكيف يستطيع فان أن يضيع هيبته بالمشاركة فيها؟ وبالمناسبة إذا أخذنا في الحسبان رواية «ألتان توبتشي» الأكثر حداثة، فإن زوجة إيسوغاي الثانية «وعندما توجه بيلغوتاي لإنقاذ أمه داخلاً عليها من اليورتا عبر بابها الأيمن خرجت والدته من الباب الأيسر لابسة أسمالاً من جلد النعاج وهي تقول لرجل ما: "قالوا لي إن أبنائي أصبحوا خانات وأنا هنا ارتبطت برجل رديء، فكيف يتسنى لنا أن أنظر لأبنائي في وجوههم؟"» [ألتان توبتشي، ص٩٣].

وفي خانات هذا المصدر نفسه أن تشيلتشير شقيق تشيلدو ندم على تجرؤه بأخذ بورتي جارية قائلاً :

الغراب الأسود
بحكم العادة يأكل فتات الجلود
ويقال إنه تمنى أن يأكل وزة أو غرنوقاً
يا لي من جلف رديء يا تشيلتشير !
ما أهون أن يكون عقابي بفقدان رأسي
رديء ذلك الطائر صائد الجرذان
كتب عليه أن يقتات بالجرذان والسوالق
ويقال إنه تمنى أن يتذوق غرنوقاً وحتى بجعة
رديء ووضيع أنا يا تشيلتشير
بحماس رغبت
وصرت وبالاً على الميركيتيين كافة
[ألتان توبتشي، ص٩٢]

تشيلتشير الذي أخذ بورتي جارية ثأراً لعار شقيقه تشيلدو بالطبع يتعامل مع أسيرة غير عادية، التي ستصير يوماً ملكة بل إمبراطورة .



أولوسي الخاص

«ها أنا ذا أرى بأم عيني الثور الأجلح
الأرقط يجر يورتا على عجلات،
وخلفها يسير تيموتشجين على
الدروب المطروقة، والثور يخور
ويخور ثم ينمنم: اتفقت الأرض
والسماء وكتب على تيموتشجين أن
يكون قيصر القياصرة، فليأخذ بزمام
السلطة»

السيرة المكنونة

انتهى الغزو الميركيتي بالنصر، «وحينها انحنى تيموتشجين بوقار أمام فان كاغان وتشاموخا قائلاً: "أيها الكاغان، الأب، وأيها الأخ المتآخي جاموخا، بعد تصادقنا نلت من السماء والأرض القوة والبأس

بما هو في السماء مسطر
وبعون الأرض الأم
لدى الميركيتيين الذين أسموا أنفسهم رجالاً
طاب لنا أن نتنفس الصعداء
ونمزق أكبادهم
لقد أفرغنا أسرّتهم
وقضينا على عشائرهم وأنسبائهم

وما تبقى أسرناهم
وشعب الميركيت حتى النخاع أبدناهم * »
[ألتان توبتشي، ص٩٣-٩٤].

لقد كان جاموخا صديق الصبي لتيموتشجين وقريبه، كان في ذلك الزمان الرأس الفعلي لذلك الجزء من القبائل التترية المغولية، التي سميت بالفعل بالمغول[1]، لقد سبق أن ذكرنا أنه قد عاشت في أولوسه مجموعة كبيرة من الناس الذين كانوا يدينون بالولاء لأولوس إيسوغاي، والذين كانوا الأولى أن يدينوا لإمرة تيموتشجين.

وبعد انهزام الميركيت يبدو أن تيموتشجين قد حصل على قدر لا بأس به من الغنائم، ولكن بقي تيموتشجين ومحاربوه مع جاموخا لأسباب نجهلها، لعلها الخوف من البقاء مرة ثانية في الوحدة أو متتبعاً لخطة بعيدة المدى، لعل السنة ونيف التي قضوها مع بعض، عندما تقاسم المتآخون حتى الغطاء، لعبت دوراً مهماً، إذا لم يكونوا الفاصل في تعبيد طريق تيموتشجين مترقياً من تيموتشجين إلى جنكيز خان، وتحديداً من هذا الوقت استطاع أن يستميل كثيراً من أبناء جلدته، ووضعهم أمام الخيار بينه وبين جاموخا، واستطاع أن يعيد بناء أولوسه، ينسب ل. غامبيس هذه الأحداث إلى عام ١١٨٤م، افترض أن تيموتشجين تصرف بكرم، وحسب كلمات المصدر «ألبس الناس ملابسهم الخاصة بهم» وأيضاً «أركبهم على خيولهم الخاصة»، وكان هذا «تكتيكاً ليبرالياً يبعث على الاحترام» [ل. غامبيس، ص٣٦].

تآخى جاموخا مع تيموتشجين مرتين في طفولتهما «في تلك الآونةعندما تآخيا كان تيموتشجين قد بلغ الحادية عشرة، وحينها أهداه جاموخا عُظيمة من رسغ آيل

(١) حسبما ورد عند رشيد الدين تقسم المغول في زمانه إلى منغول أصليين، الذين كانوا يسمون بالعزل، وآخرين أصبحوا فيما بعد يسمون بالمغول، وفي الوقت الراهن يعرفون بالمغول، أما المغول الحقيقيون فانقسموا إلى النيرونيين والدارليكيين، لقد ذكر هذا التقسيم سابقاً.

وهداه تيموتشجين بدوره عظيمة، وهكذا أصبحا أخوين، وفي ذلك الحين عندما كانا يلعبان بالعظام على جليد نهر أونون قد سميا بالأخوين، ولاحقاً، وفي وقت الربيع، عندما أصبحا يطلقان السهام من الأقواس الصغيرة وهب تشاموخا تيموتشجين سهمه ذا الصوت المذنب المصنوع من قرن الأيل، وبادله تيموتشجين بسهم مصنوع من كوز من العرعر، وهكذا للمرة الثانية أصبحا متأخيين كما جرت العادة آنذاك.

قالا لبعضهما: "لقد سمعنا ما قاله عجائزنا عن التآخي، فإن لدى المتآخين حياة واحدة موحدة، لا يترك أحدهما الآخر، وفي الحياة كل واحد منكما يكون حارساً للآخر، هكذا ينص قانون التآخي، والآن فلنردد قسم التآخي: فلنعش في سلام".

منطق تيموتشجين جاموخا الحزام بحزام ذهبي الذي نزعه من التوغتاغ الميركيتي، وكذلك أهداه فرساً بيضاء عقماء ذات ذيل وعرف أسودين، والتي أيضاً نزعها من التوغتاغ، أما تشاموخا فقد منطق تيموتشجين أيضاً، بحزام ذهبي نزعه من داير أوسون. وهو من أونغ الميركيتي، وأجلس تيموتشجين على حصان أبيض ذي بروز في جبهته، الذي كان يؤول لداير أوسون، وعلى الجزء الجنوبي من سفح خولداغار الشديد الانحدار في خورخوغ جيبور، وتحت شجرة كثيفة الأغصان، أخوة أسميا نفسيهما وتبادلا الأنخاب والملاطفة والأنس واحتفلا، وقضيا ليلتهما في بيت واحد» [ألتان توبتشي، ص٩٥-٩٦].

هكذا تآخى تيموتشجين وجاموخا مرتين في الطفولة، والآن وبعد النصر على الميركيتيين عقدا اتفاق اتحاد المتآخين للمرة الثالثة، وحسبما جرت العادة تبادلا الأحزمة الذهبية والخيول، هنا يبرز سؤال: أين كان أندا (الشقيق) جاموخا من قبل؟ ولماذا لم يساعد تيموتشجين؟ نحن لا نجد رداً على هذا السؤال، ولكن سياق

الأحداث قبل الغزو على الميركيتيين يضعنا بين خيارين، إما أنه لم يستطع أو لم يود أداء المساعدة، وهذا الشيء الأقرب للاحتمال. من المحتمل أنّ السبب المباشر المؤدي للاعتراف بالذنب كان الاتحاد الذي حدده تيموتشجين مع فان كاغان، وساعتها كل من الأخوة المتآخين مرتين تذكر كيف أنهما لم يساندا بعضهما في ساعة الشدة، ولذا رددا تأكيد التآخي للمرة الثالثة.

يسرد «التاريخ السري» أنهما عاشا في معسكر واحد مدة عام ونصف «وبرواية لوبسان دانزان عام «وجزء من الذي يليه»، وغير معلوم لماذا قررا فجأة ترك ذلك المكان، لابد أن لكل منهما أسبابه، كان تيموتشجين ذكياً وماكراً، ولكن جاموخا أيضاً لا يقل عنه ذكاءاً ومكراً.

وهكذا اتجهت القافلة في طريقها، على الرغم من أن المتآخيين قد سارا متجاورين متقدمين، ورجالهم من خلفهم، فإن الأحداث المقبلة ستكشف لنا أن كل واحد منهما قد سار في طريق مختلف، حسب الروايات المتوارثة ما أصبح سبباً لهذا الفراق المباغت هو الكلمات التي كانت تنم بلغز، والتي قالها جاموخا لتيموتشجين:

- دعنا نرعى بقرب من الجبال حيث الاخصاص معدة لرعاة قطعاننا، دعنا نرعى بالقرب من النهر حيث الأكل معد لرعاتنا أغنامهم [السيرة المكنونة، ص١٠٦].

يورد لوبسان دانزان أن هذه الكلمات وردت في مؤلف «ألتان توبتشي» كالآتي:

قرب الجبال سنترجل عن الخيول
عندئذ سيجد رعاة خيولنا النار والشرر
أليس كذلك؟

قرب النهر سنترجل عن الخيول

حينها سيجد رعاة أغنامنا والبهم

ما يسد الرمق

هذا غير ممنوع، أليس كذلك؟

[ألتان توبتشي، ص٩٦].

لا أحد يدري ماذا عنى جاموخا بقوله، لعله ألمح إلى أنه لا يوجد ذلك المرعى الذي يمكن أن يطيب فيه الحال جيداً للجميع، تيموتشجين غير مدرك مغزى كلمات جاموخا، انذعر، تأخر قليلاً، وتقدم نحو أمه وزوجته للمشورة، زوجته بورتي أولت كلمات جاموخا على النحو الآتي:

- ليس هراءً أنهم يقولون عن أندو جاموخا إنه شخص سرعان ما يمل من أي شيء، والآن أصبح الأمر عبثاً بالنسبة له، ومن الواضح أن ما ذكره يحمل تعريضاً بنا، ولقد أصبح الوضع مضجراً له معنا، فإن كان الأمر كذلك فلا شيء يبقينا، فلنرحل سريعاً ولنبعد، سنواصل المسير طوال الليل، هكذا يكون الأمر أفضل! [السيرة المكنونة، ص١٠٦].

لا بد أن المتآخيين منذ مدة قد سئما بعضهما، إن تأويل بورتي كلمات جاموخا كان نتاج مسار حياة المتآخيين ورجالهم في الأشهر الأخيرة، لأن تيموتشجين بسرعة غير عادية وافق على رأي زوجته التي أولت بشكل سيئ أقوال أخيه، ولم يعترض على ذلك حتى نوكيره وأقرباؤه، بل أكثر من ذلك كما سنرى لاحقاً فإنه حتى بين رجال جاموخا الذين عاشوا العام والنصف تحت قيادة المتآخيين بدأ بينهم التذبذب، منع من منهم سيبقون؟ من الجائز أن جاموخا فعلاً لمح بقوله «دعنا نفترق، كل منا سيحس بالراحة»، كما ورد في تأويل دوررونا تيب مؤلف الترجمة المختصرة لـ«التاريخ السري» باللغة الصينية [دوررونا تيب، ص٨٣].

ارتحل رجال تيموتشجين تاركين جاموخا مسافرين طوال الليل، واتضح أنه ليس هراءً قضاء تيموتشجين العام والنصف مع الأخ (أندا)، وكثير من الحاشية (النويون) والحراس (نوكير) انضموا لتيموتشجين، وذهب معه أيضاً عدد من أقرباء جاموخا، أحدهم يدعى خورتشي الذي أعلن قائلاً: «نحن مع جاموخا ترجع أصولنا إلى زوجة كانت بعصمة رجل مبروك هو سلفنا بودونتشار، فصار الأمر لدينا كما يأتي:

الجسد واحد

والقميص واحد

ولا يتوجب بأي حال من الأحوال الانفصال عن جاموخا، ولكن في منامي تفتحت لي رؤية واضحة، أني أرى بقرة حمراء فاتحة اللون، تدور حول جاموخا، رامية بقرونها على خيمته القابعة على العجلات، محاولة نطح جاموخا نفسه، ولكن انكسر أحد قرنيها، فبدأت تحفر الأرض وتهيلها علية جائرة وجائرة مرددة "أعطني قرني"، كما رأيت ثوراً أهلياً أرقط بلا قرنين يجر يورتا رئيسة بعجلات ويتعقبه تيموتشجين الذي يسير بطريق المعبد والثور يجأر ويجأر مردداً "الأرض والسماء اتفقنا على تنصيب تيموتشجين قيصراً للإمبراطورية، فليأخذ بزمام الإمبراطورية"، وهذه هي الرؤية التي تكشفت لي أمام ناظري!» [السيرة المكنونة، ص١٠٧].

هل شاهد خورتشي بالفعل رؤية بهذا الشكل بفضل نشاط تيموتشجين من خلال العام والنصف في أولوس أأوحى تشاموخا له بذلك أم أنه توفق في رؤية جوهر الأحداث التي جرت أمامه، وعلى ضوء ذلك ابتدع[1] الأمر مؤخراً، ليس

(١) أو مؤخراً ابتكره الذين كتبوا في التاريخ السري عن السنوات الأولى من حياة تيموتشجين ووصوله للسلطة.

كل هذا بالمهم، ولكن الأهم من ذلك هو أن خورتشي أصبح يساوم بدون حياء برؤيته سائلاً تيموتشجين:

- بأي مكافأة ستجزيني على الرؤية عندما تصبح قيصراً؟ [المصدر نفسه].

اتضح للجميع أنه لا يمكن أن يكون لبقرتين قرن واحد، فإن واحدة منهما ستطالب بالقرنين لنفسها.

أولئك الذين قرروا أن الغلبة ستكون لتيموتشجين انضموا له، كيف تأتى كل هذا لتيموتشجين من خلال عام ونصف فقط؟ الأمر غير واضح، ولكنه انفصل عن تشاموخا، وهو ليس بالابن المطرود الذي لا يملك من حطام الدنيا سوى سابق مجد والده الميت، ومزاعمه بما كان له من قوة وبأس، وإنما مالك أولوس وصاحب مقدرة يكاد أن يحادث بندية أي خان أو سيتشين أو باتور وغيرهم من رهط نبلاء القوم وحكام القبائل المغولية التتارية.

كانت هذه مؤامرة بين تيموتشجين ومجموعة من نبلاء القوم (نويون) التابعين لجاموخا، الذين رأوا في تيموتشجين القائد المنتظر، استطاع تيموتشجين أن يستميلهم إلى جانبه، أترى بكرمه (يفترض غامبيس) أم طمعاً في الغنائم الموعودة، أو تمجيداً لسلالة القائد «أوروك»، وأخيراً لصفاته الشخصية، لكن بمحض إرادتهم اختاروه بدلاً عن تشاموخا وأي شخص آخر، فتم اختيارهم لتيموتشجين، وقرروا أن ينصبوه خاناً عليهم، وعقدوا معه اتفاقاً خاصاً ـ على ما يبدو وحسب العادات المتبعة في ذلك الزمان ـ تحدد مهام وواجبات كل من الحاشية (نويون) والخان، ومن المحتمل أن تيموتشجين منذ وقت سابق قد لفت انتباه النويون المغول، وآخرون ما زالوا يتذكرون مجد أسلاف إيسوغاي وتيموتشجين «الخانات بالفطرة»، ويعدّ تيموتشجين واحداً من نسلهم.

عندما كان تيموتشجين وجاموخا يحتفلان بالنصر على الميركيتيين تحت شجرة فيحاء، قام موخالي أحد النويون ملمحاً لتيموتشجين بأنه تحت هذه الشجرة بالذات قد رقص وابتهج خوتولا كاغان القائد المغولي الباسل، في الوقت الحاضر فقدت قبائل المغول سابق قيمتها، ولكن لمدة مؤقتة، السماء الزرقاء الصافية التي رافقت تيموتشجين وساعدته في خطاه السابقة لا يجوز أن تحرم من عطفها قبيلتها المحبوبة، هل يخرج من وسط قبائل المغول كاغان جديد، الذي سيجمع في أولوسه الواحد المغول كافة، وعن هذا يدور الهمس بين الجميع، أو لم يكن هذا الخان الآتي هو تيموتشجين؟ [كما ورد في السيرة المكنونة، ص١٦١].

وقع الاختيار على تيموتشجين بفضل أصوله وبلا منازع لصفاته الشخصية الخاصة، لدهائه وذكائه، التي قدرها فيه معاصروه من النويون وعامة القوم (أرات) بكل جدارة، الذين تمنوا رؤية منغوليا موحدة في أولوس واحد وتحت سلطة قوية.

كانت شروط الاتفاق بسيطة بين الطرفين وخالية من التعقيد، النويون والنوكير المغول كانوا في حاجة لمن يجمع قوتهم في قبضة واحدة متينة، مثل التي يتمتع بها الكيريت والتتار والنايمان وشعوب منغوليا الأخرى، كما كانت دولة «خاماغ منغول أولوس» المجد والغنائم الثمينة لا يمكن الحصول عليها إلا بوجود خان عاقل وشجاع وموفق في الحروب، وأيضاً أرات كانوا بحاجة إلى خان ونوكيره للدفاع عنهم من هجمات الجيران، مثل ما رأينا في العقدين والنصف الأوائل من عمر تيموتشجين عندما ساد النهب والغزوات والمذابح التي كانت تهدد دوماً الضعفاء الذين لا يستطيعون رد الصاع صاعين.

تم اختيار تيموتشجين في منطقة خار تشجور كين على نهر سانغور بالقرب من بحيرة كوكو نور[1]، وحسب الأسطورة الشعبية أقبل على تيموتشجين قادة نبلاء

(١) يجب عدم الخلط مع بحيرة كُوكُو نَور في شمال شرق التبت.

بورجيغين في شخص ألتان وخوتشار المنتمين إلى نسبه، وأيضاً أقبل قريبه ساتشا بيكي من قبيلة تشجوركا، أي بمعنى أقبل إليه رجال من بطون «الخانات بالفطرة»، فكان تيموتشجين في انتظارهم متوقعاً قدومهم، فأعلنوا له الآتي: «لقد قررناتنصيبك خاناً، وفي أثناء حروبنا مع الأعداء الكثيرين سنكون الأوائل المنتصرين، ومن يقع في أسرنا من جميلات النساء والفتيات والخيول الأصيلة، فإننا سنهبها إياكم، وفي مطاردة الصيد سنهجم قبل الآخرين، وسنهبكم نصف غنائمنا من الوحوش، وإذا ما تخطينا أو عصينا أوامرك في ميادين الوغي أو في وقت السلم، فألحقوا بنا الأذى وانزعوا نساءنا وأملاكنا، وأهجرونا في قفار بلا أناس» [السنة المكنونة، ص١٠٨-١٠٩].

وهكذا قرر النويون والنوكير تنصيب تيموتشجين خاناً، بالطبع ـ نكرر مرة أخرى ـ من الصعب أن نبرهن بشكل مؤكد لماذا وقع الاختيار بالذات على تيموتشجين، فهو يرى أن السموات دائمة الزرقة قد اختارته بنفسها! لكن بالفعل هذا كان في الواقع اختياراً لاحقاً عندما أراد ألتان وخوتشار ـ اللذان كانا من ضمن الذين نصبوا تيموتشجين خاناً ـ الخروج من إمرته والانضمام لجاموخا من جديد، فذكر لهم تيموتشجين بعض القرائن المصاحبة لاختياره خاناً «هل قررتما أن تهجراني بوضوح أم أنكما رسمتما هذا بغدر ورياء؟ لقد عرضنا عليك يا خوتشار كابن نيكون تايتشجي أن تكون خاناً، ولكنك رفضت بنفسك، ولك يا ألتان قد عرضنا "لقد حكمنا كلنا خوتولا خان، لو صرت خاناً لحكمت مثل والدك تماماً"، ولكنك رفضت أيضاً، لا أستطيع أن آمر الآخرين من هم من ذوي أصول رفيعة قائلاً "كونا خانات يا ساتشا وتايتشو كأبناء بارتان باتور"، وهكذا لم يكن لدي حق أن أنصبكما خانات، فأنا المنصب والمعلن من قبلكما» [المصدر نفسه، ص١٣٧]، وهكذا يتضح لنا أن تيموتشجين لم يكن من أفضل علية النبلاء من قومه، حسب

نسبه تم اختياره لمنصب الخان بوساطة النويون المغول وأقربائه، وبصورة أدق من قبل جزء منهم، كما يبدو، وقبل كل شيء، بفضل جدارته الشخصية.

بحسابات ش. سانداغ وخان جولين حدث اختيار تيموتشجين خاناً في عام ١١٨٩ [سانداغ، ص٢٧، جزلين، ص١٣]، يشير ل. غامبيس إلى العام ١١٩٠ [غامبيس، ص٦٠]، وفقاً لذلك، وإذا تتبعنا التسلسل التاريخي عند رشيد الدين فإن انتخاب تيموتشجين خاناً تم في العام ١١٨٠، ولو وضعنا في الحسبان أن غزو الميركيتيين تم في عام ١١٨٤ فإنه يكون في عام ١١٨٦، الاختلاف في التواريخ بشكل عام بفارق عشرة أعوام، والاختلاف في ميلاد تيموتشجين باثني عشر عاماً فإنه بلغ من العمر خمسة وعشرين (خمسة وثلاثين) عاماً، إذا ولد في عام ١١٥٥ فثمانية عشر (ثمانية وعشرون) عاماً. وثلاثة عشر وثلاثة وعشرون عاماً إذا حسبنا عام ميلاده ١١٦٢ و ١١٦٧.

إن تيموتشجين حسب معلومات «التاريخ السري» حصل على لقب جنكيز خان لأول مرة عندما اختارته مجموعة من المغول خاناً [السيرة المكنونة، ص١٠٩].

إن مؤلفي سيرة تيموتشجين الذاتية يفضلون «التاريخ السري» على ما سواه من المصادر، ولكن فجأة نلاحظ أنهم يركزون الانتباه على تحيزه، ومعظمهم لا يعترف بواقعة تنصيب تيموتشجين قبل العام ١٢٠٦ وحصوله على لقب خان، يرى ل. غامبيس أن هذه المعلومة من أخطاء «التاريخ السري»، ويعدّ تيموتشجين خاناً أنه كان قبل العام ١٢٠٠، وحصل على لقب جنكيز خان عام ١٢٠٦ [ل. غامبيس، ص٤٦] عدّ ب. راتشنيفسكي العبارة من الفقرة ١٢٣ من مؤلف «التاريخ السري» التي تنص على أن «تيموتشجين أعلنوه جنكيز خان ونصبوه خاناً على أنفسهم» [السيرة المكنونة، ص١٠٩] مفارقة تاريخية [راتشنيفسكي، ص٤٠] تجنب خان

جولين هذه المسألة، ولكن يبدو أنه عارض بصورة نقدية حقيقة نيل تيموتشجين للقب جنكيز خان، على كل، بعد إنشاء تيموتشجين لأولوسه الأول، بقي خان جولين في سيرة جنكيز خان الذاتية يسميه بتيموتشين.

تخبرنا الترجمة الجديدة المختصرة لمؤلف «التاريخ السري للمغول» عن إطلاق لقب جنكيز خان، ولكن دورونا تيب لا يعلن عن هذه المعلومة، [دورونا تيب، ص٨٨]. يورد لوبسان دانزان إطلاق لقب جنكيز خان على تيموتشجين بشكل رائع: «ما أن أجاز ذلك القرار (اختيار تيموتشجين خاناً. تعليق المؤلف) فأقسموا ونحروا قرباناً للسماء العليا الخالدة، ثم رفعوا راية بيضاء ذات تسعة ألسن، قبل ولادة تيموتشجين، قام خاغان جميع اللووس (أرواح الأرض والماء. تعليق المؤلف) بنقش خاتم من الحجر يسمى «خاسبو»، طائر أسود جالساً على مخرج الدخان يغني بصوت: «جنكيز، جنكيز»، غناء هذا الطائر هو السبب في أن تيموتشجين منح اسم جنكيز عندما نصبوه خاغانا، وعندما بلغ الخامسة والأربعين من العمر أي في عام بينغ (النمر) عند منابع نهر أونون رفع رايته البيضاء ذات الألسن التسعة، وتربع على العرش خاغان أعظم» [ألتان توبتشي، ص١٠٠]. من الواضح هنا اختلاط أحداث العام ١٢٠٦ وما قبله.

على ما يبدو إذا لم تخبرنا المصادر الأخرى أن تيموتشجين أصبح جنكيز خاناً قبل العام ١٢٠٦، فإن من الصعب تصديق «التاريخ السري»، ولكن في واقع الأمر لماذا لا؟ فإن العلم على استعداد ليقبل أي حقيقة تذكرها هذه المصادر، وتصمت عنها مصادر أخرى لعهد الإمبراطورية، ولكن لماذا لا تصدق هذه المعلومات معترفين أنها كتبت لاحقاً، فليس هذا بمسوغ، وبالفعل لمجد تيموتشجين غير ذي أهمية، إنه أصبح خاناً للأولوس المغولي ـ الذي انضوى تحت لوائه جزء من المغول فقط ـ أو خاناً لدولة منغوليا الموحدة كافة.

يفترض مؤلف هذه السطور: إذا صدقنا قتل تيموتشجين لبيكتير وأسر بورتي وشككنا في أبوة تيموتشجين لتشجوتشجي، فإننا نسمح بحصول تيموتشجين على لقب جنكيز خان قبل عام ١٢٠٦، ولا سيما أن علية الخانات كافة حملوا ألقاباً ليس خاغان (خان) فقط بل بإضافة ما، مثلاً أونغ (فان) خان، دايان (دا فان) خان إلخ . . . عند إعلان تنصيب تيموتشجين خاناً، يفترض أنه يمنح أيضاً لقباً ما مشابهاً، فإذا كان هذا اللقب يختلف عن جنكيز خان لعرفنا من «التاريخ السري»، فلذا لا ينبغي لنا سوى أن نصدق أن تيموتشجين أصبح خاناً أول مرة عندما حصل على لقب جنكيز خان، وفي سردنا القادم سيسمى تيموتشجين لا باسمه وإنما بلقبه المعروف بشكل أوسع جنكيز خان، أو بصورة أبسط: جنكيز.

يوجد عدد ليس بالقليل من الإيضاحات للقب جنكيز خان، ولكن لا يحمل واحد منها التعليل العلمي الدقيق، يشرح رشيد الدين هذا اللقب كالآتي: «معنى "جن» قوي ومتين، أما جنكيز فجمع للمفرد منه؛ أي بمعنى تسمية قور خان نفسها التي كانت لقباً لعظام حكام الصين السود "قاره كيتاي"، وبمعنى آخر حاكم قوي وعظيم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٥٠] ويشرح رشيد الدين أيضاً لقب جنكيز كمرادف للقب «شاهنشاه»، أي «قيصر القياصرة»: «واللفظ "جن" بالمغولية يعني "قوي" . . . و "جنكيز" جمع لمفردها، السبب آنذاك أن لقب قور خان كان عند كبار حكام الصين السود (قاره كيتاي) واللفظ "قور" يعني "متين"، فإذا لم يبلغ الحاكم شأوا من العظمة، فلا يمكن تلقيبه "قور خان"، أما في اللغة المغولية فلقب "جنكيز" يحمل المعنى نفسه ولكن بصورة أكثر تفخيماً؛ لأنه في حد ذاته صيغة الجمع، واستعماله مربوط باللفظة الفارسية شاهنشاه "قيصر القياصرة"» [المصدر نفسه، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٦٧] يخبرنا رشيد الدين في مقطع معين من الجزء الذي يحكي عن قبيلة

أورياوت في مجلده «الذكريات» أن لقب جنكيز قد اقترحه الساحر تاب تانغري الذي «كان يزور جنكيز ويقول له: "الإله قضى بأن تصبح حاكماً للعالم" فأطلق عليه اسم جنكيز خان مواصلاً القول: "سيصبح اسمك هكذا بإرادة الإله!"» [المصدر نفسه].

إن هذا بالطبع يعدّ تأويلاً معمماً، وقد عمل بعد أن أبرز جنكيز للعالم «عظمته». يؤكد كل العلماء المختصون بدراسة منغوليا على أن لفظة جنكيز خان لا يمكن أن تكون جمعاً لمفرد لفظة «جن» [بانزاروف، ص١٧٥]. على ما يبدو أن المعقول ما يورده رشيد الدين أنه يسمح بإمكان حصول اللقب من الساحر، وجائز جداً من مخزونه اللغوي، الذي كان غير مفهوماً لعامة البشر، وذلك لأن الساحر عرف لغة الوحوش والطيور وأسماء الأرواح وما شابه ذلك.

افترض د. بانزاروف سابقاً وفي القرن الماضي أن جنكيز اسم أحد قدامى الأرواح المغولية التتارية «تانغري» ذاكراً أنه قد عثُر في إحدى المخطوطات المغولية إشارة إلى وجود روح خاجر جنكيز تانغري [المصدر نفسه، ص٣١١] يسمح ب. فلاديمسرتسوف أيضاً بهذا التأويل للقب جنكيز خان قائلاً: «من الصعب تحديد معنى كلمة "جنكيز"، التي أصبحت لقباً لتيموتشجين، ولكن يمكن التخمين فقط أنّ تيموتشجين قد حصل على هذا اللقب من الروح النورانية، التي عبدها السحرة المغول آنذاك، هذا الافتراض يحمل ضمناً المفهوم السائد لدى الأغلبية، الذين يرون أن تيموتشجين مختار العناية الإلهية، وحتى تيموتشجين نفسه كثيراً ما ساوره الخاطر بأن السماء الأزلية "تسطر مساره"» [فلاديميرتسوف، جنكيز خان، ص٤٥][1]. يسمي روبروك جنكيز في كتابه «ديموغين خينغاي» و «تيموتشجين

(١) «هناك فرضية تشير إلى أنه يوجد في السماء إله خالد واحد فقط، هو الإله الأزلي، وعلى الأرض يوجد حاكم واحد فقط هو جنكيز خان ابن الإله، ديموغين خينغاي (بمعنى "صوت الحديد") لأنهم يسمون جنكيز خان صوت الحديد، بحكم أنه كان حداداً، وعندما يريدون الافتخار به في الحاضر يسمونه ابن الرب» [الرحلات، ص١٨٠].

جنكيز» مازجاً الاسم واللقب في قالب واحد [الرحلات، ص١٨٠].

أشار تشجاو خون إلى أن تيموتشجين اسم الطفولة لجنكيز، واللقب جنكيز خان ابتدعه له الموظفون التشجورتشجينيون، الذين فروا لاجئين إلى التتار المغول، «ولذلك أصبح [الحاكم التتاري] يسمى تشان تسزي سي خوان دي [وهذا في ترجمة اللقب إلى اللغة الصينية]. البعض يقول الكلمتين تشان تسزي سي ليس سوى ترجمة صينية "تيان تسي"» [التدوين الكامل، ص٥٠]. التركيبة اللفظية لجملة «تيان تسي» تعني المصطفى من قبل السماء [ف. فاسيلييف، ص٢١٨]. استعمل تشجاو خون عند شرحه للقب «جنكيز» الكلمات الصينية «إي يوي» بمعنى «يناول»، وعلى ضوء هذا فقد اقترح ف. فاسيلييف أن «تيان تسي» الصينية عبارة عن نقل أو تعبير بالرموز الصوتية لكلمة «جنكيز» [المصدر نفسه].

دارت صراعات علمية حول ما إذا كانت كلمة جنكيز في حد ذاتها لقباً، أم هي تعريف، أم نعت لكلمة «خان». كتب المؤرخ الألماني ف. أردمان في منتصف القرن الماضي إذا كانت كلمة «جنكيز» نفسها لقباً، فلا تحتاج إلى إضافة كلمة «خان»، ولكن عارضه الباحثون بتعقل، منبهين على كثرة الأمثلة التي تفسد الماء بالماء، أونغ خان، بويوروك خان، تايان خان، وهلم جرا. يشير العالم السوفييتي الراحل في المغوليات ن. مونكويف إلى أن «أي تمازج يكون فيه الجزء الأول نعتاً يصبح لقباً». يميل مونكويف متبعاً التقاليد المغولية القديمة إلى أن لقب جنكيز خان يحمل في طياته جذوراً من السحر، ٠انظر [التدوين الكامل، ص١٠٩-١١٤]). وحسب التقاليد المبينة بشكل خاص في مؤلف «إيرديني بين توبتشي» يشير ساغان ساتشان إلى أنه في عام ١١٨٩ عندما تم انتخاب تيموتشجين خاناً «أمام الخيمة جلس طائر ذو خمسة ألوان يشبه طائر القبرة على حجر مربع، وكان يغرد "جنكيز، جنكيز"» [بانزاروف، ص٣١١، حاشية ٢٩٧].

عرض المترجم الألماني لكتاب «التاريخ السري» أ. هانيش في الكتاب الربط بين كلمة «جنكيز» والكلمة الصينية «تشجين»، التي تعني «قديم»، «عادل» (انظر [راتشنيفسكي، ص٨٢-٨٣])، ولكن هذه الفرضية لم تجد التأييد الواسع.

أكثر الروايات قبولاً في الوقت الراهن تلك الرواية التي اقترحها العالم الفرنسي المشهور ب. بيلو، فقد اقترح بيلو أن تؤخذ كلمة «جنكيز» المغولية كمرادف للتركيبة «تانغيس»، وتعني «بحر»، «محيط» [بيلو، المغول، ص٢٣، الملاحظة٢][(١)]، وبهذا التأويل فإن لقب «جنكيز خان» يعني «خان المحيط» «الخان العريض والقوي بلا حدود كالمحيط»، والذي يعني مجازاً «حاكم الكون»، تينغيز «دينغيز» هو اسم أحد أبناء سلف الترك أو غور خان[(٢)].

من الواضح جلياً أنه توجد روايتان تفسران لقب «جنكيز» محلية وصينية، الصينية تتبع مصدر اللقب من الصين عبر التشجورتشجينيين وتفسره بمساعدة العبارة الصينية «تيان تسي»، أي «المصطفى من قبل السماء»، والحاصل على السلطة بإرادة السماء (الإله الأعلى)، أما الرواية المحلية فتربط اللقب بالمعتقدات السحرية حيث إن السماء أيضاً إله أعلى، وأبرزت إرادتها عبر الطائر الذي غرد بلقب الخاغان الجديد «جنكيز، جنكيز»، و «جنكيز» كلمة غير مغولية، وغير مفهومة لدى المغول، أهي اسم روح من الأرواح المغولية أو أنها تركية الأصل «تينغيز»؛ أي «البحر». على كل مثل هذه الاستعارة مقبولة تماماً.

(١) وبغض النظر عن ب. بيليو فإن شرح لقب جنكيز اقترحه أيضاً الباحث غ. إ. رامستيد (انظر [التدوين الكامل، ص١١١]).

(٢) على حسب رأي رشيد الدين إن «أوغوز كان له ستة أبناء وأسماؤهم على هذا الشكل من التقسيم والترتيب: كون وآي ويولدوز وكوك وتاك ودينغيز» وفي الترجمة الروسية تعني هذه الأسماء: «الشمس» و «القمر» و «النجمة» و «السماء» و «الجبل» و «البحر». [المجلد الأول، الكتاب الأول، ص٨٦] إن الاسم التركي تينغيز منتشر بشدة في الوقت الراهن.

المهم أنه في كلتا الحالين يعدّ تيموتشجين خاناً منصباً بإرادة السماء، أي إذا لجأنا لمقاييس الفهم الأوروبي أنه حاكم منصب بإرادة الرب ومعتمداً من قبله، مرة ثانية تؤكد أنه لا توجد لدينا أي مسوغات مؤكدة لكي نزعم أن تيموتشجين لم يحمل لقب جنكيز خان قبل العام ١٢٠٦.

وهكذا عندما أصبح تيموتشجين جنكيز خان تبعاً للتقاليد رفع راية تمثل الروح التي تحمي الشعب والقوات، وشرع في بناء أولوسه، إذا ما عاودنا النظر إلى المؤلفات الأخيرة، فعلى رأي ل. غامبيس إن جنكيز خان شرع في وضع المراسم «التي يفترض أن تمثل الطور الجنيني لإدارة الدولة المغولية» [غامبيس، ص٤٣]. يفترض ب. راتشنيفسكي أن تيموتشجين «نظم» أتباعه «وكون جهاز خدمة»، وهذا يعني «إدخال نظام جديد من السهوب المغولية» [راتشنيفسكي، ص٨٢-٨٤]. يشير خان جولين إلى أن تيموتشجين أسس أولوسه الأول من نبلاء المغول من اليات «أحفاد قدماء المغول»، وكل تسلم منصبه على أساس القسم بالاتحاد[1].

ولضرورة قيام جهاز إداري، وحسب التقاليد المتبعة آنذاك يعين الأقارب والأنصار للخان الجديد، يتوجب علينا أن نذكر الذين هجروا تشاموخا وانضموا إلى تيموتشجين وأولوسه الجديد، وضع تيموتشجين عند التعيين نو كيره المخلصين والمجربين في رتب أعلى من إخوته، أدخل تيموتشجين في بادئ الأمر قرابة عشر وظائف.

قال الخان المنتخب جديداً:

- بإرادة السماء والأرض تضاعفت قوتي، بانضمامكم إلينا تاركين شقيق

(١) باستنتاج الباحث خان جولين إن كل الذين تم تنصيبهم باستثناء الأخ الأصغر كانوا من العبيد أو من القوم المستقلين الذين لا تربطهم علاقة بالنبلاء القدماء أبناء السلالة، إنهم كانوا دعامة حكم تيموتشجين الذي كانت نواته في معسكر النوكير (انظر [خان جولين، ص١٣-١٤]).

المتآخي (أندا) تشاموخا، وانتظمتم في حراستنا، أليس هذا القدر الذي سطر أن تصيروا حراسنا القدماء السعداء؟ لذلك وضعت كلاً منكم في منصبه الذي يستحقه!

تم تنصيب بوورتشو وتشجيلمي من أوائل نو كير تيموتشجين رؤساء على الحراس والمسؤولين كافة، وأعلن جنكيز عند تنصيبهم كما تقول الأسطورة:

- لتكونا أنتما من سويداء فؤادي؛ لأنه عندما لم يكن لدي صديق سوى ظلي أصبحتما ظلي، وأنزلتما علي الطمأنينة، ولتكونا في حنايا صدري، لأنه عندما لم أكن أملك سوطاً سوى ذيل فرسي، صرتما مكانه وهدأتما روعتي، لقد أتيتما إلي وأقمتما معي قبل الآخرين، أليس لكما الحق أن تكونا رؤساء على الحاضرين هنا الآن كافة! [حسب السيرة المكنونة، ص١١٠-١١١].

كلف بقيادة الجيش وحماية المعسكر ثلاثة من رماة السهام، وحمل السهام[1] والأقواس يعدّ مظهراً من مظاهر السلطة، وكان من بين المكلفين أوغولا تشيربي الأخ الأصغر لبوورتشو، وثلاثة من حملة السيوف برئاسة خاسار الأخ الأصغر لجنكيز، وأربعة من النوكير عينوا كمخبرين وطلائع لمهام الخان الخاصة، وكرسل محملين بالأنباء والرسائل السهمية؛ أي الرسائل التي تنقل بالسهام.

سهام خوورتساخ بعيدة المدى

سهام أودورا قريبة المدى

[السيرة المكنونة، ص١١٠]

اعتلى سوبيتاي باتور منصب قيادة نوكير جنكيز خان، الذي صار أحد قواده، ومن المحتمل أنه آلت إليه بالتحديد قيادة طلائع جزء قليل من الجيش آنذاك في معسكر (أوردا) جنكيز خان، تورد الأسطورة أن سوبيتاي قد حدد مهامه بشكل

(١) التي أصبحت فيما بعد وظيفة خورتشي، أي «رامي السهام».

مجازي كالآتي: «سأصير جرذاً يجمع ويخزن معك، وغراباً أسود أنظف كل ما حولك، وألتف بلباد الخيمة كالعباءة واتدثر معك، وأجرب افتراش لباد الخيمة بصحبتكم» [المصدر نفسه]. خاطب سوبيتاي جنكيز خان واعداً إياه بأنه سيبني أولوسه وسيوسعه وسيحميه وسيغطيه باللباد الدافئ.

حسب ما ورد في «يوان شي» إن سوبيتاي من «منغول أوريانخات»، «عاش أسلافه ومارسوا الصيد من أعالي نهر أونون» كان مقداماً وفارساً لا يشق له غبار وبارعاً في رمي السهام، لا توضح لنا مؤلفة «يوان شي» متى ظهر سوبيتاي في معية تيموتشجين، بل يذكر أنه عندما كان تيموتشجين على نهر بانتشجونا سقط خابان والد سوبيتاي في أيدي قطاع الطرق، متسلحين بالرماح، تمكن سوبيتاي وشقيقه الأكبر خولو خان من إنقاذ والدهم، أصبح خولو خان قائداً لمئة من الجند عند جنكيز، أما سوبيتاي في بادئ الأمر أعطي كرهين، ثم صار فيما بعد رأساً لمائة من الجند أيضاً [يوان شي، الفصل ١٢١، ص١أ].

تحدث جنكيز خان عن نوكيره وقائد قواته سوبيتاي قائلاً: «سوبيتاي ركيزة وردع، يهب كل قواه في المعارك الدامية لخدمة أسرتي، إنني أقدره حق تقدير!» [المصدر نفسه، ص٢أ].

تم تعيين أشخاص لإدارة شؤون الأولوس رؤساء لقطعان الأغنام، وكذلك قطعان الخيول والمركبات التي تحمل اليورتات، وكذلك مجموعة أخرى من الأشخاص الذين توجب عليهم إدارة الشؤون المختلفة التي تخص الخان وقومه مباشرة، كان هؤلاء ثلاثة خدم للمائدة الذين أداروا شؤون الخان، وشعارهم: «الصبوح لا نتركه ينتظر، ولا ننسى شراب الغداء»، وكان أيضاً تحت إدارتهم الاسطبل التابع للخان، ومنهم بيلغوتاي شقيق جنكيز من أبيه، وتشيربي المسؤول عن الخدم والشؤون المنزلية.

أسس جنكيز شريحة مميزة من الدارخات الذين تم إعفاؤهم من ربقة خدمة الخان، ومن أي نوع من الضرائب وابتزاز الأموال، ويحق لهم أن لا يتقاسموا غنائم الحرب والصيد، ولا يجوز معاقبتهم عند ارتكابهم بعض الجرائم، وهم يتمتعون بحرية الاتصال الدائم بالخان، وهكذا يحق لنا أن نميز في تكوين أولوس جنكيز خان ثلاث مجموعات من الرتب الرسمية، الأولى إدارة المعسكر (أوردا) مقر الخان، أي بشكل غير مباشر أحواله الخاصة، وعائلته وأبناؤه الذكور وسلالتهم (أوروك)، وإدارة الحرس الخاص للخان وقومه (أوردا)، والمجموعة الثانية من الرتب الرسمية الإدارة الخاصة بشؤون الأولوس وماشيتها والمتنقلون من الرعاة، واستغلال المساحات الرعوية داخل حدود الأولوس، أما المجموعة الثالثة فإدارة الجيوش والحرس العسكري. يدير الأولوس الخان بالفطرة لأنه حصل على السلطة بشكل أو بآخر من لدن الهبة السماوية، ويوجد تحت تصرفه مجلس مكون من أقاربه وعلية القوم، كما لديه أصحاب وشركاء الرأي والنوكير، وهناك احتمال بأن الأولوس يتجزأ إلى أجزاء حسب التسلسل الاجتماعي الإداري الصاعد.

بعد الغزو على التتار أراد جنكيز خان البحث عن زوج الخانة الأسيرة يسوي، فأصدر أمره ليوورتشو وموخالي «بأن يوزعا جميع الموجودين في الأوردا على حسب التسلسل الاجتماعي الإداري الصاعد "أيماك"». كان الأولوس يتمتع بمساحته المحدودة وله حدوده المحروسة.

كانت هذه خطوة أولى في تأسيس أولوس جنكيز خان، أما التطورات التي حدثت لهذه الإصلاحات فتمت بعد توحيد كل منغوليا تحت سلطته.



الأخوة الأعداء

«أطال الزمن أيها الأعداء منذ
أن فرقكم التعطش للدماء»
أ. بوشكين

لا يسعنا إلا أن نوافق على رأي الكثرة الغالبة من الباحثين الذين يؤكدون أن تيموتشجين قد أسس أولوسه وجمعه في عام ١١٨٩، مهما كان قد بلغ من العمر يرى خان جولين أنه كان «أولوساً صغيراً» على أعالي نهر كيرولين، الذي لم يكن مأهولاً بالسكان [خان جولين، ص١٤]. ولكن بأي مقاييس في القرن الثاني عشر تم تحديده أكان الأولوس صغيراً أو مكتظاً بالسكان؟

حسبما تورد بعض المعلومات أنه كان لدى جنكيز خان ثلاث عشرة فرقة «كورين»، وثلاثة حشود من الجيش، أو بمعنى آخر جيش مكون من ثلاثين ألف شخص، أول كورين مكون من رجال أمه ويلون وأقربائها، والثاني من رجاله وأقربائه شخصياً، أما من الثالث إلى العاشر فمن رجال وأقرباء علية القوم من الكيات، الثاني عشر والثالث عشر مكونان من رجال ومحاربي النبلاء من النويون [خان جولين، ص١٥]، على كل لم يكن جيش جنكيز خان بتلك القلة العددية.

وجه الخان الجديد رسله ناقلين خبر تنصيبه، لم يكن قيام الأولوسات وازدهارها في السهوب المنغولية بالشيء النادر في ذلك العهد، فحتى عندما انهار أولوس إيسوغاي لم ينهض أحد لنجدة أسرته، ولم يتعجب لِمَا جرى، حتى فان خان المدان لإيسوغاي بتنصيبه في عقر داره (أولوسه) الكيريتي، وكأنما ظهور خان جديد لا يعكر صفو أحد، تغير الحكام وإعادة توزيع السلطة والواقفون عليها عند

النايمان والقبائل الأخرى في تلك الأزمنة كان من البديهيات لدى العامة، الأمر سيان خلف من سيخرجون للحرب، أو لمن يرعون الماشية، حتى لمن يدفعون الضرائب، إذا علمنا أن الصراع يدور بين «الخانات بالفطرة».

بعد أن علم فان خان بتنصيب تيموتشجين خاناً رد على رسل جنكيز:

- إنه إنصاف إجلاس، ابني تيموتشجين على عرش الخان، أيجوز أن يكون المغول بلا خان؟ لا تهدموا وحدتكم، ولا تخرجوا عن إجماعكم، ولا تقطعوا ياقة قمصانكم!» (حسبما ورد في «السيرة المكنونة» ص١١١).

من الواضح أنه لم ينظر لجنكيز خان كابن تابع بل كمنافس، ومن المحتمل أنه طمع في نيل مكاسب جمة من ترقية المطرود، وسرعان ما تحقق ذلك.

توجب على جنكيز خان تقديم دعم ملحوظ لفان، وفي الواقع كافأه على كل أفضاله السابقة عليه، فلقد حدث أن وقع خصام بين فان خان وشقيقه الأصغر إيركي خارا، فأراد أن يشنقه، ولكن الأخير فر إلى إينانتش خان النايماني، قام إينانتش خان بالهجوم على فان خان وسحقه، فهرب إلى «الأنهر السبعة» في دولة كارا كيتاي؛ أي (دولة الصين السوداء)، وعندما لم يطب له العيش هناك واصل فان خان المسير شرقاً عبر أراضي الأويغور والتانغوت، «عاش في فقر مدقع . . . تغذى طوال طريقه على ما كان يملك ولا شيء سوى خمسة من الماعز يحلبها عند الحاجة ونياقاً ينحرها محتسياً دماءها». أسرع جنكيز خان لنجدته بحكم أنه راعيه القديم، وقسى عليه الدهر بالعوز والضعف، فالتقاه عند منابع نهر كيرولين، فأخذه في كورينه، وجمع له ما تيسر من متاع الدنيا، معداً له أمر معيشته مدة من الزمن، ولما كانت حياة فان منذ طفولته محاطة بالخطر بسبب الحروب الداخلية فقد قضى سبعة أعوام في أسر الميركيت وثلاثة عشر عاماً عند التتار، وبجانب ذلك بلاه الدهر

بالصراع الدائم على السلطة، قاتلاً أو مقتولاً، قام فان خان ـ الذي عانى في حياته ما عانى ـ بمساعدة جنكيز خان من جديد بإخضاع أغلبية الكيريت تحت سيطرته.

من البديهي أن تكون لجاموخا ردة فعل على وصول رسل جنكيز خان، بعد أن أصبح من الضعف بحيث لا يقدر على الحيلولة دون انفصاله عنه وتنصيب نفسه خاناً، لم يجرؤ جاموخا، الذي فقد كثيراً من نوكيره، أن يعلن إدانة جنكيز على مخاتلته، فلذا قام باتهام الرسل بالدس بينه وبين أخيه (أندا).

حسبما ورد في نصوص «التاريخ السري» لم يستقبل جاموخا ألتان وخوتشار رسل جنكيز خان، اللذين كانا من علية نويون القبيلة، ولهم الباع في تصعيد جنكيز خان على كرسي الخانية، كما ذكرنا سابقاً كان ألتان ابناً لخوتولا، أما خوتشار فقد كان ابناً لنيكون تايتشجي، والذي في الحسب يكون عماً لتيموتشجين، تراهن ألتان وخوتشار على مستقبل تيموتشجين، على حسب رأي ب. راشتنيفسكي بالتحديد: إن انفصال تيموتشجين عن جاموخا وانحياز جزء من الخانات «بالفطرة» إلى جانب تيموتشجين يعني بداية الصراع من أجل خان واحد للمغول، ومن أجل بعث الخاماغ منغول أولوس [راتشنيفسكي، ص٤١].

وهكذا لم يقم جاموخا باستقبال ألتان وخوتشار بل قال لرجاله:

- أبلغوا على لساني خوتشار وألتان: «لماذا فرقتم بيني وبين أخي (أندا)، ولماذا تزجون بأنفسكم في أمورنا

ناطحاً واحداً منهما في بطنه
وناطحاً الثاني في أضلعه

ولماذا لم تقوموا بتنصيب أخي المتآخي عندما كنا معاً لا نفترق؟ ومن أجل أي غاية قمتم بتنصيبه على الخانية الآن؟ التزما الآن يا ألتان وخوتشار، وحافظا بقوة

على كلمتكما التي منحتماها! وتفانوا في خدمة شقيقي المتآخي (أندا) بشكل أفضل. [السيرة المكنونة، ص١١١].

يؤكد تشاموخا أن علية القوم من أقربائه قاموا بتنصيب تيموتشجين خاناً بمحض إرادتهم، وكلماته الأخيرة ليست موجهة للرسل، بل كانت تعني جنكيز نفسه، ويزعم تذكير أندا بأن من لا يخدمه بإخلاص من المستبعد أن يكونوا من أتباعهم المخلصين، وكما نصبوك خاناً هم قادرون على خلعك من هذا المنصب، من الواضح أن الأمل كان يحدو جاموخا من بذر الشكوك في نفس جنكيز خان تجاه القوم الذين جعلوا منه خاناً، وتعكير صفو الجو في داخل أولوس جنكيز خان.

من الجدير بالذكر أنّ وجهة النظر العلمية قد تأصلت بشكل قاطع، التي تشير إلى أن جاموخا كان نصيراً لـ «النبلاء القبليين»، أما تيموتشجين فكان يعبر عن مصالح أولئك الذين تطلعوا للانعتاق من ربقة الأواصر القبلية، ويشجع التفرد والصفات الشخصية، يلفت جام ليغران نظرنا لواقع «أن الذين انضموا لتيموتشجين عند لحظة الانفصال عن تشاموخا لم يكونوا صفوفاً متراصة بقدر ما كانوا مجموعات متفرقة، وليس وفقاً لنظام الانضباط القبلي العشائري بل على ضوء القناعات السياسية الذاتية» [ليغران، ص١٦٨]. وفي الوقت نفسه رأى كل من ف. ف. بارتولد و ب. فلاديمير تسوف في شخص جاموخا حاملاً للتوجه «الديموقراطي» وجنكيز كممثل لـ «ارستقراطية السهوب»، هل كان بالفعل جاموخا مناضلاً من أجل «وضع القبيلة الاجتماعي»، أو «تضامن زعماء القبائل»، وهل كان تيموتشجين «مناهضاً للتدرج القبلي ونظامه . . . ومناصراً للقوم الذين هجروا أسلافهم وقبائلهم منضوين تحت قيادة سيدهم الجديد من أجل حياة أفضل» [راتشنيفسكي، ص٣٥-٣٦]، ولكن يبدو لنا أن هذا الموضوع مفتعل، وذلك لأن كل من اتبعوا جاموخا وتيموتشجين لا يمثلون هذه أو تلك من الفئات المعبرين عن مصالحها.

كان جاموخا يتحرق شوقاً لإيجاد مسوغ لإعلان الخصومة، وليس بالمستغرب أنه وجدها أولاً، حسب إحدى الروايات إن تايتشار الشقيق الأصغر لجاموخا سرق قطيعاً من الخيول من أحد أنصار جنكيز، كان الهجوم استفزازياً إلى درجة أن الحاضرين لم يجرؤوا على مطاردة تايتشار، ما عدا صاحب القطيع تشجوتشي دارمال[1]، الذي هب في أثره وأدركه بالليل، فأرداه قتيلاً قاصماً ظهره، وبرواية رشيد الدين لم يسمح تشجوتشي دارمال لتايتشار حتى ينهب القطيع، بل اختبأ في وسط القطيع وعندما اقترب منه تايتشار أرداه بسهم، منتزعاً قطيعه ثم عاد منتصراً، ولكنه عاد «يحمل في أذناب خيوله» رائحة الحرب.

وحينها وجد جاموخا المسوغ المرتجى ثأراً لمقتل أخيه الأصغر، فانقض على جنكيز، شارك في المعركة من كل طرف قرابة ثلاثين ألف مقاتل، دارت المعركة في دالان بالتشجوت المنطقة الواقعة بالقرب من جبل غوليغو بين منابع نهر سينغور وأعالي نهر أونون، كان جنكيز على علم بهجوم جاموخا «بعد ذلك وصلت إلى جنكيز المقيم في دغل غوليغو أنباء من مولكي توتاخا وبورولداي من قبيلة إيكيريس: لأجل مقتل أخيه الأصغر قرر جاموخا شن الحرب ضد جنكيز خان، تشجادارون بقيادة جاموخا جمعوا حولهما ثلاث عشرة قبيلة، مكونين ثلاثة حشود من المقاتلين، الذين توجهوا عبر مضيق آلوت تورخوات للانقضاض على جنكيز» [السيرة المكنونة، ص١١٢]. كما كانت لدى جنكيز خان ثلاث عشرة فرقة «كورين»، وأعد جيشاً من ثلاثة حشود أيضاً، وتقدم للالتقاء بجاموخا، دارت المعركة في دالان بالتشجوت، والجدير بالذكر أن جاموخا استطاع صد جنكيز خان بل مضايقته، فاحتمى الأخير في الفج التسزيريني في أعالي نهر أونون، وحينها قال جاموخا: «"ها قد أحكمنا إغلاقه في الفج التسزيني في أعالي نهر أنون، وقبل أن يؤوب لداره أمر بقلي الأمراء من سلالة تشونوس في سبعين قدراً، وأما تشاخان

(١) ببعض المعلومات أن القطيع لم يكن ملكه بل كان ملك جنكيز خان ذاته.

أوفى أحد قواد جنكيز خان فقد اجتث رأسه وربطه بذيل فرسه» [المصدر نفسه، ص١١٢].

حسب رأي رشيد الدين إن التايجوت كانوا من ضمن الذين حاربوا مع تشاموخا ضد جنكيز خان، «وفقاً لذلك في جانب جنكيز تجمعت ثلاث عشرة فرقة (كورين) من المقاتلين، وإن جيوش قبيلة التايجوت عند خروجهم للغزو وعبورهم من خلال تلال ألاووت توراوت، وعند وصولهم إلى منطقة تالان بالجيوش وقفوا قبالة جنكيز خان من كلا الطرفين، وحينها بدأ النزال، وعند ذلك جادت السموات العليا بقوتها اللامتناهية على جنكيز خان، وبقوة قوامها ثلاث عشرة فرقة (كورين)، استطاع التغلب على ثلاثين ألف فارس من جيوش الأعداء، إن سطوع شمس جنكيز خان بددت الأعداء كالغبار في الهواء . . . في تلك المنطقة وعلى ضفة النهر كانت غابة كبيرة حيث استقر جنكيز خان وأمر بوضع سبعين قدراً على النار لكي يسلق فيها أعداءه المثيرين للشغب الذين أسرهم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص٨٨]. أما الرواية الثالثة عن نتيجة المعركة فيوردها «شان أو تسين تشجان له»: «كان جيش تيموتشجين معداً، وحينها بدأت المعركة الكبرى في سهوب تالان بالجيوش، لحقت الهزيمة جاموخا فولى هارباً مع ما تبقى من جيشه عبر جبلين في البداية، وفي منتصف الطريق لسد رمقهم طبخوا الذئاب في سبعين قدرا» [بيليو وغامبيس، ص٣٥-٣٧].

وهكذا حسبما يروي «التاريخ السري» أن جنكيز قد تجرع الهزيمة، ولكن وفق رواية رشيد الدين و «شان أو تسين تشجان لو» فإن الهزيمة كانت من نصيب جاموخا، واستناداً على «التاريخ السري» سلق تشاموخا الأسرى من قبيلة التشونوس، أما رشيد الدين فيؤكد أن الأسرى سلقهم جنكيز خان أحياء، وحسب «شان أو تسين تشجان لو» إن أعقاب جيوش تشاموخا من شدة الجوع أكلوا الذئاب المسلوقة في سبعين قدراً.

يميل كل الباحثين إلى أن الحقيقة تكمن في شهادة «التاريخ السري» وجنكيز خان قد خسر معركته الكبرى الأولى، كما كتب ب. بيليو ول. غامبيس أن جنكيز خان انهزم، ولاحقاً كتب ل. غامبيس أن رشيد الدين ومؤلف «شان أو تسين تشجان لو» لم يستطيعا إخبارنا بأن جنكيز خان مني بالهزيمة [غامبيس، ص٥٦]. يفترض ب. راتشنيفسكي أن رشيد الدين على علم بهزيمة جنكيز خان، ولكن كمؤرخ رسمي لم يقدر على كتابة الحقيقة [راتشنيفسكي، ص٤٣]، وبالمناسبة على سبيل المثال يفترض أن الهزيمة في موقعة دالان بالتشجوتاخ حدثت ليس قبل عام ١١٨٤، يشير ب. راتشنيفسكي إلى أن الهزيمة التي مني بها جنكيز خان على يد تشاموخا وبين الغزو المؤكد تاريخه لجنكيز خان على التتار في العام ١١٩٦ يمتد فاصل زمني قدره عشر سنوات، لا يعرف عنه إلا القليل، يلمح رشيد الدين إلى قسوة الأعوام العشرة قائلاً: «تعرض جنكيز خان في خلال هذه الأعوام لأنواع الصعاب المختلفة بين أسره من قبل قبيلة التايجوت وأقربائهم الآخرين الصغار والكبار، وبالقدر نفسه من قبل قبائل الجوريات والميركيت والتتار وغيرهم، فوقع في الأسر لدى القبائل المختلفة، وتحرر من بين أيديهم بطرق ووسائل شتى، وذلك يعزي إلى أن سعادته ونعمته كانتا مسطرتين، الشيء الذي أدى إلى تقوية موقفه تدريجياً . . .» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٤٨]. يشير ب. راتشنيفسكي بوضوح إلى أن «شيئاً من حياة جنكيز خان أصبح سراً مغلقاً ومحظوراً لدى المعاصرين والسلالات المتأخرة، والذي ألحق الضرر بسمعته كمسيطر على الكون، . [راتشنيفسكي، ص٤٥].

كما يفترض راتشنيفسكي احتمال أن تيموتشجين قضى عدة سنوات بموافقة السلطات التسزينية في الأراضي التابعة للدولة التشجورتشجينية، وفي هذه الأثناء ونتيجة لهزيمة جنكيز خان أصبح فان خان طريداً كما ذكرنا آنفاً، ولكن السلطات

التسزينية كانت لها المصلحة في عودة فان خان إلى السلطة، فقد قاموا بإيواء تيموتشجين كنصيره المحتمل، وساعدوه في تقوية وضعه والعودة إلى منغوليا، حدث هذا عام ١١٩٥، يعلل ب. راتشينيفسكي هذا انطلاقاً من رواية تشجاو خون الذي يؤكد أن جنكيز خان قضى في الأسر التسزييني عشرة أعوام [المصدر نفسه، ص٤٦].

يسمح ب. راتشينيفسكي بأن فرضيته تحتاج إلى مزيد من الأبحاث، ولكن على الرغم من ذلك إلا أنها تحمل في طياتها بذرة العقلانية، ولكن لماذا لا يسرد لنا «التاريخ السري» مصدرنا الصادق الوحيد، الذي لا يميل إلى التحامل؟ انطلاقاً من نصوص هذا المصدر لا يفترض بجنكيز خان أن يلجأ إلى التشجورتشجينيين خاصة، وأن روح العداء قائمة بينهم وفق رواية «التاريخ السري»: فقد رأينا التناقض والحقائق المتضاربة في بداية سيرة حياة تيموتشجين، من الصعب الإحساس بالأمل في أن تسود الحقيقة يوماً ما، يمكن تأكيد حقيقة واحدة هي أن هزيمة واحدة كانت مريرة لدرجة أنها أقصت جنكيز مدة عن عرش الانتصارات، وأصبح مضطراً لجمع قواه لمواصلة الكفاح، في هذه الأعوام انضم إلى تيموتشجين جنكيز خان جمع من الشخصيات المؤثرة، من ضمنهم مونليك مع ابنه الساحر المشهور كوكوتشو، الذي ـ حسب معلومات جويني ـ أعلن أنه كبشير للسماء الخالدة وهب تيموتشجين وأبناءه كافة ما هو على وجه الأرض، كما انضم وقتها إلى جنكيز خان القائد تشجابي الذي سيكون مشهوراً فيما بعد.

على الرغم من الهزيمة، إلا أن الأنصار الجدد واصلوا الانضمام إلى جنكيز خان رويداً، وعند انضمام مجموعة معينة تسببت في إحداث موجة من الفرح العارم داخل معسكره، فدعا إلى إقامة حفل بهذه المناسبة الذي تخللته موجة من التذمر وسط أقرباء جنكيز خان، وبسبب طريقة توزيع اللبن حدثت خصومة بين

زوجات الخانات، وحينها ضرب أحد خدم المائدة، ومن ثم نشبت مشاجرة بين بيلغوتاي وبوري اللذين يسوسان خيول ساتشا بيكي المنتمي لقبيلة تشجوركي، الذي كان يحتفل حينها مع جنكيز خان، قام بوري بشج كتف بيلغوتاي بالسيف، ومهما حاول بيلغوتاي أن يقنع جنكيز خان قائلاً: «شيء غير ذي بال، مجرد هراء، ولا شيء يدعو لخطورة شخصي، وأنا محتفظ برباطة جأشي وروحي متسامحة، ولكن ما أخشاه أن ينشب القتال بين الأخوة الصغار والكبار خاصة، وأنهم تصالحوا لتوهم وتوحدوا يا شقيقي!» [السيرة المكنونة، ص١١٢]. ولكن جنكيز لم يتمالك نفسه وأخذ فرعاً ضخماً وانجرف في الشجار، حينها لم يلجأ المتشاجرون لاستخدام السلاح، ولكنهم أوسعوا بعضهم بعضاً ضرباً بالأغصان التي استخدمت لخض اللبن المختثر (الكوميس)، وكل ما وقع تحت اليد، ساعتها تغلب جنكيز على كل من عاركه، ترك التشجور كيون المهانون والغاضبون ورجالهم مقر جنكيز وأولوسه، ولكن بعد برهة من الزمن تسامح الأقرباء حين أتت ساعة الانتقام من أعدائهم التتار الذين ألحقوا بهم الإهانة سابقاً، الشيء الذي ساعد جنكيز خان على الوقوف على رجليه بعد الهزيمة، إن الوحدة في صفوف جاموخا لم تسد على الرغم من النصر الذي أحرزوه، وأخذ ألوسه بالتصدع أيضاً تدريجياً.

☸☸☸

غزو التتار

«يقال بمهارة الإبهام
يتمكن الرامي الماهر من صيد بطتنين في آن واحد
حتى ولو على شاطئ شديد الانحدار»
لوبسان دانزان

يحكى أنه إبان حكم دا دين (١١٦١-١١٨٠) قال إمبراطور دولة تسزين «إن التتار بلا شك مصدر بلاء دولتنا!»، حينها قامت جيوش الإمبراطور تنفيذاً لإرادته بحرب إبادة ضد التتار، حيث تم تنفيذ ما سمي بسياسة «تقليص عدد البالغين». يكمن جوهر هذه الساسة في أنه، خلال كل ثلاثة أعوام في الأجزاء الشرقية من منغوليا حيث يعيش التتار، تتوجه التجريدة العسكرية لإبادة التتار، كتب جاو خون: «في شاندون وخاباي وفي أي منزل لكائن من كان حيث يعيش الأطفال التتار، الذين تم شراؤهم وتحويلهم إلى أقنان صغار، كلهم بأكملهم تم أسرهم وجلبهم بوساطة المحاربين» [التدوين الكامل، ص٧٠]. عانت القبائل الأخرى أيضاً من هجمات تسزين، والحملات التنكيلية في داخل السهول، التي تعاقبت بوتائر زمنية منتظمة خلال الآلاف من السنين.

في عام ١١٩٥ حسب معلومات المصادر الصينية، قام عدد من القبائل المغولية، وبالأحرى فرقة مختارة من ممثلين لعدة أولوسات وقبائل منغولية وللمرة الثانية بتخريب المناطق الحدودية لدولة تسزين، تمكن الفيلق الاستكشافي لدولة تسزين من الولوج إلى حدود الدولة المنغولية، وتمكنت الجيوش الجورجينية من بلوغ خالخين وبحيرة خولون نور، تم الاستيلاء على كثير من الغنائم، وعند عودة المنتصرين

النهابين هاجمهم التتار، وانتزعوا منهم ما غنموه، قام قائد الفيلق الاستكشافي لدولة تسزين بأمر التتار أن يرجعوا ما نهبوه فوراً، لكن التتار رفضوا الانصياع للأوامر، وحسب ذلك العهد فقد «تمردوا».

توجه الإمبراطور تسزين في عام ١١٩٦ في حملة تأديبية ضد التتار بقيادة فانيان سيانا، الذي هزم التتار على ضفاف نهر كيرولين، هرب قسم من التتار في اتجاه نهر أولدزا، وتم تعيين فصيل بقيادة فانيان أنغو لمطاردتهم، حسب رواية ل. غامبيس صدرت المقترحات من البلاط التسزيني لفان خان بالالتحاق بهذا الفصيل، ولما كان فان خان منذ مدة قليلة قد تمكن من تكوين أولوسه طالب جنكيز بالسماح له بالمشاركة في هذه الحملة، سواء أكانت هذه مطالبة أم اقتراحاً غير ذي أهمية، ما إن علم جنكيز خان بذلك حتى أعلن:

- أن التتار هم أعداؤنا القديمون، إنهم قتلة آبائنا وأجدادنا، لذلك لا نستطيع الامتناع عن المشاركة في الحملة ضدهم.

وقام بإرسال إشعار إلى فان خان: «حسب المعلومات التي نمتلكها فإن ألطين الخانات فانغين تشينسيان يتعقب بأعالي نهر أولتشجا جماعات من التتار وقائدهم ميغوتشجين سيلتو، فدعنا ننضم إليه، فإننا نحن أيضاً ضد التتار، هؤلاء قتلة آبائنا وأجدادنا، تعال بسرعة يا فان أيها الخان ووالدي!».

رد فان خان الكيريتي قائلاً: «الحق معك يا بني، فلنتحد!» (حسب «السيرة المكنونة» ص١١٣).

تمت دعوة التشجوركيين للانضمام إلى هذه الحملة، الذين كان التتار قد اعتدوا عليهم وأغضبوهم منذ زمن ليس بالبعيد خلال الشجار الذي حدث في أثناء الاحتفال، ولكن بعد أن انتظروهم مدة ستة أيام لم يحضر التشجوركيون، وعندها تحركت القوة المتحدة لجنكيز خان وفان خان نحو جيوش تسزين، وساروا في الاتجاه

الأسفل لنهر أولتشجي، تحصن التتار الذين وجدوا أنفسهم بين شقي الرحى في دغلين، ولكن تم طردهم من هناك بوساطة المغول والكيريت، وقد لقي مغوتشجون سيلتو مصرعه، قام المنتصرون بنهب قطعان الماشية والأغراض التي تخص التتار، التي عثروا من ضمنها على مهد فضي وبطانية محاكة باللآلئ، كتب فيما بعد رشيد الدين: «بما أن وجود مثل هذه الأغراض وسط المغول كانت نادرة، فإن هذا الحدث عدّ مهما ولاقى شهرة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٩٣]. كانت هزيمة التتار على نهر أولدزا ـ كما يؤرخ ل. غامبيس في مايو أو يونيو عام ١١٩٦ [ل. غامبيس، ص٥١] كان من بين الأسرى الذين تم جلبهم لجنكيز خان صبي يعرف باسم شيكي خوتو كتو، أصبح فيما بعد كبير قضاة دولة جنكيز.

تفضل فانيان سيان على جنكيز خان بلقب جاوتخوري، أي التي تعني اليوم «تشجاوتاو». لقب موظف قائد حربي، الذي يقع على عاتقه تجنيد السكان المحليين، (تشجاو) في خدمة البلاط التسزيني في حالات التمرد والفوضى على الحدود والتنكيل بالمذنبين والعصاة (تاو)، وتقلد جنكيز خان في الوقت نفسه منصب قائد لمجموعة جيوش «تسزو»، هذه كانت لدى الكيدانيين، كما كانت لدى التشجورتشجينيين، جمعت هذه الجيوش في المناطق الحدودية من السكان المحليين من قبائل عدة، وعملت بشكل أساسي على حراسة الحدود، فإذا نظرنا إلى الأمر على النمط الأوروبي فإن رتبة جنكيز خان «جاوتخوري» من البديهي أن تعادل رتبة قائد.

يفترض ل. غامبيس [غامبيس، ص٥١] أن فان خان منح لقب فان من يد فانيان سيان، إنما بشكل مباشر عن إمبراطور تسزين، من هنا ومستقبلاً برز اسمه فان خان (أونغ خان) الذي كان ذا شهرة طبقت الآفاق وتسلل إلى أوروبا وأبرزت إلى الوجود «الحاكم الأكثر مسيحية في آسيا الوسطى يوحنا النوراني». من غرابة

هذا الاسم الجديد تم ذكره في «يوان شي»، «فان خان الذي اسمه تولي تم إسباغ لقب فان عليه من قبل تسزين، كلمة فان في اللهجة المحلية كانت صعبة النطق ولذلك من لقب فان تم تبديله إلى فان خان» [يوان شي، الفصل الأول، ص٣ب] يفترض ب. راتشنيفسكي أن لقب فان الأميري، الذي يخص البلاط التسزيني لم يكن قد منح لفان خان بسبب حملة ضد التتار، بل بفضل توطيده لسلطته في ألوسه والاعتبار المتزايد لشخصيته في السهول المغولية [راتشنيفسكي، ص٤٩].

يعطي الكتاب المعاصرون الصينيون أهمية كبيرة لحصول جنكيز خان على اللقب التسزيني «مستخدماً لوضع الموظف المعتمد على قرار البلاط» فإن جنكيز، حسب رأيهم، قد تمكن من قيادة المغول ونبلاء القبائل الأخرى [يوان تشاو شي، ص٧٢] كان الحصول على لقب من دولة مجاورة وقوية في ذلك الوقت شرفاً عظيماً للحاكم الذي يحصل عليه. مورست مثل هذه التشريفات من قبل الصينيين تجاه جيران من الأغراب، حسب النظرة السائدة في ذلك الحين برزت مثل هذه «الاعترافات السياسية العليا» في أعين الكثيرين من أبناء جلدتهم مثل نوع من الطموح إلى السلطة، كان حصول جنكيز على ذلك اللقب في وقت موات للغاية، على الرغم من أننا نعلم جيداً أنه في ذلك الحين كان بعيداً من أن يكون المغول كافة قد خضعوا لسلطة جنكيز خان. قسم كبير منهم كان يتبع لتشاموخا، وحتى الذين كانوا يعيشون في أولوس جنكيز خان لم يستقروا على رأي لهم، ومن ضمنهم كان ساتشا بيكي والتشجوركية أي أبناء عمومة جنكيز خان.

إن السهم الذي أطلقته يد رامٍ ماهر قد أصاب هدفه الأول التتار، وجلبت لجنكيز خان الرتبة التشجوتشجينية، وأصاب أيضاً الهدف الثاني وهو التشجوركيين، فإنهم وساتشا بيكي قد أعطوه المسوغ القانوني للقضاء عليهم بعدم خروجهم للغزو ضد التتار مع جنكيز خان، وكانت هذه خطوة مهمة في طريق

التخلص من أحد «الخانات الفطريين»، وبتعبير أدق أحد المنافسين الخطرين. إن الشجار الذي وقع في الاحتفال مع التشجوريك، وتدخل فيه تيموتشجين شخصياً، يحمل في طياته جذوراً عميقة، حسب الأسطورة. إن جنكيز أراد أن يبرز قوته ليس للتشجوركيين فقط بل لإخوته، تمكن بيلغوتاي، من خلال الشجار بيده الشمال من إجلاس تيموتشجين على الفرس، عمل أي شيء باليد اليسرى وعلى سبيل المثال إعطاء شيء ما، يعدّ نوعاً من عدم الاحترام.

وجزاء على إبداء عدم الاحترام، حتى ولو كان في ظروف استثنائية كظرف الشجار، قد تم وضعه في الحبس. تفاخر بيلغوتاي وخاسار أمام أخيهم بقوتهم ومهارتهم، حسب الرواية فإن جنكيز خان كي يضعهم في مكانهم الصحيح أعلن: «سأقمع كبرياءهم! " انتحل هيئة رجل عجوز بسيط ممسكاً بقوس طويل أصفر، واقترب منهم قائلاً: «سأبيع هذه القوس! " عندها سأل بيلغوتاي وخاسار:

- من هذا الشخص؟ من أين أتى؟ لم نر مثل هذا من قبل.

- أنا إنسان بسيط أتعيش من بيع الأقواس، وأود أن أعرف هل سيكون قوساً جيدة إذا ما تم شده؟

لم يستطع كل من بيلغوتاي وخاسار أن يشدا القوس، وهنا قام ذلك العجوز، الذي استحال إلى شخص شائب راكباً على بغل أغبر ذي غرة بيضاء على رأسه، بوضع سهمه الذهبي، وأطلقه بقوة، بحيث انفلقت الصخرة، «ألستم الأخوة الصغار للحاكم العملاق واللذان يطلق عليكما رامي السهام الماهر خاسار وبيلغوتاي القوي؟

يقولون إنه:

عوضاً عن الحديث الفضفاض
يكفي للسانك أن تعض

نطق بكلماته هذه ومضى لحال سبيله، عندها ذعر الأخوان وقالا لبعضهما: "لقد كان هذا بحق حاكم سلطان!" ومن يومها "عضا على لسانهما"» [ألتان توبتشي، ص١٠٦].

جاء دور التشجوريك والذين هم أقرباء بالدم، وكان مؤسس فرع التشجوركي سورخاتو تشجوركي ابن أوكين بارخاخا الابن الأكبر لخابولا، أي ابن عم شقيق إيشوغاي، كان سورخاتو في زمانه قد قام بانتقاء أكثر الأشخاص المبرزين من المهرة، الذين التقى أحفادهم في ذلك الوقت جنكيز خان، لقد كانوا جميعهم أشخاصاً شجعان، يصعب ترويضهم، وذوي همة، لقد فرضوا على الآخرين إجلالهم، إنهم أنفسهم الذين ضربت نساؤهم خلال الاحتفال. سائس جنكيز خان وأحد رجالهم جرح بيلغوتاي، في بادئ الأمر تبدى كأنما وجد طريقاً إلى المصالحة، وأكثر من مرة برز شعار «دعنا نعيش في اتفاق»، لكن التشجوركي لم يوافقوا على المشاركة في غزو جنكيز خان التتار، بل أكثر من ذلك، وحسب رواية «التاريخ السري»، وخلال غياب جنكيز عندما كان مشغولاً بغزو التتار، هجموا على مقر قيادته (أوروك)، فقتلوا عشرة ونهبوا خمسين آخرين، فتساءل جنكيز خان في ثورة من الغضب:

- هل يجوز أن نغفر للتشجوركيين أفعالهم؟ فمن المعروف أنهم هم المسؤولون عن ضرب شيكيورا السائس خلال الاحتفال في غابة البلوط على نهر أونون، أرجعنا إليهم لاحقاً بعد اعتذارهم بكل الود والتعقل كلتا السيدتين خوريتشجين خاتون وخوورتشين، وعندما عرضنا عليهم المشاركة في غزو التتار هؤلاء الأعداء القديمين قتلة آبائنا وأجدادنا، يحضروا للمشاركة، وقد انتظرناهم ستة أيام، وبهذا الأمر فإنهم، وعلى مرأى من الأعداء، صاروا لنا أعداءً (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١١٤).

هكذا صار مصير التشجوركيين محتوماً، فإنهم وحدهم لن يستطيعوا مواجهة جنكيز، وحلفاؤهم تخلوا عنهم، وجاموخا الذي كان غاضباً عليهم لا يود مساعدتهم، ولذلك قام جنكيز وبكل قسوة بتصفية حسابه مع أقربائه «فقد صفى كل القبيلة وسلالتهم كافة» [المصدر نفسه، ص١١٦] ومن تبقى منهم حياً «جعل منهم أرقاء بالتوارث».

نجد اختلافات في بعض التفاصيل المهمة بين «التاريخ السري» ورشيد الدين. طبقاً لـ «التاريخ السري» قام جنكيز بغزو التشجوركيين، هرب زعماؤهم ساتشا بيكي وتايشو، لكن تم القبض عليهم وتسليمهم لجنكيز، الذي أمر بإعدامهم [السيرة المكنونة، ص١١٤]. أما حسب رواية رشيد الدين فإن جنكيز لم يغضب بتاتاً على التشجوركيين، بل نقل إليهم جزءاً من الغنائم التترية، وفي الطريق تعرض فريق من رجال جنكيز للهجوم من قبل التشجوركيين، حيث أدى إلى تعرضهم للغزو وتمت هزيمتهم، ولكن تمكن ساتشا بيكي وتايشو من الفرار [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٩٣-٩٤] يفترض ب. راتشنيفسكي لأسباب وجيهة أنه في البند ١٣٩ من «التاريخ السري» في جملة «هزم أشخاصاً مشهورين وصفى حتى اسمهم وسلالتهم». توجه إدانة مستترة لإبادة جنكيز لأهله الأقربين [راتشنيفسكي، ص٥١]. والجدير بالذكر أنه جاء في كتاب «يوان شي» ذكر أن رجال جنكيز لم يهاجموا على الإطلاق من قبل التشجوركيين، بل من قبل النايمان [يوان شي، الفصل الأول، ص٣ب].

فيما بعد وحسب إفادات رشيد الدين صار جنكيز وفي محاولة للنيل من فان خان يؤكد مطلقاً بأنه قتل ساتشا بيكي وتايتشو من أجل فان خان «لأجلك قد قتلت أخي الأكبر، وقضيت على الأصغر، فإذا سألوني من كانوا فإنهم ساتشا بيكي، الذي كان أخي الأكبر وتايتشو كوري الذي كان أخي الأصغر» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٢٨].

كل هذا قصد منه المراهنة المطلقة. كان سانشا بيكي منافساً حقيقياً لجنكيز، إضافة إلى أنه كان يعيش معه في أولوسه نفسه، وتم العثور على مسوغ للتخلص منه، وتم إبعاده. كل الباحثين في السيرة الذاتية لجنكيز خان يتفقون على أن «هذه كانت خطوة مهمة في طريق رفعة تيموتشجين» [يوان شي، ص٧٣]، لأنه بهذا قد صفّى أقوى فرع من سلالته، يفترض ب. راتشنيفسكي أن مقتل زعماء التشجوركيين كان «إجراءاً سياسياً» القصد منه «التخلص من الأحقاد القديمة» [ب. راتشنيفسكي، ص٥١] ودأب جنكيز خان دوماً على الحط من شأن النبلاء المغول القدماء وإحالتهم إلى رتبة النوكير العاديين.

في أواخر القرن الثاني عشر في منغوليا كانت حفنة من الزعماء الأقوياء موجودة، الذين كانوا يطمحون إلى السلطة، إضافة إلى أن جنكيز خان كان هناك فان خان الكيريتي[1]، وجاموخا مع بقية المغول، الذين ما زالوا لم يعترفوا بزعامة تيموتشجين جنكيز خان، كذلك البقية الباقية من حلفائهم من خانات النايمان والتايتشجوت والميركيت، إن ثلاثة من زعماء منغوليا الوسطى وهم جنكيز خان وفان خان وجاموخا على أقل تقدير كانوا طامعين بشكل واقعي بالسلطة، حسب التقييم الذي يعطيه ل. غامبيس «فان خان كان حاكماً نشطاً، ذا مزاج متقلب وغير حاسم، لكنه كان مخاتلاً وقاسياً» [غامبيس، ص٣١]، «لم تكن لديه المعطيات ليصبح زعيماً لإمبراطورية من الرحل». هذا ما نعرفه الآن، ولكن في ذلك الوقت بعد عام ١١٩٦ لم يكن ذلك ميسوراً.

علماً بأن جنكيز خان كان في ذلك الوقت من ضمن أتباع فان خان، وحسب تقدير دولة تسزين فإن فان خان كان أكثر قادة منغوليا الشرقية قوة.

---

(١) يستنتج ل. غامبيس أن الكيريت آنذاك كانوا القوة الأساسية في منغوليا الشرقية [غامبيس، ص٣١].

في الأعوام ١١٩٧-١١٩٨ بالتقريب قام فان خان بغير صحبة جنكيز خان بغزو الميركيت وهزمهم، لم يعط أي شيء لتابعه (وابنه) جنكيز مما تم أخذه من الغنائم، لا بد أن هذه الواقعة وضعت بداية للفتور الجديد في العلاقة بينهم، في عام ١١٩٨ قامت جيوش التسزين بغزوة جديدة لمنغوليا الشرقية ضد الخونغيرات والقبائل المغولية الأخرى، ونهبت السكان المحليين، لكن بعد عام ١١٩٨ بدأت دولة تسزين، وبسرعة شديدة، تفقد سلطتها على تلك الأنحاء، وساعد هذا جنكيز خان في السيطرة على الأرجاء الشرقية من منغوليا.

بدأت في غرب منغوليا تحدث وقائع مهمة أيضاً فيما يختص بكونها ساعدت على انتصار جنكيز خان، بعد موت إينانتش خان النايماني تصدعت الدولة إلى أولوسين، فأصبح بويوروك خان يدير الجزء الجبلي من البلاد في ألتاي، أماتايان خان فقد أدار الأجزاء السهلية من البلاد على نهر إرتيش الأسود، في الأعوام ١١٩٨-١١٩٩ انهال فان خان وجنكيز خان وجاموخا بتوحيد قواهم على بويوروك خان، وكما يفترض ب. راتشنيفسكي من المحتمل بالموافقة غير المعلنة من قبل تايان خان، تم القضاء على بويوروك بالقوة المشتركة للميركيين والمغول، وهرب إلى أعالي نهر ينيسي (على كام)[1].

في هذه الغزوة يبدو أن فان خان، ولأول مرة، قرر الانفصال عن جنكيز، وعندما عاد المنتصرون تعرضت لهم إحدى فرق النايمان وسدت عليهم الطريق، هيَّأ كلاً من جنكيز خان وفان خان للتأهب الحربي، لكن عندما حل الليل وقرروا

(١) حسب إفادة «يوان شي» أن بويوروك خان وجماعته من النايمان قبل بداية المعركة «استدعوا الساحر لكي يقدم قرباناً ويأتي بالرياح والثلوج حتى يستغلوا ذلك في مهاجمة [جنكيز خان وفان خان] لكن عندما هبت الرياح فإنها أخذت تهب في الاتجاه المعاكس وانقلبت عليهم» سقط ثلج كثير وانهزم النايمان [يوان شي، الفصل الأول، ص٥أ؛ السيرة المكنونة، ص١١٧].

المبيت دون أن يكسروا الصفوف، وذلك حتى يبدأوا الحرب في الصباح الباكر، في تلك الليلة قام المتآخون فان خان وجاموخا بخيانة جنكيز خان، لم يطفئوا النيران، وانسحبوا خفية من مواقعهم تاركين جنكيز وحده في مواجهة خصم قوي، مضمرين بذلك أن يقضوا عليه، وفي الصباح فقط علم جنكيز خان بذلك المكر الذي دبره له حلفاؤه.

- يبدو أنهم دبروا لإيقاعنا في مصيبة أكبر!

وبسرعة غادر المعسكر الحربي متراجعاً قبل الدخول في حرب مع النايمان.

عندما كان الحلفاء يتراجعون بعيداً أخذ جاموخا يوغر صدر فان خان على جنكيز خان:

- يبدو أن الأمر واضح، فإن شقيقي المتآخي (أندا) تيموتشجين منذ زمن يتبادل الرسل مع النايمان، فلهذا لم يحاول اللحاق، أيها الخان! لقد أثبت أنني أهل الثقة، وشقيقي المتآخي صار مرتداً!

لكن صار النايمان في الصباح يتعقبون ليس جنكيز خان فحسب، بل فان خان، وبضربة مفاجئة خربوا معسكره المتنقل وأسروا عائلة ابنه سانغوم[1]، وأخذوا كثيراً من الماشية والناس، استغل أبناء توختو بيكي الفوضى، فقاموا بالهرب، وهم الذين كان قد أخذهم على شكل رهائن، وأجبرهم على أن يسيروا معه بعد غزوته الناجحة على الميركيت في العام الماضي.

دخل الكيريت في صراع مرير مع النايمان، أصبحت الحالة تستدعي وجود حلفاء، فأرسل فان خان على وجه السرعة رسله إلى جنكيز خان بالخبر الآتي: «لقد أسر النايمان زوجاتي وأبنائي، ولذا فإنني أرسل إليك يا ابني طالباً منك

(١) في واقع الأمر أن هذا ليس باسم، إنما رتبة، وتعني سيانغون بالصينية وزيراً أو وزيراً أولاً.

فرسانك، فليعملوا على إنقاذ شعبي!»، وصل فرسان جنكيز (النوكير) في الوقت المناسب وتغلبوا على النايمان والكيريت، جرح حصان سانغوم، وهو بنفسه كاد أن يقع في الأسر، لكن المغول هاجموا النايمان والكيريت وهزموهم، وأعادوا إلى فان خان أمواله ورجاله، برز خلال المعركة بشكل واضح أربعة من فرسان جنكيز (النوكير) هم بوورتشو وموخالي وبوروخول وتشيلاون، قال جنكيز خان لفان خان: «لقد أرسلت أربعة من قادة جيشي، لقد حاربوا وخلصوا شعبك وأعادوه إليك، ومن جديد أعادوا تأسيس دولتك!».

فهل يا ترى تحرك ضمير فان خان، أم أنه أضمر مكيدة جديدة وهذا أمر أكثر احتمالاً، فإنه قرر أن يورث أولوسه وإدارة الكيريت إلى جنكيز خان:

– وهكذا فإن أولوسي المفقود قد أعاده إلي مرة شقيقي المتآخي إيسوغاي باتور، وفي المرة الأخرى فإن أولوس المحتضر أنقذه لي ابني تيموتشجين، الأب والابن أعادوا لي الأولوس المفقود، لأجل من كانوا يكدحون؟ ولمن أرادوا أن يهبوه؟ من الواضح أنني قد صرت هرماً، ولقد بلغت من الشيخوخة إلى حدّ أنه قد آن الأوان لأرتفع إلى القمة، وعندما ارتقي القمة في أرذل العمر، وحينما أصعد إلى الصخرة، فإلى من ستؤول إدارة أولوسي؟ أشقائي الأصغرون أشخاص عديمو الفائدة، أبنائي وجودهم كعدمهم، الوحيد فيهم هو سانغوم، فهل يا ترى أجعل من تيموتشجين أخاً أكبر لسانغوم؟ هنا سيكون لدي ابنان، ومن بعد ذلك إلى الراحة!

وافق جنكيز على التبني، وعلى ضفاف نهر تولا تم أداء الطقوس المتبعة وأقسم بعضهم لبعض:

على العدو بسرعة ضاربين
بجميع قوانا كاليد الواحدة
أو حيوان متوحش نحاصره

كالفرد الواحد بحصار عام نمسك به

سنتوكل فقط، بعضنا على بعض ولذلك:

الحية ذات الأسنان

تتوعدنا بالزور

نحن لا نسمع قول الزور

مع الصديق سنلتقي

وللصديق نهب ثقتنا

الحية ذات الأنياب

تتوعدنا بالضرر

الضرر نرمي به

نستمع للصديق

وللصديق نهب إيماننا

[حسب «السيرة المكنونة»

ص١٢٥-١٢٧].

لكن جنكيز خان الماكر لم يعد منذ زمن بعيد يؤمن بالكلمات، فاقترح أن يؤكد على الحلف الجديد بالزواج، أي بزواج ابنه الكبير تشجومشي بابنة فان خان الأخت الصغرى لسانغوم تشاور بيكي، وزواج سوساخو ابن سانغوم وحفيد فان خان بابنته خوتشجين بيكي، لم يرق للكيريت، وبشكل خاص لسانغوم ـ الذي هو الأخ الجديد لجنكيز خان ـ هذه المصاهرة: إنهم لم يودوا أن يدخلوا في صلة قربى مع جنكيز خان، حتى وإن كانت من أجل أهداف فان خان، ولذلك بدأوا في إظهار معارضتهم، إن جنكيز الذي منذ البداية لم يستطع أن يثق ثقة كاملة حتى بفان خان، إنّ تبنيه من قبل الخان الكيريتي أمر لا قيمة له، ولكن ظاهرياً لم يبد أي امتعاض

«وداخلياً بدأ يحس بالبرودة تجاه فان خان ونيلخا سانغوم» [السيرة المكنونة، ص١٢٧] من المحتمل أن هذه الأحداث جرت بعد ذلك بقليل، حسب إفادة «يوان شي»، فكرة الدخول «مع جنكيز خان في علاقة قربى ومن ثم قتله» ترجع إلى عام ١٢٠٣ [يوان شي، ص٧٦].

عدم التناسق في سيرة تيموتشجين جنكيز خان الراجعة لحقبة حياته الأولى كافة، تعود إلى نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر.

يرجع رشيد الدين هزيمة التشجوريك إلى الأعوام ١١٩٦-١١٩٧. أما «التاريخ السري» فيرجعها إلى العام ١٢٠١، غزوة فان خان على الميركيت حسب رشيد الدين حدثت في عام ١١٩٨، وحسب «التاريخ السري» ترجع إلى ١٢٠٢، الغزوة المشتركة ضد بويوروك خان النايمان يرجعها رشيد الدين إلى عام ١١٩٩، أما «التاريخ السري» فيرجعها أيضاً إلى عام ١٢٠٢.

هكذا من المحتمل أن فان خان وجنكيز خان قاما بغزوتهما المشتركة ضد التايتشجوت في عام ١٢٠٠، ولمساعدة تايتشجوت هب الميركيت لنصرتهم، حدثت المعركة على ضفاف نهر أونون، ويبدو من مجمل الأحداث أن جنكيز خان واجه التايتشجوت وحده، كان فان خان في هذا الوقت على ضفاف نهر أرغوني، حيث كان يحارب الميركيت، الذين تعقبوا جاموخا [غامبيس، ص٦٠] في تلك الآونة التي كان فيها فان خان يحارب مطاردي جاموخا من الميركيت، قام جنكيز بتحريك قواته على التايتشجوت، مطارديه القدامى، الذين عرفوا ألا يتوقعوا خيراً من جنكيز، ولذلك تأهبوا للقتال، في هذه المعركة لم يستطع أي من الطرفين أن يهزم الآخر في قتال مرير حتى حلول الظلام، وقضى المقاتلون ليلتهم على أرض المعركة.

من المحتمل أن تكون الحرب مع التايتشجوت الواقعة الوحيدة التي شارك فيها جنكيز شخصياً، وكم كانت رغبته عظيمة للانتقام من التايتشجوت بسبب الظلم الذي ألحقوه به خلال أسره في شبابه، أصيب بجرح في شريان عنقه وفقد الوعي، لم يقدر الذين كانوا حول جنكيز على إيقاف نزيف الدم، كان تشجميلي يمتص الدم المتخثر، وجلس بجوار الخان الجريح، ولم يدع أي واحد غيره يقوم بهذا العمل وفمه مخضب بالدماء، بعد منتصف الليل أفاق جنكيز خان أخيراً وطلب ماء للشرب، لم يجد تشجيلمي أي شيء بالقرب، قام وحده خلسة بالتسلل إلى مقر التايتشجوت، وبصعوبة عثر على قليل من اللبن المحمض، عندما بدأ جنكيز في تقريعه لتركه له وحده والذهاب إلى معسكر العدو حيث كان بالإمكان القبض عليه ومن ثم معرفة حالة جنكيز خان المتردية، لكن تشجيلمي المتفاني سوغ فعله بأنه ذهب خلسة، وذلك حتى في حالة القبض عليه يبدو لهم كأنه مرتد فر إليهم:

- لقد كنت مؤمناً بأنهم سيصدقونني لو حدث ذلك، وأعطوني ملابس وقبلوني في صفوفهم، ولكن ألم أرجع إليك على أول فرس وقعت في يدي؟

في الصباح اكتشف مقاتلو جنكيز خان أن التايتشجوت قد تراجعوا تاركين في معسكرهم كثيراً من الرجال، كان الطاعن في السن سورغان شيرا من بينهم، وهو الذي أنقذ حياة جنكيز خان الفتي يوماً ما، ورامي السهام الماهر تشجابي، الذي حامت حوله الشبهات بأنه هو الذي أصاب جنكيز، عند ذلك اعترف تشجابي بأنه من على ذلك الجبل، ومن الجهة التي أصيب منها جنكيز بالفعل كان هو الذي يرمي بالسهام، عندها قدر جنكيز صراحته وعفى عن تشجابي:

- العدو اللعين دائماً يضمر في داخله نزعته الفتاكة وعداوته وليكتم أقواله، فماذا نقول عن هذا؟ فإنه لا ينكر عداوته ولا نزعاته الفتاكة العدوانية فحسب، بل يسلم رأسه، فإنه جدير بأن يكون رفيقاً.

وهكذا ظهر واحد في معسكر جنكيز من الذين سيكونون في المستقبل من قادة جيوشه المجيدين.

تم تنظيم مطاردة للتايتشجوت الفارين، ومن أدركه نوكير جنكيز خان دفع الثمن غالياً لقاء الإهانات التي تلقاها الخان في صباه «قتلهم وذر رمادهم»، «حتى أبناؤهم وأحفادهم» [المصدر نفسه، ص١٢٠]، ومن عفى عنه أخذوه وضموه للأولوس، قبض على تارغوتاي كيريلتوخا رجاله بأنفسهم، وكادوا أن يسلموه لجنكيز، لولا خوفهم من أن تسليمهم إياه للخان؛ أي خيانة حاكمهم فيثيرون الشك لدى جنكيز مستقبلاً في إخلاصهم، وهذا ما دفع بهم إلى الاستسلام بدونه.

- لقد قبضنا على تارغوتاي كيريلتوخا وجلبناه معنا إلى هنا، ولكن لم نقو على الغدر به وتسليمه إلى الموت، فنحن نذكر أنه حاكمنا الفطري، فلذلك أطلقنا سراحه، وحضرنا لكي نهب قوتنا إلى جنكيز خان.

- حسناً فعلتم بعدم تسليمكم لخانكم، ولم تخونوه، وإلا لكان لزاماً علي أن أعدمكم مع كل جنسكم، مثلكم مثل الحاشية التي رفعت يدها على خانها الفطري (حسب ما ورد في «السيرة المكنونة» ص١١٨-١١٩، ١٢١).

هكذا أوقع أول هزيمة بالتايتشجوت، ولكن لم يهزمهم نهائياً.

في عام ١٢٠١ حدثت واقعة مهمة، فقد قررت القوى المغولية وغير المغولية الاتحاد للحرب ضد جنكيز خان، حسبما ورد في «التاريخ السري»: «في عام الدجاجة (عام ١٢٠١) في حرش ألخوي بولاخ تجمعت القبائل الآتية في مؤتمر [سايم]. الخاداغيون والسالتشجيوتيون مع بعض؛ خاداغاين بقيادة باخو تشوروغي، وتشيرغيداي باتور على رأس قبيلة خاداغين سالتشجيوت، الذين اتفقوا مع دوربين التتار، خاتشجيول بيكي على رأس قبيلته مع دوربين، التتري ألتشي والتتري تشجاليك بوخا مع رجالاتهم، توغي ماخا على رأس قبيلة

إيكيريس، ديريك إميل ألخوي على رأس قبيلة أونغيرات، تشويك تشاخدان على رأس قبيلة غارلوس، غوتشووت وبويروخ خان من قبيلة النايمان، خوتو بن توختو بيكي من قبيلة ميركيت، خودوخا بيكي من قبيلة أويرات، تارغوتاي كيريلتوخ من قبيلة التايتشجوت، خودون أورتشان وأورتشو باتور وغيرهم من قبيلة التايتشجوت، بعد أن تباحثوا اتفقوا على تنصيب جاموخا من قبيلة التشجاتشجوراد في مرتبة الخان، وقاموا بأداء القسم على ذلك، الذي يتم خلاله ضرب فرس ومهرة بالسيف وهما راكضان، ومن هناك ارتحلوا إلى أسفل نهر أوغوني وقاموا بطقوس تنصيب جاموخا في منصب غورخان على قمة الجبل النامي بالأشجار الكثيفة عند مصب نهر كان مورين في نهر أرغوني، بعد انتهاء طقوس التنصيب في رتبة غورخان تعاهد الجميع على الغزو ضد جنكيز خان وفان خان، في هذه الآونة كان جنكيز خان على جبل غوريلغو عندما حضر خوريداي من قبيلة غورلوس وأنبأه عن المعاهدة بالحرب، عندما علم جنكيز بهذا النبأ قام بإعلام فان خان، الذي حرك جيوشه على الفور، وحضر إلى جنكيز خان» [السيرة المكنونة، ص١١٦].

نقرأ في «يوان شي»: «في هذا الوقت أبدت قبيلة خونتسزيلا رغبتها في الخضوع [لجنكيز خان]، قام خاسار ـ وهو غير عالم بذلك ـ بنهبهم، عندها قامت خونتسزيلا بالخضوع لجاموخا مع كل من قبائل دولوبان وأيتسلاس والتتار وسانتجيو وعقدوا مؤتمراً على نهر تسزيانخا وأقروا تنصيب جاموخا على العرش مجتمعين، وأسبغوا عليه لقب تسزيو أرخان» [يوان شي، الفصل الأول، ص٣ب-٤أ] يكتب «شان أو تسين تشجان لو» تفاصيل هذه الواقعة كما يلي: «بعد ذلك قامت قبائل خاتا تسزين وسانتشجيو ودولوبان والتتار وخونتسزيلا بعقد مؤتمر عند منابع نهر ألاي، وفقاً لتقاليد طقوس القسم، فقد شطروا عند الخصر حصاناً أبيض، وأبدوا رغبتهم في مهاجمة جيشنا وفان خان» [بيلو وغامبيس، ص٣٩٢-٣٩٣] ولم يرد ذكر أي شيء عن انتخاب جاموخا غورخاناً.

يخبرنا رشيد الدين عن تكوين تحالف في أكثر من مرة: «في ذلك الوقت الذي كانت فيه الغالبية من قبائل التايتشجوت للسبب الآنف الذكر مهزومة، وقسم منهم ولى هارباً، وهي قبائل كاتاكين وسالدجيوت الذين اجتمعوا مع بعض، عقد معهم اتحاد قبائل دوربان والتتار والكونغرات، وأدوا قسماً، واعدين فيه بعضهم بعضاً بحلف لا يوجد أقوى منه وسط المغول، القسم يتلخص في الآتي: أن ينحروا بضربات السيف حصاناً وثوراً وكلباً ذكراً قائلين خلال ذلك: "يا إله السماء والأرض! استمع لأي قسم يؤدي هؤلاء الذكور، هم جذور والأصل لهؤلاء الحيوانات، فإذا جئتنا بكلمتنا ولم نبر بوعدنا فدعنا نكون حيوانات مثلها تماماً"، بهذه الطريقة يقسمون على أنهم عقدوا اتحاداً بعضهم مع بعض وسيحاربون ضد جنكيز خان وأون خان» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١١٧] يلي ذلك «في العام الذي يعدّ عام الدجاجة الذي يبدأ بشهر جمادى الأولى ٥٩٧ هجرية (فبراير ١٢٠١) عندما تعرضت قبيلة كونغيرات للهجوم فقدت قائدها، فانضمت إلى جاموكي ساتشان، وبعد أن تباحثوا مجتمعين مع قبائل إيكيراس وكورالاس ودوربان وكاتاكين وسالدجوت عقدوا اجتماعاً في منطقة على نهر غام، ونصبوا دجاموكي على عرش غورخان، لفظة غورخان تعني حاكم السلاطين والقياصرة، عندما أصبح غورخان عزموا على بدء الحرب ضد جنكيز خان» [المصدر نفسه، ص١١٩-١٢٠].

وهكذا في عام ١٢٠١ (لأول مرة تتفق التواريخ في كل من «التاريخ السري» وعند رشيد الدين) حدث تحديد حاد لمجالات نشاط القوى في منغوليا، من جهة فإن خان كيريت وجنكيز خان من هذا الجزء من المغول الذي سار خلفه، أخذ تايان خان النايماني موقف انتظار مقتنعاً بأن الكيريت وجنكيز خان ألحقوا الأذى بشقيقه بويوروك، ومن جهة أخرى اتحدت تلك القوى التي تقف مناهضة لفان خان

وجنكيز خان؛ أي المعارضين لجاموخا، ومن ضمنهم التايتشجوت المهزومون والذين أضعفهم غزو فان خان والميركيت، والذين نهبهم خاسار والخونغيرات وغيرهم بلا تعقل.

دخل التتار الذين يذكرون ذلك الهوان الذي لحق بهم من قبل الكيريت وجنكيز خان في هذا الاتحاد، يرى ب. بيليو ول. غامبيس أن مفهوم دوربان (الأربعة) هم إما أنسال الأبناء الأربعة لدوف سوخور أو (مع كثير من الاحتراس) الأويرات الأربعة [بيليو وغامبيس، ص٤٠٠-٤٠٢]. وهكذا على ضفاف نهر غان رافد نهر أورغوني اتحدت القوى التي أدت القسم بعدم السماح لفان خان وحليفه جنكيز خان بتقوية وضعهم، وليس هناك أدنى شك في أن هذا الحلف موجه في أول الأمر ضد فان خان الراعي والأب والمتآخي مع جنكيز خان.

توقعت منغوليا معارك حاسمة، كم كان عددها ومن فاز بها؟ نتوقف في الوقت الحالي على الحدث المؤكد والمؤرخ بشكل واضح، وهو غزوة جنكيز خان على التتار في خريف عام ١٢٠٢، وهزيمته لتشاغان تتار وأنتشي تتار، على الرغم من أن رشيد الدين في عرضه لهذه الأحداث بعد انتخاب جاموخا غورخاناً يؤرخ لها بعام ١١٨٢. إن هذا عدم دقة على الرغم من أن ب. راتشنيفسكي يؤكد أن أكثر الترتيبات دقة في تسلسل الأحداث بعد عام ١٢٠١ ذكر هذا تحديداً رشيد الدين [راتشنيفسكي، ص٥٢].

☸ ☸ ☸

الثأر للأب

ويموت الناس شعوياً

«مدح النيل»

ترجمة أنّا أخماتوفا

لم ينس جنكيز خان دم أبيه إيسوغاي باتور، وسلفه أمباغاي خاغان ومقتلهما على يد التتار، الذين أسماهم بـ «قاتلي آبائه وأجداده»، وكانت تعيش في ذاكرة المغول تلك المعارك القديمة العنيفة، وعنهم يكتب رشيد الدين «إن اسمهم منذ القدم مشهور في العالم، ومنهم تفرعت فروع كثيرة، وقوام قبيلتهم سبعون ألف بيت»، كان التتار قبيلة محاربة «اشتهروا بالمناوشات بالمدى فيما بينهم لأسباب بسيطة ولسوء التفاهم، مشهرين السيوف والمدى بدون تقدير لما يترتب على ذلك، فإذا سادت بينهم روح الوئام بدل الخصام في ظل كثرة عددهم لما تمكن أحد من الشعوب الأخرى مثل الصينيين أو غيرهم من الصمود أمامهم، ولكن على الرغم من كل الخصومات، التي سادت، تمكن بعضهم من فرض سيطرته على عدد من القبائل الأخرى والنواحي لحقب طويلة، متفردين بقوتهم وعظمتهم وجلالهم الكامل على الآخرين، ولعظمتهم الخارقة للعادة ومكانتهم الجليلة تسمت القبائل التركية الأخرى على تباين مستوياتها بأسمائهم، وأصبحت تعرف بالتتار، وكل هذه العشائر عزت عظمتها ومكانتها من انتسابها لهم، وصارت تحمل اسمهم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٠٢].

إننا نعلم أن العداوة بين التتار والمغول ترجع بداياته إلى عهد الخان خابول، وذلك عندما لم يتمكن الساحر التتري من معالجة شقيق زوجة خابول خان، ولهذا

السبب تم قتله «وبعد هذا في الوقت الذي تحين فيه سانحة لأي من الطرفين، كانوا ينهبون، ويقتلون بعضهم بعضاً» [المصدر نفسه، ص١٠٤]. هنالك معلومات تفيد أن التتار بخلاف أمباغاي خاغان سلموا أوكسين بارخاخ جد قبيلة تشجوركي إلى التشجورتشجينيين.

ضعف التتار في نهاية القرن الثاني عشر من جراء الحروب مع التشجورتشجينيين، وأسفرت عن ضعفهم الهزيمة التي نتجت عن الحرب التي اشترك فيها إلى جانب التشجورتشجيتيين مغول جنكيز خان والكيريت في عام ١١٩٦ خاصة، وبما أن الوضع عند التتار لم يكن على ما يرام، قرر جنكيز خان «في خريف عام الكلب ١٢٠٢ محاربتهم» [السيرة المكنونة، ص١٢٣]، يقرر جنكيز خان لأول مرة، بشكل انفرادي، الهجوم على أقوى وأقدم قبيلة من القبائل التتارية المغولية، ويبدو أنه بهذا الغزو فكر في بداية الحرب الفاصلة من أجل السلطة في منغوليا، مستخدماً للحرب ذرائع الانتقام الدموي وفق العادات.

وهكذا على وفق ما قال مؤلف «يوان شي»: «في عام ١٢٠٢ أرسل الإمبراطور جيوشه إلى نهر أولخوي شيليانتشجان وهجم على اتحاد القبائل التترية القديمة المسماة بـ«أنتشي» وتشاغان، أدت الجيوش القسم قبل المعركة: بأنها بعد دحر العدو ستواصل مطاردة المهزومين، دون النظر للغنائم، مهما كان السبب، إلا بعد نهايتها وساعتها يمكن تقسيم الممتلكات! انتهت المعركة حينها بفوز الإمبراطور وأقربائه، ولكن ثلاثة من الرجال، وهم أندان وخوتشار وداليتاي، نقضوا القسم، الشيء الذي أثار غضب الإمبراطور، فنزع منهم ما جمعوه من الغنائم، وقسمه بين أفراد الجيش» [يوان شي، الفصل الأول، ص٥أ] يصف رشيد الدين هذا الحدث بالطريقة نفسها تقريباً، ولكن أضاف إليه ما تمخض من عواقب نتيجة خرق أمر جمع الغنائم لدى علية القوم والأقارب: «إن جنكيز خان بدأ الحرب من ضفاف

النهر المسمى بأولكاي سيلو جوليت ضد اتحاد القبائل المغولية القديمة أنتشي وتشغان التترية، ولقد أصدر أمراً (ياساك) بأن لا يجمع أحد الغنائم في أثناء المعركة إلا بعد نهايتها والقضاء التام على العدو، ومن ثم يمكن تقسيمها على الكل، وافق الجميع على هذا الأمر، إلا أن ألتان بن كوتولا خاغان وموتشار بن نيكون تايشي ودوريني أوتشغين عم جنكيز خان لم يوفوا بالعهد، وصاروا يجمعون الغنائم قبل نهاية العمليات الحربية، لم يطب لجنكيز خان فعلهم، فأرسل في طلبهم كوبيلا وجيي وسلب منهم الغنائم التي جمعوها، لذلك انتابهم الغضب على جنكيز خان، فخرجوا سراً عن إمرته، وذهبوا لخدمة أون خان، الشيء الذي أصبح فيما بعد جزءاً من الأسباب التي أدت لتوتر العلاقة بين جنكيز خان وأون خان، فخاض الخارجون الحرب مع أون خان ضد جنكيز خان، ولكن انتهت الحرب في نهاية الأمر بانتصار جنكيز خان والسحق الكامل للأعداء، وهكذا إلى النهاية!». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٢٠-١٢١].

لم تكن نهاية الأمر بتلك البساطة، ففي الخريف أصبحت السهوب داكنة سوداء، احمرت واصفرت أوراق الأشجار، وأصبحت أشجار الشوح داكنة، ومياه الأنهار والجداول الصافية فقدت هيجانها الربيعي، وصارت تسكب كالزيت شبعى وكسلى مثل القطعان البدينة التي قضت على صيفها، ومثل رجال مرحين نشيطين متنعمين باللذيذ من اللحوم، تحركت جيوش جنكيز خان على التتار جامحةً، كقطيع من الخيل أفزعته نازلة، مثيراً الغبار فوقه سحائب، وعلى أزيز العربات المحملة باليورتات وهدير الحيوانات والنداءات الحربية للنوكير.

في ليلة صبيحة المعركة الفاصلة، اجتمع المجلس في يورتا جنكيز خان، وفي هذه المرة شرح لنوكيره وأقربائه أن هذا الغزو ليس من أجل الغنائم، ولا تهور من أجل المفاخرة بسلب القطعان والأسراب التترية، وليس أسراً لجميلات التتار،

وأيضاً ليس بحثاً عن خبايا الخيم التترية التي تم سلبها من الخانات الكيدانيين، أي (ألتان خان)، فهذه معركة لا من أجل الحياة، بل من أجل الموت، إنها معركة مع "قتلة آبائنا وأجدادنا" فلتذكروا وصية أمباغاي خاغان:

خذوا بثأري
حتى تنمحي أظافر أصابعكم الخمسة
وحتى تتآكل أصابع أياديكم العشرة
كما الأسود وهي عاجزة عن إخفاء فرحها
كما الحوت بالع لكل ما هو حي
هاجمة كما السنقور هاجماً على ظله

إنها لمعركة كان الهدف منها تحديد مصير عمل عظيم وهو مصير التتار، وبعد الإجماع العام حدد جنكيز خان خطة المعركة المرتقبة: «إذا أطبقنا الخناق على العدو، ولم نله أنفسنا بالغنائم، فحتماً بعد القضاء عليهم ستكون الغنائم بحوزتنا، وحينها يمكننا تقسيمها، أما في حالة التقهقر، فكل ملزم بالرجوع إلى موضعه الأول، أو فليطح برأس كل من لا يؤوب إلى مكانه الأول» [السيرة المكنونة، ص١٢٣]. إن الهدف الخفي من هذه الخطة هو القضاء التام على التتار وليس جباية الغنائم.

أطل صباح اليوم الثاني مع بدء معركة عنيفة في منطقة دالان نامورغيرس بالقرب من بحيرة بوير نور، قاتل التتار ببسالة، ولكن تمكن المغول من تطويقهم ودحرهم، وبعد محاصرة التتار من كل الجهات تمكن المغول من الوصول إلى مركز أولوسهم في غابات أولوخوي شيلوغيلتشي والقبض قسراً على كل من لم يكن بساحة المعركة.

في البداية تم سحق زعماء القبائل التترية من بين المأسورين أمثال قبائل تشاغات تتار وألتشي تتار ودوتاوت تتار وألوخاي تتار، بينما انتظر بقية الأسرى مصيرهم بفزع.

دعا جنكيز خان مجلسه من جديد في خيمته المنفردة، ولكن هذه المرة كان مجلس أسري عظيم، مجلس من قتل التتار آباءهم وأجدادهم، والذين كان لهم الحق في محاسبة الشعب التتري، إن حكم جنكيز خان وأقربائه من نبلاء المغول كان قاسياً: «قبيلة التتار أصلاً هي القبيلة التي قتلت آباءنا وأجدادنا، فدعونا نقضي عليهم تماماً إلى أن نساويهم بمحور العربة ثأراً وعقاباً لأبنائنا وأجدادنا، فلنسحقهم تماماً وما تبقى منهم (أي الأطفال الصغار الذين يقل طولهم عن محور العربة. تعليق المؤلف) نجعلهم أقناناً ونوزعهم في أماكن مختلفة» [السيرة المكنونة، ص١٢٣].

كان الأسرى التتار على علم بأنهم لا يمكن أن يرجوا خيراً من وراء المغول، وبنهاية مباحثات المجلس سأل يكي تسيرين التتري بيلغوتاي:

- بأي قرار خرج المجلس؟

أكان بيلغوتاي ثرثاراً أم أن الحكم كان قاسياً لدرجة فاقت تحمله، فأفشى قائلاً:

- تقرر منحكم لحد السيف ومساواتكم بنهاية محور العربة!

بسرعة أبلغ يكي تسيرين من معه من التتار بقرار المجلس، حينها اتفق التتار على المجابهة بما يملكون، وما يقع في أيديهم من الأسلحة إلى آخر شخص، أما المتبقون على قيد الحياة فعليهم عندما يريد المغول مساواة طولنا بمحور العربة، أن يخفوا المدى في أكمامهم؛ لكي يذبحوا المحاربين المغول، لينام التتار على وسائد

من أجساد الأعداء، وليس على الأرض العارية». [كما ورد في السيرة المكنونة، ص١٢٣-١٢٤] وهكذا تصرف التتار.

جعل جنكيز خان من التتار «علفاً لسيفه» (رشيد الدين)، ولكن في أثناء ذلك تكبد المغول خسائر فادحة، ولكن حدثت المأساة الكبرى، وحقيقة تسرع المغول في مساواة التتار بمحور العربة، عملياً تم القضاء عليهم، أعلن جنكيز خان ـ كما يحدثنا رشيد الدين ـ عن النصر الساحق للخان المغولي وأمر «بالبطش العام بالتتار وبأن لا يترك أحد حياً يزيد طوله على الحد المتفق عليه، حتى النساء والأطفال، والحمل من النساء تقص أرحامهن من أجل القضاء التام عليهم . . . ولكي لا يكون لأي مخلوق إمكان مناصرة هذه القبيلة، أو حتى إخفاء أحد منها، يتوجب على المجموعة التي نجت أن يعثر عليها وتطهر» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٠٦]، لقد نجا من الموت عدد ليس بالكبير، يتمثل في أطفال زوجات نبلاء المغول من التتريات وأقربائهن، وكذلك من هرب أو من صار عبداً، إن خاسار شقيق جنكيز خان من أجل حبه لزوجته التترية أعدم خمسمائة شخص فقط من الألف الذين أوكلوا إليه للإعدام، ونتيجة لذلك ذكره جنكيز خان فيما بعد بإثمه، ففي فيلم «جنكيز خان» الذي صور في جمهورية الصين الشعبية نلاحظ أن جنكيز خان عند سحقه للتتار كان حزيناً تسيل على مقلتيه الدموع، ولكنها كانت دموعاً كاذبة، فقد تم القضاء على التتار ببرودة الأعصاب وحسابات دقيقة، بغية زرع الخوف في قلوب الآخرين

هكذا تم القضاء على قبيلة التتار قبل أن يترقى المغول الذين أطلقوا اسمهم كاسم عام لجميع القبائل التترية المغولية، عندما انطلقت في المساكن والقرى النائية في الغرب صرخات الاستنجاد: «التتار!» بعد عشرين أو ثلاثين عاماً من المذبحة، كان بين الغزاة القادمين قليل من التتار الأصليين، فلم يتبق منهم إلا اسمهم

الرهيب، أما التتار الأصليون فقد توسدوا تراب ألوسهم بعد أن بترتهم السيوف المغولية.

عرف هذا المعاصرون الأوروبيون بصورة لا بأس بها على التقريب، كتب روبروك: «إن جنكيز خان كان يرسل التتار دائماً في المقدمة، ومن هذا اشتهر اسمهم، بحكم أنهم دوماً يصرخون في كل الجهات: "التتار قادمون!" ولكن تم القضاء عليهم تقريباً في الحروب الحديثة» [الرحلات، ص١١٦] على الرغم من أن روبروك خلط الأحداث؛ لأن التتار سُحقوا سابقاً في الحروب القبلية التترية المنغولية الداخلية، لكنه محق في أن «التتار الأصليين في الجيش المغولي ـ الذي تدفق على شرق أوروبا ـ ليسوا بالكثر».

انطلاقاً من إقبال التتار على الموت، أدرك جنكيز خان شيئاً هو أن أحداً أفشى بقرار القضاء على التتار، عندما اتضحت الحقيقة بأن بيلغوتاي هو الذي أفشى بالسر، تم حرمانه من المشاركة في أعمال المجلس مدّة طويلة:

– بما أن بيلغوتاي أذاع قرار مجلس قبيلتنا الأعظم، وهذا ما أدى لموت محاربينا، يمنع بيلغوتاي من الآن فصاعداً من حضور كوريلتاي العظيم! وليكن حارساً لنا من الخارج في أثناء عمل مجلسنا إلى أن ينفض، وليحكم الناهبين والمنافقين! وعندما ينفض المجلس، ويحتسى المشروب، يمكنه ومن معه الدخول!

حدثت قصة في تلك الأثناء مفادها أن جنكيز خان اتخذ لنفسه خليلة تترية جميلة اسمها إيسوغان خاتون، وقد لاقت في نفسه هوى، وكان معجباً بها، وذات مرة قالت له:

– إن بمقدورك أيها الخان الخاغان أن تدخلني في كتفك، وتجعل مني خانة حقيقة إذا ما جاد عطفك الخاني، ولكن هناك من هي أحق مني لتكون خانة بمعنى

الكلمة، هي شقيقتي الكبرى إيسوي التي تمت خطوبتها تواً، فما مصيرها وسط كل هذا الهرج والمرج؟

- إذا كانت شقيقتك أكثر حسناً وبهاء منك، سآمر بالبحث عنها، ولكن هل ستتنازلين لها عن مكانك عند قدومها؟

- بعد إذن سموك الخاني، سأتنازل لها في الحال عند ظهورها.

أمر جنكيز خان بالبحث عن إيسوي، وتم القبض عليها وعلى خطيبها في الوقت الذي حاولا فيه الاختباء في الأحراش، عندما رأت إيسوغان شقيقتها الكبرى هبت مباشرة وأجلستها في موضعها، أعجب بها جنكيز خان واتخذها زوجة، بينما تمكن خطيبها من الفرار.

جلس جنكيز خان ذات مرة بعد الغزو على التتار في خيمته يشرب الكوميس بالقرب من الخانات أي زوجاته، وفجأة زفرت إيسوي بحزن وأسى، فانتاب الشك جنكيز خان وصار يردد في داخله «هل، يا ترى، رأت محبوبها؟» ثم أمر:

- وزعوا كل الحاضرين بأماكن أعمالهم، واظهروا الغرباء على انفراد.

فتم توزيع الحاضرين، ولكن تبقى شاب غريب ذو شعر مضفور في جدلة واحدة إلى جانب في هيئة رجل نبيل، فسأله جنكيز خان:

- من أنت؟

فأجاب:

- أنا خطيب إيسوي ابنة يكي تسيرين التتري، لقد بطش بنا الأعداء فهربت فزعاً، والآن يبدو أن الوضع قد هدأ، فحضرت إلى هنا معتقداً بأنه لا يمكن التعرف علي وسط هذا الحشد الغفير.

فقال جنكيز خان لمقربيه :

- لماذ يتحسس هنا هذا الصعلوك العدو؟ إن أمثاله تمت مساواتهم بمحور العربة! ليس هنالك حاجة تجعلنا نفكر طويلاً في مصيره، أبعدوه عن ناظري مسحوقاً! [كما ورد في السيرة المكنونة، ص١٢٤-١٢٥].

هكذا في الحال قطع رأس الشاب التتري، الذي قاده حبه لعتاب يورتا جنكيز خان، فمات ضحية حبه، وليس بغضه، ولم تتمكن إيسوي من إنقاذه عدا أنها كانت خلسة تذرف الدموع في بعض المرات في اليورتا عندما تتذكره وتتذكر وجهه الصبوح الناضر، وقوامه النحيل، وجديلتيه الحالكتي السواد، الفتيات التتريات المغفوليات يرين أخذ المرأة بالقوة أو شراءها من واجبات الأزواج، إن إيسوغان التي تقاسمت الفراش الخاني مع شقيقتها الكبرى - كانت تحب بإخلاص أختها وتفضلها، فلذا طلبت البحث عنها؛ لأنها كانت ترى أن سعادة أختها ليس في البقاء مع الشاب التتري في الأحراش، وإنما في النوم في المضجع الخاني، وأفسحت لها مكانها، هل أدركت الأخت خطأها؟ من يدري ذلك الآن.

والجدير بالذكر أن إيسوغان تمكنت مؤخراً من إقناع جنكيز خان بالسماح لها بتجميع من نجا من التتار، كما تمكنت من توحيدهم تحت راية نبيلين من نبلاء التتار هما كولي نويون ومينغي أوخو، اللذين أهداهما جنكيز خان وهما في صغرهما لشقيقاته، ورباهما في داره، وإلى هذا الوقت صارت إيسوغان أيضاً زوجة جنكيز خان.

هكذا انقضى مشروع جنكيز خان الخاص، الذي تكلل بالنصر، وبسفك دماء منقطع النظير، والقضاء على قبيلة تعدّ من أعنف وسط القبائل التترية المغولية وأقواها وأكثرها ثقافة، كما كتب غامبيس: «إن إبادة التتار نفذت بصورة محكمة، ولم يبق من الأحياء سوى النساء والأطفال» [غامبيس، ص٧٣]. على الرغم من

أن إراقة الدماء في ذلك الوقت كانت تواكب روح الزمان والمكان إلا أن عنفوانها بث الرعب في نفوس المعاصرين، وهكذا تحققت التنبؤات التي صاحبت ميلاد جنكيز خان القابض بيده علقة من الدم المخثر. إن منغوليا ـ كما يرى العلم الحديث على الأقل ـ كانت متعطشة للوحدة، وكان يمكنها بأم عينيها رؤية الثمن الذي ستدفعه لأول مرة، تولد المزاج الإبادي نتيجة الحروب الداخلية القبلية التترية المغولية، «فلنتذكر سبعين أميراً الذين سلقهم تشاموخا أحياء»، ذلك الرجل الذي جعل كل العالم يرتعش عندما خرج المغول عن حدود منغوليا.

إن القضاء على التتار أدى إلى تثبيت سلطة جنكيز خان في شرق منغوليا، وألحق الضرر بفان خان بحكم أنه زاد من قوة جنكيز، إن فان خان ـ الذي فرح في بادئ الأمر بإبادة التتار ـ كما قال ل. غامبيس «لم يدر حينها بأن موازنة القوى من صالح تيموتشجين» [غامبيس، ص٧٤]، نصر جنكيز خان دفع للائتلاف ـ الذي ترأسه جاموخا ـ والتحركات الحاسمة.

❀❀❀

من يكون حاكم السهوب؟

«قتال أبدي، وبالسلام نحلم فقط
عبر الدماء والغبار
ولكن فرس السهوب يعدو ويعدو
ولعلفه مجتراً»
ألكسندر بلوك

إذا اقتنعنا بمؤلف «شان أو تسين تشجان لو» فإنه بعد الائتلاف مباشرة تحركت جيوش الائتلاف بقيادة جاموخا على جنكيز خان وفان خان، أنذر الخونغيرات جنكيز خان بتحرك جيوش الائتلاف، لقد استطاعت جيوش جنكيز خان وفان خان من القضاء على جيش الائتلاف، في عام ١٢٠٢ . قام المنتصرون بهجوم، كل على حدة؛ فان خان على الميركيت، بينما انقض جنكيز خان على التتار، حسب ما قاله رشيد الدين: إن جنكيز خان أبلغه بهجوم جيوش الائتلاف داي تسيشين الخونغيراتي في عام ١٢٠١، التقت جيوش الائتلاف مع جنكيز خان وفان خان عند بحيرة بوير نور «وفي نهاية النهايات انتصر جنكيز خان أيضاً، وتم القضاء على الأعداء . . . وهكذا إلى النهاية» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١١٧]. يرى ب. راتشنيفسكي أنها «الحرب الأولى» التي لا يثير إليها «التاريخ السري» [راتشنيفسكي، ص٥٧]، وهكذا يمكننا أن نقول إن ائتلاف تشاموخا مني بالهزيمة من قبل جنكيز خان وفان خان، وهكذا صار المنتصرون يقومون بالغزو الانفرادي على التتار والميركيت، إن النصر الساحق لجنكيز خان على التتار زاد من قوة نفوذه الذي حتماً سيؤدي إلى قطع العلاقة والحرب مع فان خان.

رأى غورخان جاموخا مصير التتار، أدرك ساعتها أنه لا يمكن أن ينال خيراً من وراء المغول، ولكسر شوكة جنكيز خان لا بد من زرع الفتنة بينه وبين فان خان، هكذا شرع جاموخا مع أنصاره وبرفقة نيلخا سانغوم ابن فان خان في استمالة الكيريت؛ لتكوين اتحاد ضد جنكيز خان.

- إن المتآخي (أندا) تيموتشجين دوماً، وبصورة علنية، يتبادل الرسل مع الخان النايماني تيايان خان، وعلى لسانه لا تنقطع كلمات «الأب» و«الابن»، لكن في نفسه شيء آخر، فهو حسن في لسانه، يا ترى هل تأتمنونه؟ إذا ثرتم عليه سأنضم إليكم وانقض على جناحه! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٢٧).

على حسب كلمات رشيد الدين «بنفس حار أدخل جاموخا هذه الفكرة في قلب سانغوم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٢٣]، فرد المتآخون: «الهجوم على أولوس تيموتشجين واستيلائه، وبعدها سيصبح بدون أولوس» [المصدر نفسه، ص١٢٨].

أصبح مستقبل جنكيز خان مهدداً عندما أقبل أقرباء جنكيز وهما خوتشار وألتان اللذان ساعداه في اعتلاء العرش الخاني والآن حقداً عليه على عدم عدله في تقسيم الغنائم التتارية على حسب رأيهم، لمآزرة تشاموخا وسانغوم.

تبقى استمالة فان خان في ذاته إلى الحرب ضد ابنه المتبني وقبله تيموتشجين أي جنكيز خان، لم يوافق فان خان الحكيم الحذر - الذي كان على علم بحتمية الاصطدام مع جنكيز خان - في الحال، لأنه كان لا يأتمن جاموخا.

- كان جاموخا رجلاً ثرثاراً، لا يمكن التصديق على ما يروي أحقيقة أم هراء!

وجهاً لوجه تحدث فان خان وابنه سانغوم لفترة طويلة، وبعدها خرج سانغوم غاضباً على مشاكسة والده، خرج من البورتا راداً الباب، مما أثار خوف والده، الذي خشي تحالف تشاموخا وسانغوم، فأمر باللحاق بابنه قائلاً:

- الأمر متروك لكم، فاعملوا ما في وسعكم. (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٢٨).

لم يكن بمقدور جاموخا وسانغوم التجرؤ على جنكيز وفان بالقوة، فلجآ إلى الحيلة: «فلنعلن موافقتنا على زواج تشجوتشي من تشاور بيكي، ثم ندبر مؤامرتنا باستدراجهم إلى هنا، ثم نقبض عليه». طلب تيموتشجين يد ابنة فان خان تشاور بيكي لابنه؛ لكي يدعم علاقة التبني بصلة القربى.

من المحتمل أن جنكيز خان كان له مقر بالقرب من بحيرة بالتشجون في شمال شرق منغوليا، لقد تعاظمت قوته وتمتنت علاقته بالعالم الخارجي، وفي هذا المقر بالتحديد زاره التجار المسلمون أمثال حسن وجعفر خوجا ودانشمند حاجب، وأيضاً انضمت إليه قبيلة إكيريس المغولية بقيادة بوتو، التي منيت بالهزيمة من قبيلة خورولاتش المغولية، عرف جنكيز خان من التجار المسلمين الوضع في شرق تركستان وما وراء النهر، وأيضاً تكشفت معلومات إضافية جديدة عن الصين، يعتقد المؤلف ل. غامبيس أن «هؤلاء الرجال الثلاثة أثروا جنكيز خان بمعلومات قيمة عن دولهم، فبدأ تيموتشجين يضع حساباً للوضع السياسي في آسيا» [غامبيس، ص٨٢].

من الصعب الحكم على تقييم جنكيز خان للوضع السائد، على كل وافق على الزواج. من المحتمل أنه يريد أن يمد من عمر الصدام الحتمي مع فان خان، آملاً في ظرف مستقبلي مناسب؛ لكي يحدد مواضع القوة في منغوليا، فإذا صدقنا «التاريخ السري» في أن جنكيز خان لم يشك في المؤامرة وذهب بعشرات من رجاله إلى هناك، وفي الطريق قضى ليلته مع مونليك، الشخص الذي أوصاه إيسوغاي والد تيموتشجين بأن يحضر ابنه الطفل تيموتشجين من صهره داي سيتشين المنتمي لقبيلة

أونغيرات، وعلى كأس من الكوميس سبحا في الذكريات البعيدة، وتجاذبا الحديث أيضاً عن الوضع الراهن، حينها انتاب مونليك الشك في صدق الكيريت:

- من قبل حين أذلونا ورفضوا لنا خطبة تشاور بيكي، والآن بأنفسهم يدعون لمأدبة خطوبة، كيف يمكن أن يحدث مثل هذا؟ وكيف يمكن أن يحدث أن القوم الذين تعجرفوا عليك قبل مدة أن يوافقوا فجأة على الخطوبة، ويدعوك بأنفسهم؟ هل ينم هذا الفعل عن خير؟

ومتحيراً في الأمر سأل:

- يا ترى يا بني، أأنت ذاهب؟ من الأفضل دعنا نبعث لهم الاعتذار في صورة أن الخيول أصابها الهزال، فتوجب علينا علفها. (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٢٩).

أصاب الخوف جنكيز خان، ولم يذهب للمأدبة، ومن بيت مونليك مباشرة رجع إلى داره، ولكنه بعث للمأدبة باثنين من رجاله.

عندما رأى جاموخا وسانغوم ورجالهما إخفاق خطتهما، قرروا الهجوم بسرعة على مقر جنكيز خان وأسره، على الرغم من أن القلة القليلة كانت على علم، إلا أنه كان من بينهم رجل ثرثار، الذي حكى لزوجته كل شيء عند عودته لبيته لجمع عتاده للغزو، وأضاف أيضاً:

- ما الشيء الذي لا يمكن أن يعطيه تيموتشجين لمن يبلغه هذا النبأ!

حينها سمع الخدم حديثهم، ففطن اثنان منهم للحديث، وعلى خيل سيدهم المعدة للغزو في صبيحة اليوم القادم، ليلاً ذهبا لجنكيز خان عليها، وفي الليلة نفسها وفق العادات، واقفين خلف اليوتا أبلغاه كل الخبر، وخاتمين حديثهم بالكلمات الآتية:

- تكرموا حضرات جنكيز خان، فإن الأمر لا يتطلب التفكير أو الشك، إنهم قرروا الإحاطة بكم وأسركم! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٢٩).

صدق جنكيز خان النبأ، وهنا يجب أن نقول كان الخبر مباغتاً، على الرغم من أن المنتصر لتوه على التتار لم يكن في حاجة للبحث عن المساعدة، إلا أنه كان على علم بأخلاقيات السهوب، وكانت حياته في خطر مرات عديدة، فلهذا أطلع «أقرب المقربين إليه من رجاله» بالغزو الوشيك، وعلى عجلة وبدون عتاد «في الليلة نفسها انطلق على صهوة فرسه» عند ذلك قام فان خان وحلفاؤه بمطاردته مقتفين أثره، وفي أثناء إحدى وقفاته كادوا أن يقبضوا عليه، «وبمجرد أن لمح الغبار أسرج فرسه وانطلق، ولو تأخر هنيهة لانقضى الأمر» [السيرة المكنونة، ص١٣٠] ودنا جاموخا إلى مكان وقوفه الذي - كما نعلم - كان بصحبة رجاله من ضمن جيوش فان خان.

لكن كان معلوماً لدى الجميع أن جاموخا وفان خان لا يأتمنان بعضهما، تبين ذلك في الوقت الذي جرى فيه الحديث عن التحضير للمعركة الفاصلة، أكان فان خان مقتنعاً بمقدرات تشاموخا القيادية كما في المعركة السابقة ضد الميركيت، فلذا طلب منه قيادة الجيوش؟، أم أنه حقيقة كان يريد مع حرسه الخاص الابتعاد عن دائرة المعركة، ولكن جاموخا قيم عرض فان خان مؤامرةً ضده، فقرر تدبير أمر مضاد له:

- فان خان يطلب مني قيادة جيشه، ولكن أنا لا أستطيع العراك مع أندا، وهو يأمرني أن أكون في قيادة جيشه، وعلى الرغم من نشاطه وهمته في المطاردة إلا أنه تخلف عني، وهذا يعني أنه صديق لساعة، فالأفضل أن أبلغ الأندا الخبر لكي أشد من أزره.

وبسرعة أبلغ جنكيز عن خطة المعركة المقبلة، كانت المعركة عنيفة، أصيب ابن فان خان بجرح في خده، فأحاطه الكيريت بطوق متين، وحملوه معهم خارج دائرة المعركة، أصيب برمح قائد الكتيبة القيادية لجيش جنكيز خان خويلدار سيتشين، اختفت الشمس وراء الجبال، ولم يتمكن بعد أحد الطرفين من الانتصار، وبقدوم الليل قرر جنكيز خان إبعاد جيوشه عن دائرة المعركة إلى مكان جديد.

في الوقت الذي أعاد فيه جنكيز خان تجهيز جيوشه وإعدادها للهجمات القادمة اتضح أن فان خان تقهقر خوفاً على حياة ابنه الجريح، أملى قرار تراجع فان خان أنصاره المقربون، الذين أوحوا إليه بفكرة ضعف قوة جنكيز وحتمية هزيمته.

- كن رحيماً بسانغوم؛ لأنه بفضل صلواتكم رأى النور، إضافة إلى ذلك معنا أيضاً غالبية المغول مثل جاموخا وألتان وخوتشار، وهؤلاء أنصار تيموتشجين الذين كانوا محاصرين في الغابات، انظر كيف حالهم الآن: يتحركون على خيولهم، متخذين الغابة غطاء، دع أعيننا تراهم جيداً، فسنجرفهم من نصف أطراف أرديتهم كمثل روث الماشية، ونذيقهم الويل!

أجاب فان خان بعد سماعه هذه الدلائل بالموافقة قائلاً:

- فليكن الأمر كذلك، أرجو العناية بالمواظبة على صحة ابني فقط من أجل أن لا يتعب. (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٣١-١٣٣)، ولقد هجر الكيريت دائرة المعركة.

وفي واقع الأمر لم يكن كل المغول فقط في أولوس جنكيز خان، بل انضم قسم كبير منهم لجاموخا، كما هجر جنكيز خان ألتان وخوتشار، إضافة إلى المعركة العنيفة التي وقعت بين فان خان وجاموخا من جانب وجنكيز خان من الجانب الآخر كل هذه الأسباب أثرت في ضعف أولوس جنكيز خان، فإذا لم يشر «التاريخ السري» إلى أن جنكيز خان في معركته مع الكيريت تكبد الهزيمة - يتصور القارئ أن

الطرفين بعد المعركة القاسية ليلاً تفرقا ـ وفي هذا الحدث يقول رشيد الدين إن جنكيز خان تكبد الهزيمة .

ترك المتصر على التتار المعركة دائرة للكيريت، ولولا حادثة جرح سانغوم ـ حسب قول رشيد الدين ـ «لتكبد جنكيز خان خسائر طائلة . . . لم يستطع الصمود (في وجه الكيريت . تعليق المؤلف)، فتقهقر، وعندما طلب الرجوع للوراء تخلى عنه قسم كبير من جيشه، فرجع إلى منطقة بالدجوينا» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٢٦]. تشير السيرة المكنونة إلى أن عدد الجنود الذين تبقوا مع جنكيز خان كان أربعة آلاف وستمائة، أما موقع منطقة بالجونا ـ التي لعبت دوراً مهماً في حياة جنكيز خان ـ فغير معلوم[1] .

شرب أنصار جنكيز خان، وبخاصة النبلاء منهم، رمزاً للولاء له ولأفعاله الماء العكر من البحيرة «إلى درجة أنهم استخلصوا الماء من الأوساخ وشربوه . . . إن المجموعة التي كانت معه في منطقة بالجونا حينها لم تكن كثيرة العدد، وأصبحت تسمى بمجموعة الجيونتو، أي بمعنى أنهم كانوا معه في هذه المنطقة، كانت لهم حقوق ثابتة، ومتميزين أمام الآخرين» [المصدر نفسه، ص١٢٦]. شرب جنكيز خان أيضاً الماء رمزاً للقسم والولاء كما ذكر في مؤلف «يوان شي»: «في ذاك الوقت كان فان خان قوياً ومقتدراً، أما الإمبراطور فكان ضعيفاً وغير واثق من النصر، إن فرق جيشه كانت في حالة من الذعر، أما بخصوص الذين شربوا معه الماء العكر من البحيرة، فأسموهم بشاربي الماء العكر في منطقة بالجونا، وهذا يعني أنهم تقاسموا معه آنذاك كل الصعاب (تعليق من [كليفز، ص٣٧١]) .

---

(١) يرى بعضهم أنها بحيرة بالزينا التي ينبع منها نهر تورا، يطابق الباحث المغولي بيرلي بين بحيرة بالجونو وبحيرة بالاج بولاك، الواقعة عند مصب نهر موغويت في نهر خالخا، بينما يشير الباحث ن. بوبي إلى بحيرة باليزينو التي تبعد خمسين كيلو متراً غربي مدينة أغينسك في محافظة تشيتا (انظر [راتشنيفسكي، ص٦٦]).

وعن منطقة بالجونا تحدثنا سيرة جبار خوجا الذاتية، التحق جبار خوجا بجيش جنكيز خان في أثناء المعارك مع فان خان، واشتهر بشجاعته وهجومه ورمي السهام، وفي المعارك كان يمتطي الجمال بدل الخيل، وفي سيرته الذاتية يجري الحديث عن «الهجوم المباغت لفان خان ثم هزيمة جنكيز خان وهروبه مع تسعة عشر فقط من رجاله، وعند انتهاء المؤن عندهم اصطادوا فرساً برياً وطهوه ثم أكلوه، وحينها رفع جنكيز خان يديه إلى السماء ثم قال: "إذا تمكنت من إنجاز هذا العمل العظيم، فسأتقاسم مع هؤلاء الرجال الحلو والمر، فإذا نقضت هذا العهد فليكن مصيري مثل هذا الماء" وحينها ذرف كل الحاضرين دموعهم» (تعليق من [المصدر نفسه، ص٣٧٢]).

أعلن جنكيز خان مؤخراً قائلاً: «إن الذين شربوا معي الماء من هذه البحيرة، من جيل إلى جيل، سيكونون في خدمتي» يذكر في السيرة الذاتية لأتشجولو: أن «جنكيز خان (تاي تسزو) أمر أن ينضم الذين شربوا معه الماء من بحيرة بانتشجوناخا إلى حاشيته» [يوان شي، الفصل ١٣١، ص٩ب] نلاحظ في السير الذاتية للعديد من أنصار جنكيز خان نلاحظ العبارة الآتية: «مع جنكيز خان (تاي تسزو) شرب الماء من النهر خايشوي» (أتشجولو) «صاحب جنكيز خان في معركته مع فان خان وشاركه أيضاً شرب الماء من بحيرة بانتشجان» (سيواليتسزيان نويون) [المصدر نفسه، الفصل ١٣٢، ص٤أ].

يشير الباحث الأمريكي ف. كليفز ـ الذي نشر في عام ١٩٥٥ مثالاً خاصاً تحت عنوان «تاريخية معاهدة بالتشجون» ـ إلى أنه في مؤلف «يوان شي» يذكر أن أربعة عشر من أنصار جنكيز خان أقسموا اليمين عند بحيرة بالتشجون، والطريف في ذلك انتماؤهم القبلي، من بينهم ثلاثة من المغول وهم جنكيز خان وشقيقه خاسار، الذي رجع في ذاك الوقت إلى أخيه، وأتشجولوغ، وكان برفقة جنكيز

أيضاً ثلاثة من الكيريت واثنان من الكيدانيين ومسلم واحد وميركيتي وممثلو القبائل الأخرى: إكيريس ومانغوت وتشيوتاي وسولدوس (انظر [كليفز]). إن أحداث بحيرة بالتشجون دخلت الأدب، وبخاصة الشعر اليواني والأدب القديم لأسرة مين، وبقدر تقلب الدهر، كان المنتصر على التتار في لحظة على وشك الوقوع في الهاوية. يفترض ب. راتشنيفسكي أن جنكيز خان تقهقر إلى حدود دولة تسزين «لم تكن هذه أول بادرة، فلمرات عديدة عند انهزامه يبحث دوماً عن مأوى على الحدود الصينية» [راتشنيفسكي، ص٦٧]. كان من المفترض دوماً التنقل من منطقة إلى أخرى تجنباً للهجمات المباغتة من أعدائه، يبدو أن السماء الزرقاء الخالدة منعت مصطفاها من رحمتها.

بدأ جنكيز محادثاته مع فان خان وجاموخا عاجزاً عن القتال وطالباً توضيح أسباب العداء، وفي وصيته المطولة المرسلة لفان خان عدد كل خدماته التي قدمها وخدمات والده للخان الكيتي قائلاً: «إنني أدري بوضاعة أصلي ولا حيلة لي بقيادة قوم كثر، ولكن لكل عربة عريش ذو عمودين، ولا يمكن لأي ثور أن يجرها إذا انكسر أحدهما، ألم يكن هذان العمودان ونحن معاً؟ عندما تتحطم عجلة لدى عربة ذات عجلتين فمن المستحيل التنقل عليها، ولقد كنت العجلة الثانية! لأي سبب تملكك الغضب علي أيها الأب والخان؟» [السيرة المكنونة، ص١٣٤-١٣٦].

نود أن نلفت الانتباه إلى أنه على الرغم من مستوى الكلمات، كان جنكيز خان مستعداً للاعتراف بحداثة زمالته، ويوقر فان خان كأب وخان أيضاً، وبهذا يصبح ابناً وطائعاً، ويبدو أن وضع فان خان لم يكن بأفضل الأفضلين، لقد انتصر على تيموتشجين، ولكنه لم يقض عليه، مدركاً أنّ تيموتشجين إذا تطلب الأمر سيتمكن من جمع قواه بسرعة وسينتقم، كان الأعداء يحيطون من الاتجاهات كافة: والنايمان وجاموخا وبقايا الميركيت والتايتشجوت، أما هو فقد أصبح وحيداً من غير حليف «في سماء بديعة وهو حاكم وتحت سماء جميلة ولكنه وحيد».

لهذا، وحسب ما ورد في «التاريخ السري» أثار خطاب جنكيز خان ـ الذي أبلغه لرسله، في نفس فان خان الإحساس بالندم ووخز الضمير، فقال:

«أواه سيدركني الموت!

فهل نسيت فقط ابني؟

بالحق لقد نسيت حقيقة القانون

فهل تبرأت فقط عن ابني؟

لا، بل نسيت سداد ديني

فإذا شاهدت ابني وتجرأت على التفكير بأذيته فليهرقوا دمي بهذه الشاكلة!».

وإشارة للقسم طعن خنصره بالمدية «وصب دم الجرح في وعاء من شجرة البتولا، وطلب تسليمه لابنه» [السيرة المكنونة، ص١٣٦]. بعد أن كان يفكر قبل مدة وجيزة في حرمانه من أولوسه.

كما بعث رسالة شفوية حادة للأندا تشاموخا قائلاً: «بحسدك فرقت بيني وبين الخان والأب الخان، لقد كنا في السابق إن استيقظ أحدنا قبل الآخر حق له الشرب من الفنجان الأزرق للأب الخان والخان، ولنهوضي دوماً مبكراً كان يحق لي الشرب من هذا الفنجان، لهذا السبب صرت تبغضني من ذلك الحين، فأنت الآن تشرب الفنجان الأزرق للأب الخان بكامله، إنك بهذا تحرمني من الكثير!» [المصدر نفسه، ص١٣٦-١٣٧].

إن الخصام بين جنكيز وجاموخا المتنافسين منذ نعومة أظافرهما غالباً ما كان ينشب لأسباب واهية، ولكنه كان عميقاً في مضمونه، ولهذا كان أكثر عداءً بحكم أنه موجه من أجل السلطة على كل المغول.

ذكر جنكيز خان ألتانوخوتشار، اللذين نصباه خاناً وخرجا الآن عن إمرته الخانية، بتاريخ انتخابه الذي كان في وقته من الممكن انتخاب أحدهما بدلاً منه

وتنصيبه خاناً، وحينها كان من الممكن أن يكون جنكيز في خدمتهما بولاء وصدق «أبوضوح أردتما أن تهجراني، أم بمكر ونفاق؟» [المصدر نفسه، ص١٣٧]. وجه لهما جنكيز خان أسئلة بيانية ليست حقيقية مباشرة، بحكم أنهما من النبلاء وانتخباه خاناً في وقت ما، والآن أصبحا في عداد أعدائه، فإذا حكمنا بالكلمات التي وردت في الرسالة التي بعث بها لأحد الهاربين «أتعلم أن ألتان وخوتشار لا يمكن أن يعطيا أولوسي لأي أحد مهما كان الأمر» [المصدر نفسه، ص١٣٨]. كان جنكيز خان يرى في ألتان وخوتشار المنافسين الحقيقين لمنصبه الخاني في ألوس المغول.

وفي رواية رشيد الدين: إن جنكيز خان واجه مباشرة ألتان وخوتشار قائلاً: «أنتما الاثنان نويتما قتلي وتركي في مكان مظلم أو دفني تحت الأرض» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٢٩]. أصبح جوهر الخصام الذي وقع واضحاً، إنها كانت حرباً من أجل نزع السلطة من يد جنكيز خان في أولوسه المغولي والقضاء عليه؛ لأنه أصبح يشكل خطراً بعد انتصاره على التتار، إن جاموخا ومن انضم إليه من الخانات بالفطرة مثل ألتان وخوتشار لم تعجبهم النجاحات التي توصل إليها جنكيز خان في تقوية سلطته، فان خان وابنه سانغوم - كما لاحظنا - تم جذبهما للحرب ضد جنكيز خان والمغول منافسين.

إن تحركات جنكيز خان الدبلوماسية بلا شك كانت ذات مغزى لإبعاد شبهة المناورة، ولكنه في واقع الأمر أعاد تجميع قواته التي أصبحت في قبضة يده متحيناً الفرصة للانقضاض على أعدائه.

أمر إبلاغ سانغوم الجريح أنه يريد أن يصبح خاناً بسرعة حتى في حياة والده فان خان، أراد جنكيز من ذلك زرع الفتنة بين الأب والابن، ورد عليه سانغوم الحانق معلناً أنّ جنكيز لم يسمّ والده بغير اللص العجوز، وأمر بعلف الخيل والاستعداد

للمعركة الجديدة معه [السيرة المكنونة، ص١٣٨]. في مؤلف «يوان شي» وفي مقتطفات عهد قيصرية جنكيز خان (تاي تسزو) قال سانغوم العبارة الآتية: «إذا انتصرنا، فعلينا أن نقضي عليه، أما إذا انتصر فسيقضي علينا، ولهذا لا داعي للجعجعة» [يوان شي، الفصل الأول، ص٦ب]، إن سانغوم وصف الوضع بوضوح.

كان تخطيط الحدود يتم باستمرار، ويذكر هنا رشيد الدين: «عندما أرسل جنكيز خان سفراءه إلى فان خان ضم إليه وقتها أهم مجموعة من قبيلة الكونغيرات، ورجع إلى منطقة بالجونا، أما قبيلة كورلاس فدفعت بوتو الاكريسي إلى الهرب مسحوقاً، فانضم إلى جنكيز خان في الموضع نفسه . . . وهناك عاشا وشربا الماء من بحيرة بالجونا، وفي الوقت نفسه عاش جوتشي كاسار منعزلاً عن جنكيز خان، فانقض فان خان على زوجته وأولاده في منطقة كاراون جيون بجيوشه، فانضم أيضاً لجنكيز خان، لقد كان في حالة من الفقر إلى درجة أنه بدأ يسلق الجيف وجلود الأحذية[1] للأكل، ومن هذا الضرب من الأكل أصابه الهزال، لهذا لحق بجنكيز خان في مقره في منطقة بالجيون» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٣١-١٣٢].

في الحقيقة إن عام ١٢٠٣ كان مأساوياً وحاسماً لمصير منغوليا، كل الذين لم ينضموا لجنكيز وفان وجاموخا حاولوا تكوين ائتلاف جديد ضد جنكيز خان وفان خان.

قام الخارجون عن إمرة جنكيز خان وفان خان وتشاموخا بتكوين حلف معاد لثلاثتهم «داريتاي أوتشيغين عم جنكيز خان وألتان جيون ابن كوتولا كاغان، الذي كان أيضاً عما لجنكيز خان، وكوتشار بيكي ابن نيكون تايشي، الذي كان أيضاً عما

(١) نوع من الحذاء الجلدي ذي نعل ناعم (تعليقات ناشري رشيد الدين).

لجنكيز خان، وجاموكا من قبيلة جاجيرات وقبيلة بآرين، وسويغاي وتوغوريل أنسال نوكتا بوولا، وتاغاي كولاكاي من قبيلة مانغوت، وكوتو تيمور أمير قبيلة التتار، اتحدوا كلهم واتفقوا على الآتي: الانقضاض بغتة على فان خان، وبعدها سنصبح حكاماً بأنفسنا، ولا نتحد مع جنكيز خان أو حتى فان خان، وأن لا نوليهم اهتمامنا» [المصدر نفسه، ص١٣٢] أما في «التاريخ السري» فوردت كلماتهم كما يأتي: «ننقض بغتة على فان خان ونصبح حكاماً بأنفسنا، ولا نتحد مع فان خان ولا جنكيز خان ولا نوليهما اهتمامنا».

إننا لا نعلم رد فعل جنكيز خان على هذه الدعوة الجديدة، يحتمل أنه لم يتمكن من تدبير أمره، بحكم أن فان خان لم يتباطأ، فانقض على المتحدين الجدد وسلبهم.

بعد النصر اطمأن فان خان لقوته مرة أخرى، وبدون اهتمام أقام حفلة في خيمته الذهبية، أبلغ رجال جنكيز خان بأن «فان خان في غفلة تامة يحتفل ويتقاسم الفرح مع رجاله في خيمته الذهبية، إذا تحركنا ليلاً ونهاراً بدون توقف يمكننا أن نهجم عليه فجأة» [السيرة المكنونة، ص١٠٤]. كان العرض مغرياً ولا بد من استخدامه، إن جنكيز خان يختلف عن منافسه بأنه لا يضيع وقته، فدوماً يتحرك بسرعة وبصورة حاسمة، لم يبق شيء من الطاعة التي كانت بينه و «الأب الخان»، حتى إنه لم يتوقف ليلاً إلى أن بلغت جيوشه بسرعة الأراضي الكيريتية، وفي الحال طوق مقر فان خان الواقع إلى الجنوب من أعالي نهر كيرولين، استمرت المعركة العنيفة ثلاثة أيام وليال، سحق الكيريت برمتهم، ولكن بأعجوبة تمكن فان خان وابنه سانغوم من اختراق الكمين والنجاة هرباً، أما «الشعب الكيريتي» فأمر جنكيز خان «بتوزيعه في كل النواحي كأسرى»، وأخذ لنفسه ابنة فان خان الكبرى إباخا بيكي، «وبعد هذا السحق قضى شتاءه في أحراش أبتشجايا كوديغيري» [المصدر نفسه، ص١٤٠-١٤١].

إذا أخذنا في الحسبان معلومة رشيد الدين فإن جنكيز خان قبل الانقضاض على فان خان لجأ إلى الحيلة العسكرية، بعث رسالة باسم شقيقه خاسار يزعم فيها أنه يرغب في الإذعان لإمرته، فصدق فان خان السفراء المبعوثين وفرح بالانقسام البسيط الذي حدث في صفوفهم، وهكذا وقع في الفخ الذي أعده جنكيز خان.

إن مصير فان خان كان شجياً ومحزناً، فعندما هرب من المغول وجنكيز وقع في يد الحرس النايماني هو وابنه، ولكن سانغوم تمكن من الهرب، أما فان خان فقد تم القضاء عليه على الرغم من توسله وتأكيده بأنه من نبلاء القوم وخان الكيريت، أمر تايان خان النايماني بقطع رأس فان خان وإحضار الرأس له في مقره، وتشير بعض المصادر إلى أن الخان النايماني أمر بصنع إطار فضي لرأس فان خان «ولمدة من الزمن تركه على عرشه كمظهر من مظاهر العظمة والإجلال والفخر والاحترام» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٣٢]. وفي رواية «التاريخ السري» إن النايمان وضعوا رأسه على لباد أبيض وصاروا يضحون له، وذات مرة في ساعة الذبيحة يزعمون أن الرأس بدأ يبتسم، وحينها هاج وماج الخان النايماني تايان خان، وداخله إحساس بأن هذا نذير شر. (وأيضاً ساعتها نبح كلب وهو كذلك نذير شر أيضاً) فأمر بالقضاء عليه [السيرة المكنونة، ص١٤٢].

لم يعش سانغوم طويلاً، كان من المفروض عليه الخروج من حدود منغوليا، وبرواية رشيد الدين، عن طريق بلدة إيشيكبالاغاسون، التي يرى فيها الباحثون مدينة إيدزينا التانغوتية (خارا خوتو)، فدخل حدود الدولة التانغوتية سي سيا ولمدة من الزمن عاش سانغوم على النهب، لما لم يجد دعماً من التانغوت طردته السلطات التانغوتية إلى شرق تركستان (على حدود خوتان وكاشغار)، وهناك لقي حتفه على يد أحد الحكام الأوريغوريين كليتش كارا، بعد خضوع الأويغوريين لأسرة جنكيز خان سلم كيليتش خان زوجة سانغوم وابنه لجنكيز خان.

وهكذا في خريف عام ١٢٠٣ بعد مضي عام من سحق التتار انتصر جنكيز خان على الكيريت، وبتقييم الباحثين الصينيين كان هذا أكبر انتصار له ما دام أنه لم يبلغ «موقعه الخاني المستقل» إلا بعد القضاء على دولة الكيريت، يميل ل. غامبيس وب. راتشنيفسكي إلى الرأي القائل: إن جنكيز خان لم يسحق الكيريت بقسوة كما فعل مع التتار، «لم يقض تيموتشجين على الكيريت ولم يعاملهم بقسوة كما فعل بالتتار والتايتشجوت» [راتشنيفسكي، ص٧٢]، ويضيف ل. غامبيس: «وزع تيموتشجين الكيريت للسكن مع القبائل المغولية، لكي يحرمهم من الاتحاد سياسياً، ذلك الاتحاد جمعهم على الأقل في خلال ثلاثة أجيال، وترحم عليهم، ولم يعرضهم للقهر العام إلى أن اختلطوا تدريجياً بالمغول» [غامبيس، ص٨٤-٨٥].

لعل من الصعب، وبدون قيد الاتفاق مع رأي راتشنيفسكي فقط في أن «حركة تيموتشجين في حربه ضد الكيريت مثل المصالح القومية للشعوب المغولية» [راتشنيفسكي، ص٧٦]؛ لأن جزءاً كبيراً من المغول في ذلك الوقت عندما انهزم الكيريت لم يتبع لجنكيز خان حتى لم يروا أنه بالتحديد يمثل مصالحهم، ولكن هنالك أمراً آخر هو أن الوضع تغير بحدة من جديد، وأصبح السؤال مع من يجب الذهاب، مع جاموخا أم مع جنكيز خان، أم مع المجموعة التي تريد تكوين قوة ثلاثة في الوسط المغولي، تأزم الأمر بالنسبة لنبلاء المغول حيث كان هذا خياراً بين الموت والحياة.

كان هنالك النايمان أيضاً، وهم شعب كثير العدد، متجول بين جبال خانغاي وألتاي من أعالي نهر إرتيش «هذه القبائل النايمانية وحكامها كانوا أقوياء ومحترمين، ولهم جيوش كبيرة وقوية، ويشبهون المغول في عاداتهم وتقاليدهم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٣٧] على الرغم من أنه، كما ذكرنا سابقاً، لم يكن معلوماً أكان النايمان شعباً ناطقاً بالمغولية أم بلغة من اللغات

التركية، وهنالك رواية أنهم كانوا من القيرغيزيين، ففي عام ١٢٠٤ عندما تحتمت الوقيعة بين النايمان وجنكيز خان، كان النايمان حينها قد أصابهم الوهن من جراء الخصام الذي وقع بين النايماني تايان خان وشقيقه يويوروك خان، وبين تايان خان وابنه كوتشلوك.

حمل تايان خان لقب داي فان؛ أي الأمير العظيم، ولقبه به تشجورتشجين، ودخل التاريخ بهذا اللقب، واسمه الحقيقي برواية رشيد الدين بايبوكا، وكما ذكر آنفاً أن النايمان كانوا قبيلة تعدّ من أكثر القبائل التي تقطن منطقة مغوليا الحالية وألتاي ثقافة، لقد انتشرت بينهم الديانة المسيحية من المذهب النستورياني كما هو بين الكيريت، وبحكم جوارهم مع الشعوب الأويغورية تعرفوا ثقافتهم وطوعوا رموزهم الكتابية إلى لغتهم، فإذا قلنا إنهم شعب ناطق بالمغولية فإنهم أول من فعل ذلك، واحتمالاً لهذا السبب كانوا ينظرون إلى المغول بغطرسة، قالت والدة تايان خان (وبرواية رشيد الدين) زوجته غوربيسو عن المغول:

«الرداء عندهم غير ظريف في منظره
ومنهم تنبعث رائحة نتنة لا تحتمل»

ولعل البعد عنهم أفضل، وربما نساؤهم وفتياتهم عليهن أن يجلبن لنا البقر والأغنام، بشرط أن نختار من بينهن الأفضل ونأمرهن بغسل أيديهن وأرجلهن» [السيرة المكنونة، ص١٤٢].

في الواقع أن غوربيسو كانت زوجة «وأماً» لتايان خان في وقت واحد، فهي كانت زوجة إنانتش خان، والد تايان خان، أي زوجة أبيه، ولهذا تعدّ أمه، وبعد وفاة إنانتش خان أخذها زوجة حسب العادات المغولية، وبهذا أصبحت زوجته في الواقع، مما يوضح لنا النفوذ الكبير الذي تمتعت به غوربيسو على تايان خان بعد القضاء على الكيريت وموت فان خان، وجد نايان خان في شخص جنكيز خان

منافسه الأساسي على السلطة في السهوب المغولية، ولو أنه شارك فقط في المعركة أو حتى أبدى عن رغبته في المشاركة، على الرغم من أن النايمان كانوا على جنب ومنهمكين في خصامهم، إلا أنه على الرغم من ذلك كان بمقدورهم عرقلة جنكيز خان بعد الدسائس بخاصة التي جرت بينه وبين جاموخا، لم يقدر تايان خان بالتحديد قيمة عدوه:

- يحكى أنه يوجد تافهين في الجهة الشمالية من المغول، وكأنهم أخافوا الحاكم العظيم فان خان، وبامتعاضهم أوصلوه إلى الموت، أحقاً يريد المغولي أن يصبح خاناً؟ وهل لهذا خلقت الشمس والقمر؛ لكي يضيئان مع بعضهما في السماء؟ وكذلك على الأرض، كيف يمكن أن يعيش خانان جنباً إلى جنب على أرض واحدة؟ [كما ورد في السيرة المكنونة، ص١٤٢].

إذا كانت هذه الكلمات موثوقاً بها، فمن الصعب أن تكون شهادة لسعي تايان خان الذي يريد بنفسه أن يصبح «حاكم السهوب»، ولكنهم سردوا في «التاريخ السري» من أجل توضيح عظمة المغولي جنكيز خان.

عندما أصبح الصدام حتمياً بين تايان خان وجنكيز خان انضم جاموخا إلى النايمان، وكسابق أفعاله مارس دهاءه منتظراً وآملاً موت جنكيز خان على يد تايان خان في هذه المرة أو العكس.

يحكى أن تايان خان لم يكن من البواسل، بل كان يحب ممارسة الصيد أكثر من التمرينات والأعمال الحربية في أولوسه، فعندما أراد بدء الحرب قرر البحث عن حلفاء له، فبعث برسله إلى الأونغوت (التتار البيض)، وكما كتب ب. راتشنيفسكي، الأونغوت والترك والنستريان «كانوا أخوة في الدين والعرق للتايمان» [راتشنيفسكي، ص٧٧]. عاش الأونغوت على حدود دولة تسزين، حسب معلومات رشيد الدين «إن هذا الشعب شعب متميز ويشبه المغول فقط»

[رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٤٠]، كان الأونغوت في خدمة الحكام التشجورتشجينيين، كما قاموا بحراسة حدود دولة تسزين على امتداد سور الصين العظيم، يورد لنا «التاريخ السري» الرسالة التي بعث بها تايان خان إلى الحاكم الأونغوتي الأخوش ديغيتخوري التي بلا شك تعرض عدم تقييم الخان النايماني لإمكانات جنكيز خان.

يحكى أن سفراء تايمان خان قالوا:

- هناك في الشمال يوجد المغول الوقحاء، فلتبق ساعدي الأيمن، سأتحرك من هنا لكي نتحد.

كان ألاخوش شاهد عيان على سحق المغول الحقراء التتار وهزيمة الكيريت، حتى إنه لم يرد القتال مع جنكيز خان، وكما يقال إنه كان معجباً به، فرد على تايان خان من غير شرح الأسباب: «لا أستطيع أن أكون ساعدك الأيمن»، وأرسل لجنكيز خان رجاله الأوفياء ينبؤه بالآتي: «بعث الخان النايماني تايان خان يطلب مني أن أكون ساعده الأيمن، ولكنني رفضت، والآن بعثت لك لكي أحذرك» [السيرة المكنونة، ص١٤٣].

بلغ النبأ جنكيز خان في ساعة صيد المطاردة، وفي الحال تم انعقاد مجلس، وانعكس الرأي العام في كلمات بيلغوتاي: «النايمان يتفاخرون بأن دولتهم كبيرة، ولها جمع غفير كبير من البشر . . . كيف يمكن السكوت على مثل أقوالهم المتعجرفة؟ فلنمتط خيولنا بسرعة!» [المصدر نفسه، ص١٤٣-١٤٤].

وافق جنكيز خان على الهجوم بسرعة على تايان خان، وأعد نفسه جيداً للحرب، وقبل الهجوم أعاد تنظيم إدارة جيوشه وأولوسه.

ورد ذكر إصلاحات عام ١٢٠٤ في «التاريخ السري»: «أعجب جنكيز خان بخطبة بيلغوتاي، وعندها أوقف الصيد وخطب من مقره (أبتشجيخ كوديغير

وعسكر بنهر خالخا في أحراش أورنويون كيلتيغاي خاد، أجرى إحصاء القوات وتنظيم الألفيات وقيادتها من النبلاء، الذين من المفروض أن يقودوا الألفيات والمئات والعشرات، كما عين الموظفين (تشيربي) الذين بلغ عددهم ستة موظفين، وهم بالتحديد: دوداي تشيربي، ودوخولو تشيربي، وأغولي تشيربي، وتولون تشيربي، وبوتشاران تشيربي، وسيويكيتو تشيربي، بعد تجهيز الألفيات والمئات والعشرات اتخذ جنكيز خان لنفسه حرساً خاصاً (كيشيكتين) مكوناً من ثمانين شخصاً للحراسة الخانية الليلية (كيبتيول)، وسبعين شخصاً للحراسة النهارية (تورخاود)، وفي هذه المجموعة تم اختيار أفضل المقتدرين وأبناء النويون الأصليين والصغار من أشقائهم قادة الألفيات والمئات وأيضاً أبناء الأحرار . . . ثم بعد ذلك اختيرت ألفية من الأبطال الذين آلت قيادتهم إلى أرخاي خاسار، وفي أيام المعارك ألزموا بالقتال أمام عينيه، أما في الأيام العادية فيكونون حرسه النهاري (تورخاوخ كيشيكتين). إضافة إلى ذلك أمر أوغولي تشيربي بإدارة الحرس النهاري السبعيني، بعد التشاور العام مع خودوس خالتشان» [المصدر نفسه، ص١٤٤]، وهكذا أدت الإصلاحات إلى الإجراءات الآتية:

١ - تم إعادة تنظيم الجيش وأدخل نظام العشرات والمئات والألفيات، من المحتمل أن الإصلاحات لم تتعرض للجيش فقط، بل لامست كل قاطني الأولوس، بما أنه ذكر في المصدر أنهم «كونوا الألفيات» لا يستبعد أن كل سكان الدولة في وقت واحد تم تقسيمهم إلى مجموعات، كان من المفروض عليها أن تقدم عدداً مطابقاً من محاربيها للعشرات والمئات والألفيات بعتاد كامل، إنه نظام قديم لآسيا الوسطى، ومعروف منذ عهد شعوب الغون.

٢ - أدخل النظام الوظيفي (تشيربي) الموظفين «الذين يقومون بالخدمة» كانوا يديرون اقتصاد الأولوس وسكانه، إضافة إلى مراقبة «خدم مائدة الخان وحراسة أبوابه ورجال خيّالته» وهلم جرّا، وأيضاً حرس الخان الخاص.

٣ - تم انتخاب ألفية حراس الخان الملزمين «بالقتال أمام عينيه» وأعد حرسه الخاص أيضاً المكون من مائة وخمسين حارساً، التحق بحراسة الخان الخاصة أبناء النويون وصغارهم وأشقائهم إضافة لقيادات الألفيات والمئات، اختلف الباحثون في تفسير عبارة «قوم في وضع حر»، التي استعملها س. أ. كوزين، ويرى الباحث ب. راتشنيفسكي أن الحديث يدور حول ساكني الأولوس المتساوين في وضعهم الاجتماعي للمفهوم الصيني «باي سين»؛ أي «الناس البسطاء» الذين لا يؤدون الخدمة الرسمية [ب. راتشنيفسكي، ص٧٧]. تشدد الترجمة المختصرة الحديثة لـ «التاريخ السري» إلى اللغة الصينية، على أن المصطلح المغولي يركز على أن يؤخذ للخدمة في الحرس أبناء أحرار القوم بالتحديد: «مالكو العبيد الذين ليس لديهم رتبة أو وظيفة» [دوروتا تيب، ص١٨٢].

من الممكن أن هذه الإجراءات أكملت ما تم عمله عندما أنشأ أولوس جنكيز خان الأول، ونظمت تكوينه بعد ما لحق بها من جراء الحرب مع الكيريت عام ١٢٠٣.

شن جيش جنكيز خان البالغ من العدد تقريباً خمسة وأربعين ألف فارس الحرب ضد النايمان في بداية صيف عام ١٢٠٤، وقبل الحملة ضحوا للراية المقدسة التي تعيش فيها الروح الحافظة للجيش (سولدا) حسب اعتقاد المغول، تحركت جيوش جنكيز خان صاعدة إلى أعالي نهر كيرولين، وعند اصطدامهم بالحرس الأول النايماني قرروا قبل المعركة الكبرى علف الخيول، والقيام بحيلة أن يشعل كل مقاتل في الليل خمس شعل في مناطق مختلفة في الوقت نفسه، التهبت السهوب نارا وفي الليل المظلم الساطع النجوم، فتملك الخوف النايمان، وخيل لهم أن جيش جنكيز خان غطى كل السهول ما دام في المعسكر المغولي، كان «عدد الشعل الملتهبة في المعسكر المغولي أكثر من نجوم السماء»، كما استخدموا حيلة أخرى أيضاً إذا

حكمنا بمؤلف يوان شي. أدخل المغول قبل المعركة حصاناً هزيلاً في معسكر تايان خان، فعندما عرض على تايان خان الفرس النحيل، وهو يعد الخطة للجيش قال: «إن الخيول المغولية هزيلة مثل هذا الفرس، فلنستدرجهم إلينا ثم نبدأ الحرب ونقبض عليهم». [يوان شي، الفصل الأول، ص٧ب].

انتظر تايان خان بجيوشه جنكيز خان على نهر ألتاي بجبال خانغاي، وبرفقته جاموخا وممثلو القبائل الأخرى، ويذكر مؤلف «يوان شي» قبائل الميركيت والكيريت والأويرات والداربان والخاتاتشين والتتار، وفي البداية عندما عرض تايان خان الحذر المتحفظ عدم المجابهة والتقهقر إلى خلف جبال ألتاي «لاستدراج جنكيز خان إلى الداخل» وجذب المغول أيضاً، اتهمه ابنه كوتشلوك بالجبن مبرهناً ذلك بصغر جيش جنكيز خان وتبعية أغلبية المغول بصورة جلية إلى جاموخا داخل معسكر تايان خان.

يتشدق تايان خان عديم المروءة من الذعر، فمن أين ظهر لجنكيز خان أتباع كثيرون من المغول؟ من المعروف أن أغلبية المغول يتبعون لجاموخا هنا! وعلى الرغم من أن كوتشلوك بنفسه لم يتخيل كم من المغول يتبعون لجنكيز خان، وكم يتبعون لجاموخا، إلا أنه من الواضح في أيام صيف عام ١٢٠٤ وقف الكثير من المغول ضد مالك السهوب المستقبلي، دون علم بالفائدة من توحيد منغوليا.

أقنع كوتشلوك والمقربون لتايان خان بتعديل قراره السابق الذي أملاه الحذر العاقل:

- نتلقى حتماً، نحن سنتلقى، ولكن هل ببساطة سنفترق؟ ـ هكذا اعترض تايان خان على كلمات كوتشلوك الوقحة، ولكن كوتشلوك وأنصاره فرضوا على تايان خان مواجهة جنكيز خان، تحرك الجيش النايماني على امتداد نهر تامير متجهاً عبر نهر أورخون إلى المنحدرات الشرقية بجبال ناخو.

حسب ما قال رشيد الدين إن جنكيز خان «أعد الجيش بنفسه» و «ذهب في أول فصيلة» اكتسح المغول والحرس النايماني الأول وطردهم، وببسالة قاتل الفرسان خوبيلاي وتشجابي وتشجيلمي وسوبيتاي وتشاموخا، أما جاموخا الذي كان في معسكر تايان خان فيريد سحق جنكيز خان ويخاف منه، ولكن كان يتمنى بشدة القضاء على النايمان، ثم بعد ذلك التخلص من جنكيز خان واستلام السلطة على أرضه المنغولية، ولذلك عندما سأل تايان خان عن نوكير جنكيز البواسل «من هم هؤلاء القوم؟» أجابه:

- إن المتآخي تيموتشجين قرر إطعام أربعة كلاب بلحم بشري حتى الشبع، وربطهم بسلسلة معدنية، من المفروض أن تكون هذه الكلاب هي التي هاجت على حراسنا.

فرد تايان خان:

- ما دام الأمر كذلك علينا أن نبتعد، ثم نبتعد أكثر من هؤلاء الحقراء، وأمر بنقل معسكره إلى أعلى في الجبال (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٤٥-١٤٧].

إذا أخذنا بما ورد في «التاريخ السري» من أن جاموخا أخاف تايان خان أربع مرات إلى أن بلغ الأخير أعلى قمة جبلية، وعندما تأكد بأن النايمان سيتكبدون الهزيمة حتماً هجرهم، وبرواية رشيد الدين: «عندما رأى جاموخا من على البعد النظام الحربي لجيش جنكيز خان نظر إلى نوكيره وقال: "أتعرفون أن الطريقة والنظام الحربي لقوات المتآخي تغيرت؟ إن قبيلة النايمان لا يمكن أن تترك لأي أحد شيئاً حتى ولو جلد رجل ثور، ولا يمكن أن يرجى من ورائهم ربح"» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٤٨]. كان جاموخا ضليعاً في حديثه وحكيماً، فلذا كان من الصعب فهمه في الحال وإلى ماذا يرمي، ولكنه كان حاسماً، «بعد نهاية حديثه ابتعد عن حصونهم ومكان المعركة ممتطياً فرسه».

وبرواية «التاريخ السري» إن جاموخا لم يقم بخيانة ترك النايمان في عز وطأة المعركة فقط، بل أبلغ جنكيز خان بأن الجيش النايماني في حيرة من أمره، وتايان خان تملكه الرعب وانتابه الشك في مجرى المعركة (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٤٩-١٥٠).

بيد أن رشيد الدين يصف تايان خان بصورة أخرى، ويتصور أنه في واقع الأمر كان رجلاً حذراً وشجاعاً، وفي اللحظات الحرجة قاتل المغول ببسالة وقوة «وأصيب بعدة جروح غائرة»، ثم بعد ذلك اختفى مع نوكيره على قمة جبل ناخو غون الشديد الانحدار، إن المقاتلين النايمان فضلوا الموت على الهزيمة المخزية «فانطلقوا عبر مدحرج الجبل وحاربوا بعنف إلى أن تم سحقهم» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٤٨]. والبعض حاولوا الوصول إلى المعركة عبر الصخور، ولكن قضوا نحبهم بين الجبال «فمنهم من سقط ومنهم من تدحرج من أعالي جبل ناخو غون فأصبحوا يقضون على بعض، داهسين وطاعنين . . .» وهاربين وكاسرين عظام بعض كمثل الهشيم اليابس» [السيرة المكنونة، ص١٥٠]. تمكن كوتشلوك من الهرب ومعه فصيلة ليست بالكبيرة، ولقي تايان خان نحبه، انسحق النايمان «وكانوا في حالة تفكك تام»، وأصبحوا غنيمة لجنكيز خان وحراسه، وتم تسليم غوربيسو لجنكيز خان وحينها قال جنكيز:

- هل أنت من قال إن من المغول تنبعث رائحة نتنة؟ لماذا ظهرت إذاً؟

وبعد ذلك اتخذها عشيقة له [المصدر نفسه].

وهكذا، وبعد القضاء على دولة النايمان أصبح جنكيز خان عملياً الآمر الناهي في كل منغوليا، بل بقي كوتشلوك في عداد الأعداء حيث هرب إلى عمه بويوروك في منطقة ألتاي، قسم من الميركيت الذين لم يتمكنوا من الرجوع لأراضيهم فقطنوا في الغرب، والأويرات أيضاً العائشون إلى الغرب من بحيرة بايكال، إضافة إلى

جاموخا وألتان وخوتشار، أي إن جنكيز خان «لا يوجد لأعداء الدولة مكان أفضل من المقبرة» [رشيد الدين]. وواصل مسيرته على المنوال نفسه مطوراً نجاحاته، ففي خريف عام ١٢٠٤ قاد حملة ضد الميركيت «فأخضع الشعب الميركيتي» عى الرغم من أنه لم يقض عليهم تماماً. هرب توختو بيكي حاكم الميركيت وانضم إلى كوتشلوك واستقر في وديان إرتيش خلف جبال ألتاي، وتم القضاء على بقايا الذين لم يعترفوا بسلطة جنكيز خان في منغولية (مع الميركيت). تم القضاء على بقايا الذين لم يعترفوا بسلطة جنكيز خان في منغوليا مع الميركين، أو فلول المندحرين الذين يبحثون عن طريق النجاة عند الميركيت.

قضى جنكيز خان شتاء عام ١٢٠٤-١٢٠٥ على السفوح الجنوبية من جبال ألتاي، وفي الربيع تجاوزت جيوشه الجبال، وفي منطقة نهر بو ختارما هجم على توختو يبكي وكوتشلوك، وفي المعركة لقي توختو بيكي حتفه، وقسم كبير من جيشه ولقي نايمان كوتشلوك المطاردون من قبل المغول أيضاً حتفهم غرقاً عند محاولتهم عبور نهر إرتيش.

بعد الهزيمة الثانية ذهب كوتشلوك مع رجاله والكثيرون الذين لا يرغبون في تبوء جنكيز خان العرش في منغوليا عبر أراضي الأويغور إلى منطقة كارا كيتاي أي «الصين السوداء» على نهر تشو.

أخذ أبناء توختو بيكي مع رجالهم الميركيت رأس أبيهم المقطوع الواقع في ساحة المعركة، وهربوا إلى قبائل كيتشاكي في السهول القازاخية، وأرسل سوبيتاي لملاحقتهم، وبرأي رشيد الدين إن هذه الأحداث وقعت في عام ١٢٠٨ وليس في عام ١٢٠٥.

كانت هزيمة تايان خان وكوتشلوك وتوختو بيكي نذيراً بحتمية موت جاموخا الذي أخطأ التقدير، فبعد هزيمة النايمان مباشرة انضم غالبية المغول التابعين له وأيضاً

ممثلو القبائل المغولية الأخرى إلى جانب القوي، فأصبحوا في صف جنكيز خان. أما متى توفي جاموخا فغير معلوم، وهذا حدث إما في نهاية عام ١٢٠٥ أو في عام ١٢٠٧، يشير «التاريخ السري» إلى أن هذا حدث في عام ١٢٠٥. يعطي «التاريخ السري» للقارئ رواية يرى فيها ب. راتشنيفسكي بحق «نوعاً من الرومانسية» أن جاموخا فقد رجاله وشعبه وبرفقة خمسة من رفاقه كان يلف البلاد، وعلى جبال تانلو اصطادوا خروفاً برياً وشووا لحمه، وفي أثناء الأكل «قال جاموخا لزملائه: "أي أبناء يمكنهم العيش على صيد الخراف البرية، كما تفعلون أنتم الآن!»، وحينها وعلى الأكل قيده أصحابه، وأخذوه إلى جنكيز خان، وعندما أوصله حراسه إلى جنكيز خان يزعمون أن جاموخا قال له:

«تأهب غراب الحقل الأسود
ظن الكالح
أن يقبض على علجوم
عنّ لوضيع قوم
عبد حتى النخاع،
أن ينال من سيده
ورفع عليه يده
فيا صاحبي، يا سيدي
بماذا تجازيه؟»

أدركت الإيماءة في لحظتها، «وسمع جنكيز خان بالإجابة "أيعقل أن يترك الذين رفعوا أيديهم على خانهم بالفطرة ينعمون بالحياة؟ ومن يحتاج لصداقة مثل هؤلاء القوم؟" وفي الحال أمر بسحق رعاة الماشية (أرات) الذين رفعوا أيديهم على خانهم الفطري، وأيضاً بالقضاء على ذريتهم! وهكذا على مرأى جاموخا وهب الرعاة المتنقلين للإعدام» [السيرة المكنونة، ص١٥٤-١٥٥].

إذا تتبعنا رواية «التاريخ السري» يمكننا أن نفكر أن جنكيز خان كان يريد أن يترك جاموخا حياً، وعرض عليه صداقته القديمة «ها نحن قد التقينا، فلنكن أصدقاء» معدداً خدماته في سحق الكيريت والنايمان، وأيضاً «أبلغتني حديث فان خان بكامله وكشفت لي على مواضع قواته»، «أتذكر كيف أنك بمجازية أبلغت النايمان، وكيف أنك بكلمتك قتل، وللموت بفاهك . . . دفعت».

ارتحل جاموخا في رده بذاكرته إلى الصداقة القديمة، فرأى أنه لا يستحق أن يكون صديقاً: «إنني وفي أيام الصداقة لم أتمكن من التصادق كما ينبغي»، فكيف يمكنني التصادق الآن عندما:

نصبوك على عرش الخان

إلى ماذا تصبوا من صداقتي لك

وها العالم أمامك راكع

«سأصبح قملة على رقبتك وشوكة في فراشك»، هكذا قال جاموخا مقيماً ما جرى بوعي، ومطالباً بشيء واحد هو الإعدام «بدون سفك الدماء، فإن الروح ستبقى حامية وحافظة للجنس، أبدى جنكيز اعتراضه مظهرياً وكان «بإمكان جاموخا إصلاح ما اعوج، ولكنه رفض»، ثم بعد ذلك أمر بالبحث عن حجة لإعدام جاموخا دون سفك دماء، أما رفاته فيجب أن تدفن بصورة تليق بالمقام «عندها تم قتله ودفنوا جثمانه رافعين عظامه» (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٥٥-١٥٨).

برواية رشيد الدين التي يرويها في القسم «الذي يتحدث فيه عن قبائل الترك المسماة بالمغولية» وليس في قسم «مدونات جنكيز خان التاريخية»، وفي وصف قبيلة جوريات أن الأسير جاموخا لم يكن مع خمسة من الحراس بل كان مع أقربائه وفصيلة من نوكيره لا تقل عن ستين شخصاً، ويبدو أن هذا صحيح، إن جاموخا

الذي تم تسليمه لجنكيز خان أيضاً لمح بأن الذي خان سيده الواحد لا يمكن أن يخدم رجلاً آخر بصدق، «فأمر جنكيز خان بعزل أقربائه وأبناء عمومته الذين كانوا في عداد الستين شخصاً، أما حراسه الثلاثون الذين قبضوا عليه فتم شنقهم.

والثلاثون الذين تبقوا خدموا جنكيز خان سمعاً وطاعة، وحتى قائدهم أولوغ باخادور صار رجلاً ذا شأن، وقدم من الخدمات ما يحق له عليها الإجلال، بما أن جنكيز خان كان يدعو جاموخا بالأخ المتآخي (أندا) لم يرد قتله، فلذا أهداه لابن عمه النويون الجيداي نويون الذي كان يحبه بممتلكاته وحراسه وبيته، وبعد مرور عدد من الأيام قتله الجيداي، ويؤكدون أنّ الجيداي أمر بفصل أعضائه عن بعض، كل واحد على حدة، وقال جاموخا: "الحق يؤول إليكم! لقد كانت لدي فكرة بأنني سأتلقى مساعدة السماء، وسأقطعكم إرباً، وبما أن السماء كانت بجانبكم، فعليكم الإسراع ببتري إلى أجزاء!" ولم يصبه الذعر أبداً». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٩١-١٩٢]، بيد أن كل هذا شبيه بالحقيقة، عذب جاموخا أشد عذاب الذي يسمى عند الكيدانيين لينتشي؛ أي نوع خاص من العقاب يتسم بالقسوة والعنف.

وهكذا انقضت تلك الحقبة المظلمة والمريعة للسهوب المغولية، فعندما تذكر مؤخراً كوكو تسوسا أحد المقربين لجنكيز خان في تلك المدة قال: «استدارت النجوم في السماء وساد الخناق العام، لم يستطع الناس الاستسلام للفراش، فكانوا ينهبون ويسلبون البعض، إلى أن اهتز سطح الأرض، وتطايرت السباب مختلفة الألوان، تعذر الهجود في المضاجع، وقبل ذلك ساد العداء» [السيرة المكنونة، ص١٨٥]. إنها كانت حرب الخانات والأعراق كالمغولية والكيريتية والنايمانية والميركيتية من أجل الهيمنة على منغوليا، وهكذا انقضى المسار السياسي بطرد عرق الترك من دولة منغوليا، ومن وقتها لم يكن لدى جنكيز خان منافس قوي في كل السهوب

المنغولية، فمنهم من سحق، ومنهم من تحطم، وآخرون طردوا إلى ما وراء ألتاي في سهوب كيتشاك في وديان جمهورية قازاخستان الحالية، أو إلى الشمال البعيد إلى أحراش سيبريا الكثيفة. إن الأراضي الممتدة الواسعة من جبال وأحراش وسهوب أصبحت تحت سيطرة القبائل المغولية وجنكيز خان الذي بدأ ساعتها يشيب، ومنذ ذلك الوقت صارت هذه الأرض تحمل اسم المتصرين، وسميت منغوليا، والشعوب التي سكنتها كتب عليها أن تنسى تسمياتها القبلية، وأن تعرف نفسها بالمغول، كان من المفروض توثيق الاتحاد، وهذا ما قرره مجلس النبلاء العظيم لمنغوليا كافة.

❋ ❋ ❋

كوريلتاي العظيم

«من خلف حجب السموات التنين
بهامته أطل، ومع سحائب من
من محتوم الكوارث أهل علينا
أهل علينا اليوم المقبل»
ف. س. سولوفيوف

في ربيع عام ١٢٠٦، وعند منابع نهر أونون، اجتمع كورليتاي النويون العظيم مجلس الخانات والنويون من كل أرجاء منغوليا المديدة، ورفرفت على المؤتمرين راية بيضاء مقدسة، ذات تسعة ألسن، حافظة للمحاربين؛ أي روح سولدا، ومن أوائل مقررات كوريلتاي تلقيب تيموتشجين جنكيزاً وحاكماً لمنغوليا، كما «نصب خاناً» أو «جعلوا منه إمبراطوراً»، كما ذكر في الترجمة الصينية «للتاريخ السري»، وفي الوقت نفسه وثق المجلس لقب جنكيز خان.

في مؤلف يوان شي أن «الإمبراطور دعي لمؤتمر كبير ضم كل الخانات والنويون، ورفع على العرش الإمبراطوري الراية البيضاء ذات تسعة ألسن عند منابع نهر أونون، فقدم الخانات والنويون اللقب الإمبراطوري جنكيز أي (تشانتسزيسي خواندي)» [يوان شي، الفصل الأول، ص٨أ]. إن نص مؤلف يوان شي قريب جداً من نص «التاريخ السري»: «عندما وجه الشعوب التي كانت تسكن الخيم اللبادية إلى طريق الحق، ففي عام ١٢٠٦ أي عام النمر الأرقط انعقد المجلس على منابع نهر أونون، وهناك رفعت الراية البيضاء المقدسة ذات تسعة ألسن، ونصبوا جنكيز خان خاناً» [السيرة المكنونة، ص١٥٨].

يذكر رشيد الدين تأكيد لقب جنكيز خان الذي كان عند تيموتشجين سابقاً «عندما أقبل عام النمر بسلام وخير، العام الذي وافق بداية رجب من العام ٦٠٢ هجرية الموافق لفبراير ـ مارس ١٢٠٦ في بداية فصل الربيع، أمر جنكيز خان برفع الراية البيضاء ذات تسعة ألسن، ومع الحضور عقد مؤتمراً عظيماً، أي كوريلتاي، وفي هذا المؤتمر أكدت له التسمية العظيمة جنكيز خان، واعتلى العرش بسعادة، ووثق التسمية كوكيتشي بن مونليك بيكي إيتشيغي من قبيلة كونكوتان واسمه الحقيقي تاب تانغري» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٥٠].

ثمة بعض الاختلافات بين المصادر الثلاثة الرئيسة، مثلاً يرى مؤلف «يوان شي» ورشيد الدين أن كوريلتاي دعي له جنكيز خان بنفسه، أما «التاريخ السري» فيصمت عن ذلك، في مولف «يوان شي» أن لقب جنكيز خان قلده الخانات والنويون لتيموتشجين، أما «التاريخ السري» فيذكر أن المجلس عقد عند منابع نهر أونون «ونصبوا جنكيز خان خاناً».

يفترض رشيد الدين أن لقب جنكيز خان «أقره» الساحر كوكوتشو، أما مؤلف «يوان شي» فيثبت أن اللقب تم تقليده لأول مرة، بينما يتضح عند رشيد الدين للمرة الثانية، وبالمناسبة إن «التاريخ السري» يطرح الرؤية نفسها «وأطلقوا لقب خان على جنكيز خان»؛ أي إن جنكيز حمل هذا اللقب سابقاً، ومن المحتمل حتى إنه لم يتم تأكيده أو تثبيته بصورة خاصة، وشعاراً للسلطة كانت الراية البيضاء ذات تسعة ألسن «راية كبيرة خالصة البياض» [التدوين الكامل، ص٧٦].

كما كانت لدى موخالي أيضاً، أعلنه المجلس (كوريلتاي) أميراً (غورخان) راية بيضاء ذات تسعة ألسن، ولكنها تختلف عن راية جنكيز خان بأن عليها قمراً أسود مرسوماً، كان لدى جنكيز خان شمسية ترمز للسلطة الإمبراطورية وكان لونها أحمر أو أصفر (فاللون الأحمر يعدّ اللون الرسمي في ذاك الوقت لأسرة «سون»

الحاكمة في الصين)، اعتلى العرش أيضاً الذي يشبه «كرسي واعظ دير بوذي» و«مزين برؤوس التنانين المطلية أيضاً بالذهب» وهذا يعدّ أيضاً رمزاً صينياً للجبروت والسلطة، وعرش موخالي يختلف عن عرش جنكيز في أنه مطلي بالفضة، أما سرج فرس جنكيز خان وطقمه فكانا مزينان بتماثيل ذهبية من تعرجات التنانين.

إن العدد تسعة ـ عدد ألسن الراية الإمبراطورية ـ يعدّ عند المغول مقدساً؛ فإن الذهب في العرش والطقوس الزخرفية لجنكيز خان والفضة على المتطابقات من الأدوات عند موخالي، يبدو أنهما كانا موجودين منذ البداية أي منذ عام ١٢٠٦، ويبدو أن الباحثين الأجانب أولوا اهتمامهم، ولأكثر من مرة، على كثرة المعادن الثمينة عند المغول، أصابت الدهشة لي سيتشوان: «على الرغم من أنهم لموا من الثمين لماً إلا أنهم لم يتوقفوا عن الجمع»، وعندما نهب المغول كل جيرانهم شيد نبلاؤهم لخيولهم معالف من الفضة ومن الذهب، وصنعوا أواني للنبيذ (كما ورد في «التدوين الكامل» ص٧٦-٧٧].



المرشد من السماء الخالدة، التي أنعمت عليه بالعرش الخاني، أي جنكيز خان، كان في الكوريلتاي مشغولاً بالأعمال الدنيوية وبخاصة إتقان النظام الإداري الحربي للأولوس المنغولي، الذي بلغ من الاتساع الآن مساحة دولة التتار المغولية، الطبقة السائدة في مجتمع التتار المغول في القرون الوسطى هي طبقة النبلاء (نويون)، الذين رشحوا تنصيب جنكيز مع عشيرته على العرش الخاني وأيدوه، فلهذا كان لا بد من أن يكونوا أول من يتنعم بخيرات البلد الجديد، إن جنكيز الإمبراطور بالتصورات التقليدية لتلك الأماكن «حاكم متجه بوجهه إلى الجنوب»؛ أي إلى الشمس، قسم الجيش وإدارة الدولة على ثلاثة أقسام: «الجناح» الأيمن من

الجيش؛ أي بارونغار بقيادة القائد (تيمنيك) بوورتشو، الممتدة غرباً حتى حدود ألتاي، واليسرى؛ أي جونغار بقيادة تيمنيك موخالي، الممتدة شرقاً إلى جبال خينغان الكبرى، وأيضاً الوسط بقيادة تيمنيك ناياً، ففي سيرة موخالي الذاتية في مؤلف «يوان شي» نقرأ: «اعتلى جنكيز خان (تاي تسزو) العرش الإمبراطوري، ومنذ البداية أمر بوورتشو وموخالي بأن يكونا قائديه الأيمن والأيسر، وببشاشة قال: "في الدولة تعيش كثرة من القوم الأقوياء الذين تم قمعهم بفضلكما، وأنتما وأنا كمثل عريش الخنطور الواحد، ومثل أكتاف جسد واحد، فيجب عليكما لزاماً أن تصيرا جسداً واحداً، وساعتها فقط يمكن أن نحقق ما نسعى إليه» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص١ب].

كان هذا النظام التقليدي لإدارة الدولة، والمعلوم منذ عهد شعوب الغون أن منغوليا قسمت على خمسة وتسعين وحدة إدارية عسكرية، التي كان لزاماً عليها أن ترسل في حالة الضرورة ألف مقاتل، «وفي الواقع حوالي الألف أو أكثر» بقيادة نويون أو قائد الألفية حسب النظام الحربي المغولي، تسلم قواد الألفيات والمئات عادة مكافآت على خدمتهم، إن وظيفة ورتبة قادة الألفيات والمئات وقادة القيادات (تيمنيك) وراثية، عندما عين جنكيز خان قادة الألفيات قال:

– أود أن أسجي الشكر والعرفان مع التمنيات إلى قادة الألفيات النبلاء القوم الذين عملوا وجهدوا معي في بناء الدولة! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٥٨).

وهكذا أصبح النويون دعامة السلطة الجديدة الذين ساعدوا بصورة أو بأخرى في انتصارات جنكيز خان، وأصبحوا يمثلون القيادة الاجتماعية للمجتمع التتري المغولي؛ أي أقرباء جنكيز خان، الذين كان يمثل مصالحهم، وفي الواقع في عداد قادة الألفيات، الذين تم ذكرهم في «التاريخ السري»، يقابلنا مونليك وبوورتشو

وموخالي وخورتشي وخوبيلاي وتشجيلمي وبوروخول شيغي خوتوختو وسورخان شيرا وكوكو تسوسا وتايا وتشجابي وسوبيتاي وهلم جراً. وفي الألفيات كانت العائلة والأسرة أقل وحدة في النظام الإداري الحربي، التي كان من المفروض عليها أن تقدم عشرة محاربين، يفترض أن عدد المغول في عهد جنكيز خان بلغ مليون نسمة.

وفي الإدارات المنفصلة حددت الأقاليم، ومنها الإقليم الشمالي المأهول «بسكان الغابات»، ولإدارتهم عين جنكيز خان نصيره وحارسه خورتشي، ولقد تم تقسيم الخاضعين من القبائل بالقوة أو بمحض إرادتهم على مبدأ النظام الإداري الحربي في وقتها، أي بنظام الألفيات، وتم تثبيتهم في مواقع معيشتهم، والحد من حرية تنقلهم. إن الإشارة إلى هذه الحقيقة المهمة التي وردت في «التاريخ السري» تخص «الشعوب الغابية» فقط، «التي لا يحق لها الحركة الحرة دون موافقة خورتشي. أما بخصوص التنقل بمحض الإرادة فلا يحق التفكير فيه» [السيرة المكنونة، ص١٦١]. ولكن من الصعب أن يكون هذا الأمر قاصراً على «الشعوب الغابية» فقط، فكان من المستحيل متابعتهم، فلهذا من المحتمل عندما دار الحديث عنهم وعن تعيين خورتشي، دخل النظام العام في قاعدة القوانين (ياسا)، الذي سن أول مرة في زمن إصلاحات عام ١٢٠٣، إنَّ قاعدة القوانين (ياسا) لم تكن قاعدة منظمة، بل جمعت الأوامر (يارليك)، والقوانين (ياساك)، والنصائح (بيليك)، ولم يبق من (ياسا) في الوقت الراهن سوى ما ذكر في المتواترات، ولقد وصل إلينا منها بصورة خاصة في أحد فصول قاعدة القوانين (ياسا) القول: «من يغير مكان خدمته فعقابه الموت»(١).

---

(١) يكتب جويني «"ياسا" أي مجموعة القوانين أيضاً كانت من أجل أن لا يخرج أي فرد في عداد الألفيات والمئات والعشرات من حدود موقعه المسجل فيه إلى مكان آخر، وحتى الاختباء عند الآخرين، وأن لا يسمح أي فرد لنفسه استقبال الخارجين، ومن يخرق هذا =

يشار في «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية» إلى أنه «لا يحق للقوم البسطاء وفقاً لمجموعة القوانين التنقل من عشارية إلى أخرى أو مئوية إلى أخرى بلا إذن، وهذا عملياً يعني تثبيتهم أو ربطهم بأرض نويون وقادة الألفيات والمئات وهلم جرّا» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص١٣٣]. إن ربط المنتجين مباشرة بالمكان ووسائل الإنتاج في مجتمع القرون الوسطى المغولي شكل أساساً لاضطهادهم.

وأشار غ. روبروك أيضاً إلى أن جنكيز «أصدر قراراً لا يحق بموجبه لأي شخص التخلي عن الخدمة، ما دام لم يبلغ سن الشيخوخة، ولا يستطيع بأي حال من الأحوال العمل» [الرحلات، ص١٥٤]. إن تقسيم السكان بين الآلاف والمئات سجل فيما يسمى بالكتب الزرقاء[1].

في مؤلف «يوان شي» يحكى: «أنه لم يكن هناك كادر وظيفي في الحقبة الأولى لنشأة الدولة، وكان على رأس الإدارة قاضي [دوانشيغوان] ويسمى جارغوتشي، كان يحل كل مشكلات شؤون الدولة، وفي يده مسؤولية القضايا الجنائية والمدنية» [يوان شي، الفصل ٨٥، ص١أ-٤أ]. يبدو أن هذه المعلومة غير كاملة.

كان في أولوس جنكيز خان على الأقل ست عشرة وظيفة، ومن هذه الوظائف الاقتصادية التي ينتسب إليها رعاة الماشية والإبل وقادة قطعان الخيل وقادة عربات الحناطير والنازحين؛ وفي خدمة الدار ينضوي المسؤولون عن لباس الخان والمائدة والنبيذ والموسيقيون وحراس الديار والمداخل، وتوجد أيضاً الخدمة البوليسية الحربية التي تضم حملة الأقواس والسيوف وقابضي اللصوص، أما الصقارون

= القانون فعقاب الخارج عن حدود موقعه الموت أمام كل الجماهير، ومن ساعده على الاختباء مصيره الأغلال والقصاص». [حول تكوين قاعدة القوانين العظيمة (ياسا) ص٤٨-٤٩].

(١) أصدر جنكيز خان أمره بتسجيل ذلك في نقش أزرق، وفيما بعد قام كوكو ديبتير بيتشيك مضاهاة هذه النقوش مع المواطنين حسب المجموعة اللغوية [السيرة المكنونة، ص١٦٠].

فكانوا يمثلون مصلحة الصيد الخانية، وسكرتارية الدولة تتكون من معدي المراسم والأوامر، وكتاب السكرتارية والمترجمين.

العمالقة الأبطال وحراس (نوكير) جنكيز خان الأقوياء عينوا قواداً للحرس، أمرهم «تاي تسزو بممارسة هذه السلطة بالتوارث، أي قيادة المجموعات الحرسية الأربعة (كيشيك)» [يوان شي، الفصل ٩٩، ص١أ]. أصبح بورخو وموخالي وبوورتشو وتشيلون قادة للمجموعات الحرسية الأربع، وكما ذكرنا سابقاً أن الحرس تم انتخابه أو تنصيبه من عداد أبناء قادة الألفيات والمئات وصغار أشقائهم، شغل الحراس الدائمون (كيشيكتون) المناصب الأساسية في جهاز إدارة الدولة المغولية. إن المؤلف يتقاسم الرأي تماماً مع الباحث سياو تسيتسين الذي يرى أن الحرس الدائم الخاني يمثل «نواة جهاز الدولة المغولية المبتكر» [سياو تسيتسين، ص٤٤].

مثل رؤساء الحشود (تيمنيك) السلطة المحلية وقادة الألفيات والمئات والعشرات، وكما قال عطاء مالك جويني: «لم يكن هنالك أحد خارج عن صفوف الألفيات والمئات والحشود التي ينسب إليها، أو عليه البحث عن ملجأ في مكان آخر» [جويني، ص٣١]. كان لكل ألفية مرعى (نونتوغ) ومصادر ماء (أوسون)، تم إعادة تقسيم بعض قطع الأراضي، إذا لم نقل أغلبها، الصالحة للرعي.

كما ذكر غ. أ. فيودوروف دافيدوف أن «جوهر الملكية الإقطاعية للأرض في المقام الأول هو السلطة على البشر الذين يعيشون ويعملون على الأرض المحددة، إن نظام البناء الاجتماعي المغولي في عهد جنكيز خان كان مبنياً على خضوع جميع الرحل لقادة النويون الذين كانوا تحت إمرتهم العسكرية، إن التقسيم الإداري الحربي للسهوب الذي انتهجه المغول أطر عملية تقسيم الأراضي». [فيودوروف دافيدوف، ص١٥].

وهكذا أصبح قادة الألفيات يقومون بالمهام الإدارية (إدارة السكان الموكلين لهم) والاقتصادية (إدارة المراعي وأماكن الترحل) وجمع الضرائب، وتسيير الأعمال العسكرية (تجنيد عدد محدد من المقاتلين وإرسالهم إلى الخدمة) ومن المحتمل أنهم كانوا قضاة محليين، يشير سياو تسيتسين بصورة خاصة إلى أن النظام المغولي للعشرات والمئات والألفيات وعشرات الألوف «لم يكن اتحاداً عسكرياً فقط، بل كان يمثل أيضاً أقساماً إدارية ومدنية؛ أي إن قادة العشرات لم يكن عملهم يقتصر على قيادة العشرة من المقاتلين، بل كانوا يدبرون أمر أسر المحاربين في الوقت نفسه» [سياو تسيتسين، ص١٧٨].

وزع جنكيز خان أقرباءه لإدارة الأقضية (خوبي)، وعين لكل منهم قضاءً «منح أمه عشرة آلاف يورتا بالاشتراك مع أوتشيغين (شقيقه من جهة أبيه. تعليق المؤلف) ولأبنائه تشجوتشي تسعة آلاف خيمة، وتشآداي ثمانية آلاف خيمة، ولأوغودوي خمسة آلاف خيمة، ولتولوي خمسة الاف، ولشقيقه خاسار أربعة آلاف، ولأتشيداي ألفين، وليبلغوتاي ألف وخمسمائة خيمة» [السيرة المكنونة، ص١٧٦]، ولكل أنساب جنكيز خان تم تعيين ممثلين من النويون ذوي مهام مجهولة، مثلاً النبيل كوكو تسوس كان يراقب تشآداي الرجل «الصارم غامض الطبع»، الذي كان من المفروض أن «يناقش معه كل ما يخطر على البال» [المصدر نفسه]، فإذا حكمنا بهذا المثال يتضح أن أقرباء جنكيز خان كانوا بوضوح تحت المتابعة، إذ لم يكونوا تحت المراقبة المباشرة[1].

(١) حسب رأي فلاديمير تسوف «إن تقسيم الأقضية قام على أساس أن الدولة، أي (أولوس إيرغين) تعدّ ملكية لسلالة مؤسسها كافة، الذي صار خاناً لها، وكما السلالة يحق لفروعها أيضاً وأفرادها الحق على الأرض التي يشغلونها بالرعي عليها، ويحق لأفراد السلالة أيضاً وفروعها ملكية القوم الذين يعدّون أقنان أرض بالتوارث وتابعين، ويحق للسلالة أيضاً ملكية الشعب والدولة بصورة مطلقة على مساحة معينة، وانطلاقاً من هذا تم تعميم مفهوم =

ومنح أيضاً أقرباء جنكيز خان خوبي؛ أي مكافأة، مثل حراسه الحائزين على لقب الجدارة. إن إعطاء المكافأة (خوبي) صحب بتقديم مستند (يارليك) يحق بموجبه التمتع بالخوبي ورمز السلطة (غيريغي)، إن الذين كانوا يقومون بالإدارة والمراقبة، إضافة إلى تمتعهم بالخوبي والدخل الخاص، يحق لهم أيضاً التمتع بالأختام (تامغي). «كان القضاء خوبي ينقسم على قسمين: أولاً عدد معين من أسر الرجل (أولوس)، وثانياً مساحات الرعي والصيد (نوتوغ) الكافية لإعالتهم. [فرديمير تسوف، النظام الاجتماعي، ص١١١] أو كل تقسيم الخوبي إلى شيغي خوتوختو.

لم يكن يوجد في المجتمع المغولي في القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر أي معلومات أكيدة عن الضرائب والقروض، ولكن نلاحظ أنهما كانا موجودين. وذلك من وجود دائرة الإعفاء من الربقة الخانية (دارخات) وهكذا من أجل المساعدة في تحرير تيموتشجين من الأسر التايجيوتي نال سورخان شيرا حق الدارخات في أماكن تنقله في سيلينغي، فلو لم تكن دائرة الإعفاء من الربقة الخانية (دارخات) المعروفة لدى الجميع موجودة في عام ١٢٠٦ فعن ماذا كان قد دار الحديث بين جنكيز خان وسورخان شيرا؟ فوجود الإعفاء من الربقة الخانية يؤكد وجود ما يعفى عنه، الغرض الواضح للألفيات تجهيز الحرس الدائم الخاني

= ملكية السلالة على أكبر المجالات في الأولوس وعلى مستوى الشعب» [فلاديمير تسوف، العصر الاجتماعي، ص٩٨-٩٩]. إن هذه الفكرة، حتى في الوقت الراهن، تستحق الاهتمام في وجهات نظرها، على الرغم من أنها تتناقض مع الفكرة الأساسية؛ أي فكرة السلطة الخاصة، أي السلطة الخانية، التي أنعمت بها القوة العليا عليه، إن السماء الزرقاء الخالدة والأرض يختاران للخانية ليس السلالة، بل رجلاً محدداً، إن قدوم جنكيز خان إلى السلطة كان مرتبطاً بهذه الفكرة؛ أي فكرة الاصطفاء، التي في مظهرها المتطرف مرتبطة بالتصور الذي يشير إلى أن السماء والإرادة العليا أنعمتا عليه ليس بمنغول بل بكل ما هو ممكن (معلوم ومرئي) من العالم.

(كيشيكتين) «بالقدر الذي حددناه لإمداد الجيوش في مواقعها: فعلى أبناء النويون وقادة الألفيات المتوجهين للخدمة، بغض النظر عن حجم ورثتهم التي نالوها من آبائهم وممتلكاتهم، سواء حصلوا عليها بجهودهم الخاصة، فوفقاً للقاعدة، وبغض النظر عن ممتلكاتهم، عليهم إمداد الجيش بالقدر المطلوب عن خروجهم للخدمة، وأيضاً حتى أبناء النويون وقادة المئات والأحرار الطلقاء المتوجهون للخدمة في صحبة ثلاثة من الرفاق» السيرة المكنونة، ص١٦٨-١٦٩]، وفي بيت المال كانت تجمع الماشية والكوميس وما شابه ذلك.

إن إصلاحات عام ١٢٠٦ ضربت بالأواصر القبلية، عندما وقع ممثلو القبائل المختلفة تحت قيادة ألفية أو مئوية واحدة، الذين كانت تجمع بينهم الخدمة والمعيشة الموحدة في مكان وجودهم، وباختلاطهم وضعوا بداية لتكوين هوية مغولية واحدة، كتب ب. فلاديميرتسوف: «إن اختلاط العشائر والأجيال المغولية في ظل الهيكلية الألفية للموحدة الأساسية في بناء إمبراطورية جنكيز خان كان لها أثر مهم في البناء القبلي (السلالي). إن التقسيم الألفي وتوزيع الخوبي أدى إلى انشقاق صفوف أكبر القبائل المغولية القديمة، وعلى سبيل المثال التتار وميركيت وجاجيرات ونايمان وكيريت، التي صارت بقاياها في غالب الأحوال مشتتة في الأولوسات والدويلات الألفية [فلاديمير تسوف، النظام الاجتماعي، ص١٠٩].



كتبت التعاملات الكتابية عند المغول بالخط الأيغوري، الذي طوع إلى اللغة المغولية، وبما لدينا من معلومات أن هذه الكتابة بدأ إدخالها بمساعدة تاتاتونغا الأويغوري الأمين السابق بخاتم الخان النايماني تايان خان، يشير مؤلف «يوان شي» إلى أن «تاتاتونغا كان أويغورياً ذكياً وضليعاً في اللغة، وبعمق استوعب كتابة لغة

دولته، فلذا فضله الخان النايماني تايان خان وأمنه على خاتمه الذهبي والمال والحبوب أيضاً، بعد حملة تاي تسزو أي جنكيز خان إلى الغرب حيث تم القضاء على دولة النايمان، هرب تاتاتونغا مخبئاً ختم الدولة الذهبي، وبعد مضي مدة من الزمن تم القبض عليه، فحقق معه جنكيز خان سائلاً: "لقد آلت إلي كل أراضي تايان خان وقومه، فلماذا أنت تحتفظ بهذا الختم؟" فرد: "إنني خادم وأريد أن أؤدي خدمتي حتى الممات حافظاً ومنفذاً لما استلمته من حاكمي المرحوم، وهل لي بحاكم آخر؟" فقال الإمبراطور جنكيز خان: "إنك لرجل جليل وفي" ثم سأله: "كيف يمكن استخدام هذا الختم؟" فرد: "الختم يستعمل في كل الأعمال، مثلاً لتوثيق صرف المال وتوزيع الغلال وتعيين الخدمة" أثنى الإمبراطور: على الختم وأمر من حوله من علية القوم باستخدامه كل مرة عند إصدار المراسيم، كما أمر أيضاً بأن يعمم الختم على كل النبلاء الذين بيدهم السلطة، ثم قال الإمبراطور: "هل أنت عارف بكتابة لغة دولتك؟" فأفصح تاتاتونغا بكل الأسرار التي خبأها، ثم بعد ذلك أمره بتعليم الخانات استخدام الكتابة الأويغورية لتسجيل لغة دولته المغولية» [يوان شي، الفصل ١٢٤، ص٣ب]. كان ذلك في عام ١٢٠٤.

يرى الباحث تامورا دزيتسودزو أن الكتابة تم إدخالها سابقاً أي في عام ١١٨٩ أو ١٢٠٤ أو ١٢٠٦، أما الباحث ن. مونكويف فيربط دخولها بتاريخ أسر تاتاتونغا أي العام ١٢٠٤، لكن الباحث المغولي دالاي تشولوون يصر على أن المغول مارسوا الكتابة بالخط الأويغوري قبل أسر تاتاتونغا، فيكتب: «استناداً إلى مؤلف "يوان شي" إن جنكيز خان في عام ١٢٠٤ عرف من أسيره تاتاتونغا وزير الخان النايماني تايان خان، الذي كان معه الختم الخاني، الغرض الذي يستعمل فيه هذا الختم المنقوش بالكتابة، ثم بعد ذلك بدأ استخدامه كتوثيق المستندات الحكومية، وكلف جنكيز خان تاتاتونغا نفسه أيضاً بتعليم أبنائه وأقربائه النبلاء (نويون) الكتابة

الأويغورية. إن غالبية الباحثين الأجانب يستندون على تلك المعلومة غير الواضحة التي تفتقر للبراهين القاطعة، ويفترضون أن المغول اقتبسوا الكتابة الأويغورية في بداية القرن الثالث عشر، ولكن الراجح أن الهجائية الأويغورية ـ التي تم استعمالها منذ القدم من قبل بعض القبائل المغولية ـ تم نشرها في عهد جنكيز خان في كل أرجاء منغوليا، وأصبحت كتابة رسمية للدولة المغولية الموحدة» [تشولوون دالاي، ص١٥٠-١٥١].

إن النقاش للأسف لا أساس له تماماً قبل العثور على النصوص التي كتبت باللغة المغولية، ولكن بالخط الأويغوري، فلنقل في الثمانينات والتسعينات من القرن الثاني عشر، ولكن الغريب في الأمر أن جنكيز خان لم يعرف الأختام، واستخدامها يناقض كثيراً من الآراء، ولكن لا يزال يتحتم علينا التعامل مع الحقائق، يذكر تشجاو خون: في بداية ظهور دولة التتار الحاليين لم يكن لديهم مستندات مكتوبة، وفي كل الأحوال عندما يرسلون أوامرهم كانوا يبعثون سفراءهم، وفي أثناء ذلك كان الرسل يحفرون على الخشب علامات للتذكير، ولم يكن لهم الحق حتى في إضافة حرف واحد في المستندات التي استخدموها بأنفسهم في تعاملهم مع الدول الأخرى، وإلى الوقت الراهن في كل العلاقات كانوا يستخدمون الكتابة الأويغورية . . . ولكن استخدم التتار الكتابة الصينية في العامين الأخيرين من العلاقة مع دولة تسزين، وذلك لأن الموظفين في دولة تسيزين الهاربين خانوا دولتهم واستسلموا للتتار آملين في الخدمة معهم، بحكم أنهم بدون مأوى بدأوا يعلمونهم صياغة المستندات» [التدوين الكامل، ص٥٢]، كما يثبت جويني[1] واقعة تعليم الكتابة من قبل الأويغور.

(١) «وبما أن القبائل التترية لم يكن لديها الهجائية الخطية أمر جنكيز خان الأويغور بأن يعلموا الأطفال المغول الخط الهجائي». وهذا المصدر مأخوذ من مؤلف [حول تكوين ياسا العظيمة، ص٤٢]).

يشير الباحث ف. بارتولد إلى أن «جنكيز خان فضل الحضارة الأويغورية، لأنها أكثر قرباً لحياة الرجل؛ لأنه تبقى في حياة الأويغور الكثير من متواترات السهوب وتقاليدها» [بارتولد، نشأة الإمبراطورية، ص٢٦٤].



استخدم البريد اليامي في كل منغوليا وعلى النهج الصيني الذي استخدم آنذاك مع الدول المجاورة لمنغوليا مثل دولة تشجور تشجينيين وتانغوت، ولخدمة كل يام (من الصينية «تشجان» أي «محطة البريد») أعد لها عدد معين من الرجال والخيل، قسمت كل المحطات (يام) بين عشرات الآلاف، ولكل ألفين محطة بريدية مكلفين بخدمتها، عند استعراض المصادر الصينية التي تتحدث عن الخدمة البريدية في عهد الكيدانيين والتشجورتشجيتيين نجدها مليئة بالمشاهد التي تشير إلى أن هذه المحطات كانت تمثل مصدراً لاستغلال السكان القاطنين حولها، يخص هذا الأمر الرسل المعتمدين ببطاقات (بايتسزا) والسفراء الذين يعملون في جباية حوائج الخزينة، إن القوانين التانغوتية نظمت حدود العقاب للمستغلين بصورة تفصيلية، يروي رشيد الدين عن الوضع المغولي أن النبلاء القائمين بالجباية كانوا «يضطهدون ويشنقون ويضربون الشعب» ومن «كل النواحي كانوا يجمعون زاد الطريق بمقدار يزيد بكثير عن متطلبات الطريق والقانون (ياساك)»، ففي حالة خروج النبلاء يبلغ عدد مصاحبيهم مئتين أو ثلاثمائة شخص، وفي بعض الأحيان من خمسمئة إلى ألف شخص «وذلك لأن وزن المبعوثين وأهميتهم كانت تتوقف على الجمهور المصاحب، فلذلك اجتهدوا في دعوة نوكيرهم من عداد أقربائهم وأصدقائهم» [رشيد الدين، المجلد الثالث، ص٢٦٢-٢٦٥].

نقش على ضريح يلوي تشوتسا الكيداني المصلح الإداري لدولة منغوليا الكلمات الآتية: «في البداية كل الأمراء وأقرباء الإمبراطور برؤيتهم الذاتية كانوا يستطيعون أخذ خيول محطات البريد، وإضافة إلى ذلك كان عدد السفراء كبيراً جداً، فإذا وقعت الخيول من التعب كانوا يستبدلونها من المواطنين كرها لمواصلة السير عليها، وفي المدن أو المواقف وعلى الطرقات وأين ما حلوا كانوا يبعثون القلق في نفوس السكان المحليين، وعندما يبلغون بلاطاً كانوا يطالبون بمختلف الخدمات، فإذا تأخر تقديم المائدة ولو لمدة بسيطة كانوا يقومون بضرب [مقدميها] بالسياط» [المصدر الصيني، ص٨١].

من رموز السلطة وعلاماتها البطاقات المعتمدة (باتسيزا) المصنوعة من الذهب والفضة، التي اقتبسها المغول من جيرانهم، وبالأحرى من الصين، ولها قيم مختلفة، وفي الغالب الأعم كانت تزين برأس النمر المرسوم عليها، وتحريرها عدد حقوق مالكيها، ومن التحارير المعروفة «أمر المنزل من السماء الإمبراطور جنكيز خان العاجل»، «أمر المنزل من السماء الإمبراطور جنكيز خان الملزم بأداء الأعمال برؤيته»، زينت البطاقات المعتمدة الذهبية بالنمر المستلقي وثلث من اللؤلؤ. أدخل المغول الخدمات البريدية اليامية إلى أوربا، ومن المعروف أنها استمرت في روسيا حتى القرن التاسع عشر.

وبسرعة صارت الشخصية الأساسية في إدارة شؤون الدولة المغولية في يد «داروغاتشي»؛ أي «الخامد للعصيان»، الذي صار مراقباً لإدارة شؤون الشعوب المحلية الخاضعة، ومن رموز سلطته لوح من الخشب (غيريغي) وختم (تامغو). وننبه إلى أن هذه الرموز تم اقتباسها من الصين، ففي الأقاليم الغربية التي أخضعها المغول مثّل إدارتها النائب باسكاك تانماتشي (نائب أو قائد جيش).

أخذت الدولة المنغولية اسم «يكي منغول ألوس» أي دولة منغوليا العظمى، وبالصينية «دا مينغو غو» وفي المعلومات التي أوردها الباحث الصيني لي سيتشوناي أصبحت دولة جنكيز خان من عام ١٢١١ تسمى بالدولة المغولية العظمى، وكما ذكرنا سابقاً إن مختصر مبحث ب. فلاديميرتسوف العلمي الناص على أن الدولة كانت تحت سلطة السلالة الخانية يحتاج إلى التصحيح، يرى الباحث غ. فيرنادسكي أن السلطة العليا تركزت في شخص الخان «واللقب الخاني يعدّ صفة للسلطة العليا» [حول بناء قاعدة القوانين العظيمة، ص١٥]، ولو أن الخان لا يصبح خاناً دون موافقة المؤتمرين في المجلس (كوريلتاي) يقر كل الباحثين شمولية سلطة الخان المغولي، وباستنتاج الباحث غ. فرانكي نزلت شرعية سلطة جنكيز خان من السماء وبنيت على خضوع الشعوب الأخرى، فاستكان التابعون وصار الحكم عليهم متعة، وأصبح العرش الخاني يسمى بـ«سرج الغبطة». إن شمولية سلطة الخان المغولي ـ على رأي فرانكي ـ بنيت على عدم الاختلاف بين الانتماء الحقيقي إلى دولته والمحتمل أو الكامن، أما الدول التي لم تخضع، فبعثت لها الأوامر بالخضوع والولاء لأمر السماء، وذلك بالخضوع لممثلها على الأرض، ومن هذا المنطلق كان عدم الاعتراف بالسلطة الخانية يعدّ تمرداً وعصياناً، وقد ذكر في الكتابة المنقوشة على ضريح يليوي تشوتساي المذكورة أعلاه الآتي: «عندما يرفض الخصم [العدو] أمر [الخضوع] ويطلق ولو سهماً واحداً أو حجراً [على الجيوش المحاصرة] وفقاً لنظام الدولة [السائد آنذاك] يباد الجميع دون رحمة في كل الأحوال» [المصدر الصيني، ص٧٦].

كل هذا يعطيناتصوراً عن سلطة الأباطرة الصينيين، الإمبراطور الصيني خواندي يعدّ «حاكماً لكل ما هو تحت الشمس». إن هذه النظرية ـ كما يشير فرانكي ـ «تسفر عن عدم معرفة الحدود»، وكان الخان يتمتع بنعمة خاصة وكاريزما [فرانكي، ١٩٧٨، ص١٦-١٨].

استخلصت الباحثة ت. اسكرينيكوفا من النصوص وجود نوعين من النعمة عند جنكيز خان وأتباعه، وهما القوة «كيوتشو» ونوع خاص من النعمة يسمى «سو»؛ أي النعمة السماوية [اسكرينيكوفا].

وتمتع الأباطرة الصينيون أيضاً بنعمة القوة «دا» كما تمتع الكاغانات الترك بنعمة تسمى «كوت»؛ أي القوة الخانية المنزلة من السماء.

إن نظرية السلطة الخانية كانت سرية مكنونة بحكم أنها لا يوجد نص صيني قديم يعكس بصورة منتظمة نظرية السلطة للإمبراطور الصيني، كما لا يوجد أيضاً نص مغولي مماثل.

ففي المرحلة الحالية من الصعب أن نجد حلاً للسؤال الذي ينص على أن كمّاً من الآراء في سلطة الخان المنزلة من السماء مكونات مغولية، أي من أصول ترجع لآسيا الوسطى، وكمّا من مكونات صينية، ولكن في عهد المغول بالذات ليس على مستوى التنظير فقط بل عملياً وبحدة طرح سؤال شمولية سلطة الخان المغولي بصورة استثنائية؛ أي عدم السماح لوجود حكام أخر، لم تشترط استثنائية السلطة التساوي في العلاقات، الشيء الذي لم تسمح له بالمناسبة النظرية الصينية للإمبراطور، من المحتمل والجائز ملاحظة نوع الاختلاف في أن الإمبراطور الصيني كان يعرض نفوذه على من حوله قبل كل شيء بالقوة (دا)، وليس بطلب الطاعة فقط، وعلى الرغم من أنه أيضاً أنعم عليه بالقوة (دا) ووهبته السماء بحق عقاب المتمردين، إلا أنه من المحتمل أن النظرية والتجربة المغولية كانتا على شدة من الفظاظة والسماحة.



قنن الإمبراطور جنكيز خان لأبناء عشيرته الزواج من أبناء قبيلة خونغيرات «عندما تظهر إلى النور فتاة من قبيلة خونغيرات يصبحن من جيل إلى جيل إمبراطورات، وإذا ولد صبيان فيصبحون من جيل إلى جيل يتزوجون بالأميرات، فليكن باستمرار من جيل إلى جيل أن يعلنوا عن هذا الأمر . . . في بداية الهلال من الفصول الأربعة» [يوان شي، الفصل ١١٨، ص١أ]. المهم في الأمر أن هناك مادة قانونية شبيهة في المضمون تحكم العلاقات الزوجية بين بيت انغفيم القيصري وسلالة سيمي، الذي منه يحق فيه للأباطرة المنتمين لعشيرة أنغفيم الزواج من فتيات قبيلة سيمي، ونجد ذلك في القوانين التانغوتية في منتصف القرن الثاني عشر.

إن الدور الأساسي في الدولة الجديدة منح شيغي خوتو ختو الذي ـ كما ذكنا سابقاً ـ له سلطة تقسيم الخوبي، وبالتحديد وجه له جنكيز خان هذه الكلمات:

-عندما نبدأ بمساعدة السماء الخالدة في إعادة بناء دولتنا الشعبية كن مقلة للنظر وأذناً للسمع! وأجر لي توزيعاً سكانياً متبايناً للقبائل في الدولة، وامنح أهلنا وأشقاءنا وأبناءنا نصيبهم من القوم الذين يعيشون خلف جدران اللباد، المسمون بالطائعين، ثم وزعهم على النواحي، على القوم الذين يستعملون الأبواب الخشبية ولا يحق لأي منهم تغيير تقسيمك!

إن الأمر الأخير يعدّ تحرياً مباشراً للخروج من ربقة المالك، تشولوون دالاي يرى أن «القوم الذين يسكنون خلف جدران اللباد» هم قوم الدولة الرحل، أما «القوم الذين يعيشون خلف جدران خشبية» هم الحضر الذين يمارسون فلاحة الأرض [تشولوون دالاي، ص١٠٧].

نصب شيغي خوتوختو رئيساً للمحكمة العليا ومنح تعليمات:

- استأصل السرقة واقض على الخداع في كل أرجاء الدولة، والمذنبين في الموت امنحهم عقاب الموت! والمجرمين عاقبهم بالغرامة! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٥٩-١٦٠).

إن القيادة الخانية لا يحق أن تتوه في العتمة

ولا يحق للخان ارتكاب الخطأ!

اعملوا برؤيتكم الذاتية

كونوا أشداء، ولا تنجرفوا أو تنحازوا لجانب آخر

ولا تشمئزوا من كلماتكم

ولا تحتدوا مع أجلة القوم

ولا ترفعوا أصواتكم على الناس!

ولا تبثوا الشائعات

ولا تربطوا الجرس بطرف الثوب

ولا تأتوا إلى المحكمة شعثاء

[ألتا نوبتشي، ص٢١٥]

وهكذا حكماً بإحدى القصائد المغولية ـ التي كما يرون ترجع في تاريخها إلى الربع الأول من القرن الثالث عشر (ن. شاستينا) ـ كان جنكيز خان يعظ قضاته.

إن المحكمة التي ترأسها شيغي خوتوختو في قراراتها كان من المفروض أن تتقيد بمجموعة القوانين (ياسا). يرى غ. فينادسكي باحث مجموعة القوانين (ياسا) أن مجموعة القوانين أقرها المجلس؛ أي المؤتمر «كوريلتاي» في عام ١٢٠٦، ثم أعيد النظر فيها في الأعوام ١٢١٨ و ١٢٢٥، إن هذه القوانين ـ على رأي فينادسكي ـ ضمت القانون الدولي والمدني الإداري والميثاق الأتاوي والجنائي والخاص والتجاري والقضائي، ويرى أيضاً أن من المكونات الأساسية للقانون الدولي المتضمن في قاعدة القوانين «طريقة محددة لإعلان الحرب مع ضمانات أمنية لشعب الدولة المعادية في حالة الخضوع الاختياري». كانت الإمبراطورية مبنية على تثبيت السكان التام في خدمة الدولة، كان على كل فرد ـ تحت وطأة الخوف من الموت ـ

إرجاع كل عبد هارب إلى سيده «إن الهدف الأساسي من العقاب في مفهوم ياسا (قاعدة القانون) التصفية البدنية للمجرمين». إن الباحث غ. فينادسكي يقيم جنكيز خان ليس كقائد عبقري فقط بل كرجل دولة «طويل الباع وواضع القوانين الإمبراطورية» (انظر [حول تكوين ياسا العظمى، ص٣٣]).

ولكن لم تصبح «ياسا» قانوناً للجميع يمكن الانصياع إليه دون إخلال، عند تقسيم الخوبي والمناصب والهدايا أذن جنكيز خان لمجموعة من حراسه «بارتكاب تسعة ذنوب؟ أي لا يحق محاكمتهم وعقابهم لما يرتكبونه من الذنوب التسعة التي تحاسب بالموت شنقاً إذا ارتكبها غيرهم.

منح أوسون العجوز من أقرباء جنكيز خان لقب بيكي، وكان عليه التربع على مكان مقدر (أي العرش)، وأن يرتدي معطفاً أبيض ويركب الفرس الأبيض، إن منصبه كان يحمل معنى مقدساً، وكان عليه دراسة علاقة الطبيعة وظواهرها في دولة جنكيز خان؛ أي إنه كان بمنزلة منجم الحاشية الذي يراقب التقويم، وكما قال جنكيز حسب الروايات:

- فليحدد ويخبرنا بالسنين والأشهر! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٦٦].

كان استخدام التقويم في الشرق الأقصى يعدّ سمة من سمات الدولة المستقلة.

ثم أمر جنكيز خان بزيادة عدد حرسه الخاص (نوكير) إلى عشرة الاف شخص، نص الأمر على الآتي: «نعلن لكل السامعين من الألفيات وما تلاهم عند الأعداد لنا فيلق الحراس الدائم، يجب أن يتكون من أبناء النويون والتيمنيك والألفيات والمئات أبناء القوم الأحرار أيضاً القادرين على حمايتنا بإمكاناتهم الخاصة وقوتهم الجسدية، أبناء نبلاء الألفيات (تويون) الزموا بالمثول إلى الخدمة بعدد لا يقل على عشرة رفاق وشقيق صغير مع كل واحد، وأيضاً أبناء نبلاء المئات

التزموا بالمثول إلى الخدمة بعدد لا يقل عن خمسة رفاق وأخ صغير مع كل واحد، أما نبلاء العشرات بالتساوي مع أبناء الرجال الأحرار فملزمون بالمثول برفقة شقيق صغير وثلاثة رفاق، كما التزموا أيضاً جميعاً بالظهور بوسائل النقل التي عادة يستلمونها في المواقع، ولرفقة أبناء نبلاء الألفيات يأخذ المحاربون في المواقع بتقسيم الألفيات والمئات بهدف تقوية الفيلق الذي أعد لنا» [السيرة المكنونة، ص١٦٨-١٦٩].

وهكذا تم إعداد فيلق من الحرس الدائم «عشرة آلاف كيشيكتين» وبلغ قوامه ثمانية آلاف حارس نهاري «تورخاوت» إضافة إلى فرقة واحدة قوامها ألف مقاتل من الأبطال، وفصيلة من الحرس الليلي قوامها ألفا حارس «كيبتيول» أمر جنكيز خان قائلاً:

- حرسنا الخاص، الذي بلغ عدده عشرة الاف حارس سيكون في وقت الحرب فوج الوسط الأساسي.

لقد ذكرنا سابقاً أن حرس المقر الخاني كان يتغير كل ثلاثة أيام «إن الحرس الليلي (كيبتيول) القائم بحماية المداخل ملزم بقطع رأس كل من يحاول الاقتراب من القصر ليلاً» [السيرة المكنونة، ص١٧١].

لم يكن باستطاعة أي فرد السؤال عن عدد الحرس الدائم أو نظام تغير عمل الحراس، أما المتهمون بالتساؤل عن الحرس فكان عقابهم غرامة تتمثل في نزع ملابسهم ومصادرة خيولهم بطاقمها وسروجها، وعند مغادرة موقع الحراسة دون إذن كان العقاب الضرب بالعصي، ولكن، على الرغم من ذلك، تمتع الحرس الدائم (كيشيكتين) بعطف خاني إلى درجة أنه لا يمكن محاكمته دون علم الخان.

أعلن جنكيز خان:

- إذا أريد تسليم الحرس الدائم إلى المحكمة يجب إخطارنا أننا نستطيع بأنفسنا إعدام من يستحق ذلك كمثل من يستحق الضرب بالعصي، فنبسطه ونعاقبه بهن! [المصدر نفسه، ص١٧٠].

إن الحارس الدائم العادي يعدّ في مكانه أعلى من محارب الألفية البسيط، حفظ لنا «التاريخ السري» نشيد الحرس الخاني الحماسي:

كست السحب السماء الليلية

وأنت الوفي لنا في مقر حراستك

حارس لخيمتنا بمدختتها

ملتصق أنت بمتانة حولها

ولنوم عميق لأجفان قد جلت

وعلى العرش الخاني قد أجلستني

[المصدر نفسه، ١٧١].

في الوقت الراهن على ضوء بعض الحقائق أن الدولة المنغولية الموحدة ـ التي أسسها جنكيز خان ـ في جوهرها دولة رقيق، بينما يرى الباحث ب. غوريفيتش أن «هذا استخفاف مقصود لمستوى التطور الاقتصادي لمنغوليا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (انظر [تشولوون دالاي، ص٤]). ولكن المسألة ليست بهذه البساطة ولا نود مناقشتها في هذا السياق، ولكن نقول ليس كافياً أن نعول في كل شيء «على مجتمع الرحل المغولي الإقطاعي» في أيامنا هذه.

وهكذا في بداية القرن الثالث عشر وعلى السهوب المغولية ـ بعد منافسة طويلة بين الخانات ـ ظهرت قوة ضخمة ومتلاحمة تولدت من جراء المعارك، مكونة دولة موحدة ومترابطة منذ ذاك الوقت، ذات سلطة إدارية عسكرية تتسم بالأساسيات الحربية، إن حكم العساكر ـ على الرغم من أنه على أساس آخر ـ معروف جيداً في

الوقت الراهن، كل شيء ابتداءً من نظام العشرات وإلى العشرة آلاف (تيمنيك) في دولة جنكيز خان، وكل حارس في مقره، حتى ولو كان مسؤولاً عن إدارة المائدة، كانوا كلهم في المقام الأول حربيين، ثم بعد ذلك الوظائف التي تحكم القضايا المدنية، إنها قوة أعدها النويون، وكانت تعمل لمصالحها. «إن أرستقراطية السهوب المغولية كان يهمها استتباب الأمن داخل مراعيها، والحملات الناجحة، إضافة إلى الحروب مع العدو الخارجي الذي يعود عليهم بالغنائم» واستمرارية الحرب لم يضعف بل كان في ازدياد، وخلال عهد حكم جنكيز خان حتى وفاته لم يمر عام واحد دون حرب أو هجوم على الجيران، إن هذه الدولة الجديدة المنتشية بالانتصارات الداخلية والمتعطشة للغنائم الجديدة منذ ميلادها أعلنت عن نفسها كقوة معادية للعالم المحيط، وكما قال الباحث ب. فلاديميرتسوف مجازاً: «ولوقت طويل استمرت تتعامل مع الشعوب المتحضرة مثل عصابة من اللصوص».
[فلاديميرتسوف، النظام الاجتماعي، ص٨٦].

❂ ❂ ❂

ثروة دولة التانغوت

«لماذا لم يعد إلى هذا الوقت؟ لم أستطع
الإجابة عن هذا السؤال، وصليت فقط عن
كل النساء من أجل أن لا يرى العالم الحرب»

لاو شا. مذكرات عن مدينة القطط

يرى الباحثون الصينيون المعاصرون لمؤلف «يوان شاو شي»؛ أي «تاريخ أسرة يوان» أنه بعد اتحاد منغوليا منع السكان المحليون من نهب بعضهم بعضاً «ولهذا أصبحت دول الجوار الغنية مصدراً لاستمرار (لدى المغول. تعليق المؤلف) غزوات السلب»، «إن التطلع الشبق للسطو يعدّ السبب الأساسي للحروب الدائمة التي قادها الحكام المغول» [يوان شاو شي، ص٩٨]. إن العالم الكبير الواقع إلى الجنوب الشرقي والجنوب والغرب والشمال الغربي من السهوب المنغولية «تنين جديد أطل بوجهه» قبل عام من المؤتمر العظيم (كوريلتاي)، الذي انعقد على شواطئ نهر أونون، من المحتمل أن يكون جنكيز خان عند رجوعه من ألتاي بعد انتصاره على النايمان عام ١٢٠٥ قد قرر مراجعة متانة الحدود مع جاره؛ أي حدود دولة تانغوت، دولة سيا العظمى، فأمر جيوشه باقتحام مناطقها الغربية؛ أي نواحي شاتشجوو وغواتشجوو، يروي مؤلف «يوان شي» أنه في عام ١٢٠٥ «انقض على قلعة سي سيا فاليتسيزيليساي وعبر مدينة لوسي، فنهب الشعب وأخذ الإبل» [يوان شي، الفصل الأول، ص٨أ].

يروي رشيد الدين عن هذه الحملة كالآتي: «أمر جنكيز بتنظيم جيشه، وتحركت الحملة صوب ناحية كاشين المسماة بتانغوت، وعندما بلغوا هذه الناحية

وصلوا في البداية إلى قلعة تسمى ليغيلي، وهذه المنطقة محصنة بشدة، فحاصروها، وبزمن بسيط احتلوها، وحطموا كل شيء، حتى الحائط والأساس، تحركوا منها إلى مدينة تسمى كلين لوشي وهي أكبر مدينة، فاحتلوها ونهبوها، ثم بعد ذلك احتلوا بعض نواحي تانغوت ونهبوها أيضاً، وسرقوا كل الماشية التي عثروا عليها في تلك المناطق، ثم بعد ذلك عادوا إلى ديارهم بغنائم حربية كثيرة العدد، وبعدد لا يحصى من الجمال والأبقار ماثلين أمام جنكيز خان، وعلى وجوههم سمة خضوع الرقيق» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٤٩-١٥٠].
كانت الحملة على سي سيا في نهاية الربيع؛ أي في الشهرين الثالث والرابع من العام ١٢٠٥ بالتقويم القمري، كان النجاح فيها كاملاً والغنيمة عظيمة.

إن التانغوت ـ الذين بلغ عمر دولتهم مئتي عام، والذين كانوا طيلة الوقت يتفاخرون أمام التتار المغول بثقافتهم التي تحوي هجائية مكتوبة (على الرغم من أنها على النمط الصيني)، تفسر معنى كلمة «تتار» وبمدلول كلمة «كلب»، الشيء الذي يوضح مدى احتقارهم لجيرانهم من الشعوب الشمالية ـ صاروا مهانين، لقد سمح التانغوت للعدو بالمرور عبر الحدود، وتركوه يسلب مناطقهم الغربية، لا يعقل بأن يكون التانغوت على غير علم بما حدث في السهوب المغولية، لقد رأوا في حدودهم فان خان في أكثر أيام حياته العصيبة، وابنه سانغوم أيضاً الذي بحث عندهم عن مخبأ عندما طارده جنكيز خان، إنهم بالتأكيد كانوا على معرفة بجنكيز خان.

يمكن القول مع التأكيد إن نهب المناطق الغربية لسي سيا يعدّ انتقاماً للتانغوت لعدم تسليمهم سانغوم، ومن المحتمل أن نجاح حملة جنكيز خان الأولى ضد التانغوت ـ التي لم يشارك فيها جنكيز خان بنفسه ـ تعدّ تجربة أولى للسلاح المغولي في الحرب ضد سكان الحضر والمدن والقلاع، التي تكللت بالنجاح وساعدت في قيام المؤتمر (كريلتاي) على شواطئ نهر أونون، وساعد جنكيز خان أيضاً في أن

يصبح أعظم خان لكل القبائل التترية المغولية، لقد زادت الغنائم جنكيز خان ثراءً بحكم أنه وفق العادة المغولية «وبغض النظر عن حجم الغنيمة، صغيرة كانت أم كبيرة، لا بد أن يترك منها قسم يقدم للإمبراطور جنكيز» [التدوين الكامل، ص٦٨]، وكما زادت من ثراء الجيش وهيكله أي (نوكير) ونبلائه، والأهم من ذلك فتحت شهيتهم وزادت من شغفهم وتعطشهم للغنيمة، إن المؤتمر والإصلاحات التي أعقبته كونا جهازاً إدارياً حربياً ذا نزعة إصلاحية تصل إلى مصاف الدولة.

وبعد مرور عام ونصف فقط على انعقاد المؤتمر العظيم (كوريلتاي) وفي خريف عام ١٢٠٧ انقض المغول من جديد على حدود دولة التانغوت، وفي هذه المرة في أقاليم الوسط، وتمركزوا في جبال ألاشان قرب قلعة فالاخاي (أويراك) طوال الصيف، عام ١٢٠٨، كانوا ينهبون القرى المجاورة، طوق التانغوت الإقليم الذي استولى عليه المغول، ولكنهم لم يهجموا للقضاء عليهم، لأنهم من المحتمل لم يقرروا أو لم يستطيعوا، ومن جديد تركوهم يخرجون بغنائمهم إلى السهوب المغولية، يقول رشيد الدين: إنه في وقت حملة ١٢٠٧-١٢٠٨ على التانغوت «للمرة الثانية شن جنكيز خان ضدهم الحرب، وحينها احتل كل الناحية، ورجع إلى دياره منتصراً ظافراً وراضياً» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٥١]، وفي هذه المرة شارك جنكيز خان في الحملة بنفسه، ولكن لا يمكن الحديث بأي حال من الأحوال عن الاستيلاء التام على كل أراضي التانغوت، يرى الباحثون الصينيون أن سبب الحملة الثانية على دولة سي سيا هو رفض التانغوت دفع الإتاوات وعدم اعترافهم بالتبعية الإقطاعية له [يوان شاو شي، ص١٠٢].

مضى شتاء عام ١٢٠٧-١٠٢٨ عندما حارب جنكيز خان في أراضي سي سيا، يشير مؤلف «يوان شي» في الرد على السفارة القيرغيزية في أعالي نهر ينيساي، بعث المغول لهم سفيرين، ففي القرن الثالث عشر تفككت الدولة

القيرغيزية الواقعة على نهر ينيساي إلى عدة أقسام مستقلة عن بعضها، وترأس كلاً منها حاكم يلقب «إنال»، استقبل القيرغيزيون السفراء المغول بإجلال، وبعثوا رداً برسولين هما إليك تيمور وأكيراك، اللذان جلبا لجنكيز خان صفراً أبيض، وفتحوا ساعتها مقابلة رسمية مغلقة مع جنكيز خان، حيث يعدّ القيرغيزيين من هذه اللحظة تابعين إلى إمرة دولة جنكيز خان [يوان شي، الفصل ١، ص٨أ].

يروي «التاريخ السري» قصة خضوع القيرغيزيين بصورة أخرى، في عام ١٢٠٧ أرسل تشجوتشي ابن جنكيز خان لإخضاع «سكان الغابات» مع الجيوش، نتيجة ذلك أخضع المغول الأويرات والبورياتيين وبعض الشعوب القاطنة في جنوب سيبريا، وبفضل جيش تشجوتشي وضغوطه الواضحة أذعن «تومين القيرغيزيين»، وحينها أقبل إليه نبلاء القيرغيز إيدي إينال وألدير وأوليبيك ديغين وأهدوا لتشجوتشي طيوراً من السنقور الأبيض وخيولاً بيضاء وسماسير بيضاء، وأيضاً برفقته حضر سفراء القيرغيز والشعوب الأخرى إلى جنكيز خان، منح حكام الأويرات وأبناءهم حق الزواج من الأميرات المغوليات، صرح جنكيز خان لابنه تشجوتشي:

- إنك لأكبر أبنائي، وقبل أن تتخطى رجلك الديار عدت بسلام في أتم الصحة منتصراً، دون خسائر في الأرواح والخيل، على شعوب الغابات، خذهم مني هدية في إمرتك (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٧٤-١٧٥].

من المحتمل أن تبعية القيرغيزيين كانت «طواعية قسرية»، وهذا واضح من الأحداث التي وقعت بعد عشرة أعوام؛ أي في عام ١٢١٧ عندما دخل المغول لإخضاع التومات المقيمين إلى الغرب من بحيرة بايكال، ألحق التومات الهزيمة بالمغول، وحينها أدرك جنكيز خان العالم أهمية خطة «فرق تسد». أمر تابعيه من القيرغيزيين بإخماد انتفاضة التومات، لكن القيرغيزيين رفضوا تنفيذ الأمر، وثاروا

أيضاً وأصبحوا متمردين، كان على حاكم «سكان الغابات» تشجوتشي أن يذهب بنفسه لترتيب الوضع، فعبر جليد نهر سيلينغو ماراً بأراضي الأويرات والبوريات إلى أن بلغ منابع أعالي نهر ينيساي ونهر أوسا، ثم بعد ذلك نزل إلى أسفل نهر ينيساي وهجم على المناطق الوسطى التي يسكنها القيرغيزيون، وصلت الجيوش المغولية إلى نهر أوب ثم رجعت، وبهذا دخلت تحت إمرة تشجوتشي حتى الشعوب القاطنة غرب القيرغيزيين أي شعوب التيلينغوت.

إخضاع جنكيز خان لأويغور من نتائج الحملات على التانغوت، تشتت الإيغوريون في بداية القرن الثالث عشر في كل النواحي من خامي إلى كوتش، وفي الشمال اتحدوا مع النايمان، وفي الجنوب امتدت أراضيهم إلى بحيرة لوب نور، فإذا تمت في منغوليا السيطرة على هذا الإقليم ففي شرق تركستان أصبح التريك أيضاً، لقد أخاف سحق النايمان الأويغور.

لم يكن الأويغور مستقلين في نظام التبعية والخضوع الشائك، لقد اعترفوا بتبعيتهم لدولة كارا كيتاي؛ أي دولة لياو الغربية، ففيُ عاصمة الأويغور غاوتشان يوجد نائب كيداني، عانى الأويغور من ملاحقة الكيدانيين وتزايد نفوذ المغول وبطشهم بالتانغوت الذين قاسموا العداء في غابر الأزمان، مما وضع الأويغور أمام أصعب الخيارات: إما أن يقفوا صفاً واحداً مع أعداء جنكيز خان، أو أن يكونوا معه اتحاداً يمثل قوة جديدة، التي أسفرت عن نفسها بسرعة ووضوح.

قرر المغول في عام ١٢٠٨ القضاء التام على كوتشلوك، وحينها تجاوزت جيوشهم ألتاي، وعند نهر بوختار ما سحقوا النايمان والميركيت، ولى كوتشلوك عبر نهر إرتيش هارباً إلى أراضي الصين السود (كارا كيتاي) في عام ١٢٠٩ قتل الأويغور النائب الكيداني، بعث جنكيز خان لهم سفراءه، أرسل حاكم الأيغور إديكوت بارتشوك مع السفراء المغول إلى جنكيز خان اثنين من وجهائه وأعلن

تبعيته للمغول، ووافق أيضاً على أن يعلن نفسه ابناً له، كما ورد في الأسطورة أن سفراءه أعلنوا لجنكيز خان:

- تنتابني الغبطة العظيمة عندما يتهادى إلى سمعي مجد جنكيز خان، فلنبتهج عندما تنقشع الغيوم وتنبلج الشمس التي هي أم كل شيء، فلنفرح عندما يذوب الجليد وتنفتح الأنهار من جديد، ألا ينعم علي الحاكم جنكيز خان ويجد لي ولو رباط حزام ذهبي، أو حتى قصاصة قرمزية، وحينها سأكون ابنك الخامس وأهبك كل قوتي!

إن جنكيز الذي استقبل سفراء إديكوت حملهم الإجابة الآتية:

- سأهبه ابنتي زوجة وسيكون ابني الخامس، فليقدم محملاً بالذهب والفضة واللؤلؤ والصدف والديباج الذهبية والأقمشة المزخرفة الحريرية (كما ورد في «السيرة المكنونة»، ص١٧٤).

تباطأ الأويغور أيضاً في إظهار إخلاصهم، فعندما بعث خودو بن توختو بيكي الميركيتي سفراءه إلى إديكوت، قضى الأويغور عليهم، وطردوا بقية الميكريت الذين حاولوا الاختفاء في أراضيهم، رافضين لهم اللجوء.

تحركت القافلة المحملة بالهدايا الثمينة من دولة الأويغور بقيادة إديكوت نفسه إلى منغوليا، جمع إيديكوت من أتباعه الأيوغور الذهب والفضة واللؤلؤ والأقمشة الحريرية، هكذا أمر جنكيز خان، وحينها رجع جنكيز خان من حملته على التانغوت، حسب ما قال مؤلف «يوان شي» فتح إديكوت مقابلة رسمية على نهر كيرولين في عام ١٢١١، إن جنكيز خان الذي أجل دوماً الأويغور رأى في شخصهم منورين للشعب المغولي، أعد لإديكوت استقبالاً حاراً ووهبه ابنته ألأتونو (إيليخاتون) زوجة له.

تم الاعتراف ببارتشوك كابن خامس لجنكيز خان، وألزم أبناءه بأن يكونوا إخوة له، وبهذا الأمر حدد موقع الأويغور في الدولة المغولية، ويحكم كابن لجنكيز خان ومؤسس للأسرة، تم الاعتراف ببارتشوك وأنجاله الإديكوت كخانات عظام وتابعين لجنكيز خان وأنساله أباطرة أسرة يوان كانوا يدفعون الإتاوات ويشاركون المغول في حملاتهم، ولكن حافظ الإديكوت على الاستقلال في إقطاعاتهم، ساعد الإويغور المغول في احتلال الدولة التانغوتية دولة سي سيا، يبدو أن الأويغور الذين كانوا في خصام مع جيرانهم التانغوت منذ القدم، ثم إن احتلال التانغوت جزءاً من أراضيهم في القرن الحادي عشر ساعدهم في أن يجدوا في شخص جنكيز خان منتقماً لهم على الإهانات القديمة، لم يكن جنكيز خان في البداية بحاجة إلى القوة الحربية من الأويغور إلى هذه الدرجة، بقدر حاجته إلى ضمان عدم قيام اتحاد أويغوري تانغوتي ضد المغول، ولكي لا يجد النايمان والشعوب الأخرى التي لم يتم القضاء عليها أمثال الميركيت مخبأ في شرق تركستان، ولكي لا تتجمع قوات جديدة، شغل الاتحاد مع الأويغور مكاناً مهماً في الرؤية الاستراتيجية، كحماية متينة للجناح الأيمن الغربي للحرب التي ستقوم مع تشجورتشجين.

وفي عام ١٢١١ نفسه «وصل خان الكارلوكيين (سي سيوي) من الناحية الغربية وأعلن تبعيته». [يوان شي، الفصل الأول، ص٨ب]. إن الكارولوكيين القاطنين منذ غابر الأزمان في غرب ألتاي، في حوض إرتيش، وارتحلوا مؤخراً إلى الجنوب بالقرب من مدينة بابتين باشباليكو، ثم تحركوا بعد ذلك تحت ضغوط الأويغور إلى إقليم يقع في الجنوب الشرقي لبحيرة بالخاش على نهر إلي وتشو، وهنا وقعوا تحت سيطرة دولة الكاراخانيديين، وفي عهد حكم السود الصين منح حاكمهم لقب أرسلان خان، وبالمناسبة إن هذا اللقب، وفق المصادر الصينية، حمله حاكم الأويغور، كان الكيدانيون يرسلون للكاربولوكيين نوابهم، وعندما قضى

جنكيز خان على النايمان أرسل فصيلة من جيشه بقيادة خوبيلاي لإخضاع الكارلوكيين، ولكن أرسلان خان سبق الأحداث الحوادث فقضى في البداية على نواب الصين السود، وأعلن تبعيته للمغول طوعاً، وفي عام ١٢١١ أقبل بصحبة خوبيلاي إلى مقر جنكيز خان، وانضم إليه حاكم الكارلوكيين الآخر أيضاً، خان مدينة ألماليك فادزار، الذي كان يشي بأوضاع كوتشلوك لجنكيز خان الذي أعد له الاستقبال الرسمي أيضاً، وللانتقام على الوشاية هجم كوتشلوك على مدينة ألماليك، وأسر فادزار، وعندما أسرعت الجيوش المغولية لنجدة الكارلوكيين تخلى كوتشلوك عن حصار مدينة الماليك، وقتل فادزار، وبعد مقتله نصب ابنه خاناً لمدينة ألماليك وزوجه بفتاة من حاشية جنكيز خان إكراماً لإخلاص والده في خدمة المغول، خدم الكارلوكيون المغول بإخلاص، وشاركوا في الحملة على خوارزم.

حدثت كل هذه الوقائع في وقت واحد في أثناء حملة المغول الكبرى على دولة التانغوت، وفي هذه المرة، حسب القرار «النهائي» الداعي إلى السحق الكامل لدول التانغوت في الشهر السادس الموافق للسادس من أبريل حتى السادس من مايو عام ١٢٠٩ دخلت الجيوش المغولية بقيادة جنكيز خان بنفسه وللمرة الثالثة دولة سي سيا، أرسل التانغوت جيشاً كبيراً بقيادة وريث العرش لمقابلته، وفي معركة حاسمة قضى عليها المغول، واستعاد جنكيز خان من جديد قلعة فالرخاي، ومنها واصل المغول هجومهم على تشجونسين عاصمة دولة سي سيا، وفي أحد المعابر الجبلية في جبال خيلاتشان (ألاشان) عند مخفر إمين تربص لهم جيش من تانغوي قوامه خمسون ألف مقاتل، وفي هذه المرة هجم التاغنوت على المغول بشجاعة وألحقو بهم الهزيمة، ولكن لم يحرزوا النجاح بالمواصلة قدماً بسبب حر الصيف الذي لم يحبه جنكيز خان، فعسكر الجيشان مقابلة بعضهما مدة شهرين دون مهاجمة، حتى دخل الخريف، وحينها وصل إلى جنكيز خان إمداد ودعم إضافي، فاغتنم مواتاة

الطقس، وأعد جيوشه، وواصل الهجوم على عاصمة سي سيا، انقضت الخيالة المغولية بكثير من القوة على معسكر التانغوت، ولكن التانغوت استطاعوا دحرهم بسهولة، مما جعلهم يصدقون في النصر من جديد، وصاروا بكل جيوشهم يطاردون المحاربين من الأعداء، وهذا ما كان ينتظره المغول، فقد وقع التانغوت في شركهم، كما كتب مؤخراً ماركو بولو: «في المعارك مع الأعداء كانوا يبلغون القصد بالصورة الآتية: يهربون من الخصم دون حرج، وفي أثناء ذلك يلتفتون ويضربون، كانوا يدربون أحصنتهم مثل الكلاب أي التحرك في كل الجهات، وعندما يطردونهم جرياً يقاتلون بروعة وقوة، كأنهم منتصبون بدقة وجهاً لوجه مع الأعداء، ثم ينطلقون جرياً ويلتفون إلى الخلف، ويصوبون بسهولة خيول الأعداء والمقاتلين، حينها يعتقد الخصم أنهم متشتتون، وتم النصر عليهم، ولكن في واقع الأمر أنه الخاسر، إذ إنّ خيوله مصابة بالسهام ورجاله أبيدوا بالجملة، كان التتار عندما يرون أنهم قضوا على جمع كبير من المحاربين وخيولهم يرجعون إلى الخلف، ويواصلون القتال بحسن وبسالة إلى أن يدمروا عدوهم وينتصروا عليه» [ماركو بولو، ص٩١].

وقع الجيش التانغولي ضحية الخطة التي انتهجها التتار المغول، فلقد تم القضاء عليه تماماً، ووقع كثير من قادته أسرى، في أكتوبر ظهر أوائل الفرسان المغول على أسوار عاصمة دولة سي سيا، وبهذا بدأ الحصار الطويل للمدينة، وانتهجوا خطة خاصة لإخضاع بقية المدن، كما كتب تشجاو خون: «وفي كل مرة عند الهجوم على المدن الكبيرة من البداية يهجمون على المدن الصغيرة ويأسرون سكانها ويتخذونهم أدوات لإنجاز المهام الحصارية، وحينها كانوا يطلقون الأوامر لكل فارس لكي يستولي على عشرة أفراد، وبعد الاستيلاء عليهم بالقدر المطلوب يتوجب على كل فرد أن يحمل قدراً معيناً من العشب أو الحطب أو التراب أو

الحجارة، كان التتار يتعقبونهم في المسير ليلاً نهاراً، فإذا تأخروا كانوا يقضون عليهم، أما إذا بلغوا الهدف فيردمون الخنادق الحصينة بما لديهم من حمل [حول أسوار المدن التي حملوا لها المواد]، أما البقية الأخرى فيستغلونهم في خدمة العربات الشبيهة في شكلها الخارجي بالبط، وفي إعداد وسائل الحصار وتحضير المنجنيقات أيضاً وغيرها، كان التتار يستغلون لهذه الأعمال عشرات الآلاف من الناس، لذا عند اقتحام المدن كانوا يسيطرون عليها كلها بسهولة، وبعد تحطيم جدران المدن يقوم التتار بقتل الجميع دون تفريق بين الصغير والكبير، الجميل والقبيح، الغني والفقير، المطيع والعاصي، وكالمعتاد بدون أي شفقة، وكل من لا يخضع لأمر [الاستسلام] في ساعة اقتراب العدو كان عقابه الموت حتماً حتى ولو كان من النبلاء» [التدوين الكامل، ص٦٧].

في وقت حصار المدن والقلاع التانغوتية بني التخطيط المغولي للاستيلاء عليها على عظام التانغوت، وبالتحديد في دولة التانغوت ولأول مرة استخدم المغول حرب الحصار، واجهوا أيضاً المنجنيقات وغيرها من وسائل الحصار والدفاع العائدة إلى القرون الوسطى في الشرق الأقصى التي أتقن التانغوت استعمالها، هنا بالذات تعرفوا هذه الوسائل وأجبروا المختصين الحربيين من الأعداء على المشاركة في حصار مدنهم.

وفي عاصمة التانغوت المحاصرة عقد مجلس حكومي، وآخر كلمة كانت من نصيب الحاكم أن تسيوان، فصمت الجميع:

- أكثر من مئتي عام كانت أسرتنا تحكم الدولة، والآن هذا العدو القادم من الشمال يدفعنا ولأكثر من مرة إلى أن نفكر في حياة الأسرة ومماتها، والآن هو قرب جدران العاصمة، وليس هذا وقت الكلام غير المفيد، إني لآمركم بالصعود على الجدران، وسأحضر أنا بنفسي!

خرج الفرسان من القصر الإمبراطوري واحداً بعد الآخر، وخرج آن تسيوان إلى الساحة وأعطوه فرسه، لقد صعد كل سكان العاصمة تقريباً على الحائط، وأعدوا المنجنيق وأسهماً كثيرة تنطلق وحدها، وحمل القواسون حزماً من أسهم ثقيلة، وانهمرت الحجارة على الجدران، وغُلي في القدور الكبيرة الماء والقطران (الزفت) وتم صد بعض الهجمات أيضاً، إن حيطان المدينة أصبح من الصعب اختراقها بفضل بسالة المدافعين، وفي هذه الأثناء في خيمة جنكيز خان المتنقلة انعقد مجلس فرد: بما أنه تعذر الاستيلاء على المدينة بالهجوم، فيجب إغراقها بالماء.

أقبل الخريف بعمق، وانهمرت السيول، والسكان الذين تم للمغول أسرهم من الأقاليم المجاورة حشدوا لبناء سد النهر، تدفقت السيول في المدينة، وابتلعت المياه المربعات السكنية بالتوالي، وتحطمت المباني وغرق الناس.

أرسل آن تسيوان سفراءه بسرعة إلى دولة تسزين من أجل طلب تشجوتشجين إرسال جيوش لمساعدة المحاصرين، كان تانغوت على علم بما جرى قبل ثلاثة أعوام بعد المجلس العظيم (كوريلتاي) الذي انعقد في عام ١٢٠٦، عندما حصل جنكيز على رتبة في خدمة تشجورتشجين لحملته على التتار بدأ يعلن عن عدم الاعتراف بأقدمية دولة تسزين، ثم بعد ذلك ـ وفقاً لمعلومة المصدر الصيني ـ قطع العلاقة معها، ويبدو أنهم أيضاً على علم بأن المجلس العظيم ناقش احتمالية الحرب مع دولة تسزين، ويبدو أن جنكيز خان لم يتطلع إلى سحق دولة التانغوت فقط، ولكن بحماس حضر للحرب ضد عدوه الأساسي، وهو تشجورتشجين، بل قصد الانتقام لمقتل أمباغاي خاغان، ولهذا اقترح الحصفاء من الموظفين التشجورتشجينيين الذين دعوا سابقاً للاتحاد مع دولة سي سيا ضد المغول إلى بداية الحرب بسرعة مع جنكيز خان، كما قال واحد منهم:

- إذا انهارت دولة سي سيا لا بد للمغول من الهجوم علناً، فمن الأفضل الهجوم عليهم من المقدمة والخلف بالاشتراك مع سي سيا.

كانت هذه نصيحة ذكية، إن التانغوت والتشجورتشيجينيين كان بإمكانهم مع بعض تطويق الجيوش المغولية في حدود السهوب المغولية على الأقل إذا لم يكن باستطاعتهم القضاء على الخطر المغولي المتصاعد.

ولكن الحاكم التسزيني فاي شاو كانت علاقته مع التانغوت عدائية، فلذا كان رده على سفراء التانغوت يتسم بالحدة والغباء:

- إن مصلحة دولتي عندما يتعادى أعداؤها مع بعضهم، فلماذا القلق؟

رفض التشجورتشجينيون مساعدة التانغوت متبعاً للتخطيط الصيني القديم، التي لم يدرك كنهها «القتال مع البرابرة أفضل بأيدي البرابرة»، وبهذا التخطيط أعادوا تحديد مصيرهم ومصير الشعوب الأخرى.

وهكذا أصبح التانغوت بدون حليف وجهاً لوجه أمام عدوهم، وتقاطرت المياه مهددة بتحطيم جدران المدينة، إن نهاية دولة سي سيا أصبح حتمياً، وواصلت الأمطار هطولها في اليوم التالي، غمرت السيول القذرة الشوارع وطفت الجثث منتفخة، وتكدس شبه الأحياء فوق سقوف المنازل المتبقية وعلى جدران المدينة مترقبين ساعة موتهم، إلى أن أطل الفجر المشؤوم بدون وعيد خير.

دبت حركة في المعسكر المغولي بوضوح، وانتقل بين المحاصرين خبر ينص على أن الأعداء أعدوا أنفسهم للهجوم، فأمر الحاكم الجميع بالاستعداد للموت بعزة، لقد اتضحت الرؤية عندما رأى التانغوت أن الماء بدأ يتناقص، أما في المعسكر المغولي فحدث شيء غير متوقع، حينها ترك المغول خيامهم وممتلكاتهم وامتطوا خيولهم محتمين بالجبال المجاورة، هبت الريح في منتصف النهار وتطايرت

السحب، وقتها ولأول مرة منذ عدة أيام بدأت تظهر شمس صفراء باردة، وساعتها خيل إلى التانغوت أن معجزة حدثت، وفي الصباح الباكر انفتح الجسر الذي أشاده المغول، وغمر الماء معسكرهم (انظر [كيتشانوف، السيرة، ص٢٩٩- ٣٠٠]).

واستسلم المغول في هذه المرة لعدم مقدرتهم القضاء على التانغوت، محاولين إجراء محادثات السلام، وصل إيدا سفير جنكيز خان إلى حاكم التانغوت آن تسيوان، ويبدو أن أول شرط للمغول تكوين حلف معهم للحروب القادمة، وبالأخص ضد دولة تسزين، بحكم أن التشجورتشجينيون والأويغور جيران دولة سي سيا لم يرغبوا في مساعدتهم، الشيء الذي وضع التانغوت على حافة الكارثة، فالتزام دولة سي سيا بعدم مساعدة دولة تسزين حرمت التشجورتشجينيين من أي حليف في الحرب المقبلة مع المغول، وأن دولة تسون الجنوبية الصينية كانت في خصام مع تسزين، مما جعلها تستطيع التحالف مع المغول فقط في حربهم ضد التشجورتشجينيين، وافق التانغوت على أن يكونوا «الساعد الأيمن» لجنكيز خان كما حدث مؤخراً، بمعنى أنهم حسب التقدير اعترفوا بأقدميته ومساعدته، ولكنهم في محادثاتهم رفضوا المشاركة في حملاته مسوغين ذلك بتحضرهم:

- نترحل بالقرب، ومدننا مبنية من الطين، فإذا اتخذنا أحداً برفقته، فإنه:

هل نقوم بخاطف الهجوم
ونرمي بأنفسنا في أتون الوغى
في خاطف هجومك
من الجلي ألا ندرك العدو
ولا المكوث طويلاً في حمى هذه الأتون
ليست لنا به مقدرة
[السيرة المكنونة، ص١٨٠]

اقترح التانغوت في مقابل المشاركة في الحملات دفع فدية من الجمال والجوخ وصقور الصيد، كما يشير التاريخ السري: «إن الحاكم التانغوتي وفى بوعده وجمع من التانغوت مجموعة كبيرة من الإبل إلى درجة أنه عسر توصيلها إلينا» [المصدر نفسه، ص١٨١]. تزوج جنكيز خان الأميرة تشاخا التانغوتية، إن المغول وفق معلومات رشيد الدين تركوا في الدولة التانغوتية نائبهم وحامياتهم [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٤٤]، ولكن هذا غير صحيح بحكم أن انتصار جنكيز خان لم يكن كاملاً، إضافة إلى أن الأحداث التي تلت ذلك تنفي تماماً وجود أي حاميات مغولية في دولة سي سيا.

إن حملة ١٢٠٩-١٢١٠ على التانغوت والاتفاق الذي عقد معهم عام ١٢١٠ يعدّان أول نصر أحرزه جنكيز خان خارج حدود السهوب المغولية. تعدّ دولة سي سيا من ألد الأعداء، والانتصار عليها رفع سمعة جنكيز خان بين الشعوب المجاورة وبعث عدم الثقة بالنفس في الكثير من أعدائه المقبلين عدا خصمه الأساسي الإمبراطور فاي شاو فان التشجورتشيجيني، عندما انقض المغول على حدود دولة تسزين قال الموظفون التشجورتشجيون:

- إن دولتنا كالبحر، أما دولتكم فحفنة من الرمل، فهل يعقل أن تنتصروا علينا؟

عندما اعتلى فاي شاو فان العرش عام ١٢٠٩ بعث بسفيره إلى مقر جنكيز خان مخبراً عن استلامه السلطة، طلب سفيره أن يستلم جنكيز خان بنفسه الأمر وهو راكع، ولكن تغير الزمان، ولم يركع جنكيز خان فحسب، بل على مرأى الجميع بصق على ناحية الجنوب؛ أي على جهة دولة تسزين، واتهم الإمبراطور التشجورتشجيني بالغباء، ثم امتطى صهوة فرسه منطلقاً ومظهراً احتقاره الكامل للمتخيل نفسه سيداً، وهذا كان يعني القطع التام للعلاقة، وبدأ الطرفان في

الاستعداد للحرب التي لم تحدث بسبب حملة جنكيز خان على التانغوت ـ التي طالت عكس توقعاته ـ يجب أن نذكر أن السواد الأعظم لم يقاسم فاي شاو فان قناعاته الأمنية، لقد كان هنالك مع التانغوت، وثمة معلومات تشير إلى أنه في وقت هجوم المغول على دولة سي سيا في عام ١٢٠٩ تم عتق الكثير من الرقيق التانغوت من الأسر التسزيني.

تمكن جنكيز خان إلى عام ١٢١٠ من تأمين الجناح الغربي للحرب مع دولة تسزين، وقد حماه الأويغور والكارلوكيون عن كارا كيتاي، صار التانغوت معزولين، وأصبح الحلف بين التانغوت والتشجورتشجينيين (وقد كتب عن احتمال ذلك الحلف ل. غامبيس [غامبيس، ص٩٧]) أنه كان مستحيلاً، وكتب على التشجورتشجينيين أن يدركوا في الأشهر القادمة مدى قصر نظرهم.



الساحر كوكوتشو

«السحرة لا يهابون أصحاب السلطة»

أ. بوشكين

أنعم على كوكوتشو تاب تانغري ساحر جنكيز خان المنزل من السماء، «الوسيط» بينه وبين السماء السرمدية العظيمة، في كوريلتاي العظيم، بقدسية حكمه على المغول، وكان يتصرف بحرية بين أتباع تيموتشجين، يزرع في نفوسهم الخوف الخرافي، يبدو أنه كان إنساناً ذا صحة خارقة، كان يجلس عارياً في عز الشتاء على الثلج، فيذوب من حرارة جسمه، ويدثره البخار، فيصدق بسطاء القوم أنه أسرى إلى السماء على حصان أبيض [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٦٧] وبمباركة والده مونليك ـ الذي سبق أن كان في خدمة إيسوغاي والطفل تيموتشجين ـ وبمساعدة أشقائه الستة، كان كوكوتشو يتعامل مع النوكير ونبلاء جنكيز خان، ليس كما يطيب له فقط، بل صار يتعدى على أفراد أسرة جنكيز خان، تحدث سابقاً مع جنكيز خان بتسلط، ولكن بحكم أن بعض كلماته كانت تبث السكينة وتدعم جنكيز خان في أعماله، فلذا كان يحبه، ولكن عندما صار تاب تانغري يتعدى الحدود ويتدخل في كل الشؤون بعجرفة وتغطرس أدرك جنكيز خان بفراسة وعقل أنه رجل منافق ومخادع [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٦٧].

كان خاسار شقيق تيموتشجين رجلاً قوي البنية، حسن الطبع وطيب القلب، يحكى أنه ذات مرة تحرش كوكوتشو وأشقاؤه أبناء مونليك بخاسار وضربوه، لكن جنكيز خان لم يدافع عن شقيقه فحسب بل طرده قائلاً:

- أنت المنتصر دوماً، وها قد أصبحت في عداد المهزومين!

وحينها بكى خاسار، وخرج من يورتا أخيه غاضباً، ولم يظهر في غضون ثلاثة أيام، حينها انتهز كوكوتشو الماكر التخاصم بين الأشقاء مفكراً في القضاء على خاسار نهائياً، يبدو أنه لأكثر من مرة رأى في أحلامه الجميلة نفسه حاكماً للمغول، وليس جنكيز خان، وبخاصة الآن عندما أثبتت القوة وجودها وتم إخضاع الكل، من المعلوم أن أعداء جنكيز خان في وقت الحروب الداخلية في السهوب المغولية يرون في شخص تاب تانغري خصماً لجنكيز خان في عقر داره، عندما أراد فان خان الهجوم على جنكيز خان، ليس عرضاً، حاول أن يستميل إلى جانبه كوكوتشو «سنحارب متحدين مع بعض، أنت من هنا وأنا من هناك»، ولكن وقتها لم يكن بمقدور الأخير مواجهة جنكيز خان علناً، ولكن مجد جنكيز خان المتزايد وسلطته أصبحا كغشاوة المقل، ويعتقد كوكوتشو أنه قبل استلام السلطة مكان جنكيز يجب عليه القضاء على حلفاء جنكيز المحتمل قدومهم، وبالأخص أشقاؤه وأبناؤه، وعندما أدرك كوكوتشو أن جنكيز لا يود الدفاع عن شقيقه خاسار لجأ إلى تسلطه السحري وظهر لجنكيز خان قائلاً:

- إن تانغري الخالد أبلغني مشيئته التي فحواها أنك ستحكم الدولة لوقت سيحكم خاسار أيضاً لوقت، فإذا لم تحذره لا يمكن أن يضمن لك المستقبل [السيرة المكنونة، ص١٧٦].

هل صدق جنكيز خان أن كوكوتشو مربوط بالسماء الخالدة، أو أنه وقع فريسة لهذه الدعاية، إلا أنه في ذلك الليل أمر باعتقال خاسار استجوبه وهو مقيد اليدين، محاولاً التثبت من شكوكه، يروي مؤلف «ألتان توبتشي» أي (التاريخ الذهبي) أن «والدته عندما علمت بهذا النبأ ذهبت ليلاً في عربة مسقوفة يقودها جمل أبيض، وقضت كل ليلتها في الطريق دون أن تغمض عينها إلى أن جاء الصباح، وعندما

وصلت وما زال جنكيز العظيم يستجوب خاسار المقيد الأكمام، بدون قبعة وحزام، حينها ارتعش جنكيز العظيم خوفاً من أمه» [ألتان توبتشي، ص١٩٤-١٩٥] أطلقت ويلون سراح خاسار، وجلست جلسة القرفصاء، وهي متجهمة بالغضب، معرية ثدييها، رامية به على ركبتيها، لكي تبث الحرج في نفس جنكيز خان، ثم قالت:

- انظروا! إنه الثدي الذي أرضعكم، أي إثم ارتكب خاسار، لماذا تريد أن تقضي على بذرة القربى؟ لقد كان تيموتشجين حينها دوماً يفرغ ثديي كاملين وحده، بينما خاتشون وأوتشغين لم يستطيعا حتى إكمال ثدي واحد، أما خاسار فكان يهدئ من روعي ويداعبني حتى يفرغ كلا ثديي وحده، لهذا امتاز تيموتشجين بذكائه بينما خاسار بقوته وبراعته في رمي السهام، هل لهذا كرهتم خاسار؛ لأنه سحق الأعداء؟

عندها قال جنكيز خان:

- إن غضب الأم بعث في نفسي الذعر والحرج.

ثم أخلى سبيل خاسار، مهدئاً من روع والدته، وخرج بنفسه [السيرة المكنونة، ص١٧٦-١٧٧]، لكن لم يبارح الشك جنكيز خان، وفي خفية عن أمه سلب من خاسار أكثر من نصف رجاله الذين منحهم له في البداية، وترك له ألفاً وأربعمائة يورتا من أصل أربعة آلاف، عاش خاسار منذ تلك اللحظة في رعب دائم، وفرعنه بعض من أصحابه المقربين خوفاً من غضب جنكيز، فإذا تتبعنا «التاريخ الذهبي» نلاحظ أن خاسار في هذه المرة أبدى عداءه لشقيقه «خفية من أجل أن لا يعلم أنه خرج بصحبة ألف وثلاثمائة رجل مناصباً العداء لشقيقه، وعندما علمت أمه بهذا الأمر توفيت». يؤكد مؤلف «التاريخ السري» أيضاً أن ويلون

فارقت الحياة؛ لأنها لم تحتمل الخصام الذي وقع بين أبنائها [ألتان توبتشي، ص١٩٥؛ السيرة المكنونة، ص١٧٧].

لم يعاقب تاب تانغري كوكوتشكو على ما فعل، ولمتابعة خاسار الراحل بعث سوبيتاي باتور، الذي ثني خاسار عن التمرد، وطلب منه الرجوع والخضوع لإرادة أخيه قائلاً:

«إذا زرعت الخلاف في أسرتك
فستصبح طعاماً للغريب، أليس كذلك؟
وإذا بعدت عن أمومتك
فستصبح طعاماً للمغول، أليس كذلك؟
وإذا بعدت عن أصحاب الأسر الكبيرة
ستصبح طعاماً لليتامى، أليس كذلك؟
وإذا أصاب الانشقاق الشعوب الكبيرة
ستصبح طعاماً للشعوب الصغيرة، أليس كذلك؟
يمكنك العثور على الصيد والخدم
لكن لا يمكن الحصول على الأهل
قد تجد لنفسك الطائعين،
لكن لا يمكن الحصول على أسلاف
من سلالة واحدة!

وافق خاسار على هذه الكلمات وآب» [التاريخ الذهبي، ص١٩٧].

يبدو أن جنكيز خان انتابه الخوف من قوة كوكونشو الإعجازية، ومن المحتمل وجود أسباب غير معلومة لنا منعته حتى من المجابهة الخفية، مع العلم أن كوكوتشو دوماً كان يعد نفسه للصراع مع جنكيز خان من أجل السلطة، فجمع حول نفسه

النوكير والنويون ورجالاً من مختلف القبائل والشعوب المغولية والشعوب الخاضعة لسلطة جنكيز خان، فانهالت عليه «الشعوب الناطقة بتسع لغات» وبسرعة أصبح عدد القوم في مقره «كثيراً بقدر ما عند جنكيز خان نفسه» حتى بلغ الأمر إلى أن «فكر رجال جنكيز خان هجره والانضمام لتاب تانغريش، نهض الخان العظيم المنتصر في وجه الخطر الكبير، لأن الأمر كان يحمل في طياته الحياة والموت، وكان الموت يترقبه ليس على ساحة القتال وإنما بقربه، وقد حان الأمر إلى أن جنكيز بنفسه بدأ يبحث عن حجة ليقضي على كوكونتشو، وبلغ الأمر إلى أن أوتشغين الشقيق الأصغر لجنكيز خان، الذي كان تحت إمرته عشرة آلاف خيمة مع والدته المتوفاة ويلون، أضحى يناصر كوكوتشو، وحينها بعث أوتشغين إلى كوكوتشو برسوله المدعو سوخور مطالباً بإعادة الهاربين، ولكن ساعتها تبدى الأمر لكوكوتشو أنه لا يهاب أي فرد من الأسر الخانية، فسحروا من سوخور «وضربه كوكوتشو وعذبه» ثم بعد ذلك طردوه راجلاً بدون حصان معلقاً على ظهره سرجاً مكتوباً عليه:

- ستكون مرسلاً تحت زمرة أوتشغين!

أقبل الغاضب المهان أوتشغين إلى دار كوكوتشو بنفسه، ولكن أحاطه الأشقاء السبعة في دائرة، وصاروا يتهكمون عليه بوقاحة، فرد مخاطباً كوكوتشو:

- لقد بعثت إليك برسول سوخور، ولكنك رددته إلي حافياً راجلاً بعد أن أوقعت الأذى والضرب، أما الآن فلقد حضرت إليك بنفسي لكي أرجع رجالي!

فرد الأشقاء السبعة:

- هل من الصحيح أن تبعث برسولك سوخور؟

اعترف أوتشغين خوفاً من عدم الخروج من جبروت الساحر كوكوتشو:

- إنني مخطئ في بعثي لرسولي.

فردوا:

- إذا اعترفت بخطئك، عليك أن تركع وتطلب المغفرة.

لقد أجبره أشقاء كوكوتشو على الركوع.

وفي صبيحة اليوم الثاني أقبل المهان أوتشغين إلى شقيقه جنكيز، الذي لم يبارح فراشه، وأطلعه على ما كابده من الإهانة، وفي الوقت الذي بدأ فيه جنكيز خان التفكير فيما جرى آزرت زوجة جنكيز الأولى بورتي أوتشغين، التي كانت ساعتها في فراشه، إن رواية أوتشغين دفعتها للبكاء، حسب رواية «التاريخ السري» قالت بورتي:

- إذا كانوا حتى في حياتك يبيدون أشقاءك العظماء، فمن المؤكد أن الشعب بعد وفاتك سيخرج من إمرة أبنائك! (كما ورد في [السيرة المكنونة، ص١٧٧-١٧٨]).

وفي مؤلف «ألتان توبتشي» كان توعدها محدداً لدرجة خاصة:

- وهكذا سيقضون على أشقائك الصغار كمثل الخدم والعبيد، وبمقدورهم أن يلحقوا بك الضرر [ألتان توبتشي، ص١٩٨].

من الواضح أن قولها الذي ينص على [أنهم سيلحقون بك الضرر] دفع جنكيز إلى اتخاذ إجراءات محددة خشية أن يحرمه كوكوتشو من السلطة.

قال جنكيز خان لشقيقه أوتشغين:

- عندما يأتي تاب تانغري اليوم افعل ما تشاء.

وهكذا وعد شقيقة بالدعم، إذا تمكن من القضاء على كوكوتشو بسرعة، اختبأ أوتشغين عند مدخل يورتا جنكيز، وخلف العتبة انتصب ثلاثة من العمالقة المصطفين الأقوياء منتظرين قدوم كوكوتشو، وبسرعة ظهر مونليك برفقة أبنائه

السبعة، جلس كوكوتشو دون مبالاة في صدر المكان، وحينها قفز أوتشغين وقبضه من ياقته، ووفق العادات المغولية القديمة دعا خصمه للمبارزة.

- بالأمس أجبرتني على أن أطلب منك العفو، ولكن اليوم سأجرب مهارتي معك.

تصارع كوكوتشو وأوتشغين مباشرة داخل يورتا جنكيز، ولكن الخان أمرهم بالخروج من اليورتا:

- اذهبا لمقارنة مقدراتكما في الباحة.

يبدو أنه على علم بما سيجري لكوكوتشو عندما يتخطى عتبة اليورتا، في الواقع لم يكد كوكوتشو يتخطى عتبة الباب حتى انقض عليه الثلاثة الأقوياء الذين كانوا له بالمرصاد، وفي لمحة قصموا عظمة ظهره وقذفوا به على عربة في الجانب الأيسر من باحة الدار.

خاطب أوتشغين عند عودته إلى الخيمة جنكيز قائلاً:

- إن تاب تانغري لا يود مصارعتي وتمثل راقداً (كما ورد في [السيرة المكنونة، ص١٧٨]).

ولكن العجوز مونليك أدرك أنه قاسم مع أبنائه سوء التقدير الذي أدى إلى موت الساحر الأعظم كوكوتشو المنافس للخان حتى في شخصه، مما حدى بالأخوة الستة حينها محاصرة جنكيز وتهديده، (كما ورد في مؤلف «ألتان توبتشي» أنهم «حاصروا الدار مشمرين عن سواعدهم» ص١٩٩) وعندما ضاق لجنكيز الخناق من قبل الإخوة صرخ قائلاً:

- اغرب عن وجهي وأعطني الطريق!

ثم قفز من الخيمة، وفي الوقت نفسه أحاط به الحراس الذين نهضوا لنجدته عند سماع صوته.

إن الساحر القادر المجيد كوكوتشو تاب تانغري كان ملقى أمام الخيمة مكسور الظهر، وعلى الرغم من أنه كان ميتاً إلا أنه بث الذعر في النفوس، حينها أمر جنكيز بتغطية جثته بخيمة رمادية، أما هو فقد غادر مكان الحادث البشع على عجل، خلال ذلك اختفى جسد كوكوتشو بشكل غامض.

لم يتمهل جنكيز في أن يعلل هذا الاختفاء بالقوة الإعجازية للساحر، وأما الموت فعزاه إلى الانتقام السماوي «تاب تانغري كان يضرب إخوتي ويرميهم بالإفك، الشيء الذي بسببه لم تحبه السماء، ولذلك أخذت مع روحه جسده أيضاً» [السيرة المكنونة، ص١٧٨-١٧٩].

رغماً عن ذلك لم يقو جنكيز خان على إعدام مونليك وإخوة كوكوتشو تحاشياً لانتقام الساحر الذي مات، معللاً ذلك بالأفضال السابقة لمونليك، على الرغم من أنه بإمكانه اتهامهم بالعصيان ومحاولة الاعتداء على حياته، فبدون كوكوتشو لم تعد تملك أسرة مونليك ولا حتى الظل البعيد لذلك النفوذ الذي كانوا يتمتعون به.

لا تزال القوى مجهولة، تلك التي كانت تقف خلف كوكوتشو، هل هم النوكير والنويون الذين قبل عشرة أعوام حاربوا في صف أعداء جنكيز في أثناء صراعه على السلطة، أو قد تكون معارضة جديدة، ولكن من الواضح أنه بخلاف الخوف السحري الذي أوحى به تاب تانغري ومطالبته بالسلطة كانت تقف من خلفه قوى من نوع معين، تسمح له بالمطالبة بالسلطة من خان منغوليا العظيم بعد أربعة أعوام من انعقاد كوريلتاي النويون العظيم، ليس من المستبعد أن تكون المعارضة قد استغلت محاولة جنكيز خان غير الناجحة للقضاء على الدولة التانغوتية التي في خلالها خريف وشتاء الأعوام ١٢٠٩-١٢١٠ مني المغول بهزائم مريرة، إن الساحر كوكوتشو أرغم جنكيز مرة أخرى على الإحساس بالخوف من فقدان العرش، يبدو أن فلاديمير تسوف كان محقاً جداً عندما كتب «بغياب كوكوتشو عن مسرح

الأحداث غاب معه من منغوليا آخر من تقابل بالندية مع شخص جنكيز أو المقاومة أو عدم الطاعة، الآن الكل خاضع لإرادة الإمبراطور الحديدية، والذي عبر طريقاً شاقاً من حياة الكفاف وشبه الجوع في يورتا مهملة على ضفة نهر أونون إلى مقر قيادة إمبراطورية منظمة» [فلاديميرتسوف، جنكيز خان، ص٩٢-٩٤].



تحقيق وصية أمباغاي خاغان

«ســـبح الإله بأفكاره الكبـــرى
نــاظـراً إلــى الأرض وهــي تــدور
وهنــاك تنــداح كــــرة ســــوداء
لها الشيطان بأغلال حديدية ضارب»

مكسيم غوركي

أمن جنكيـز خـان بعـد تحييـده للتانغوت وتسلمه لقيادة الأويغور والكارلوك الجناح الجنوبي والجنوبي الغربي، وبدأ يعد نفسه للحرب مع عدوه الأساسي في شرق آسيا، مع دولة تسزين التشجورتشجينية كما ذكرنا سالفاً، إن سلطة الأباطرة التشجورتشجينيين قبل حقبة جنكيز كانت العلية في المنطقة، واعترف بمشيختهم الصينيون والكوريون والتانغوت والتتار المغول ومجموعات أخرى من القبائل قليلة العدد، وقبائل وشعوب أخرى قوية، يروي مؤلف «يوان شي»: «إن الإمبراطور في البداية كان يدفع كل عام الإتاوة لدولة تسزين، عندما أرسل الحاكم التسزيني برسوله فاي فان يون تسزي لجمع الإتاوة في مدينة تسزينتشجاو حيث لم يحسن إمبراطورها استقبال يون تسزي حسب المراسيم المتبعة، مما حدا بيون تسزي بعد عودته إلى الرغبة في جمع الجيش والهجوم عليه، ولكن المنية وافت حاكم تسزين حينها، فورث العرش من بعده يون تسزي، وأصدر مرسوماً إمبراطورياً بعث به لدولة جنكيز خان، ويتوجب الامتثال إليه ركوعاً، حينها سأل الإمبراطور الرسول التسزيني: "من الحاكم الجديد" فرد عليه الرسول: "فاي فان" وساعتها التفت الإمبراطور فجأة إلى الجنوب وبصق، ثم قال: "أنا أقول الآتي: إمبراطور السهوب

الوسطى هو الشخص الذي يسري إلى السماء، كيف ينصب هذا الرجل الضعيف الساذج إمبراطوراً؟ وكيف ينحني له؟» إنه وقتها اعتلى ظهر فرسه وذهب صوب الشمال، أبلغ الرسول التسزيني عند عودته الحاكم يون تسزي بما جرى، فانتابه الغضب بشدة، وبات ينتظر سانحة جيدة عندما يقدم الإمبراطور من جديد الإتاوة فيتذرع لها للخلاص منه ساعتها، ولكن الإمبراطور علم بمقصده سلفاً، فلذا قطع علاقته مع تسزين، وبدأ يعد خيرة جيوشه» [يوان شي، الفصل ١، ص٨ب].

جرت العادة أن يدفع التتار والمغول الإتاوات لتسزين في مدينة تسزينتشجاو، كانت الحدود الشمالية والشمالية الشرقية والشمالية الجنوبية لتسزين مليئة بالخنادق، كانت هذه الخنادق أعمال هندسية ضخمة تمتد إلى أكثر من ١٥٠٠ كم، تم إكمال العمل فيها عام ١١٩٨، كان مثل هذه المنشآت الهندسية وغيرها من الأعمال السائدة في ذلك العصر، التي تطلب من المغول أن يتخطوها، بعد أن قام جنكيز خان وبشكل مسرحي بقطع علاقته مع الإمبراطور التسزيني أخذ يهيّئ نفسه لشغل مكانه في شرق آسيا، وبداية نقل المركز المعترف به دولياً من بكين إلى مقر نفوذه، بعد أن حسم أمر الساحر كوكوتشو صار بإمكانه أن يصبح مطمئناً على توطد سلطته في منغوليا، على الرغم من أن هذه الثقة لم تكن متينة، حسبما يخبرنا رشيد الدين أن جنكيز أرسل قبل الغزو على تسزين «خوفاً من توحد القبائل المتشتتة وإعلانهم العصيان، فصيلة قوامها ألفا شخص تحت قيادة توكوتشار من أجل تأمين جبهته الداخلية، خلال غزوة لدولة الصين من قبائل المغول والكيريت والنايمان والآخرين الذين قام بإخضاعهم وكذلك القوم الرحل من رعاياه» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص١٦٣] ما يثير الانتباه أن جنكيز خان ما زال حتى هذه اللحظة يتخوف، ليس من القبائل التي هزمها من الكيريت والنايمات فحسب ـ اللتين ما زالتا تتذكران عظمة فان خان السابقة ـ بل كان يتخوف قبل كل شيء من

قبائل المغول نفسها، التي ينتمي إليها هو نفسه، إن هذا يؤكد لنا مرة أخرى أن مطالبة كوكوتشو بالسلطة لم تكن شاهداً فقط على تأثير فارس من القواد، إنما وقفت خلفه المعارضة لجنكيز خان من داخل القبائل المغولية.

قام ناخاتا ما يتشجو المسؤول عن الحراسة في الحدود الشمالية الغربية لتسزين، بإبلاغ حاكمه فاي شاو فان أنّ المغول بعد حربهم مع التانغوت بشكل جاد يعدون العدة للحرب مع تسزين: يصنعون الدروع، وبلا انقطاع يطرقون السهام ويرعون الخيل باهتمام شديد، إلى درجة أنه، في داخل الاستحكامات، يجر الجنود العربات بدلاً من الخيل، عدّ الإمبراطور التسزيني أن مايتشجو تملكه الخوف فأودعه في السجن [التاريخ، ص٤٧] أما بحلول القمر الثاني لعام ١٢١١ (١٥ فبراير - ١٦ مارس) فهجم الجيش المغولي بقيادة جنكيز خان نفسه على تسزين، وبدأ في الانتشار جنوباً وإلى الجنوب الشرقي.

يقسم المؤلفون الصينيون حرب المغول مع تسزين على ثلاث مراحل:

١ - المرحلة الأولى: (١٢١١-١٢١٦) عندما كانت الحرب تحت قيادة جنكيز خان

٢ - المرحلة الثانية: (١٢١٧-١٢٢٩) بعد أن تم إخضاع شمال الصين، وكانت الجيوش تحت قيادة موخالي، ثم بعد موته تحت قيادة ابنه بولو.

٣ - المرحلة الثالثة: (١٢٢٠-١٢٢٤) عندما تولى خلفاء جنكيز خان أوغاداي وتولوي بالاتحاد مع سون الجنوبي أكملوا القضاء على دولة تسزين.

بحسب تقدير هؤلاء المؤلفين الصينيين أنفسهم فإنه تطلب للمغول للفوز على دولة سي سيا ٢٢ عاماً، وعلى دولة تسزين ٢٣ عاماً، أما دولة سون الجنوبية (أي الصين بأكملها) ٤٤ عاماً [يوان تشاو شي، ص١١٢].

نقرأ في مؤلف «يوان شي» أن «الإمبراطور في غضون شهرين قاد الجيوش في حملته على الجنوب، وقضى على الجنرال التسزيني دين سي في جبال يخولين واستولى على أقضية داشوي ولو وفين ولي» [يوان شي، الفصل ١، ص٨ب].

كان الجيش الحدودي لدولة تسزين مكوناً بشكل أساسي من جنود ينتمون لشعوب متباينة، كانت خاضعة لسيطرة التشجورتشجنيين، كانوا ينتمون لقبائل سي وكيداني اللتين حرمهما قبل مائة عام التشورتشجينيون من السلطة على شمال الصين، ولذلك كان لسكان أقاليم منتشجوريا البوخايون والترك الأونغوت الذين كما نعلم كانت لهم في السابق صلات بجنكيز خان، وجزء من شعوب سي وكيداني كان لهم صلات عرقية متقاربة مع المغول.

دخلت القوة الأساسية للجيوش المغولية في حدود دولة تسزين من جهة بحيرة دالاي نور تحت قيادة تسجابي، الذي استولى على القلاع الحدودية، نشب القتال عند مدينة فوتشجوو، التي فقد التشجورتشجينيون بعد سقوطها مدينتي سيوانبين وخوانتشجوو، وقبل انطلاقة جديدة نحو الجنوب قام جنكيز بإراحة الخيول.

لكن القيادات التسزينية علمت بذلك، واقترح أحدهم الآتي:

- إن جيوش جنكيز خان اجتاحت مدينة فوتشجوو، ومشغولة بتقسيم الغنائم، وخيولهم مطلقة ترعى على السفح، فإذا هجمنا عليهم على حين غرة، فسنقضي عليهم.

ولكن التشجورتشجيون لم يقرروا الانقضاض بغتة عليهم، فبعثوا رسولهم مينغان للمحادثات، ولكنه لجأ إلى جانب جنكيز وأطلعه على خطة قيادات الجيوش التسزينية.

قام التشجورتشجيون بتركيز قوة قوامها من ثلاثمائة إلى أربعمائة ألف مقاتل على سلسلة يخولين، التي تشكل المانع الطبيعي للمناطق الداخلية لدولة تسزين،

وقبل كل شيء لعاصمتها الوسطى، ولكن تم القضاء عليها «في مجزرة، تقعقعت فيها العظام، وكأنها فروع يابسة» [السيرة المكنونة، ص١٧٩]. «في هذه المعركة تم القضاء على مشاهير مناطق شمال الصين وجرجا» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٦٧].

لم يستطع الجيش التسزيني المهزوم الوقوف في وجه القوات المغولية حتى في المنطقة التي كان له فيها فرصة، وبالأحرى في سور الصين العظيم، ذلك الحائط القديم الكبير الذي تم تشييده قبل ذلك الوقت بألف وخمسمئة عام تقريباً من أجل حماية المنطقة من الرحل، ولكن في هذه المرة أسفر عن عجزه وعدم فائدته الحقيقيين، خرج المغول في خريف عام ١٢١١ إلى بوابة تسيويونغوان «حينها كانت الطرق مليئة بأكوام الجثث كأعجاز نخل خاوية» [السيرة المغولية القديمة، ص١٣٩] قائد حامية ترك المدينة وفر هارباً، لما رأى تشجابي عزم حامية القلعة الدفاع عنها لآخر قطرة قرر إغراءهم بالخروج من خلف الأسوار مستخدماً معهم الخدعة المغولية القديمة، أخذ بالتراجع، لكن التشجورتشجيون أخذوا في إخراج أطرافهم من القلعة وبدأوا المطاردة، ولكن تشجابي رجع بفرسانه ملتحقاً بجنكيز خان، الذي تمكن من الوصول وإلحاق الهزيمة النكراء بالجيوش التسزينية، وكانت نتيجة المعركة «عدداً من الجثث على طول مائة لي»، «تم قطع أكثر من ثمانين ألف رأس» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص١ب، ٢أ].

إن سقوط تسزيويونغان فتح الطريق للمغول إلى مدينة بكين في الشهر التاسع (من التاسع من أكتوبر إلى السادس من نوفمبر) بلغ أوائل الفرسان المغوليون أسوار مدينة بكين الحالية، حيث يقيم إمبراطور التشجورتشجينيين، أعدت المدينة للحصار، ولم يخرج أي رجل من العاصمة، كان كل جندي في عداد حماة سور المدينة عند الحاجة في ساعة ضيق الحصار، أراد الإمبراطور التسزيني فاي شاو فان

مغادرة العاصمة، ولكن قسماً من الجيش استمر في القتال إلى آخر قطرة دم، فقرر البقاء آملاً في تغير مجرى الأحداث، ولكن بلغته في هذه اللحظة أنباء سيئة جديدة مفادها أن المغول انقضوا على مراعي الدولة ونهبوا أفضل الخيول التشجورتشجينية التي تمثل احتياطي الجيش التسزيني.

وفي عام ١٢١١ هب الكيدانيون بقيادة يلوي لوغي أيضاً ضد دولة تسزين في منطقة غيرين الحالية الواقعة في مانتشجورين، والتحقوا بالمغول يُذكر في وصف حياة يلوي لوغي أنه كان يقود ألفية في الحدود الشمالية لدولة تسزين «عندما دخل تاي تسزو منطقة شوفان تخوفاً من بقايا سكان دولة لياو، الذين كانت تحدهم مدة أخرى، أمر التسزينيون أعوانهم من التشجورتشجينيين بتضييق الخناق على سكان ليـــاو القـــاطنين بالقـــرب، بوضع كل دار من ديارهم بين دارين من ديار التشجورتشجينيين وحراسهم» وفي عام ١٢١٢ مرة أخرى نهض لوغي برفقة نصيره يدي حيث عقدا اتحاداً مع المغول، وعلى جبل تسزينتشان وفقاً للعرف السائد نحروا فرساً أبيض وثوراً أبيض طعناً في القلب، وكسروا سهماً، ثم أدى الحاضرون على الجبل القسم متجهين بوجوههم نحو الشمال، ولكن التشجورتشجينيين الغاضبين على غدر لوغي أعلنوا مكافأة على من يأتي برأسه تقدر بالآتي: على كل مثقال ليان[(١)] من عظمه ليان من الذهب، وعلى كل مثقال من لحمه ليان من الفضة، من يسلم لوغي يمنح رتبة قائد ألفية [يوان شي، الفصل ١٤٩، ص١أ-١ب]، ولكن لم يتجاسر أحد من بين أتباعه على الخيانة؛ لأنهم رأوا في شخصه مناضلاً جديداً للمصالح القومية الكيدانية.

في عام ١٢١٣ بدأ الجيش التسزيني المكون من ستين ألف مقاتل بعد تريث حملته التأديبية ضد لوغي، ولكن أقبل المغول الذين قضوا على البعثة التسزينية

(١) ليان: وحدة وزنية قدرها ٣١ غراماً.

الاستطلاعية لنجدته، وبهذه المناسبة قرر لوغي بعث دولة لياو، وأعلن عن تكوينها وخلع على نفسه لقب فان لياو، واتخذ شعاراً لدولته «يوان تون»؛ أي (بداية الحكم). كانت هذه دعوة صريحة للاستقلال، فقياساً على البيانات التي وردت في مؤلف «يوان شي»، والتي تشير إلى أن حاشية ليوغي حاولت إقناعه بأن يتقلد لقب إمبراطور، ولكن ليوغي كأنما رد بأنه «سابقاً عقد اتحاداً مبنياً على القسم مع النبيل أنتشين نويون آملاً في الخضوع للدولة المغولية العظمى»، كما كان تحت قيادته جيش قوامه مائة ألف مقاتل، وتحت سيطرته كل مانتشجوريا [يوان شي، الفصل ١٤٩، ١ب-٢أ].

ثم تطورت الأحداث بعد ذلك في مانتشجوريا على الشكل الآتي: في عام ١٢١٤ قضى لوغي على القوات التسزينية التأديبية التي قوامها أربعون ألف محارب عند مدينة تشانتو، واستولى على مدينة سيانبين وضواحيها أيضاً، وأعلن سيانبيين عاصمته الوسطى، وفي نهاية ربيع عام ١٢١٥ هجم على العاصمة الشرقية لدولة تسزين، التي لم يتمكن تشجابي من الاستيلاء عليها في عام ١٢١٢، ولكن على الرغم من ذلك إلا أن قوات لوغي لم تظفر بالنجاح، حينها كان تحت سيطرته ستمائة ألف دار، ولكن الأنصار الكيدانيين المتعطشين لإعادة بناء مجد الإمبراطورية الكيدانية السابق تعجلوا الأمر، ولكي يحرضوه قضوا على فصيل مغولي قوامه ثلاثمئة رجل، ولكن لوغي لم يستجب لهذا التحريض والابتعاد عن جنكيز خان، لذلك قام اثنان من أتباعه، يسيبو وتسينو، بالانتفاضة عليه، ففي عام ١٢١٦ أعلن يسيبو نفسه إمبراطوراً، واتخذ دانتشجوو عاصمته، وبالطبع أطلق على دولته اسم لياو، وأعلن شعاراً لملكه أيضاً «القوة الرهيبة الموهوبة من السماء»؛ أي تيان فاي، ولكن هذه القوة الرهيبة الفاقدة للهبة السماوية لم يطل خلودها، ولقي يسيبو حتفه على يد أتباعه، وهرب قائد جيشه تسينغوو إلى تسزين، وهزم

نصيره تسين على يد يلوي لوغي، وولى هارباً إلى كوريا، إن إمبراطورية لياو الجديدة التي تكونت للمرة الثالثة حسب معلومات مؤلف «يوان شي» استمرت سبعين يوماً ونيف [يوان شي، الفصل ١٤٩، ص٢أ-٢ب]، ولكن الكيدانيين لم يستطيعوا الاستسلام لفكرة استحالة قيام مجدهم السابق في خضم الأحداث العاصفة، وتواصل العصيان على الرغم من ذلك، وكان المغول ولوغي يقظين مما جعلهم تحت السيطرة، ففي عام ١٢١٩ أخضع لوغي الجميع تحت سيطرته، وفي عام ١٢٢٠ وافته المنية.

قضى جنكيز خان شتاء عام ١٢١١-١٢١٢ في منغوليا خارج دولة تسزين، ولكن بالغرب من حدودها الشمالية، وعلى غير توقعات فاي شاو لم يقم المغول كدأبهم بحصار بكين، إن حصارهم لعاصمة التانغوت ـ الذي لم يكلل بالنجاح ـ ما زال حياً في ذاكرتهم، مع العلم أن خبرة المغول في محاصرة المدن الكبيرة والمحصنة بطريقة جيدة وإسقاطها ما زالت في بدايتها.

في ربيع عام ١٢١٢ بدأت الجيوش المغولية حملاتها، فتحركت في ثلاثة صفوف بقيادة جنكيز خان نفسه وأبنائه تشجوتشي وتشاغاتاي وأوغاديي، وفي هذه المرة أصابت الضربة القاضية المناطق الشمالية الغربية والغربية لدولة تسزين، كما ساعد المغول الأونغوت أيضاً في هذه المرة، وبعد استيلائهم على مجموعة من المدن في منطقة خوخ خوتو الحالية عاصمة منغوليا الوسطى حاصروا العاصمة الغربية لدولة تسزين، وبعث التشجورتشجيون جيوشهم لنجدة المحاصرين، ولكن جنكيز خان استدرجهم إلى قلعة ميغوكوو وهزمهم شر هزيمة، ثم رجع إلى العاصمة الغربية واستولى عليها، حسب معلومات مؤلف «يوان شي» عن حصار العاصمة الغربية لدولة تسزين جرح جنكيز خان بسهم، ولهذا السبب بالتحديد رفع المغول الحصار في البداية [يوان شي، الفصل الأول، ص٩أ].

في شتاء عام ١٢١٢-١٢١٣ تحرك جزء من الجيش المغولي بقيادة تشجابي إلى مانتشجوريا قاصداً العاصمة الشرقية لدولة تسزين، حيث الموطن الأساسي للقبائل التشجورتشجينية، الذي يعدّ بالنسبة لهم قدس الأقداس، وعندما لم يتمكن تشجين من احتلال المدينة أول الأمر فلجأ إلى الخطة نفسها تقريباً التي انتهجها عند احتلال بوابة نسيويونغوان «يرجع إلى الوراء سائراً بخطى حثيثة، متوقفاً تارة وسائراً تارة أخرى، حينها تطايرت الأنباء بأن جيش تشجاب تقهقر إلى الوراء وابتعد، ولكن بعد أن قطع تشاجبي بجيشه خمسين فارسانغ(١) أي ثلاثمائة كيلو متر تقريباً، وتأكد أهل المدينة من أن جيشه تقهقر إلى الخلف، حينها ترك قادة الجيش واختار الخيول السريعة، وهجم وبسرعة جارياً بها ليلاً ونهاراً إلى أن بلغ المدينة بغتة دون أن يعلم أحد واحتلها» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٦٥]. نهب المغول عاصمة تسزين الشرقية، ولكنهم لم يبقوا بها، بل التحقوا بالجيوش المغولية المحاصرة بكين.

بدأ عام ١٢١٣ بأكبر هجمة مغولية وهزيمة للجيوش التسزينية، وفي خلال هذا العام تم إخضاع كل المناطق الواقعة إلى الشمال من بكين والأقاليم التسزينية الممتدة إلى شمال نهر خوانخا تدريجياً، وتم حصار مدينة بكين وجزء من المدن الكبرى، كما اجتيحت كل الأقاليم اجتياحاً شاملاً، وتكبد سكان مجموعة من الأقاليم خسارة فادحة، بينما تم القضاء على سكان مدينة ميتشجوو بأمر موخالي عن بكرة أبيهم، قلع موخالي مدينة ميتشجو من جذورها، ومن هذا الإطار يذكر العالم الروسي المشهور ن. ي. بيتشورين (أب إياكينف) المتخصص في دراسة الصين في النصف الأول من القرن التاسع عشر استناداً على مؤلف «يوان شي» موضحاً أن «قلع المدينة يعني: تعريض كل سكانها لحد السيف من غير مراعاة للعمر والجنس وحتى الثروة» [التاريخ، ص٥٧].

(١) فارسانغ: وحدة مسافة قدرها ستة كيلو مترات تقريباً.

اضطرت السلطة التشجورتشجينية من أجل حماية المدن إلى استجلاب سكان الضواحي الفلاحين لزيادة عدد المدافعين عنها، كما استخدمهم المغول أيضاً عند الهجوم دروعاً بشرية من أجل الاستيلاء على المدن، إلى درجة أن الآباء المدافعين عن السور تعرفوا أبناءهم في صفوف المحاصرين، وشهر الأشقاء السيوف بعضهم في وجه بعض [المصدر نفسه، ص٦٦]. بديهياً لم تكن لدى المدافعين ولا المرغمين على الهجوم الرغبة في القتال، لهذا انقض المغول بشراسة على المدن مما حدى بهم إلى الاستسلام الواحدة تلو الأخرى.

وتم تقسيم الجيوش المغولية من جديد إلى ثلاث مجموعات: اليمنى الغربية بقيادة تشجوتشي وتشاغاتاي وأوغاداي، التي حاربت إلى الجنوب من سلسلة تايخان، وسيطرت على الشاطئ الشمالي لنهر خوانخا في منطقة تسزيسيان ومينسيان القضائين الحديثين في محافظة خينان، أما المجموعة اليسرى فترأسها خاسار، وحاربت في المناطق الشرقية لمحافظة خيباي الحالية، أما جنكيز وتولوي فقادا المجموعة الوسطى للجيوش، ونهبا المناطق الجنوبية لمحافظة خيباي الحالية والمناطق الغربية لمحافظة شاندون، على مساحة واسعة تقدر بآلاف الكيلومترات، تم سحق كل السكان تقريباً، «جمعوا الذهب والمنسوجات الحريرية والبنون والبنات والخيل والثيران وأخذوا مثل الحصير، خرقت المنازل والأكواخ، وتحولت أسوار المدينة إلى حطام»، وهكذا وصفت في التاريخ الصيني «تونتسزيان غاتمو» نتائج التحركات الحربية المغولية في شمال الصين في عام ١٢١٣ (انظر [التاريخ، ص٦٧]).

لكن هذه الواقعة لم تخل من الغدر، فقد انحاز شي تيانيار وسياو بودي بجيوشهما إلى جانب المغول، وقد صارا فيما بعد قائدين لجيشين قوام كل منهما عشرة آلاف مقاتل أي تيمنيك، في الشهر الثامن لعام ١٢١٣ الموافق للثامن عشر من

أغسطس والتاسع من سبتمبر وقع في العاصمة الوسطى لدولة تسزين انقلاب في السلطة، راح ضحيته فاي شاو، الذي أعقبه على السلطة خوشاخو الذي هجر العاصمة الغربية سابقاً.

في بداية عام ١٢١٤ ظهر جنكيز خان بنفسه عند مدينة بكين، عندها اقترح عليه القادة المغول إكمال اقتحام المدينة، يذكر مؤلف يوان شي أن معسكر جنكيز خان كان على الضواحي الشمالية للعاصمة الوسطى تشجوندو، «طلب كل القادة المغول بناءً على الانتصارات منه اقتحام مدينة يان (بكين. تعليق المؤلف)، ولكن الإمبراطور لم يوافق على ذلك» [يوان شي، ص٩ب] رفض جنكيز خان لأسباب غير معلومة، لعل منها تعب الجيش أو تخمته بالغنائم الثمينة، اقتحام المدينة، وأعلن لإمبراطور تسزين أنه سيغادر أرض دولته ويوافق على إجراء محادثات السلام، «بعث رسوله بأمر إلى حكام تسزين مشيراً إلى أن "كل ضواحي منطقة شاندون وخيباي وأقضيتها أصبحت ملكي، وأنت ستدافع عن منطقة يانتسزين فقط، بحكم أن السماء أضعفتك، ها أنا من جديد وضعتك في موقف خطر، فماذا تقول لي السماء؟ الآن سأرجع الجيش، وبإمكانك أن تغمر جيشي بالهدايا لكي يهدأ غضب قوادي!" حينها بعث حاكم تسزين رسله طالباً السلام، وأيضاً أهدى للإمبراطور ابنة فاي شاو فان الأميرة تشجيا غونتشجا والذهب والمنسوجات الحريرية وخمسمائة شاب وشابة وثلاثة آلاف فرس» [يوان شي، الفصل الأول، ص٩ب]. إن فدية الذهب والمنسوجات الحريرية كانت كبيرة «إضافة إلى أن المغول عندما نهبوا البلاد اضطروا إلى أن يربطوا أحمالهم من الحرائر والأشياء الأخرى حتى بالحرير» [السيرة المكنونة، ص١٨٠]. صارت ابنة فاي شاو زوجة رابعة لجنكيز خان، ولقبت بغونتشو خاتون؛ أي الأميرة، ودع فانيان فوسين الوزير الأول التشجور تشجيني (تشانسيان) بنفسه جنكيز خان من بكين إلى تسيويونغوان، أمر

جنكيز خان بعد تركه لمقر التشجورتشجينيين مخلفاً وراءه السهول الصينية الواقعة خلف الجبال، ووراء سور الصين العظيم يجمع مئات الآلاف من الأسرى الشباب والشابات، الذين لم يتمكن المغول من استخدامهم عبيداً في منغوليا، والذين رأى المغول أنهم سيكونون أعداءً في المستقبل، أو من أجل بث الرعب في نفوس سكان أقاليم تسزين الذين لم يتم إخضاعهم، وأصدر أمراً بالقضاء عليهم جميعاً إلى آخر شخص، إن جيوش جنكيز خان بعد مطاردتها حدود تسزين تركت خلفها جبالاً من الجثث.

في الشهر الخامس الموافق للعاشر من يونيو حتى الثامن من يوليو عام ١٢١٤ غادر الإمبراطور التشجورتشجيني العاصمة الوسطى، وانتقل إلى العاصمة التسزينية الجنوبية، وفي الطريق ثار ضده قسم من الجيش، وبالأخص الفصائل الكيدانية، وحينها رجع المناهضون شمالاً من بكين، ثم بعثوا برسلهم إلى جنكيز خان طالبين السماح لهم بحمل الجنسية المغولية، ولكن جنكيز بعث لهم جيشاً بقيادة الغادر مينغان في الشهر السادس الموافق للتاسع من يوليو حتى الخامس من أغسطس، وأصدر أمراً بحصار العاصمة التسزينية الوسطى، وهكذا استمر السلام شهراً واحداً فقط، وسقطت بكين على يد المغول بعد أن نهبت كل خيراتها وتركوا فيها نائبين جبر خوجا واكيداني شيمو مينغان. كان حصار بكين الذي استمر بعد العصيان الكيداني عاماً واحداً تقريباً قاسياً، وعم المدينة الجوع «إلى درجة أن السكان من شدة الجوع اضطروا لأكل لحوم البشر ومنهم من مات» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٧٤]. عندما دخل المغول المدينة بدأوا بضرب السكان الذين بقوا على قيد الحياة، وتم حرق قصر الأباطرة التشجورتشجينيين واستمر الحريق أكثر من شهر، لم يكن جنكيز خان في صفوف الجيوش التي اقتحمت بكين؛ لأنه كان في الشمال بحكم أنه لا يتحمل قيظ الصيف.

غزا موخالي في شتاء عام ١٢١٤-١٢١٥ إقليم لياودون وحاصر عاصمة تسزين الشمالية، ولكن حاكم المدينة سلم نفسه طواعية للمغول.

على كل حسب قول مؤلف «يوان شي» تمكن المغول في خريف عام ١٢١٥ من الاستيلاء على ٨٦٢ مدينة تسزينية، وحطموا أسوارها [يوان شي، الفصل الأول، ص١٠أ].

جلب العام ١٢١٤ محنة كبيرة للتشجورتشجينيين مرة أخرى، فمن أجل الانتقام من عدم مساعدتهم في ساعة الضيق والأمل في الغنائم السهلة جعل التانغوت منذ عام ١٢١١ يوجهون الهجمات على المناطق الحدودية للإمبراطورية التسزينية، ومن عام ١٢١٤ تحولت هذه الهجمات الحدودية وتصاعدت إلى الحرب التانغوتية التشجورتشجينية التي استمرت من عام ١٢١٤ إلى عام ١٢٢٤، بدلاً من أن يتعاونا ضد المغول، لقد استنزف التانغوت والتشجورتشجينيون إمكاناتهم في هذه الحرب التي كانت ضعيفة في الأساس معجلين بسقوط دولتيهما.

لقد تعرضت كل المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر خوانخا إلى النهب والإفلاس، إضافة إلى محافظة شاندون الحالية، بحكم أن نهر خوانخا في عام ١١٩٤ غير اتجاه مجراه، اقترح المغول في نهاية عام ١٢١٥ السلام للتشجورتشجينيين بشرطين: أن يتنازل التشجورتشجينيون عن كل الأراضي الواقعة إلى الشمال من نهر خوانخا، وأن يتنازل إمبراطورهم عن لقب الإمبراطور، ويحتفظ بلقب الأمير فقط، ويحكم الأقاليم الجنوبية المتبقية من دولة تسزين، لكن التشجورتشجينيين لم يوافقوا على هذين الشرطين.

في عام ١٢١٦ رجع جنكيز خان إلى مقره في منغوليا على نهر كيرولين، وبهذا انتهت الحقبة الأولى من حروب المغول النشطة مع التشجورتشجينيين، إن المغول في الأساس مارسوا نهب خيرات الدولة التشجورتشجينية واجتياحها، ولم

يستثمروا المساحات التي احتلوها، ولم يبقوا في المدن حتى حامياتهم العسكرية، غالباً ترجع إدارتها بعد خروج فصائلهم العسكرية من الأراضي المحتلة للتسزين أنفسهم، ولهذا كان السبب الأساسي في رفض التشجورتشجينيين التنازل عن المساحة الواقعة شمال نهر خانخا. إن نتائج الحروب بالنسبة للمغول الانتصار دوماً والاستيلاء على الغنائم الثمينة، يخبرنا رشيد الدين أنه «بعد أن أخضع جنكيز خان خلال السنوات الثلاثة أو الأربعة الأخيرة المدن والقلاع الصينية واستولى عليها، التي ذكرت سابقاً وفق ترتيبها، رجع من تلك البلاد منتصراً، وفي ذلك العام نفسه، أي عام الفأر آب إلى مقره سعيداً ومحققاً كل رغباته، وسمح للجميع بالاسترخاء في ديارهم وعلى الأمر السلام» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٧٧].

ومنذ ذلك التاريخ كان جنكيز خان يرى أنه رد ما لحق بأجداده من إهانات التشجورتشجينيين؛ لأنهم لا يمكنهم الآن أن يلحقو به الضرر، ولا يمثلون خطراً كما سبق، ويبدو أن هواجس الظافر في ذلك الوقت تحددت في الغالب الأعم بالاتجاه غرباً، كان الانتقام رهيباً، كما ذكرنا سابقاً «جبال من الجثث».

سنورد أيضاً مثالين: عندما سقطت مدينة باوتشجو طرد المغول كل سكانها ونهبوها، ثم بعد ذلك قضوا في البداية على العجائز، وبعد يومين قتلوا كل السكان المتبقين بما فيهم الشيوخ والشباب، الأغنياء والفقراء، لقد قضي على مئات الآلاف من الأشخاص، وتكومت الجثث أكواماً بكل ما تحمل الكلمة من معنى، يروي مؤلف «التاريخ السري» أن الإمبراطور التسزيني عندما هرب من الشمال إلى الجنوب كان جيشه في وضع حرج إلى درجة أن «الذين نجوا من الجيوش الكيدانية عانوا من الجوع، إلى أن بلغ الأمر بالمحاربين الذين كادوا أن يموتوا جوعاً بقتل بعضهم بعضاً وأكلهم» [السيرة المكنونة، ص١٨١].

وهكذا كان الاجتياح مرعباً وغنائم المنتصرين عظيمة، لقد أخذوا المعادن الثمينة والحرير والأواني[1]، كان عدد الأسرى وفيراً فأبادوا الزائدين منهم.

لقد استولى المغول على كمية كبيرة من الأسلحة والعتاد الحربي، كما أسروا حشداً كبيراً من الفنيين العسكريين، الذين كان بمقدورهم التعامل مع الأسلحة وبمقدورهم تعليم الآخرين أيضاً استعمالها. كانت نتيجة الحرب التي استمرت خمس سنوات مع تسزين الإقبال العام والانضمام إلى جانب المغول والكيدانيين والصينيين، ففي عداد المنضمين إلى المغول من التسزينيين من قادة وجنود من مختلف الشعوب ـ على حسب رأي ل. غامبيس ـ كونوا ستّاً وأربعين فصيلة عسكرية [غامبيس، ص١٠٧]. ومن تلك اللحظة لم يكن ميسوراً لغير المغول مواصلة الغزو على دولة تسزين، وبالتحديد بعد ذلك صار الجيش المغولي، وبصورة أدق جيش جنكيز خان، جمعاً من غزاة ولصوص متعدّدي الجنسيات والقبائل، إن نتيجة الحرب بالنسبة لدولة تسزين التي استمرت خمسة أعوام كانت الاجتياح والانهيار، وكما كتب مؤخراً تشجاو خون «إن التتار ضايقوهم حتى أسوار مدينة يانتسزين، وعند نهاية الحرب قضي على القوات العسكرية التي أسسها قطاع الطرق التسزينيين على مدى مائة عام وتوزيعها تقريباً بكاملها، وآلت دولتهم للانحطاط» [التدوين الكامل، ص٧٣].

ارتبطت المرحلة الثانية من غزو تسزين باسم موخالي، في عام ١٢١٧ منح موخالي لقب أمير؛ أي غو فان، وشهادة يحق بموجبها حكم العمليات الحربية وإدارتها في شمال الصين، وختم ذهبي يؤكد حقوقه في شمال الصين تبعاً لتقليد ينص على أن «الأبناء والأحفاد من جيل إلى جيل سيتوارثون حكم الدولة». إن أمر

(١) عن القدر الذي تم نهبه في الصين تشهد تلك الحقيقة التي تقول إن جنكيز خان أهدى سوبيتاي مكافأة على إسقاط إحدى مدن تسزين حمولة عربة كاملة من الذهب والحرير [يوان شي، الفصل ١٢١، ص١ب].

جنكيز خان ينص على أن «الأراضي الواقعة إلى الشمال من جبال تايخان سأحكمها، أما أنت فستحكم الأراضي الواقعة إلى الجنوب من جبال تايخان، التي يجب أن تضفي عليها جهودك» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص١٢أ]، كما منح موخالي عربة احتفالات وعلماً ذا تسعة ألسن وعرشاً من الفضة، وأعلن للجميع أنه «عند إصدار موخالي أمراً يرفع هذا العلم، إن هذا يساوي حضوري بشخصي» [المصدر نفسه ص٢ب]. أنشأ موخالي إدارات ميدانية على مستوى المحافظات وللغزوات أيضاً؛ أي «سيتشين»، كما أمر بإعداد خرائط للسهول الوسطى؛ أي شمال الصين.

كان موخالي ينفذ أوامر جنكيز خان دون تباطؤ، ففي عام ١٢٢٢ ظهرت نجمة غير عادية، مما حدى بقيادات الجيوش بناءً على هذه العلاقة السماوية بإيقاف الغزوات، حينها قال موخالي: «أمرني الحاكم بإخضاع السهول الوسطى، وعلى الرغم من أنه تم احتلال خيباي، إلا أن السيطرة لم تتم على خينان وتسينغو، فإذا لم أسر إلى الأمام من أجل الظاهرة السماوية، فمتى سأخضع لمن هو تحت السماء؟ إذا خرقت أمر الحاكم فهل أكون من الحافظين للوفاء؟» [المصدر نفسه، ص٣أ].

تتسم المرحلة الثانية من الحروب المغولية باستخدام كبير للتشكيلات العسكرية من سكان تسزين، إن الصينيين والكيدانيين كانوا يحاربون تارة إلى جانب المغول وتارة إلى جانب التسزينيين وحينها صار المغول لا ينهبون فحسب بل يستثمرون الأراضي التي احتلوها، بل إن الصينيين بحكم بغضهم للتشجورتشجينيين صاروا طوعاً في الغالب الأعم يناصرون المغول، ومثال ذلك أسرة النبيل شي التي كون ممثلوها «طوائف الفرح الطاهر» أي (تسين ليّ شيّ) و «جيش الفرح الطاهر» أي (تسين ليّ تسزيون). إن هذه الطوائف والجيش دعموا المغول بنشاط وحاربوا إلى جانبهم، حارب الجيش الأسود الصيني ضد تسزين إلى جانبهم أيضاً، كما أنشأ

الكيداني فان سيون مجموعة تسمى «سنحمي أهلنا»؛ أي (باو تستسزو) وجلب لهم مائة ألف مقاتل.

لقد شجع جنكيز خان كل الذين أقبلوا لمناصرته، فقلدهم أعظم الألقاب، ومنحهم السلطة، على الرغم من أنه في شمال الصين كانت تدور الحرب، لكن أصبح الغرب تدريجياً قاعدة الانتصارات المغولية، جرت التحركات الحربية في الأساس على أراضي شبه جزيرة شاندون الحالية، ومحافظتي شانسي وشينسي، وللعام ١٢٢٢ استولى المغول على مدينتي تايوان وتشاتان، وفي العام نفسه توفي موخالي بسبب مرضه وهو ابن الرابعة والخمسين، وقبل الموت ذكر لأخيه الصغير دايسون قائلاً: «إنني كنت من المساعدين في إنشاء الدولة، وقمت بأعظم الأعمال، وحققت النجاحات، حملت السلاح أربعين عاماً، وغزوت الشرق عدة مرات، وأخضعت الغرب، ولست نادماً على شيء عدا أنني لم أسيطر على بيانتسزين، فأخضعها» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص٣ب].

أصابت الحقبة الأخيرة من حياة جنكيز خان هزات أرضية عنيفة في منطقة خيبا التي كانت نتائجها عصيان شعبي ضد المغول، وإرجاع بعض المساحات التي تم احتلالها إلى دولة تسزين، إضافة إلى ذلك نشبت حرب بين قائدين صينيين هما شي تيانير وأُو سيان اللذين سبق لهما أن انضما إلى صفوف المغول، قتل أُو سيا شي تيانير وسلم نفسه إلى التسزينيين، ولكن شقيق المتوفى شي تيانتسزا بصحبة الجيوش المغولية قضى على أُو سيان الذي هرب إلى بيان، وهكذا تمت السيطرة من جديد على خيبا تدريجياً، ففي عام ١٢٢٧ ـ عام وفاة جنكيز خان ـ تمكن المغول من السيطرة التامة على شبه جزيرة شاندون، وصى جنكيز خان قبل وفاته بإخضاع تسزين بالاتحاد مع سون إلى درجة أنه قال إنه يتوجب أن تبدأ الحرب بالاستيلاء على بوابة التنغوان غرب البلاد.

قاد أوغاداي خليفة جنكيز خان بنفسه الحرب ضد التسزين في عام ١٢٣٠ على المنطقة التي أوصى بها جنكيز خان، وفي عام ١٢٣٢ تكبدت الجيوش التسزينية الهزيمة النكراء عند بوابة تونغوان، وسلم قائدها نفسه للمغول، أما الجيش الذي كان تحت قيادة سوبيتاي فقام بمحاصرة مدينة بياتيا المكتظة بالسكان، فانتشر الوباء والجوع بين السكان. تشير بعض المصادر إلى أن عدد الموتى بلغ حوالي تسعمائة ألف شخص، وسقطت المدينة، وهرب الإمبراطور التسزيني. وفي عام ١٢٣٢ توحد المغول مع سون من أجل السيطرة التامة على دولة تسزين، ومن شروط الاتحاد السونية أن تعاد لهم كل أراضي خينان، وفي عام ١٢٣٤ اختبأ آخر إمبراطور تسزيني؛ أي تسزون في مدينة تسايتشجوو، ولكن الجيوش المغولية والسونية حاصرت المدينة، السبب الذي جعله ينتحر، وبهذا سقطت المدينة، وانتهت أسرة تسزين ودولتها. ولقد حدث كل هذا بعد سبع سنوات من وفاة جنكيز خان، وبهذا تبقت دولة سون والصين فقط، ولكن قصة احتلالهما لا تدخل في بحثنا هذا.

في عام ١٢١٦ رجع جنكيز خان إلى منغوليا، وكانت كل أفكاره حينها متجهة نحو السيطرة على الغرب، ولكي يطمئن على ذيول جيشه قرر مرة أخرى بث الرعب في نفوس جيرانه القاطنين في الشمال والجنوب.

في عام ١٢١٦ قاد سوبيتاي باتور وتوكوتشار باتور بأمر جنكيز خان حملة على الشمال ضد الميركيت، الذي كال المغول لهم الضرب مرات عديدة؛ لأن جنكيز خان كان على علم بأن الميركيت «من جديد يعدون جمعهم ويريدون مواصلة التحركات العدائية». كان جنكيز دوماً يخاف أهله التتار المغول أكثر من أعدائه الخارجين، «ولكن سحق قواده المغول كل قبيلة الميركيت إلى درجة أنهم لم يتركوا واحداً منهم على قيد الحياة». ابن الزعيم الميركيتي كودو، الذي يدعى ميرغين المشهور برمي السهام، تم القبض عليه حياً، وأخذ إلى تشجوتشي وقد طلب

العفو عنه من جنكيز خان، ولكن جنكيز رفض الطلب قائلاً: «لقد سيطرت من أجلكم على الكثير من الدول والجيوش، فلأي غرض تحتاجون إليه؟» وهكذا أمر ابنه بالرد على سؤاله، يخبرنا رشيد الدين: «ولهذا السبب تم القضاء أيضاً على ميرغين ولم يبق بعده أثر لهذه القبيلة. آمين!» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٧٧-١٧٨].

في شتاء عام ١٢١٧-١٢١٨ حاول المغول مرة أخرى القضاء على الدولة التانغوتية، وفي فبراير عام ١٢١٨ حاصروا عاصمة دولة سي سيا بعد أن سيطروا على العديد من المدن التانغوتية ونهبوها، ولكن حاكم التانغوت تسزون سيان كنظيره حاكم التشجورتشجينيين سيوان تسزونو أصابه الخوف، وامتنع عن قيادة الدفاع عن العاصمة بنفسه، آمراً بالدفاع عن المدينة لداجان خليفة العرش، بينما سافر بنفسه لمدينة سيليان، ومن هناك بعث بسفرائه للمحادثات، إن ذعره وتطلعه إلى الحلول سلمياً يمكن تفسيره بأن التانغوت كانوا على علم جلي بما فعله المغول في دولة تسزين، حينها أعد المغول أنفسهم لغزو الغرب، ولم يدخل في خطتهم الحصار الطويل لعاصمة سي سيا بعد معرفتهم أنّ الاستيلاء على المدينة الكبيرة المحكمة التحصين ليس بالسهل، كما أن الدولة التانغوتية كانت في حالة ملائمة جداً للمغول في حربهم مع دولة تسزين، وبهذا طلب جنكيز خان من التانغوت في ساعة المحادثات طلباً واحداً، هو مساعدتهم في غزو الغرب. إن الحرب مع تسزين وضحت أن الحرب بالأيدي الغريبة مريح، أبلغ السفير المرسل اسم جنكيز خان الحاكم التانغوتي «لقد وعدت بأن تكون ساعدي الأيمن، فدعك من أن تكون الآن كما وعدت حين أبدأ بغزو الشعب السارتاولي الذي قطع مقاليد حكمي الذهبية!» [السيرة المكنونة، ص١٨٦].

ولكن رد التانغوت بالرفض البات دفع جنكيز خان إلى الوعد بالقضاء عليهم بعد غزو الغرب، وأمر بسحب الجيوش عن أراضي سي سيا.

ماذا يمثل شمال الصين بعد الاحتلال المغولي؟ يمكننا أن نلاحظ من رواية بهاء الدين رودي، الذي ترأس بعثة خوارزمشاه إلى جنكيز خان، الذي أدركوه في داخل تسزين: «لقد بدت من كل النواحي آثار الاجتياح المرعب، وكونت عظام الموتى جبالاً بكاملها، وباتت التربة رخوة من شحوم البشر، وقيح الجثث جلب الأمراض» التي من جرائها مات بعض أصدقاء بهاء الدين، «وعند بوابة بكين انبسطت أكوام كبيرة من العظام» [رافيرتي، المجلد الثاني، ص٩٦٥] لقد كان انتقام جنكيز خان من أجل أمباغاي خاغان عظيماً، وهكذا أعلن جنكيز خان عن نفسه لكل العالم بعد عشر سنوات من مؤتمر كوريلتاي العظيم.

❋ ❋ ❋

الكارثة الأوترارية

«عندما رميت ببصري، ها هو فرس شاحب
عليه فارس اسمه الموت، ويعقبه الجحيم، منح
سلطة على ربع مساحة الأرض، يميت فيها
بالسيف والجوع والأوبئة ووحوش الغابات»

القيامة، الفصل الحادي عشر، ٨.

أقرب الدول المجاورة لجنكيز خان من جهة الغرب دولة الصينيين السود؛ أي لياو الغربية أو (سي لياو)، التي كانت من الدول المعادية له، ودولة خوارزمشاهيين الواقعة على السهول الكيبتشاكسية (ديشت إكيبتشاك)، كانت الدولة الخوارزمشاهية في الأعوام ١٠٩٧-١٢٣١ بموازاتها بالدول الأخرى من أقواهم، في السنين العشر الأخيرة من وجودها ضمت المساحات الآتية: ما وراء النهر، وخراسان، ومازندرانا، وقرمان، والعراق الفارسي، وأذربيجان، وسيستان، وغازني، في بداية القرن الثالث عشر الميلادي وعندما برزت على الساحة العالمية الدولة المغولية كقوة عظمى حارب الخوارزمشاه علاء الدين محمد ضد الصينيين السود والملاك المحليين لسهول آسيا الوسطى، وفي العام ١٢٠٧ سيطر على بخارى، وفي عام ١٢٠٨ استولى على مدينتي غيرات وخوارزم، وفي حروبه مع الصينيين السود حدث أن وقع أسيراً، ولكنه استطاع الفرار، كان يدفع جزية للغور خان من الصين السود، ولكن القوة جانبت الصينيين السود.

في عام ١٢٠٩ وصل إلى العاصمة رسول غور خان توشي لاستلام الجزية، ولكن تصرفاته الرعناء (إذ جلس على العرش بجوار الخوارزمشاه) انتهت بموته، أما

أعوانه، فقد مزقت أوصالهم، ورمي بهم في نهر أموداريا. التقى الأعداء على السهب الإلاميشي، وأيد الله بنصره المؤمنين على أعدائهم من الكافرين، فر الصينيون السود، وحينها أغلق سكان بالاساغون عاصمة غور خان أبواب المدينة، ولم يسمحوا بمرور قادتهم الذين حكموهم وأخضعوهم، في خلال خمسة عشر يوماً حاصر غور خان عاصمتهم ودفع آلاف من علية سكان المدينة أرواحهم ثمناً لعدم الطاعة، وتم نهب البقية الباقية، قام العالم الإسلامي بتقييم نصر الخوارزمشاه كنصر المسلمين على الكافرين، ووهبوه لقب اسكندر الثاني أو ذي القرنين[1].

أضيف اسم السلطان السلجوقي سانجار إضافة إلى هذا اللقب من القرن الحادي عشر، وفي أختامه التي يمهر بها الوثائق أضافوا النص «المتواضع» هو: «ظل الله على الأرض». في العام ١٢١٢ قامت ثورة سمرقند ضد خوارزمشاه التي قادها آخر من آل قارخانيد التابعين لعثمان، قام خوارزمشاه بإعدام عثمان، وقتل عشرة آلاف من أتباعه الجدد، في عام ١٢١١ قام كوشلوك ابن القائد النايماني تايان خان واستولى على مقاليد الحكم، وحرم القائد الصيني الأسود غور من الحكم، تمتع كوشلوك قبل هذه الواقعة بثقة آخر حاكم غور خان جيلو كو، وقد كان متزوجاً من ابنته، كانت كونكو ابنة غور خان امرأة متسلطة، ونجحت في إرغام كوشلوك في تغيير ديانته من المسيحية إلى البوذية، بعد أن لمس كوشلوك أن الكثيرين في دولة الصين السود يميلون إلى نفوذ غور خان وسلطته وحتى خوارزمشاه عندما علم بالمفضل الجديد في بلاط غور خان دخل معه في علاقة ودية، لما علم كوشلوك بهزيمة غور خان بسيف خوارزمشاه «قام وبكل سرعة ضرورية وهجم عليه (أي غور خان. تعليق المؤلف). في الوقت نفسه الذي كانت قوات هذا الأخير قد تشتتت وكان نفسه محاصراً، ولما كان غور خان لا يملك مخرجاً آخر أراد أن يتنازل أمامهم بكل سلام، لم يسمح كوشلوك بذلك، وكان ينظر إليه في عداد والده ويكن له

(١) كان اسكندر المقدوني معروفاً في العالم الإسلامي باسكندر ذي القرنين.

الاحترام بشكل ظاهري فقط؛ لأنه في واقع الأمر كان قد أخذ بزمام السلطة في مناطق تركستان، التي كانت تتبع لغور خان، وكذلك مقدماته ورتبه القيصرية كافة، في عقد عامين من الزمان أسلم غور خان روحه لبارئها بسبب حزنه لفقد ممتلكاته، التي جمعت من خلال الثلاثمائة وخمسة الأعوام، كل هذا انتقل إلى أيدي كوشلوك» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٨٢]، وهكذا امتلك كوشلوك عرش غور خان التابع للصينيين السود، وأصبح منافساً لخوارزمشاه.

نفذ كوشلوك سياسة داخلية تفتقر إلى المرونة بنفسه، الذي يعدّ مرتداً، حيث ترك المسيحية واعتنق البوذية، وصار يلاحق المسلمين، «أطلق العنان ليديه على مواطنيه بالقهر والابتزاز» [المصدر نفسه]، طالب المسلمين بتغيير عقيدتهم إلى المسيحية أو البوذية ودخل في مجادلة مع أئمة المسلمين خوتان، التي انتهت بأن أحدهما وهو الإمام علاء الدين محمد الخوتاني أهان الحاكم قائلاً: «فليكن التراب في فمك يا عدو الإيمان الحقيقي» [المصدر نفسه، ص١٨٣]، نظير ذلك تم صلبه على أبواب مدرسته، ومنذ ذلك الحين أصبح كوشلوك جالساً على ممتلكاته كالجالس على النار.

سبق أن ذكرنا أن سوبيتاي باتور قد أُرسل للغزو على الميركيت، على الرغم من أن رشيد الدين يخبرنا أن الميركيت كافة قد أبيدوا عن بكرة أبيهم، إلا أن أعداداً قليلة منهم قد هربت إلى السهل الكيبتشاكي في مناطق قازاخستان الحالية، الأكثر قرباً لهذه المناطق، أصبح تشجوتشي أو حاكم «شعوب الغابات»، كما ذكر في كتاب «يوان شي»: «في عهد بناء دولة [تشجوتشي] صار حاكماً عظيماً (تسين فان)، وأقطعوه الشمال الغربي كمنحة يتعيش عليها، هذه الأراضي التي تقع على بعد عشرات آلاف لي عن العاصمة، يتطلب الوصول إليها على خيول البريد

السريعة، التي تبدل في أثناء المسير، أكثر من مئتين وعشرين يوماً» [يوان شي، الفصل ١٠٧، ص١س]. أمر تسجوتشي بأن يكمل القضاء على الميركيت، الأمر يبدو قد وصل إليه في حينه على الرغم من بعد المسافة.

وهكذا بدأ الفصل المغولي تحت إمرة تشجوتشي في تعقب الميركيت، توجه خوارزمشاه في هذا الوقت للغزو شمالاً ضد الكيبتشاكيين. كان المغول قد قضوا على الميركيت عند ظهور خوارزمشاه في ساحة القتال، لم يود تشجوتشي أن يدخل في عراك مع خوارزمشاه، وأعلن أن جنكيز خان أرسله على الميركيت فقط.

أعلن محمد أن كل الكفار أعداءه وأعلن الحرب على كل غير المسلمين أي المغول، حسب معلومات ابن الأثير: «دامت الحرب ثلاثة أيام بلياليها، ومات فيها من الجانبين ما لا يحصى، ولكن لم يفز أي من الجانبين، بلغ الأمر إلى أن أحد الفرسان منهم يترجل ويشتبك مع عدوه، تعاركوا بالمدي وسال الدم إلى درجة أن الخيول زلقت به لكثرته، وخسرت الفرقتان في الحرب وفي الانتظار» [ابن الأثير، ص٧] لم تكن نتيجة المعركة واضحة، وعندما قام المسلمون بتجديد القتال لم يجدوا المغول، فقد انسحبوا عند حلول الليل، وتركوا كعادتهم نيرانهم مشتعلة وبذلك خدعوا المسلمين.

يجب القول إن فكرة غزو منغوليا والصين واحتلالها كانت تعيش في داخلة نفس خوارزمشاه منذ أمد بعيد، كان دائماً يسأل التجار عن ثروات الدولة الشرقية، فنما طمعه ونجاحاته بشكل ملحوظ في نمو شخصيته كجنكيز خان جديد، يخبرنا جوزجاني قائلاً: «نحن كخدمه وأتباعه المقربين، حاولنا إقناع خوارزمشاه بالعدول عن هذه الفكرة، معللين قناعتنا ببعد المسافة وصعوبات الطريق والعوائق الأخرى، ولكن خوارزمشاه أصر على رأيه، عندما بلغته الأقاويل إنّ جنكيز خان احتل

الصين، قرر التأكد من صحة الأقاويل، وأرسل إلى الصين إرسالية بقيادة السيد النبيل بهاء الدين الرازي» (انظر [بونياتوف، ص١٣١-١٣٢]).

استقبل جنكيز خان رسل خوارزمشاه بكل ترحاب، وغمرهم بالهدايا، وأرسل هدايا إلى خوارزمشاه قائلاً للرسول:

- انقل إلى خوارزمشاه الآتي: «أنا مالك الشرق، وأنت مالك الغرب، فليكن بيننا اتفاق متين على الصداقة والسلام، ودع التجار وقوافل كلا الجانبين ليذهبوا ويعودوا، كما المشغولات الثمينة والبضائع العادية التي في أرضي فيروحوا بها، وتلك التي لديك بالترتيب نفسه فليجيؤوا بها إلي!».

من الجائز أن الأكاديمي ف. س. بارتولد كان على حق عندما كتب: «قد لا يعرف ما إذا كان جنكيز خان في ذلك الوقت قد حلم بالسيادة على العالم» [بارتولد، تركستان، ص٤٦]. لكن هذا الاتفاق يشبه إلى حد ما «اقتسام العالم» المنظور والمطروق للطرفين، هذا هو البرهان الأول والبرهان المهم على أن جنكيز خان، بعد انتصاراته على تسزين، لم يفكر بتحجيم دولته حدود منغوليا؛ إنما كان يفكر بمقاييس دول العالم، لقد عد نفسه «مالك الشرق» مستحوذاً على الشرق كله؛ أي كل ما يمكن أن يصل إليه الفارس على ظهر حصانه السهلي الدؤوب.

بعث جنكيز خان رداً على إرسالية خوارزمشاه بهدايا ثمينة من ضمنها قطعة من الذهب بحجم سنم جمل (حملت على عربة وحدها) واليشم والمسك ومنسوجات من وبر الجمل . . . استقبل محمد الرسل في بخارى، قام الرسل بإبلاغ محمد أن جنكيز خان قد سمع عن انتصاراته ومجده، وعليه أن يعرض اتفاق سلام، وعزمه عن استعداده ليضعه في عداد «يتساوى مع أغلى أبنائه»، ويعني هذا باللغة الدبلوماسية الشرقية أن الاعتراف هو الاعتراف، ولكن التساوي بينهم لا يمكن أن يكون، جنكيز الأب الأكبر، لتأكيد هذا عبر اقتراح جنكيز عن الأمل في أن

محمداً، الذي يعرف عن انتصاراته في الصين، أي ببساطة ترويع خوارزمشاه «أنت لدي كأغلى ابن عندي، وليس بخافٍ عليك باستيلائي على الصين وبلدان الترك المجاورة، وقد انصاعت لي قبائلها كافة» [بونياتوف، ص١٣٣].

لا نعلم بماذا رد خوارزمشاه على رسل جنكيز خان، ولكنه دعا بشكل سري رئيس رسل جنكيز محمود الخوارزمي، وأسر إليه بأن يكون له عيناً في قصر جنكيز، وأوكلت إليه مجموعة من المهام:

- هل حقيقة ما قال لي جنكيز أنه مالك للصين، وهل حقيقة أنه استولى على مدينة تامغاج، هل وقع هذا؟

- حقاً إن هذا واقع، شيء عظيم، مثل هذا لا يمكن أن يكون في الخفاء، وعما قريب سيتأكد السلطان بنفسه من ذلك.

- أنت تعلم أن مستعمراتي مترامية الأطراف، وأنت تعلم مهابة جيشي، كيف يأتي لهذا الدعي أن ينعتني ابنه؟ ما قدر جيشه؟

- إن قوات جنكيز خان مقابلة بجيوش خوارزمشاه مثل فارس وحيد أمام خيالة، أو خيط دخان في عتمة الليل [المصدر نفسه، ص٣٣].

حذر محمود خوارزمشاه في بادئ الأمر، «الشيء الذي تأكد منه السلطان بنفسه فيما بعد»، ولكن كما يقول المؤلفون المسلمون «رجع في الحق»، وأعطى لخوارزمشاه معلومات مضللة عن جيوش جنكيز خان، فلعل التاجر خاف وقرر لو أنه قال الحقيقة عن جيش جنكيز، لن يخرج من قصر خوارزمشاه حياً، قام خوارزمشاه بإهدائه حجراً كريماً، وطلب منه أن يتذكر دائماً بأنه خوارزمي.

تم عقد الاتفاق ورجع الرسل إلى جنكيز، وحملت الإفادات الليلية التي قدمها محمود طواعية، في باطنها أسوأ النتائج لوطنه.

يعدّ إ. ب. بيتروشيفسكي إفادات محمود أنها أثبتت أن «خوارزمشاه لا يحمل أدنى فكرة عن واقع إمبراطورية جنكيز خان ولا عن إمكاناته العسكرية» [بيتروشيفسكي، ص١٠٥]، كانت لجنكيز خان علاقات وثيقة مع تجار آسيا الوسطى «فلهذا لا يمكن أن نتصور أن جنكيز لم يتمكن من الحصول على المعلومات الضرورية له قبل عامين من نشوب الحرب» [المصدر نفسه]. يبدو أن خوارزمشاه امتلك بعض المعلومات عن بعثة بهاء الدين، ومن بعثاته والفارين من الصين ومنغوليا من الأويغوريين والكارلوكيين وأخيراً من كوتشلوك، لم يستطع أن يصدق أن جنكيز بجيش ضئيل للغاية استطاع الاستيلاء على الصين، استطاع التاجر المخادع أن يحذر رغبة الخوارزمشاه وحدثه بما يسر قلبه، لم يحب خوارزمشاه أن يسمع الحقيقة فلم يسمعها.

كان التجار المسلمون في تلك الأعوام يسيطرون على التجارة بين آسيا الوسطى والشرق الأدنى من جهة، وما بين الصين ومنغوليا من جهة أخرى، أرسل جنكيز خان إلى المناطق التي تتبع لخوارزمشاه قافلة تجارية ضخمة قوامها ٤٥٠ تاجر مسلم حملوا على خمسمئة ناقة بضائع جنكيز خان التي نهبت في أراضي التانغوت ودولة التشجورتشجينيين، ذهب وفضة والحرير الصيني وجلود السمامير وأنواع الفراء الأخرى من جنوب سيبريا والأجزاء الشمالية لتسزين، كانت قافلة المغول تختلف عن قافلة التجار، ووصل معها أيضاً أوخونا رسول جنكيز خان.

كان لدى الأشخاص الذين وصلوا مع القافلة بشكل رسمي أمر «بالذهاب إلى أراضي خوارزمشاه والاشتغال بالتجارة وشراء البضائع الثمينة والنادرة التي يتمتع بها ذلك الإقليم»، وورد في الرسالة التي حملها معه أوخونا الآتي: «التجار هم عماد الدولة، إنهم الذين يجلبون للقادة الأشياء الثمينة والنادرة، ولا يوجد ما يسوغ معاكستهم في هذا الشأن، ومن جانبي لا توجد عندي أيّ نوايا لمعارضتهم في

الاتجار معكم، يترتب علينا العمل معاً وبشكل جماعي من أجل نهضة أقاليمنا وعمرانها، لهذا فقد أصدرنا أمراً بأن يسود السلام على الأرض بين جميع الدول، حتى يتمكن التجار دون خوف من السفر في البلدان، الأغنياء والفقراء سيتعيشون في سلام وسيحمدون الله» [بونياتوف، ص١٣٥]. كان في الرسالة عيب واضح، لم يفت بغير ملاحظته في دولة خوارزمشاه، وهو أن جنكيز «أصدر الأمر» لكي يسود السلام بين الدول على الأرض، وفي الرسالة أعلن جنكيز خان نفسه حاكماً على العالم!

وصلت قافلة جنكيز إلى حدود مملكة خوارزمشاه في مدينة أوترار، يحدثنا المؤرخ العربي ابن الأثير عن تطور الأحداث فيقول كالآتي: «وصل (أي التجار) إلى إحدى مدن الترك المسماة أوترار، التي تشكل إحدى المدن الحدودية لإقطاعية خوارزمشاه، الذي كان لديه نائب في المنطقة، عندما بلغه هذا الفيلق التتري فإنه (أي الممثل) أرسل لخوارزمشاه يعلمه عن وصولهم، وعن الممتلكات التي بحوزتهم، أرسل له خوارزمشاه أمراً بقتلهم جميعاً وبتجريدهم من ممتلكاتهم التي بحوزتهم وإرسالها إليه، قام (نائب خوارزمشاه) بقتلهم وإرسال ما بحوزتهم، وكانت كثيرة، عندما وصل ما أرسل لخوارزمشاه قام بتوزيعه على تجار مدينة بخارى وسمرقند وأخذ قيمتها (أي البضائع لنفسه» [ابن الأثير، ص٥].

هناك وجهات نظر مختلفة حول تفاصيل هذه الواقعة، تبعاً لوجهات النظر هذه فإن محمداً قد أمر حيدر خان إينال (إينالتشيك) نائبه في مدينة أوترار بإلقاء القبض على التجار، ولكنه قام بقتلهم حسب وجهة نظره الخاصة، وسلطته المخولة له، متهماً إياهم سلفاً بالتجسس، يفترض كثير من الباحثين أن المرافقين للقافلة من المغول كانت كانوا موكلين بالتجسس على أوضاع الدولة في خوارزمشاه.

ومهما كان الحال فإن التجار ومن رافق القافلة من المغول صاروا ضحايا لشكوك والممثل للخوارزمشاه وجشعه بل له شخصياً، يكتب في هذا السياق مباشرة ز. م. بونياتوف أن «المسؤولية عن هذه الجريمة تقع مباشرة على زعيم الدولة، ذلك لأن الاعتداء الذي وقع على التجار يخالف القواعد الاجتماعية كافة المتبعة بين الحكام كافة، وبعكس ذلك تم قتل الرسل الذين كانوا واقعين تحت القواعد العامة المتعارف عليها» [بونياتوف، ص١٣٥].

تمكن واحد فقط من التجار (ويفترض أنه جمّال) من إنقاذ نفسه وإيصال الخبر المفجع إلى جنكيز خان، ومن المحتمل أن هذا الشخص ترك حياً عن عمد، وقصد بذلك أن يقص على جنكيز خان ما تم بشأن الجواسيس، كان في هذه القافلة عدد كبير من الذين لا ينتمون للتجار، كما كتب إ. ب. بيتروشيفسكي «هؤلاء الناس لم يكونوا تجاراً، وأوكلت إليهم مهمة أخرى، وهذه المهمة هي التجسس العسكري» [بيتروشيفسكي، ص١٠٧]. بدأ رجال جنكيز خان حسب معلومات بعض المؤلفين المسلمين بترويع مدينة أوترار «بالمصائب المقبلة» [المصدر نفسه، ص١٠٦] أي الغزو المغولي، يعلم من إفادات محمد بن قيس الرازي أن الشائعات عن الهجوم المرير قد انتشرت في مدن دولة خوارزم قبل غزو المغول، مما سبب الذعر وسط السكان، ماذا تبقى لخوارزمشاه أن يفعل؟ هل يترك هؤلاء الناس يمارسون عملهم بلا رادع أم يوقفهم عند حدهم؟ لقد كان مليئاً بالعزم على الرغم من أن بعض التردد قد داخله، في معركة دامت ثلاثة أيام مع تشجوتشي، فقد منها عشرين ألف مقاتل، ولكن ساحة المعركة بقيت لديه، كتب النسوي أنه بعد الوقعة مع تشجوتشي «دخل الرعب في قلب السلطان»، وذلك بعد أن تأكد بنفسه من الشجاعة والفن الحربي للمغول، ولكن لا ننسى أن كل هذا كتب بعد أن استولى المغول على خوارزمشاه، ومؤخراً فقط أصبحت نتائج المذبحة في أوتراو واضحة، كتب مؤخراً جويني «نظير كل قطرة

من دمهم (أي تجار جنكيز خان) سالت أنهر من الدماء، ويظن أن في الجزاء على كل شعرة من رؤوسهم تدحرجت على الأرض مئات الآلاف من الرؤوس، تدحرجت على الأرض، وعلى تقاطع الطرقات» [جويني، المجلد الأول، ص٨٠]. لعله كان بإمكان خوارزمشاه محمد وحيدر خان إينال أن يتصرفوا بشكل مختلف، ولا يعطوا حجة لجنكيز خان للانتقام، نحن لا نعرف الظروف كافة، ولكن من الواضح أنهم عرفوا بالخطر، ولكن ظنوا أن لديهم قوة كافية لرد غزو جنكيز خان.

قام جنكيز خان عند وصول الأخبار بمقتل القافلة في أوترار بإرسال بعثة للاستفسار عما حدث برئاسة ابن كفرجيني بوغر، كان المطلب الأساسي لجنكيز خان تسليم حيدر خان إينال، هناك روايتان عن «بعثة» جنكيز خان إلى خوارزمشاه: في الرواية الأولى قام الرسول بإبلاغ الآتي: «لقد منحت الوعد الموثق بيدك ضمان أمن التجار وعدم مهاجمة أي منهم، ولكنك تصرفت بغدر وحنثت بكلمتك، والغدر وضيع، وأكثر غدراً إن كان من العاهل الإسلامي خاصة، فإذا أكدت لنا أن ما تم من جانب إينال لم يتم بإرادتك، فسلمنا إياه، اعطنا إياه حتى نقوم بعقابه على جرمه، وذلك حقناً للدماء، بخلاف ذلك ستكون الحرب التي تهان لها الأرواح وتتكسر فيها الرماح» [بونياتوف، ص١٣٦].

هذه الرسالة تحمل سؤالين لا رد عليهما، يفهم من هنا أنه كان هناك نوع ما من الاتفاق المكتوب بين خوارزمشاه وجنكيز خان «وعد موقع بيدك» لا نعلم عن هذا الوعد شيئاً، فيما عدا ذلك أرسل خوارزمشاه بعد الذي حدث في أوترار رجاله مع تسويغ لما حدث، إنه يؤكد أن ما حدث في أوترار تم بغير إرادته، فمتى أمكن لهؤلاء القوم أن يدركوا جنكيز خان؟

أما الرواية الثانية للسبكي، التي تبدو أكثر تلاؤماً للأحداث «أخبرني بما حدث، أتم كل ذلك بإرادتك؟ فإذا حدث بغير إرادتك، فإننا نطالب بدماء المقتولين

ودم نائبك في أوترار، الذي يترتب تسليمه لنا في أسوأ حاله، ذليلاً ومن غير شرف، ولكن إذا تم ما حدث بإرادتك فإن المسؤولية تقع عليك، لأنني لا أدين بدينك، ولا أقر هذه الأفعال، إنك تدين بالإسلام، وهؤلاء التجار كانوا من دينك! ففي هذه الحالة كيف نقيم هذا الإقرار الذي أصدرته؟» [بونياتوف، ص١٣٦].

على الرغم من المعنى الكبير لهذه المعركة بين خوارزمشاه وتشجوتشي حيث بلغ عدد الموتى من جانب السلطان فقط عشرين ألفاً، وهذا يعني أن الحديث يدور عن آلاف الأرواح من المقاتلين المغول، ويبدو تسامح جنكيز خان تجاه خوارزمشاه غريباً، لقد أعلن خوارزمشاه أن الله يأمره بمحاربة المغول. يقال إن خوارزمشاه لم يستطع أن يسلم رينال للمغول، لأن هذا كان ابن خاله، ويتمتع بأقرباء عديدين نبلاء وذوي نفوذ، من الجائز أن الأمر كذلك، لكن لماذا يتحتم على خوارزمشاه أن يسلم إينال إذا كان يعلم أن الحرب لا بد منها، واستعداده لها (سواء أكان بشكل جيد أم لا) وقراره بخوض الحرب، عندما أراد جنكيز خان أن يكون هو ابناً له والذي افترض سلفاً أنه حاكم الكون وتشابكت أسلحته مع ابنه في سهول قازاخستان.

تظهر بعد الحروب الدموية والبشعة دائماً رواية عن أن هذه الحرب كان يمكن تجنبها، ولكن التاريخ لا يعيد نفسه، نصح جلال الدين بن خوارزمشاه بتسليم إينال، أصدر خوارزمشاه أمراً بقتل الرسول ابن كفرجيني بوغر، أما الاثنان من مرافقيه فأمر بجز ذقنهما. كتب المؤرخون المسلمون مؤخراً عن هذه الحادثة ما يأتي: «لم يكن عمل من قبل أكثر بشاعة من هذا، كل نقطة من دمهم (أي الرسل) دفعت بسيول من دماء المسلمين» (السبكي، انظر [بونياتوف، ص١٣٦]) على الرغم من أن هذا التقييم يعد محقاً، إلا أنه لم يكن لو انتصر خوارزمشاه. أرسل خوارزمشاه رده لجنكيز خان مع الرسل المهانين.

- إنني مقبل عليك ولو كنت في آخر الدنيا؛ لأنتقم منك وأعاملك كما تعاملت مع أتباعك!

هدد الشاه الخان بالموت، وهذا يعد إعلان الحرب، حسب شهادة الكتاب المسلمين، بعد أن استلم جنكيز خان هذا الرد قام بالصلاة لثلاثة أيام في خلوة داعياً:

- أيها الرب خالق الدنيا! يا خالق المسلمين والترك، لست أنا البادئ بكل هذه الفتنة، امنحني القوة للانتقام! (انظر [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٨٩]).

ولكن هذه أيضاً رواية المسلمين، ويرجع مضمونها إلى أن المذنب في كل هذه المصائب التي أهالها المغول على المسلمين هو خوارزمشاه، لا يوجد شيء كهذا في المصادر المغولية، توجد في «التاريخ السري» إشارة إلى أن أسباب نشوب الغزو الغربي ليس مقتل الرسل فقط، ولكن الرفض للخضوع وكسر اللجام الذهبي لجنكيز خان، الذي حاول عبره، وإن لم يخضع الشعب السارتاولي، فقد عقد العزم على ذلك «وعقب ما قام السارتاوليون بتوقيف مائة شخص من أفراد الإرسالية، التي كانت برئاسة أوخون رسول جنكيز خان وقتلهم، حينها قال الحاكم جنكيز خان: «سأهاجم غازياً الشعب السارتاولي، وبصورة قانونية سأنتقم للمائة من رجالي في الإرسالية بقيادة أوخون، هل يعقل أن نسمح للشعب السارتاولي أن يقطع زينة لجامي القيصري الذهبي دون عقاب» [السيرة المكنونة، ص١٨٢].

قرر خوارزمشاه عدم الإبطاء بالرد على مطالب جنكيز خان قبل أن تصبح أكثر قسوة ومليئة بالإهانات، لكن الشيء الذي كان أكثر تأثيراً في القرار هو علمه بعزم العرب وخليفة بغداد بتحريض جنكيز خان على بدء الحرب معهم، حسبما يخبرنا النسوي أنّ بعثة الخليفة الناصر اتجهت إلى جنكيز خان لتعرض على المغول الحرب

ضد خوارزمشاه، حارب خوارزمشاه ضد الناصر، ولم يعترف له بالزعامة الروحية، والناصر سابقاً حاول مصادمته عن طريق اتحاد مع كوتشلوك، الذي عرف بمطاردته ومضايقاته للمسلمين، ضد خوارزمشاه، ينبئنا ابن واصل: «عندما توجه خوارزمشاه نحو بغداد كتب الخليفة إلى جنكيز خان حاكم التتار محذراً له من الهجوم على دولة خوارزمشاه». هناك أنباء متطابقة مع ما ذكره المقريزي: «في عهده (أي الناصر) قام التتار بنهب دول الشرق، السبب لهذا كان كما يأتي: في واقع الأمر لقد كتب إليهم محرضاً بغزو تلك البلاد، محذراً من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزمشاه، عندما عزم على الاستيلاء على بغداد». (انظر [بونياتوف، ص١٣٧]).

كان بإمكان رسل الخليفة أن يبلغوا جنكيز خان بمعلومات قيمة عن الأحوال في دولة خوارزمشاه، كان كل من خوارزمشاه وجنكيز خان في أوج مجدهما وقوتهما، أحدهما كان من الواضح ينوي الانفراد في حكم العالم، واصطدامهما كان شيئاً لا بد منه، عزم جنكيز خان على خوض الحرب، وحتى خوارزمشاه لم يتهرب منها، إن هزيمة خوارزمشاه المتوقعة يمكن أن تكون سبباً لاتهامه وحده من قبل العالم الإسلامي في بدء الحرب، من الجائز أن البروفسور إ. ب. بيتروشيفسكي قد أبدى حزماً زائداً عندما كتب أن «سبب نشوب الحرب لم ينطلق من خوارزمشاه، هو لم يردها، وإنما أجبرته الظروف عليها، والمحرك الحقيقي للحرب في واقع الأمر هو جنكيز خان، على الرغم من أنه دبرها حيث إنه تمكن بشكل رسمي بإلقاء التهمة على خوارزمشاه، وذلك ليتفادى أن يبدو في أعين المسلمين عدواً للإسلام» [بيتروشيفسكي، ص١١١]. إن خوارزمشاه أيضاً مذنب في هذه الحرب، ولكن حسب نتائجها أصبح المسؤول الأول عن الأحداث، وشغل جنكيز خان موقع «المنتقم النبيل» لما لحق به من أذى، والآن هناك بعض المؤلفين

يكتبون أن المغول تمكنوا من السيطرة على نصف العالم بسبب أن هؤلاء قتلوا رسلهم، إن هذا لا يمت بصلة لواقع تلك السنوات الصعبة والرهيبة.

أما التخطيط للحرب في دولة خوارزمشاه، أو خطة الدفاع، فكان من المفترض أن يتم تجميع جيش قوامه أربعمائة ألف شخص على ضفاف نهر السردار، وتوجيه ضربة على المغول دون إعطائهم فرصة عقب الطريق الطويل حتى ممتلكات خوارزمشاه، إن هذه الخطة اعتمدت على عدم السماح للمغول بالتوغل في أعماق دولة خوارزمشاه، ولكن هناك خطة أخرى مبنية على هزيمة المغول في داخل حدود الدولة، أو فيما بين نهر سردار وأمودار، معتمدين على معرفتهم جغرافيا المنطقة، أو إغرائهم بالتوغل في الأماكن الجبلية صعبة المداخل، تم الاتفاق على الخطة التي ليست الأفضل، والتي تتضمن تحاشي معركة شاملة، وإعطاء كل مدينة الحق بالدفاع بشكل مستقل، ولكن هذه الخطة التي تم الاتفاق عليها نفذ القليل منها مما يختص باستحكامات المدن واستنفار السكان المقاتلين، بل الأكثر من ذلك أن خوارزمشاه قام بنهب مواطنيه جامعاً منهم الضريبة مضاعفة ثلاث مرات للعام ١٢١٩-١٢٢٠ الشيء الذي أدى إلى زيادة الشعور بعدم رضا رعاياه.

استعد أحدهما للحرب بشكل سيّئ أما الآخر فاشتعل غضباً كما سبق أن كتبنا، وحسبما يحدثنا رشيد الدين أن «وقاحة» خوارزمشاه تركت ذلك الانطباع على جنكيز خان لدرجة أنه «لم تبق لديه أيّ قوة للثبات والهدوء، وفي جذوة هذا الغضب صعد وحده إلى أعلى التل، ولف حول عنقه حزاماً، وعرى رأسه، وأحنى وجهه إلى الأرض، ثلاثة أيام قضاها في الصلاة والبكاء . . . بعدها أحس في داخله العلامات والبشارة، ونزل من هناك موفور النشاط ومسروراً وعازماً بشكل أكيد على تنظيم كل ما هو ضروري لخوض الحرب». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٨٩]. من المحتمل أن جنكيز خان كان بحاجة إلى

«العلامات والبشارة» من السماء الزرقاء الخالدة، وتسلمها بعد صلوات وانجذاب روحي طويلين.

في عام ١٢١٨ وقبل أن يقوم جنكيز خان بغزوته على خوارزمشاه أرسل تشجوتشي لإخضاع كوتشلوك حاكم الأنهر السبعة وكاشغار، كما ذكرنا من قبل كان كوتشلوك يقوم بمضايقة المسلمين في أراضيه، واستقبل السكان المسلمون مجيء المغول ليحررهم من سيطرة النايمان، قام تشجابي - وهو ما زال على مداخل كاشغار، التي كانت مقر كوتشلوك - بإعلان «من أجل أن يحتفظ كل شخص بإيمانه ويبقى دينه على طريق أجداده» [المصدر نفسه، ص١٨٣] نهض السكان المسلمون في وجه كوتشلوك متقمين للمطاردات السابقة التي تمت في الآونة الأخيرة، بعد أن فقد كوتشلوك نقطة الارتكاز وأصبح مطارداً، قام ولوقت ما باللجوء للاختفاء من المغول، الذين طاردوه، إلى أن ألقي عليه القبض في نواحي باداخشان وسلم إلى المغول، يقال إنه تم إلقاء القبض عليه بوساطة حاكم المماليك[1]، حصل المغول من باداخشان «على غنيمة حربية كبيرة تتكون من الأموال والأحجار الكريمة» [المصدر نفسه، ص١٨٣-١٨٤] انضم كل حوض تاريم والأنهر السبعة حتى تالاس إلى إمبراطورية المغول، وسع احتلال دولة كوتشلوك أملاك جنكيز، وأصبحت الخطوة الأولى في طريقه الذي يؤدي حسب تقديره إلى سيطرته على الشرق والغرب.



(١) حسب إفادة «يوان شي» أن كوتشلوك لقى حتفه على يد خاسيمايلي المسلم التابع لغور خان الصيني الأسود [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص٨ب].

وهكذا أجيب عن السؤال عن الحرب والغزو.

قبل بداية الغزو على الغرب بلغ جنكيز من العمر حسب تاريخ ميلاده الرابعة والستين، أو السابعة والخمسين، أو الثانية والخمسين، فلم يكن صغيراً في العمر وحتى موافاة الخمسين من العمر في ذلك الوقت كانت بالنسبة لحاكم الدولة ليست قليلة، هنا برز السؤال عن وريث العرش، وقد أثارته التتارية خانشا إيسوي، كل مولود لا يمكن أن يعيش خالداً، وحجتها في ذلك أن مملكة جنكيز خان «الكثيرة الأنفس» ترتكز على قوة شخصيته وسلطته، فإذا مات أفلا تنهار دولته مثل كوم من القنب أو سرب من الطيور.

تأمل جنكيز خان:

- لقد تناسيت كأنني لن ألحق عن قريب بخطى الأولين، ولقد تناومت كأنما لن يخطفني الموت، وهكذا فماذا ترى ابني الأكبر تشوتشي؟ رد علي! (كما ورد في «السيرة المكنونة» ص١٨٢-١٨٣).

لكن «لم يكد يفتح تشجوتشي فمه إذ حذره تشاداي: "إنك تأمر تشجوتشي بالكلام أولاً، لعلك تود بذلك أن تعلن تشجوتشي؟ كيف يمكن أن نسلم أمرنا لأسير الميركيت؟ قفز تشجوتشي عقب هذه الكلمات وأخذ بتلابيب تشاداي قائلاً: "الأب الحاكم لم يعلنك بعد وأنت تحاكمني؟" بأي أفضال تتميز علي؟ أليس بوحشيتك فقط تمتاز أنت عن الآخرين؟ اقطع إبهامي إذا تفوقت علي حتى في إطلاق السهام في الهواء الأعلى، ولا أقوم من قعدتي هذه إذا رميتني في الصراع، ولتكن إرادة الأب والحاكم».

استعد الأخوان للمبارزة، ولكن فرق ما بينهم والدة بورتي وموخالي، لزم جنكيز خان الصمت، تكلم كولو تسزوس ناطقاً بالكلمات التي ظلت طيلة عشرات السنوات تخدم دليلاً على الشكل التقدمي الذي مارسه جنكيز خان في توحيد

منغوليا «السماء ذات الأنجم تغيرت: كان نزاع عم الأمة، لم يطب الرقاد لأحد في سريره، كل شخص ينهب الآخر»، لقد ألمح للأمير الكبير تشاداي (تشاغاتاي) أنه ليس من الخير أن تسيء الأم التي قاسمت الأب العمل، وأما الأب «رأسه الأسود لم يبخل به، ودمه الأسود كذلك بسخاء سكبه، عيناه السوداوان لم يغمض لهما جفن، وأذناه المفلطحتان لم يضعهما على الوسادة، أكمامه بدلاً عن الوسادة وضعها، وافترش الأرض، أطفأ ظمأه بلعابه . . . وسكب العرق من جبينه حتى أخمص قدميه».

على كل حال أعطى كولو تسزو المفهوم بأنهم كانوا سابقاً ينهبون بعضهم بعضاً والآن سينهبون الشعوب الأخرى، وفهموا ما قصد، قرر تشجوتشي وتشاداي أن يعلنا أوغوداي (أوغاداي) وريثاً، ولا أحد منهم سيشعر بالغبن وكلاهما كثنائي سيعملان تحت إمرته، وهنا قام جنكيز خان بالرد قائلاً: «لأي غرض هذا العمل كثنائي؟ الأم الأرض فسيحة، كثيرة عليها الأنهر والمياه، من الأفضل أن تقولوا لي سنحكم كل على انفراد على الشعوب الأخرى» [السيرة المكنونة، ص١٨٣-١٨٥-١٨٦]. إن مساحة منغوليا قليلة ولا تكفي للجميع، فلقيام أولوسات جديدة لا بد من احتلال أرض جديدة، عندها قال أوغوداي الوريث المرتقب: «سأعمل على تحقيق ذلك»؛ أي إدارة الدولة، ولكنه لا يتكفل على أنجاله.

في عام ١٢١٩ تحرك جنكيز وأولاده وقواته الأساسية المكونة من مئة وخمسين إلى مئتي ألف شخص، وبدأ الغزو ضد «ملاك الغرب» خوارزمشاه محمد، قضى جنكيز خان صيف عام ١٢١٩ على ضفاف إرتيش، وفي الخريف توجه نحو مافيراناخ، وهي المناطق الثقافية القديمة في أحواض نهري أموداريا وسيرداريا، لقد سار، ولكنه ليس وحده، فإذا لم يستطع أن يجبر التانغوت على الغزو معه فإن بقية

أتباعه ـ ومنهم الإيديكوت الأويوغوري بارتشوك وخان الترك الكارالوكيين أرسلان خان، وسوكناك تيغين المالكي، الذي أوكله المغول بإدارة ممتلكات كوتشلوك ـ قد رافقوه في الغزوة.

سبق أن ذكرنا أن خوارزمشاه امتلك جيشاً يفوق جيوش جنكيز خان عدداً، لكن جيشه لم يكن ذا عجينة واحدة ومطيعاً كجيش جنكيز خان، كما أنه اختار في التخطيط الحربي أن لا يركز توزيع قواته على المدن المختلفة، كان مقر إقامة محمد في مدينة بلخ، على الرغم من أنه أضمر في نفسه السفر بعيداً عن منطقة دخول المغول إلى العراق، عدّ جلال الدين بن خوارزمشاه الإجراءات التي اتخذها والده للدفاع عن الدولة غير مجدية، وعن نواياه للالتجاء إلى العراق غير مقبولة حيث قال:

- الحل الأمثل أن نجمع بقدر الممكن جيوشنا ومقاومتهم، فإذا لم يقرر السلطان فليذهب وحده منفذاً نواياه بالذهاب للعراق، وليعطني الجيوش حتى أذهب إلى حدود الدولة، وأحرز النصر، وأنجز ما يمكنني إنجازه، حتى يكون لنا مسوغ أمام الخالق وخلقه، فإذا لم ننل ما نصبو إليه فلن نكون هدفاً لسهام اللوم ولن تنطلق ألسنة السوء بكلمة علينا، قائلين: كانوا طيلة هذا الزمان يجمعون منا الضرائب ... والآن، في هذا الوقت البشع يستخفون بنا ويتجاهلوننا.

لم يسافر محمد إلى العراق ولم يعط الجيوش لابنه لملاقاة جيوش جنكيز خان على الحدود [بيتروشيفسكي، ص١٠٨-١٠٩؛ بونياتوف، ص١٣٨].

قام جنكز خان عند وصوله إلى حدود دولة خوارزمشاه بتقسيم جيوشه: المجموعة الأولى من الجيوش بقيادة تشاغاداي وأوغوداي تركت لحصار مدينة أوترار، المجموعة الثانية بقيادة تشجوتشي بدأت تحركها على جند وبانغيكينت، أما المجموعة الثالثة بقيادة أولاك نويون وسيو كثير تشيربي فهاجمت جنوب أوترار على

خوجينست وبيناكينت (أو فينا كينت)، بهذا الشكل هاجمت ثلاث المجموعات من جيش جنكيز خان في المركز على أوترار وعلى الشمال (جيوش تشجوتشي) وعلى الجنوب منه (أولاك نويون وسيو كتيو تشيربي)، المجموعة الرابعة من القوات، التي قام بقيادتها جنكيز خان بنفسه وبمساعدة قادته تشجابي وسوبيتاي، توجهوا نحو مدن بخارى وسمرقند، يعد الاستيلاء على كل هذه المدن، من خلال سير الحملة، المسألة ذات الأولية.

استمر حصار أوترار من سبتمبر ١٢١٩ حتى فبراير ١٢٢٠، كانت المدينة محصنة بشكل جيد، وحيدر خان إينال إضافة إلى الجيوش المبعوثة من خوارزمشاه للمساعدة بقيادة كاراتشا خان، بعد خمسة أشهر من الحصار حول كاراتشا خان، خرج من القلعة مع رجاله وسلم نفسه للمغول، كل الذين استسلموا تم تقطيع أوصالهم من قبل المغول وأعدم كاراتشا خان، قام المغول بعد خيانة كاراتشا خان وبوقت قليل بالاستيلاء على المدينة وطرد جميع الناس كقطيع من الأغنام واستباح المدينة، صمد حيدر خان إينال مع عشرين ألف مقاتل مدة شهر آخر في داخل استحكامات المدينة، في آخر الأمر بقي حياً وحده، وطرد حتى السطوح، ولكن من هناك واصل رمي الطوب على المغول، وأنزلوه من على السطوح ثم أعدموه، حسب معلومات النسوي إن جنكيز (طلب إحضار إينال خان، وبعد ذلك أمر بصهر الفضة وسكبها في أذنيه وعينيه» [النسوي، ص٨١]، تحطمت مدينة أوترار حول المغول «القلعة والسور إلى الرماد» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٩٩ . تم إبادة معظم سكان المدينة، ومن بقي حياً ـ وغالبيتهم من الحرفيين ـ أرسلوهم إلى بولون.

في فبراير عام ١٢٢٠ اقترب جيش جنكيز خان من بخارى، وفي السابع منه بدأ محاصرتها، وهي «قبلة الإسلام في أقطار الشرق ومدنه، وهي أم كل المدن

الإسلامية» استمر الاقتحام ثلاثة أيام تحت غطاء من أهالي المدينة المحليين وسكان مدينة أترار، الذين جلبوهم حتى أسوار مدينة بخارى. قررت حامية المدينة بعد ثلاثة أيام «بقوة الإرادة الاستعاضة عن عار الهزيمة» خرجوا من المدينة ولوقت ما أزاحوا المغول ثم كسروا طوق الحصار، وبدأوا بالخروج من المدينة، لكن خروجهم من الأسوار كان مميتاً لهم، سرعان ما تعقبهم المغول وقاموا بإبادة كل من خرج من بخارى تقريباً وقلة قليلة فقط تمكنت من عبور نهر أموداريا.

دخل المغول إلى بخارى في العاشر من فبراير، أما قلعة بخارى، التي كان يحميها أربعمائة شخص فقط، فقد صمدت اثني عشر يوماً آخر، قام المغول بإجبار أهالي المدينة بردم الخندق حول القلعة ومساعدتهم في الحصار «انتصر الكافرون ودخلوا القلعة، وقد قاومهم المسلمون الموجودون فيها حتى استشهدوا جميعهم، بعد أن تغلب (جنكيز خان) على القلعة أمر بتجهيز قائمة بأسماء الشخصيات المهمة للمدينة وقياداتها، بعد أن تم تجهيز القائمة أمر باستدعائهم وعند حضورهم خاطبهم قائلاً: "أطالبكم بالفضة التي باعها لكم خوارزمشاه؛ لأنها تؤول إلي وقد نزعت من أنصاري وصارت بحوزتكم"، تم جمع كل ما كان بحوزتهم وتقديمه، ثم أمر بإخراجهم من المدينة، وخرجوا بعد أن جُردوا من ممتلكاتهم كافة، وليس عليهم سوى ملابسهم، دخل الكافرون المدينة ونهبوها، أو قتلوا من وجدوه بها، قام جنكيز خان بالإحاطة بالمسلمين، وأمر أتباعه باقتسامهم فيما بينهم، قام التتار باقتسامهم، وكان يوماً بشعاً نتيجة لعويل الرجال والنساء والأطفال، تبعثر (السكان) في كل الاتجاهات، وتم تمزيقهم كالأسمال: قسموا النساء فيما بينهم، وحينما أصبح الصبح على بخارى كانت مهدمة حتى الأساس وكأنما لم تكن بالأمس قائمة» [ابن الأثير، ص٩-١٠].

أما الرجال، فتم استنفارهم لحصار سمرقند، وحسب معلومات رشيد الدين «قام المغول بقتل أكثر من ثلاثين ألفاً من الرجال، أما الأطفال والنساء فأخذوهم معهم كعبيد» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٠٦]. وصل المغول في شهر مارس إلى مشارف سمرقند ساحبين خلفهم حشوداً من الأسرى «الذين ساروا خلفهم على الأقدام في أسوأ مظهر، وكل من تعب أو تخلف عن المسير فمصيره القتل»، انضم إلى جيش جنكيز خان كل من جيوش تشاغاتاي وأوغوداي الذين قاموا بإبادة أوترار.

عندما استسلم كاراتشا خان تم إعدامه، «لعل ذلك راجع إلى الحقد الذي يكنه المغول لأوترار»، وتم استضافة الذين وقفوا إلى جانب المغول خلال احتلال بخارى، وكذلك الذين انحازوا إلى جانبهم، ومن بينهم صار حاكم كوندوز علاء الدين، وحاكم بلخ الأمير ماخ روي.

قام المغول من أجل إخافة حامية سمرقند بكثرة عدد مقاتليهم، وبتنظيم الأسرى في صفوف، وكل عاشر منهم حملوه بلواء، لكن أهالي سمرقند لم يخافوا بل دبروا انطلاقة المحاصرين، وبكل شجاعة قاتلوا، ولكنهم سقطوا ضحية التخطيط المغولي الحربي «حاربوهم خارج المدينة على الأقدام طيلة الوقت، قام التتار بالانسحاب، وأهالي المدينة واصلوا ملاحقتهم آملين في التغلب عليهم، لكن الكافرين أعدوا لهم كميناً، ولما عبروا الكمين وقف المغول بينهم وبين المدينة، وقام بقية التتار الذين بدأوا الهجوم بمواصلة القتال، وهؤلاء أصبحوا في الوسط بينهم وبين المدينة، حصدتهم السيوف من كل جانب، ولم ينج منهم أحد، وماتوا بأكملهم والشهداء، فيتغمدهم الله برحمته، كما يقال سبعون ألفاً» [ابن الأثير، ص١٠-١١].

لم تكن المحاولة الثانية للخروج من الحصار ناجحة على الرغم من استعمال الأفيال المقاتلة، عندها خرج وفد من المواطنين لمقابلة جنكيز خان، وكان الوفد برئاسة الزعيم الروحاني شيخ الإسلام، وذلك للتباحث في الاستسلام، في السابع عشر من المدينة ساووه مع الأرض، النساء والرجال بالمئات طردوهم إلى السهول بصحبة المغول، وعن طريق المنادين أعلنوا لهم: "فليراق بدون عقاب دم كل مخلوق يختبئ!" والمغول الذين كانوا مشغولين بالنهب قتلوا عدداً كبيراً من الناس الذين عثروا عليهم مختبئين في جحور مختلفة» صمدت، القلاع في مدينة سمرقند لوقت أطول قليلاً كما في المدن الأخرى، قرب النهاية قام الألوف من الأشخاص، وأغلقوا على أنفسهم المسجد بعد أن لم تعد لديهم المقدرة على القتال، وهناك تم قتلهم وأحرق المسجد ثلاثون ألف مقاتل من الترك والذين استسلموا لجنكيز خان في البداية مع سكان المدينة، والذين كان من المفترض أن يضمهم لخدمته، وبعد سقوط القلعة تمت إبادتهم أيضاً من قبل المغول، ثلاثون ألفاً من الحرفيين السمرقنديين تم توزيعهم على أبناء جنكيز خان وأقربائه، ومن بقي حياً من سكان المدينة «من أجل إنقاذ أرواحهم» فرض عليهم دفع مئتي ألف دينار، ولكن حيث قام المغول بترحيل ما تبقى من سكان المدينة الأحياء عدة مرات (قليل من بقي حياً، وصارت البلاد مقفرة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٠٦-٢٠٨].

استولت القوة العسكرية بقيادة تشجوتشي على مناطق دولة خوارزمشاه التي تقع إلى الأسفل على مجرى سيرداريا، قام المغول في البداية بالاقتراب من مدينة سيغناك، ووجهوا لأهل المدينة رسالة مع رسول منهم للاستسلام، قام سكان مدينة سيغناك بقتل الرسول، وقاتلوا المغول حتى آخر نفس، وعند سقوط المدينة «مغلقين أبواب الرحمة والرجاء قام المغول بقتل الجميع، منتقمين لأجل شخص واحد» [المصدر نفسه، ص١٩٩].

في أبريل عام ١٢٢٠ قام تشجوتشي بالاقتراب من مدينة جند، حينها قام الممثل وحاكم المدينة كوتولوغ خان بترك المدينة، وهرب إلى خوارزم، في الحادي والعشرين من أبريل سقطت جند بأيدي المغول من غير قتال، ولأن مدينة جند لم تقاوم هجمة المغول تمّ منحهم العفو، ثم حفظهم في السهل مدة تسعة أيام، قام خلالها المغول بنهب المدينة وسلبها حتى الدرك الأسفل، أما مدينة بينا كينت فقد قام بحمايتها الترك الكانغاليون، استسلمت المدينة بعد ثلاثة أيام، قام المغول بقتل عدد من المقاتلين في حامية المدينة وسكان المدينة، طردوهم منها واقتسموا الحرفيين والعمال المهرة الذين أسروهم.

استغل كل من المغول، في غمار خوضهم للحروب في آسيا الوسطى، السكان المحليين لأجل حصار المدن، وهؤلاء يسمون بـ «خاشار»، خلال حصار مدينة خوجينت كان عدد المغول عشرين ألفاً، وتعداد الخاشار خمسين ألفاً، لم يكن الاستسلام طواعية دائماً يضمن الأمان والعلاقة الطيبة، استسلم سكان مدينة زارنوك لجنكيز خان وهو في طريقه إلى بخارى غازياً، لكن المغول قاموا بطردهم من المدينة وهدموا القلعة، وأخذوا الشباب كافة في الخاشار، استسلمت مدينة نوري بخارى طواعية للمغول، وهي مدينة صغيرة، وإثر ذلك تم تحويل ستمائة ألف من سكانها الشباب في الخاشار.

عند حصار المغول مدينة خوجينت تميز دامير مالك بتركيز قواته في جزيرة وسط نهر سيرادريا، التي لم تكن تطالها سهام المغول وحجارة المنجنيق، قام المغول بحشد آلاف من البشر، وأرغموهم على نقل الحجارة من الجبال لردم النهر، قام دامير مالك بتغليف اثني عشر زورقاً باللباد المشبع بالخل ولطخ اللباد بالطين، فلذلك لم تكن الزوارق قابلة للحرق، وفي المساء يخرج في طلعات يهدم خلالها السد الذي تم بناؤه خلال النهار، لكن قلة الأغذية والأسلحة أجبرت دامير مالك

للنزوح إلى أسفل مجرى النهر على سبعين قارباً، طارد المغول أسطوله على ضفتي النهر، وفي مدينة بينا كينت قاموا بحجز النهر بسلسلة حديدية، لكن مقاتلي دامير مالك كسروها، ولم يقدر المغول أن يجبروهم على الخروج إلى الشاطئ إلا بعد أن ركبوا المنجنيق على الأطواف والقوارب، هنا يبدو أن الجميع قد قضي عليهم، إنما قد تمكن دامير مالك من الخروج من الحصار، وطارده ثلاثة من المغول وسدد دامير مالك لأحدهم ضربة قاتلة وخاطب الاثنين الآخرين قائلاً: «لقد تبقى لي سهمان لا أريد إطلاقهما، ولكنها كافيان لكما الاثنين، فمن الأفضل لكما وحفاظاً على حياتكما أن تعودا أدراجكما!»، هل فهمه المغولين أم لا، ولكنهما تقهقرا، استطاع دامير مالك أن يصل إلى غور غانج وانضم إلى المدافعين عن المدينة (انظر [بونياتوف، ص١٤٢-١٤٣]).

في أواخر أبريل «وفي زمن قليل (يزيد قليلاً عن مائة يوم) تمكن جنكيز خان من غير مشقة كبيرة من تدمير دولة خوارزمشاه القوية، استولى على الحصون كافة، وتم أسر سكان المدن، وهزم أقوى جيش في ذلك الزمان وأكثره عدداً وشتته» [المصدر نفسه، ص١٤٦].

وضع جنكيز خان أمام اثنين من قواده تشجابي وسوبيتاي مسألة أسر خوارزمشاه، أصدر أمراً للجيوش (التي بلغ عددها خمسة وعشرين ألف مقاتل) «بمتابعة خوارزمشاه ليلاً ونهاراً، والقبض عليه وإحضاره له». عبر خوارزمشاه أموداريا بعد أن أغرق فيه خزانته التي أحضرها من كرمان، والتي حوت من الذهب سبعين رحلاً فقط، بلغ خوارزمشاه مدينة خراسان، لكن لم يتوقف فيها «حدث أن جنكيز خان جهز حملة على خراسان بقيادة صهره توغاتشار نويون وأمير من قواده يدعى بير كاي نويون وعشرة آلاف فارس؛ لكي ينهبوا البلاد ويحرقوها ويمتصوا من سكانها مخ عظامهم، والدم من عروقهم، ويتركوا بقايا الجثث فقط تلفظ أنفاسها الأخيرة» [النسوي، ص٩٦].

وحسب أقوال النسوي نفسه هجم المغول على مدينة ناسا في خراسان «كالليل الأسود»، استمر الهجوم على المدينة خمسة عشر يوماً دافعين بالأسرى في مواجهة أسوار المدينة، تم فتح ثغرة في السور، ومن خلالها تمكن المغول ليلاً من السيطرة على الأسوار «وعند حلول النهار نزل التتار من الأسوار وطاردوهم في مكان مكشوف وراء الحدائق . . . كقطيع من الأغنام يهش عليها الرعاة، لم يمد التتار أياديهم إلى الغنائم والنهب حتى جمعوا النساء والأطفال في ذلك المكان الفسيح، والصراخ ملأ الأفق، وأمروهم بأن يوثقوا أكتاف بعضهم بعضا، فنفذوا الأمر بكل طواعية، ولكنهم إن لم يقوموا بذلك هربوا إلى كل الاتجاهات بغية النجاة، هاربين بغير قتال نحو الجبال التي هي قريبة، فلعل أكثرهم قد كتب له النجاة، وهنا بعد أن أحكموا وثاق بعضهم بعضاً اقترب منهم التتار حاملين أقواسهم ورموا بهم على الأرض، وقدموهم طعاماً للوحوش والجوارح السماوية، كم سالت من دماء، واغتصبت النساء، وكم كان عدد الأطفال المقتولين على صدور أمهاتهم! عدد المقتولين من سكان مدينة ناسا والأغراب الذين وجدوا فيها قد بلغ عددهم سبعين ألفاً، ولا ننسى أن هذه المدينة واحدة من ضواحي خراسان» [المصدر نفسه، ص٩٦-٩٧].

يكتب النسوي عن أن ظروف احتلال خراسان كانت «مشابهة بعضها بعضاً: الموت والدمار في كل مكان»، لم يبق أحد في المدن التي تم احتلالها «من قد يوقد النار في الديار، وتملك الخوف النفوس» [المصدر نفسه، ص٩٧]. لم يتوقف خوارزمشاه في خراسان وترك الإقليم لحاله، في طريقه إلى العراق حاول اغتياله أقرباء أمه، لعل ذلك ينهي الحرب أو يوقف مسارها، لم تنجح محاولة الاغتيال، وفي الثامن عشر من أبريل عام ١٢٢٠ وصل خوارزمشاه إلى نيسابور، قام المغول باحتلال نيسابور وهدموها حتى الأساس «أمر المغول الأسرى بمساواة المدينة مع

الأرض بالمجاريف حتى تتساوى مع الأرض، ولا يبقى بها حجر أو كوم مما قد يتعثر الفارس به إذا لعب بالكرة، معظم السكان ماتوا تحت الأرض، وذلك لأنهم بنوا الأقبية والسراديب آملين بأنهم سيحتمون بها» [المصدر نفسه، ص٩٩].

كانت خيول المغول كأنها معلقة دائماً بذيول خيول خوارزمشاه، خبأ خوارزمشاه في الجبال عشرة صناديق من الأحجار الكريمة، التي انتقلت إلى أيدي المغول فيما بعد، أخيراً وصلت كتيبة خوارزمشاه إلى الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين، هنا اختبأ خوارزمشاه في جزيرة آشود آدا ليس ببعيد عن مصب نهر غورغان وميناء أباسكون، أُعلن جلال الدين وريثاً للعرش، وحينها قال خوارزمشاه:

- انفرط عقد السلطة، وتراخت دعائم الدولة وانهارت، وأسفرت عن نفسها نوايا هذا العدو الشرس، الذي أنشب مخالبه وأنيابه في جسم الدولة، سينتقم لي ابني مانكبورني، وها أنا ذا أعلنه وريثاً للعرش [بونياتوف، ص١٤٨].

توفي خوارزمشاه في ديسمبر عام ١٢٢٠، ودفن في تلك الجزيرة، ولكن «لما حان موعد دفن حاكم الغرب الأسبق لم يكن لديه كفن يلف به» [المصدر نفسه].

قام جلال الدين مؤخراً بترحيل جثمان والده إلى حصن أرداخي؛ لأن المغول لم يرحموا أحداً حتى الأموات، فكانوا ينبشون القبور، ويحرقون رفات أعدائهم، ولكن عندما استولى المغول على حصن أرداخي قاموا بنبش رفات خوارزمشاه، وأرسلوه إلى منغوليا، التي صارت في ذلك الوقت تحت حكم وداي وتم حرقه.

أما جنكيز خان نفسه فأمضى صيف عام ١٢٢٠ في منطقة نيسيف، وفي الخريف وصلت قواته إلى تيرميز، عرض المغول على سكان تيرميز الاستسلام وهدم القلعة بأنفسهم، في أثناء الاستيلاء على المدن الأخرى كلفت الاستحكامات الداخلية الكثير من الدماء للمغول، ولما علم المغول برفض عرضهم بدأ جنكيز

الهجوم، وفي اليوم الحادي عشر استولوا على المدينة، قام المغول بطرد كل السكان في وقت واحد إلى السهل، وكعادتهم أبادوا الجميع، متوغلين في داخل إقليم كولابسك (طاجكستان) «قام جنكيز بالاستيلاء على تلك المناطق ماسحاً إياها من على وجه الأرض، ناهباً وقاتلاً كل السكان، محطماً وحارقاً كل ما في طريقه». [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢١٨].

قضى جنكيز شتاء عام ١٢٢٠-١٢٢١ على ضفاف نهر أموداريا، في ذلك الوقت كانت القوات التي أرسلها تحاصر عاصمة دولة خوارزمشاه محمد مدينة أورغيتش.

أرسل جنكيز خان رسوله حاجب دانيشمند إلى تيركين خاتون والدة خوارزمشاه، وورد في رسالته: «أنت تعلمين كيف تصرف ابنك تجاه حقوقك (وهذا كان إيماءً للخلافات المعروفة جيداً بين خوارزمشاه ووالدته (تعليق المؤلف)، الآن في اتفاق مع بعض أمرائه نحارب ضده، لكني لن أهجم على ما تمتلكين، فإذا قبلت هذا فأرسلي من يؤكد لك أنني مخلص لكلمتي، وفيما بعد ستمنحين خوارزم وخراسان وكل ما يقع بجوارهم على تلك الضفة من نهر جيحون» [بونياتوف، ص١٤٩]. لكن تيركين خاتون لم تقبل بهذه المساومة، وحاولت الخروج، ولكنها وقعت في الأسر في أثناء حصار حصن إيلان، الذي استمر أربعة أشهر، كان معها أبناء خوارزمشاه وزوجاته، الأطفال تم قتلهم، والزوجات منحن لأقارب جنكيز خان، أما تيركين خاتون فأرسلوها إلى مقر قيادة جنكيز خان، قبل أن يغادر جنكيز آسيا الوسطى صدر أمر لتيركين خاتون وزوجات خوارزمشاه «بأن يخرجن في المقدمة، وينحن بصوت عال، على دولة خوارزمشاه خلال مرور القوات المغولية أمامهن». تم ترحيل تيركين خاتون إلى منغوليا، حيث عاشت في مقر الخان وتغذت من فضلات مائدته، ماتت تيركين خاتون عام ١٢٣٣، وذلك بعد وفاة جنكيز خان [المصدر نفسه، ص١٥٠].

استمر حصار مدينة أورغيتش سبعة أشهر، لم تكف الحجارة للمنجنيق، وبدأ المغول في استعمال أشكال مستديرة منحوتة من شجر التوت مبللة بالماء، طال أمد الحصار بسبب الندية التي ظهرت من جديد بين تشجوتشي وتشاغاداي، أسلم جنكيز قيادة القوات كافة لأوغوداي وحده، وسار الأمر بشكل أسرع، عندما سقطت المدينة تم إرسال مائة ألف من الحرفيين من عاصمة خوارزمشاه إلى منغوليا، حسب معلومات ابن الأثير في أوغينتش «أباد المغول كل من بها» [ابن الأثير، ص٣٢]، كان على كل جندي من الخمسين ألف المقاتل المغولي من عدد القتلى من سكان مدينة أورغينتش أربعة وعشرون، صاحبت المذبحة إهانات مذلة، «أمر المغول النساء الأسيرات في غور غالج بالتجرد حتى العري، وقسموهن على مجموعتين وأمروهن: "إن نساء مدينتكم مصارعات جيدات، ولذلك نأمر كلا المجموعتين بالصراع فيما بينهما"، وهجمت النساء المسكينات على بعضهن، وبعد أن استمتع المغول بهذه المهزلة الحقيرة قطعوا كل النساء اللاتي بقين أحياء إرباً» (جوزجاني، نقلاً عن [بونياتوف، ص١٥٣]، «ومن ثم قاموا بفتح السد الذي كان يحبس مياه نهر جيحون عن المدينة، وهنا غمرت المياه المدينة فانهارت العمارات، وغمرت المياه مكانها، وبكل تأكيد لم ينج أحد من سكان المدينة في الوقت الذي كان فيه من استطاع النجاة في الأماكن الأخرى، ومنهم من اختبأ، ومنهم من فر، ومنهم من خرج، ثم كتبت له النجاة، وكذلك من رقد بنفسه وسط القتلى، ومن بعد ذلك خرج حياً، أما في خوارزمشاه فإن من خبأ نفسه عن التتار أغرقته المياه أو انهارت عليه المباني، وتحول كل شيء إلى عجينة وأمواج» [ابن الأثير، ص٣٢] حسب كتابات جويني «تحولت أورغينتش إلى مكمن بنات آوى، وملجأ للبوم والغربان» (انظر [بونياتوف، ص١٥٣]).

في خلال صيف عام ١٢٢١ ومطلع خريفه سقطت المدن الآتية: بلخ، تيرميز، زاوزان، ميرف، نيسابور، غيرات، وفي ربيع عام ١٢٢١ عبر جنكيز خان بجيشه نهر أموداريا، واحتل بلخ، رأس جلال الدين النضال ضد المغول على أراضي شرق إيران وشمالها الذي هزم قرب ناسا لأول مرة فصيلة من المغول مكونة من سبعمئة فارس، و «لأول مرة تذوقت السيوف الإسلامية طعم الدماء المغولية»، ولكن انضم لصفوف المغول ابن عم خوارزمشاه أمين المُلك وجماعة أخرى من أمرائهم، استطاع جلال الدين في الوقعة قرب كانداغار أن يسجل هزيمة جديدة ذات أثر واضح في المغول، كما يفترض المؤلفون المسلمون، كان لهذا الانتصار أثره الواضح في خروج السكان المحليين من حال الصدمة والخوف التي انتابتهم، وكان أثرها في المغول أن يكونوا أكثر حرصاً، ظن المغول قبل ذلك أن العدو «يفلح في الهرب منهم فقط كالغزال، ولا أحد ينوي الهجوم، فلقد تثلمت رماح المقاومة ولا أحد ينوي رفعها في وجه المغول، ولكن عندما شاهدوا هذه الرماح المتعطشة لحلوقهم، التي تنوي أن تستقر في أفئدتهم، امتطوا خيول الذعر» و «صاروا لحماً للسيوف الصوارم، وطعاماً للنسور العرجاء» (انظر [بونياتوف، ص١٥٦]).

استطاع جلال الدين في مدينة غزنة أن يجمع جيشاً قوامه مائة وثلاثون ألفاً، وألحق بالمغول هزيمة نكراء عند حصن فاليان، أرسل جنكيز خان ضده ثلاثة فيالق تحت قيادة شيغي خوتوكو، التقى الخصمان عند بيرفان قرب منبع نهر لوغار رافد كابول، وعندها قام جلال الدين بإلحاق هزيمة نكراء بالمغول، مبيداً كل فيلق شيغي خوتوكو تقريباً «معتلياً حصان الغضب قام جلال الدين بقطع نهايات أوردة رقابهم فاصلاً بين الرقاب والأكتاف التي كانت عليها، وكيف يجوز غير ذلك؟ فإنهم قد سببوا من الأذى له أكثر بكثير ولأخوته ولوالده ولدولته ولأقاربه وأتباعه» [المصدر نفسه، ص١٥٧].

تسببت الأخبار عن انتصار جلال الدين في العصيان في صفوف عدد من المدن التي استولى عليها المغول، قام جنكيز خان شخصياً بمقاتلة جلال الدين، لكن تأثير النصر كان قد ضعف بسبب قواد جيش جلال الدين الذين اختلفوا عند توزيع الغنائم، لم يستطع جلال الدين أن يمنع المغول عبور غيندو كوش، عند حصار مدينة باميان أصاب سهم قاتل موتوغين ابن تشاغاتاي والحفيد المحبوب لجنكيز خان، عندما تم الاستيلاء على القلعة أمر جنكيز خان «بأن يقتل فيها أي كائن حي سواء أكان من البشر أو من الحيوانات أو الوحوش أو الطيور، وألا يأخذوا أي أسير أو غنيمة، وأن تحول المدينة إلى صحراء وأن لا تعمر مستقبلاً» حتى «لا يعيش فيها أي كائن حي» فترك تنفيذ الأمر، وأصبح هذا المكان يسمى موباليك أي «المدينة السيئة لزمن طويل.

احتل جنكيز خان غزنة في خريف عام ١٢٢١، فترك جلال الدين المدينة، أدرك المغول جلال الدين عند غارديز، ولكنه هزم مطارديه وذهب، وقعت المعركة الحاسمة على ضفاف نهر إيند، في ٢٣ نوفمبر عام ١٢٢١، هزمت قوات جلال الدين، وبعدها قام بنفسه بإغراق حريمه في النهر، ثم عبره بصحبة أربعة ألف مقاتل وذهب.

هناك مقولة تشير إلى أن جنكيز خان أمر بعدم تعقبه «إن ذلك الابن لمفخرة لوالده، فإذا تمكن من الخروج حياً من تلك المعركة وسالماً من كل هذه المجازر إلى شاطئ الأمان، فإن من ورائه ستخرج أفعال كثيرة وأشياء لا حصر لها» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٢٤]. لم يتوغل المغول في الهند أبعد من مدينة مولتان بسبب القيظ، قامت قوات جنكيز خان في عام ١٢٢٢ بالاستيلاء على الاستحكامات التي كانت تقع على الجبال المجاورة، أما مقر قيادة جنكيز خان شخصياً فقد كانت جنوب غيندو كوش، ولذلك قرر جنكيز العودة إلى منغوليا

بسبب ظهور أحداث مهمة في الشرق، «قرر جنكيز خان العودة إلى منغوليا من بشوار إلى دياره، وسبب هذه العودة السريعة أن الصينيين والتانغوت استغلوا غيابه وأثاروا الاضطرابات، وتسببوا في الفتنة والقلاقل وسط أتباعه» [جويني، ص١٣٩] الشيء نفسه يؤكده رشيد الدين: «نفذ جنكيز خان قراره بالعودة إلى عقر داره وإلى خيمته القديمة (يورتا) لأنه قد وصلت إليه أنباء تفيد أن أهالي تانغوت، تمردوا خلال مدة غيابه الذي طال» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٢٦] في خريف عام ١٢٢٢ تحرك جنكيز خان من منطقة بيرفان عبر بلخ ونهر أموداريا ماراً بسمرقند وبخارى، بينما كان جنكيز خان في حروبه أدار شقيقه الأصغر تيموغي الحكم في منغوليا.

أمضى جلال الدين في شمال غرب الهند قرابة العامين طريداً حيث حارب مع الراجات المحليين، ومن ثم قفل عائداً عبر كرمان وشيراز وأصفهان إلى الغرب محاولاً تنظيم المقاومة ضد المغول في عام ١٢٢٥ مع شقيقه بيرشاه وهو في العراق يهاجم بغداد، وكما يتوقع ز. م. بونياتوف انتقاماً للعلاقات السرية فيما بين الخليفة والمغول، كتب جلال الدين في إحدى الرسائل أن: «الخليفة يتحمل مسؤولية مقتل المسلمين، وقتل والدي، ودخول الكفار إلى بلاد المسلمين» [بونياتوف، ص١٦٣]، ومن ثم يحارب في أذربيجان وجورجيا وعادة ما كانوا شرسين كما المغول، في عام ١٢٢٥ عندما سقطت في يده مدينة داكوكو قام «بقتل السكان ونهب المدينة وحرقها وهدم أسوارها»، وعندما سقطت في يده في التاسع من مارس عام ١٢٢٦ مدينة تفليس قام أقفر جورجيا، حتى منتصف عام ١٢٣١، كان حاكماً لأذربيجان وشيرفان وجورجيا، كان الانتقام في الحرب ضد المغول هدفاً من أهداف حياته، عندما كان جنكيز خان يكمل مشواره على مساحات سي سيا، قام جلال الدين في الخامس من سبتمبر عام ١٢٢٧ بهزيمة المغول عند أصفهان، تقريباً

في الأعوام ١٢٢٩-١٢٣٠ تلقى رسالة من شقيقته خان سلطان، التي كانت قد زوجت من تشجوتشي، كتبت تقول إنه، حسب معلوماتها، المغول لا يمانعون في مصالحته، وجعل الحدود المشتركة للمستعمرات على نهر جيحون، وكتبت الشقيقة «إذا وجدت في نفسك القوة اللازمة لصدهم والانتقام منهم، فحاربهم، فإذا غلبتهم فتصرف كما يحلو لك، وإذا لم تفلح في تدبير قوة للانتقام فانتهز الفرصة للمصالحة ما داموا راغبين في ذلك» [المصدر نفسه، ص١٧٩].

يبدو أن هذه الرسالة والاقتراح بالسلام لم يجدا هوى من جانب جلال الدين، تجمع ضد جلال الدين ملاك آسيا الصغرى وسوريا وشمال الرافدين، ترأس هذا التحالف السلطان الكيني علاء الدين، قام بهزيمة جلال الدين مع حلفائه في العاشر من أغسطس عام ١٢٣٠، وحسب معلومات ابن الأثير «أرسل إلى المغول خبراً عن ضعف جلال الدين وهروبه، وأخذ يحثهم على الهجوم عليه، ويضمن لهم النصر ما دام ضعيفاً» (انظر [المصدر نفسه، ص١٨٢]) صدر الأمر إلى المغول بالدخول إلى أذربيجان في العامين ١٢٣٠-١٢٣١ وسيطروا بسرعة على البلاد، كانت المحاولة الأخيرة لجلال الدين في الحرب ضد المغول مخاطبته لجيرانه من المسلمين، وحثهم على خوض الحرب معه، كتب قائلاً: «سوف يوقفهم القوة الموحدة فقط لجماعة المسلمين والوفاق» [المصدر نفسه، ص١٨٤] ولكن سرعان ما لحق المصير بجلال الدين المطارد، الذي هجره الجميع، فقد قتل فيما بين السابع عشر والعشرين من أغسطس.

كتب المؤرخون المسلمون بكثرة عن جلال الدين، وقد رأوا فيه المناضل ضد المغول، والشخص الشجاع، ولكن لم يستطع التغلب على بذور الشقاق والخلافات والقسوة، وبهذا سهل مهمة المغول في السيطرة على الدولة الإسلامية، كتب النسوي قائلاً: «كان أسمر قصير القامة، تركيًا بلهجته، ولكنه كان يتحدث

بالفارسية أيضاً، أما عن شجاعته فقد كان سبعاً وسط السباع، وأكثر الفرسان مهابة وسط الفرسان المقدامين، كان متواضعاً، لم يبد عليه الغضب، ولا يتلفظ بسيئ القول، كان جاداً ولم يضحك قط، إنما يبتسم، وكان قليل الكلام، كان محباً للعدالة، ولكن الزمان الرديء الذي مر عليه ترك بصماته عليه مغيراً طباعه، كان محباً لتحسين حياة أتباعه، ولكن زمان حكمه جاء في وقت السقوط، ولذلك لجأ للقسوة» (انظر [المصدر نفسه، ص١٨٧]). لقد عدّ ابن واصل جنود جلال الدين: «صاروا حاجزاً بيننا وبين المغول»، ولكن جلال الدين «تسبب في عدم العدالة والعداوة ما بين الجيران، وقد مارس حياته من غير إخلاص، مسبباً عدم الارتياح، وهذا أدى إلى مقتله ومقتل جيوشه، ومن ثم تبع هذا هجوم المغول وانتصارهم على دولة الإسلام، فإذا أراد الله شيئاً فسيجعل له سبباً» [انظر [المصدر نفسه، ص١٨٩]). افترض ابن الأثير أن عداوته للجيران سبب هزيمته «فهجروه ولم يمدوا له يد العون».



يجب الحديث عن أفعال فيلقي سوبيتاي وتشجابي اللذين كانا يطاردان خوارزمشاه، وعندما لم يدركوه بلغ هذا الجيش أذربيجان، وضم بعد أن نهب المدن الكبيرة في أذربيجان كافة حتى ناخيتشيفان أيضاً، وعبر المغول حدود جورجيا عام ١٢٢٢، وهزموا الجيش الجورجي في وادي كوتمان، سيطروا على شيماخا في هجوم عاصف بعد أن تركوا جورجيا، وبعد أن تخطوا ديربينت في حدود القوقاز الشمالي، قاموا بهزيمة البولوفيين والآلانيين (الأوستين) منفردين، وصل تشجابي وسبيتاي عبر السهول المتاخمة للبحر الأسود إلى القرم مطاردين البولوفيين المهزومين، حيث أسقطوا سوداك ونهبوها، قام البولوفيون بقيادة القيصر يوري

كونتشا كوفيتش بتجميع قوة جديدة، ولكن المغول في هذه المرة ألحقوا بهم هزيمة أكيدة، وطاردوهم حتى نهر الدنيبر، حينها لجأ البولوفيون إلى الأمراء الروس للنجدة، استجاب عدد من الأمراء مع فيالقهم لطلب النجدة، مقررين بعدالة «إن لم نقم بعونهم فسينضم البولوفيون للتتار ولن يكون هذا في صالحنا»، حينها وصل أمير كييف مستيسلاف رومانوفيتش وأمير كوزيل وتشيرنيغوف مستيسلاف، وأمير سمولينسك فلاديمير ريوريكوفيتش، وأمير كورسك أوليخ، لم يرغب تشجابي وسوبيتاي خوض الحرب مع الروس، فأرسلوا رسولهم سائلين: «لماذا تودون الدخول في الحرب وإراقة الدماء؟» فأخذوا الرسول فقتلوه.

في الحادي والثلاثين من مايو عام ١٢٢٣ وقعت المعركة على نهر كالكا، وفيها هزم المغول الجيش الموحد للبولوفيين والأمراء الروس، ثم أقاموا عقب المعركة حفل انتصار فوق أجساد الأمراء الأسرى، الذي تم رسمه على يد الفنان الرسام إيليا غلازونوف في ركن لوحته «روسيا في ألف عام»[(١)] بعد هذا توجهوا إلى أعالي نهر الدنيبر، ولكنهم لم يصلوا حتى مدينة بيرياسلافل، وتوجهوا شرقاً، وعبر سهول قازاخستان الحالية رجعوا إلى منغوليا، حيث آب جنكيز خان من الغزو على الغرب.

تصرف الأمراء الروس ـ حسب تقدير الأكاديمي ب. أ. ريباكوف ـ بشكل لا يعبر عن الوحدة المثالية، الذي كان يظهر في كل مكان حارب فيه المغول «دارت

(١) في غزوات سوبيتاي وتشجابي اشترك المسلم خاسيميالي، الذي يقال في سيرة حياته المدونة في مؤلف «يوان شي»: «.. إنهم بلغوا أرض الروس وهجموا عليهم، وفي الجبال الحديدية سيطروا عليهم، وأخذوا حاكمهم مستيسلاف (ميتشجيسيل)، أمر تشجابي خاسيميالي المسلم بإهداء مستيسلاف إلى تشجوتشي الذي أعدمه؛ أي مستيسلاف» [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص٩ب].

يذكر في سيرة سوبيتاي الذاتية وعن معركته مع الروس عند كالكا الآتي: «تعاركوا مع زعيم القبائل الروسية مستيسلاف وأخضعوه» [المصدر نفسه، الفصل ١٢١، ص١ب].

المعركة على نهر كالكا بعيداً عن روسيا، والمنتصرون قريباً ذهبوا، أما الأمراء الروس فنسوهم، ولم يستوعبوا الدرس، من المحزن تصفح أوراق التاريخ للأعوام ١٢٢٤-١٢٣٦، حيث نجد أن قيادات الأمراء، التي كانت مرتبطة بالتجار الشرقيين منذ زمن بعيد، كأنما لم تعلم شيئاً عن الانتصارات التي حققها جنكيز خان في الصين وآسيا الوسطى ولا عن المعارك الدامية في القوقاز ولا عن أي قوة مخيفة وقادرة بدأت في التحرك تجاه الأراضي القريبة، ما زال الأمراء يكن بعضهم العداء لبعض . . . ولم تجد الاستراتيجية الموحدة للدفاع عن كل روسيا من يرسمها» [موقعة كوليكوف، ص٨].

سارت الأمور في الشرق على منوالها، في عام ١٢٢١ تقدم موخالي بطلب إلى التانغوت للسماح له بعبور أراضي سي سيا مع قواته، وذلك للهجوم على التشجورتشجينيين، سمح التانغوت للمغول بالعبور، بل أكثر من ذلك، قام العاهل التانغوتي بإرسال قوة مكونة من خمسين ألف مقاتل لمساعدة موخالي، وذلك لأن التانغوت كانوا وما زالوا في حالة حرب مع التسزين، بعد الاستيلاء على عدد من المدن التشجورتشجينية قام المغول بوضع حراسهم على المدن المهمة منها على الحدود التشجورتشجينية التانغوتية، أدى هذا إلى بث الذعر في نفوس التانغوت، وذلك لأن القوات المغولية أصبحت بذلك داخل حدودهم الآمنة، جاء الرسول التانغوتي مينو إلى موخالي وطلب منه الإيضاح، في خلال وقت الاستقبال برز السؤال عن المراسم، فأعلن موخالي لمينو:

- أنت تنظر من أسفل لأعلى لمولاك، ومولاك إلى مولاي، هكذا تتم المراسم.

هنا طلب من مينو أن يركع أمامه، ولكن مينو رفض:

- لا أستطيع الركوع إذا لم أستلم أمراً بذلك.

سافر الرسول وغادرت القوات التانغوتية المعسكر المغولي، هجم موخالي على المدينة المجاورة لسي سيا وهي يانيان، استكان التانغوت وأهدوا لموخالي حصاناً، وقام رسولهم بالركوع أمامه [كيتشانوف، ص٣٠٨].

من المحتمل أن هذه الأحداث أو أن موخالي لم يستطع أن يجني نصراً كبيراً على التشجورتشجينيين، فحملت جنكيز على أن يبدأ طريق العودة، على كل حال ليس الندم على ما اقترف من مذابح جماعية والموافقة على إيقافها بعد الدلالة السماوية، توجد في سجل حياة الكيداني يلوي تشوتساي ـ، الذي لعب دوراً مهماً في حياة القصر المغولي ـ رواية مفادها «في عام تسزيا شان (من ٢٢ يناير ١٢٢٤ إلى ٨ فبراير ١٢٢٥) بعد وصول الإمبراطور إلى شرق الهند توقف عند المعبر الجبلي المسمى بالبوابة الحديدية، وهنا خاطبه حيوان متوحش ذو قرن واحد يشبه الأيل، لكن له ذيل حصان ولون أخضر وناطق بكلمات كالبشر، ذكر للحارس: "دع مولاك يعود أدراجه وبسرعة!" وعندما سأل الإمبراطور يلوي تشوتسا عنه رد عليه قائلاً: "إن هذا الحيوان نبيل، اسمه تسزيويدوان، إنه يجيد التكلم بكل اللغات، يحب الحياة ويكره القتل، إن السماء بعثت بهذه العلامة لكي تحمي جلالتك، إنك يا صاحب الجلالة ابن السماء الأكبر، وكل أناس السموات أبناء جلالتك، استمع لإرادة السماء، واحفظ الحياة للشعوب. قام الإمبراطور في اليوم نفسه بتوجيه قواته إلى طريق العودة» [المصدر الصيني، ص١٨٧]. حتى السماء انتحبت حين رأت بحار الدماء التي أراقها جيش جنكيز خان، من يدري، لعل رجال يلوي تشوتسا وهو نفسه قرروا أن ينصبوا له هذا الفخ.

قرر جنكيز العودة عبر الهند في بادئ الأمر، الهملايا والتبت، والخروج إلى الحدود الجنوبية للدولة التانغوتية. يخبرنا رشيد الدين أنّ جنكيز خان عبر عدة محطات حسب الطريق المرسوم قبل أن «تصل أنباء أن التانغوت قد ثاروا من جديد»

[رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٢٥]. عندها أخذ قراراً جديداً بالعودة من الطريق نفسه الذي جاء منه، في أول مارس وصل من بشوار إلى كابول، وقضى الصيف في الجبال، عبر نهر أموداريا، وقضى شتاء ١٢٢٢-١٢٢٣ في منطقة سمرقند، وبينما هو يغادر سمرقند قام بتنظيم شيء شبيه بالعرض العسكري للنصر، مرغماً أم خوارزمشاه وزوجاته بالنواح على دولتهم التي اندثرت. افترض ل. غامبيس أن جنكيز خان قضى ربيع عام ١٢٢٣ في مناطق كولان باشي شمالاً من جبال ألكسندر، حيث كان كوريلتاي الذي لا نعلم عنه شيئاً [فامبيس، ص١٢١] في صيف عام ١٢٢٣ كان هو في سهول تالاس وتشو. بعد ذلك توجهت حملته نحو الشمال الشرقي، قضى كل صيف عام ١٢٢٤ في وادي إرتيش، أمضى جنكيز خان شتاء ١٢٢٤-١٢٢٥ في وادي أميليا، وأخيراً وصل إلى منغوليا. ترك جنكيز خان خلفه آسيا الوسطى وإيران بعد نهبهما، وحسب رأي العلماء تطلب إعادة تعمير ما تم هدمه في ثلاث أو أربع سنوات ستمائة عام، كتب إ. ب. بيتورشيفسكي «إن اقتصاد هاتين الدولتين حتى بداية القرن التاسع عشر لم يصل لذلك المستوى الذي كان عليه في بداية القرن الثالث عشر» [بيتروشيفسكي، ص١٢٥].

ذكر المقربون من جنكيز خان: «نحن نفرح مغتبطين لأن السماء والأرض ضاعفتا قوانا، وها نحن قد أبدنا الشعب السارتاولي» [السيرة المكنونة، ص١٨٨]، من المحتمل أنه في عام ١٢٢٣ قد انتهت الحرب في الغرب وأن حملة جنكيز خان على الغرب، كانت بالقوة نفسها التي صاحبت الغزوة في الشرق على تسزين، قد انتهت بنصر ساحق، وهزيمة أكيدة لقوات العدو كافة وإخضاعها، ولكن ليس إخضاعاً كاملاً، تواصلت الحرب في الصين وإيران والعراق، أصبح المغول يفكرون بالسيطرة على العالم، إن رماة السهام خونخاي

وخونتوخور وتشورماخان عندما خاطبوا جنكيز خان كانوا مبدين اهتمامهم؛ لأن أبناءه لا يعيرون اهتماماً لما يدور:

- الآن انظر، الأعداء من حولنا من مغيب الشمس حتى مطلعها! [السيرة المكنونة، ص١٨٨]، ولعل جنكيز خان نفسه وكل من حوله متطلعون لهزيمة هذا العدو، ونهب كل ما هو ممكن وإخضاعه. «من مغيب الشمس حتى مطلعها»(١).

تربط «السيرة المكنونة» عودة جنكيز خان إلى منغوليا مع تعيين المسؤولين في المدن المهمة وإدارات الأقاليم التي تم احتلالها، قام هؤلاء المسؤولون المحليون بتسجيل المواطنين، وجمعوا منهم الجزية، وراقبوا عمل البريد والنقل وتابعوا إيصال الجزية حتى مقر الخان، تم تعيين ماسخوت خورومشي مسؤولاً عن آسيا الوسطى، وبالوغائش مسؤولاً عن بكين، وتم تعيين تشجوتشي في خوارزمشاه، أما بقية أبناء جنكيز خان فقفلوا عائدين معه إلى منغوليا (حسب [السيرة المكنونة، ص١٨٨-١٨٩])، انظر أيضاً [يوان شي، الفصل الأول، ص١٢أ].

لقد عاد جنكيز خان إلى الوطن، هناك حيث تجري الأنهار العزيزة عليه «الكيرولين الأزرق والأونون الذهبي»، ليس بغرض الهدوء، ولكن لتنفيذ أهدافه المتعلقة بترويض الدولة التانغوتية، إن عصيان التانغوت يؤكده «يوان شي»: «تاي تسزو تقع في الجزء الغربي، حاكم الدولة سيا لي فان عقد اتفاقاً سرياً ليأتيه عون من الخارج وقبع في هدوء في انتظار هذا الأمر» [يوان شي، الفصل ١١٩، ص٥أ]

---

(١) كتب جنكيز خان للحاكم الأونغوتي قائلاً: «لقد سمعت أن في الشرق رجلاً يدعي أنه إمبراطور، إن السماء لا تتسع لشمسين، وهل يعقل أن يكون للشعب حاكمان؟».
كما ذكر في سيرة بوتو الذاتية أن رجلاً من قبيلة الإيكيريس زوج شقيقة جنكيز خان الصغرى تيمولون، وقبل دخولهما بيت الزوجية قال جنكيز خان: «إنني أريد امتلاك ما هو تحت السماء، وأنتم قوم من الإيكيريس، فبصحبتكم لبوتو ستخدمونني بإخلاص ورفاه!» [يوان شي، الفصل ١٠٨، ص٤أ].

يكمن السؤال عمن يفترض أن يقدم العون من الخارج؟ هل كان هؤلاء التشجورتشجيون الذين صالحهم التانغوت أخيراً كان عام ١٢٢٤ أم أسوأ من ذلك أن يكون الشخص من منغوليا؟ حتى يفكر في أن الأمر كذلك كان لجنكيز خان بعض المسوغات لذلك.



موت جنكيز خان

هناك وسائل لحفظ الحياة لكن
لا يوجد عقار للخلود
تشان تشون . سي يوي تسزي

عندما بدأ جنكيز خان غزو الغرب عام ١٢١٩ لم يكن صغيراً في السن، فعندما سار بخطاه نحو مجده عبر أكوام الجثث في منغوليا والدولة التانغوتية وشمال الصين، لم يكن له بد من التفكير في الحياة والموت، لقد رأى كيف ينقطع تيار الحياة البشرية، وتمنى لو تطول حياته الخاصة، وبذلك يتعرف سر الخلود، لقد سمع وهو ما زال في شمال الصين أن هذا السر من المحتمل أن يمتلكه الداوسيون، الداوسية إحدى الديانات في الصين، التي تجمع في داخلها عوامل الفلسفة الداوسية للصين القديمة والمؤولة بشكل صوفي مخلوط بالمعتقدات الشعبية وعوامل السحر والشعوذة، التي يزخر بها شرق آسيا، يدين الداوسيون بمنجزات الخلود بمختلف الطرق مع استعمال السحر والكيمياء، وإلى حد ما وسائل الطب الصيني. تمتع القس الداوسي تشان تشون (تسيو تشوتسزي) بسمعة كبيرة، وسمع جنكيز خان عنه في أثناء غزوه الغرب، واستدعاه من على ضفاف نهر إرتيش لمعرفة أسرار الداوسيين، والاطلاع على سر إدراك الخلود، وافق تشان تشون على الحضور إلى مقر قيادة جنكيز خان[1] بلا شك خضوعاً للقسر، ولكن في الوقت نفسه من

(١) أحضر تشان تشون إلى جنكيز خان المسلم جبار خوجا الذي أقبل عند حروبه الأخيرة مع فان خان، واستناداً على مؤلف «يوان شي» أن جبار خوجا عاش مئة وثمانية عشر عاماً [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص٣ب-٤أ].

المحتمل أنه كان يأمل في التأثير في الخان الرهيب لإيقاف نزيف الدم، كان تشان تشون شاعراً، وفي إحدى قصائده التي ألفها، وهو في الطريق سجل الهدف من هذه الرحلة كما يأتي:

أخطو إلى مقر الحاكم، والذي بأعلى النهر قام
من أجل إيقاف الحرب وإعادة السلام
[سي بوي تسزي، ص٣٢٩]

وكلاهما قد أخطأ، الغازي الدموي والشاعر الحكيم الذي اضطلع بأسرار السحر وبلغ قمة الروح، وكل منهما توخى من الآخر المستحيل.

في السادس عشر من مايو عام ١٢٢٢ وصل تشان تشون إلى جنكيز خان بعد أن سلك طريقاً شاقاً عابراً شمال الصين ومنغوليا وتركستان الشرقية والأنهار السبعة واصلاً إلى شواطئ أموداريا، بعد التبادل المعتاد للتحية سُمح لتشان تشون بالجلوس، وقدموا له الطعام، وحينها سأله جنكيز خان السؤال الذي انتظر رده بكل شغف:

- أيها الرجل الطاهر! لقد أتيت من ديار بعيدة، فما عندك من عقار للحياة الأبدية؟

فرد عليه الراهب:

- توجد وسائل لحماية الحياة، إنما لا يوجد عقار للخلود [المصدر نفسه، ص٣٣٠].

كان رده حقاً وبسيطاً ولم يتطلب أي تفسيرات خاصة، وفهم جنكيز خان أنه المالك المهيب على الشرق والغرب تنتظره الخاتمة الحتمية.

نحن لا نعلم هل توجه الراهب تشان تشون إلى جنكيز برجائه، ولكن أصبح من الواضح والمفهوم له أن عليه ألا يأمل بذلك، وكتب وهو يغادر مقر قيادة جنكيز خان قائلاً:

على حافتي الطريق تبعثرت الجثث
والمارة أقفلوا تأففاً أنوفهم
أمن عشرة أعوام إلى عشرة آلاف
تتحرك الآلة الحربية
آجلاً أم عاجلاً ستؤوب الجيوش
ويعم السلام!
[المصدر نفسه، ص٣٢٢].

لم يتبق لهذا الراهب سوى الأمل في أن «آجلاً أم عاجلاً» سيعم السلام على الأرض، وقد فهم عدم مقدرته، تحادث جنكيز خان معه بكل أريحية حول أسرار الروح وتعاليم الداوسيين، ولكن لم يكن يود الاستماع لأي حديث يدور حول التسامح، عندما طلب من تشان تشون المثول أمام جنكيز خان راجياً لأجل سكان شبه جزيرة شاندون، أجابهم: «على الرغم من أنني سأسعى ولكني لن أحقق شيئاً» [المصدر نفسه، ص٣٣٤]، شاهد تشان تشون على طول طريقه الطويل أهوال الحرب وبكل حزن كتب:

لقد عمرت هذه الأمكنة بالأكم وبلغت عنان السماء
ولأن نشاهد المعمورات بكل ندرة
وقد مات أحياء لا يحصون على حد السيف
كم من العمائر التي أحيلت إلى رماد غبرة!
[المصدر نفسه، ص٣٤٧]

أمر جنكيز خان تشان تشوم وتلاميذه أن يسكنوا في أي مكان ينال إعجابهم في مملكته، وليدعوا له بالعمر المديد [المصدر نفسه، ص٣٤٧-٣٤٩].

في عام ١٢٢٢ زار جنكيز خان في آسيا الوسطى مبعوث سون الجنوبي، الذي أرسل له عام ١٢٢١ من أجل التباحث حول إمكانية قيام اتحاد والقيام بالنشاط العسكري الموحد ضد دولة تسزين، توجد معلومات قليلة في أحد المصادر الصينية عن هذه الزيارة: «في قديم الزمان عندما كان إمبراطورنا تاي تسزو يقود جيشه وذلك لتأديب الإقليم الغربي، وفي عام سين سي توقف عند حامية تيمينغوان، أرسل الحاكم السوني نين تسزون رسوله غاو مينيوي بغية عقد الصداقة والمطالبة بالسلام، فوافق الإمبراطور تاي تسزو على ذلك، وأصدر أمراً لساع الدولة غاخ بإعادته إلى وطنه» [التدوين الكامل، ص. ٨٤].

ينبؤنا مؤلف «يوان شي» بأنه في آسيا الوسطى جاء إلى جنكيز خان أيضاً رسول الإمبراطور تسزين «الحاكم تسزين أرسل أوغوسون تشجوندوان يعرض رسالة حكومية يطلب السلام منادياً الإمبراطور بالأخ الأكبر، ولم يقبلوا ذلك الاقتراح» [يوان شي، الفصل الأول، ص١١أ]. طلب إمبراطور التشجور تشجينين عقد السلام بشرط الاعتراف باستقلاله عن جنكيز خان عادا نفسه «الأخ الأصغر» وجنكيز «الأخ الأكبر» ولكن جنكيز لم يوافق على ذلك ساعياً وراء هدف واحد، هو القضاء على تسزين.

في عام ١٢٢٠ وفي غياب جنكيز خان وعلى وادي أورخونا ـ حيث تم بناء الدير البوذي الشهير إيردينيتسزو ـ تمّ بناء مقر قيادة جنكيز خان الجديد المسمى قره قوروم، يقع المقر القديم ـ كما يقال ـ في منعطف الجزء الأوسط من نهر الكيرولين في منطقة كودا أرال، من المحتمل أنه كان أول قصر مستقر لجنكيز خان في هذه

المنطقة، وهنا كانت مقابر الأسلاف ومعبد للتعبد وبالجوار أقيمت أربعة مقرات للقيادات التابعة للخان يديرها زوجاته.

كان مقر القيادة الجديدة قره قوروم مواصلة للتقاليد الأويغوية، التي تعني «الأنقاض السوداء». قام المغول حسب القصص المأثورة في منطقة قره قوروم بنصب عشرين يورتا، وأسسوا عاصمتهم، ولذلك يوجد تفسير لمعنى اسم قره قوروم، مثل «حورين غير»؛ أي «عشرون يورتا» ويوجد تفسير آخر أيضاً «خارا كوريم»؛ أي «الحجارة السوداء». جذبت الأطلال القديمة على جبل مالاخيتا قديماً الانتباه، حيث كانت في القرن الثاني عشر مقر قيادة الخان الكيريتي المسمى بتاخاي بالغاس، تم بناء مدينة في بادئ الأمر، وفي عهد جنكيز خان وفي مركزها تم نصب خيمة متنقلة لجنكيز خان، يفترض أنها العاصمة الأولى لجنكيز خان، ونمت فيما بعد حتى بلغت حجم مدينة كبيرة، وكانت مساحتها ٤٠٠×٤٠٠ متر.

من الصعب تحديد المكان الذي استقر فيه جنكيز خان عندما آب إلى منغوليا، سواء أكان هذا قره قوروم أو مكاناً آخر. ذكر في كتاب «يوان شي» أنه «في فصل الربيع في الشهر الأول عاد إلى مخيمه غير الثابت حيث مقر قيادته» [يوان شي، الفصل الأول، ص١٢أ] حسب معلومات رشيد الدين بعد عودة جنكيز خان «أمر بتشييد خيمة ذهبية كبيرة، وعقد اجتماعاً لعدد كبير من الناس وأقام لهم وليمة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص١٣٠]، وفي صيف عام ١٢٢٥ «قضى وقته بالدار وقام جلالته بإصدار أوامر حكيمة».

كما كتب الشاعر المغولي مؤخراً:

الأرض والسماء زوجان

الشمس والقمر زوجان

الصيف والشتاء زوجان

نحن نعلم أن جنكيز خان قد فكر بهذا الأمر، ونعلم أيضاً أنه قرر أن يقضي في الحرب ما تبقى له من السنين لإسقاط دولة التانغوت. حدثت بعض التغيرات في دولة التانغوت قبل عودة جنكيز خان إلى منغوليا التي كانت في غير صالحه فقد تمت تنحية الحاكم تسزون سيان لصالح ابنه دا فان تحت ضغط المناصرين النشطاء في الصراع ضد المغول، وعندما علم هذا الأخير بعودة جنكيز خان من الغزو الغربي وبنواياه في إبادة دولة سي سيا قام بإجراءات تعزيز أجهزة الدفاع عن الدولة، في نهاية عام ١٢٢٤ تمكن من توقيع السلام بين التانغوت والتشجورتشجينيين.

فهم موخالي مغبة هذا التطور في الأحداث، وأرسل جيوشه لاجتياح المناطق الوسطى من دولة سي سيا، لكن التانغوت ألحقو بهم شر هزيمة، حينها فهم دا فان أن التشجورتشجيين لا يعتمد عليهم حالياً، فأكثر من نصف دولة تسزين وقعت تحت سيطرة المغول، حتى بعد أن عقد التشجورتشجيون الصلح مع دولة سي سيا وفرض عليهم القتال في جبهتين: في الشمال مع المغول، الذين لم ينقطع هجومهم، وعلى الجنوب مع الصين، ساعدت سون الجنوبية المغول في القضاء على الذين كانوا من عهد قريب أعداءهم وجيرانهم الشماليين، في يوم ما قام الصينيون بمساعدة التشجورتشجينيين بالقضاء على الكيدانيين، وفقدوا نصف الصين، وبمساعدتهم للمغول لم يدركوا بعد أنهم في القريب العاجل سيفقدون كل الصين، وهكذا لم يكن بمقدور دا فان الاعتماد على معونة الصينيين، حينها قام بخطوة جريئة، وأخذ يبحث عن حلفاء له في مستعمرات جنكيز خان وسط القبائل التي تعيش «إلى الشمال من الرمال» أي في صحراء غوبي وتاكلا ما كان، التي لم تخضع لجنكيز خان إلا منذ وقت قريب.

كانت هذه منه محاولة تنظيم اتحاد عسكري في مؤخرة جيش جنكيز خان، من الغريب أنها بشكل ما قد كللت بالنجاح، ولذلك ليس من باب المصادفة أن جنكيز خان كان أكثر خوفه من أقاربه، الجيش الذي يمكن أن يقوم بغزوة كبرى في سي سيا يوجد في منغوليا، بعد أن علم المغول عن تحركات دا فان حاصروا المركز الغربي لدولة التانغوت مدينة شاتشجو، لم يكلل الحصار الذي استمر مدة شهر بالنجاح، والأنفاق التي شقها المغول تحت حوائط المدينة «رماها التانغوت بالنيران»، فأرغموهم بذلك على فك الحصار.

بعد أن عاد جنكيز خان إلى دياره طلب من دا فان أن يرسل إليه ابنه كرهينة، فناقش مجلس الدولة في سي سيا الرد على المغول، اقترح الكثير الخضوع والتنازل حتى لا يعطوا المغول فرصة للحرب، قال أحد وجهائهم:

- يا صاحب الجلالة! إن المغول كحيوانات مفترسة، حتى إذا كانوا مستأنسين، ولا يضايقون، فمن باب أولى ينبغي التوجس من زئيرهم، إن طباعهم غير ثابتة، وبرفضنا سوف نعطيهم الذرائع للحرب، إن دولة تسزين على وشك الانهيار، وهي بنفسها لا تستطيع الدفاع عن نفسها، فهل ستكون قادرة على مساعدتنا؟ يجب إرسال وريث العرش إلى مقر القيادة المغولية [كيتشانوف، ص٣٠٩].

وقد كان على حق، ولكن دا فان كان أيضاً محقاً عندما رأى أن هذا ليس بالمخرج، وإنما المخرج يكمن في الخطوات الحاسمة ليس للتانغوت فقط وإنما لكل حلفائهم الذين عانوا من بطش سيف جنكيز خان:

- لقد انتهيت للتو من أمر إعادة السلام من تسزين، وأتمنى أننا بجهودنا الموحدة سنصمد في وجه عدونا المشترك، فهل أقوم الآن بإرسال ابني الوحيد إلى العبودية، ولاحقاً سأعض أصابعي من الندم؟ لم التسرع؟ [نفس المصدر، ص٣٠٩].

رحل رسول جنكيز خان بخفي حنين، من المحتمل أن المحادثات لم تنته عند هذا الحد، فمن إحدى الوثائق التانغوتية نعلم أنه تم في مارس عام ١٢٢٥ تعيين المسؤول عن الحدود السوتشجوكي حامل الوسام الذهبي كرسول، وكان من المفترض أن يسافر عبر مدينة خارا خونو، حيث تم العثور على هذه الوثيقة الأصلية في عام ١٩٠٩ من قبل ب. ك. كوزلوف (انظر [المذكرة]) بخلاف هذه المنطقة - أي مصب نهر إيدزين غول - كان بإمكان البعثة العبور في السهول المغولية فقط، من الواضح أن المحادثات لم تكلل بالنجاح، بعد وقت قليل استقبل دا فان شيلغا كسان خونو أحد أبناء الخان النايماني [يوان شي، الفصل الأول، ص١٢]، ومن الجائز أن ممثلي تلك القبائل «شمال الرمال» الذين يبغضون جنكيز خان، والذين رأوا في التانغوت القوة التي يمكن أن تقف بوجهه، كانت دعوتهم دعوة سافرة، إلى الحرب.

في ربيع عام ١٢٢٥ يبدو أن جنكيز خان قد ارتحل إلى صعيد دولة سي سيا، وفي الطريق كان يصطاد الخيول البرية، وللمرة الثانية سقط عن ظهر الحصان، وذلك لأنه في ربيع عام ١٢٢٣ سقط خلال الصيد من على ظهر الحصان للمرة الأولى، وكاد أن يقتله خنزير بري (حالوف)، وفي الصباح قالت زوجة الخان لأولاد القيصر وحراسه:

- لقد ألمت بالقيصر البارحة حمى شديدة، يجب التباحث في هذا الموقف.

قرر في المجلس أن «التانغوت قوم مستقرون ويعيشون في منازل من الطين في مدن صغيرة، فهل يعقل أن يذهبوا إلى مكان ما حاملين بيوتهم فوق ظهورهم؟» قرر مؤقتاً تأجيل الحملة، واستئنافها بعد أن يشفى جنكيز خان، لكن جنكيز رفض هذه الخطة، وافق على الانتظار لوقت ما، وحتى لا يظن التانغوت أنه قد خاف، أمر بإرسال رسول إليهم لإعلان الحرب، وقد أملى عليه الآتي: «في يوم ما يا

بورخان وعدتني مع التانغوت أن تكونوا ساعدي الأيمن، ونتيجة لذلك طلبت منكم الانضمام للغزو على السارتاوليين، الذين خرقوا أسس اتفاق السلام، لكنك يا بورخان لم تكتف بعدم حفظك كلمتك فقط، ولم تساعدني بجيوشك، ولكن رددت بكلمات وقحة، ولما كنت مشغولاً بأمور أخرى قررت تأخير تصفية حسابي معك، والآن بعد أن انتهيت من غزو السارتاوليين بمعونة السماء الخالدة وبعد أن قومت السارتاوليين في الطريق الصحيح أعود، وأعود إليك يا بورخان مطالباً بالحساب».

حسب ما ورد في الأساطير الشعبية حينما ذكر الرسول هذه الكلمات في عاصمة سي سيا رد عليه آشا غامبو أحد القادة العسكريين قائلاً:

- يا أيها المغول، ويا محبي الحرب، إذا رغبتم في الحرب فعندي لكم السهول الآلاشابية، فيها خيام محصنة بالشباك وجمال الرجل، تفضلوا إلى آلاشاي عندي، وهناك سنتحارب! [السيرة المكنونة، ص١٨٩-١٩٠].

سافر الرسول حاملاً خبر أن التانغوت عازمين على القتال حتى آخر قطرة دم.

لم يكن تشجوتشي موجوداً في المجلس الذي ناقش إذا ما كانوا سيشنون الحرب على التانغوت أم لا، حسب معلومات رشيد الدين كلف جنكيز خان تشجوتشي بإخضاع كل ديشت إ كيبتشاك والبشكيريين والروس والشراكسة، لكن تشجوتشي «تهرب من هذه المهمة، وبدلاً من ذلك توجه إلى دياره». نظير ذلك وعد جنكيز خان بإعدامه معلناً: «سأعدمه، لن ير الرحمة أبداً»، مرض تشجوتشي ولم يرجع إلى منغوليا مع العائدين من أبناء القيصر، استدعاه جنكيز عدة مرات، ولكنه لم يحضر متعللاً بالمرض، قام أحد ما باغتيابه منبئاً بأنه في واقع الأمر ليس مريضاً إنما يتلهى بالصيد، تقبل جنكيز خان هذا الخبر كعصيان من قبل ابنه «لعل

تشجوتشي فقد عقله إذا كان يرتكب مثل هذه الأفعال»، وأمر جيوشه بالهجوم عليه [رشيد الدين، المجلد الثاني، ص٧٩].

لكن الغزو لم يتم، وذلك لأن تشجوتشي مات وهو في الأربعين من العمر، هناك معلومات تفيد أن تشجوتشي لم يكن موافقاً على أساليب الإرهاب الجماعي الذي مارسه والده، وحسب أقوال جوزجاني أعلن: «لقد فقد جنكيز خان عقله لأنه يبيد كل هذا الكم الهائل من الأراضي والبشر». هناك أقاويل مبهمة كأنما تشجوتشي لم يكن في عداوة مع أشقائه فقط، وعلى الأخص مع تشاغاتاي، وأكثر من ذلك كأنما كانت لديه مزاعم حتى يقتل والده خلال الصيد، وحينما أصبح هذا الأمر معلوماً لجنكيز خان أصدر أمراً بتسميم تشجوتشي [رافيرتي، ص١٠٠١]. نحن نعلم أن تشجوتشي لم يتمتع بمحبة جنكيز خان، بخاصة أنه قد ولد بعد أن كانت بورتي في أسر الميركيت، العامل الذي حفز جنكيز خان لهذا من الممكن أن تكون رغبته في تحاشي الصدام المتوقع حتماً بين تشجوتشي وتشاغاداي بعد موته، يفترض ب. راتشنيفسكي أنه حتى لو كان لجنكيز خان يد في موت تشجوتشي لم يكن ذلك الإحساس الخاص، إنما «الفهم السياسي ومبعثه القلق على وحدة الإمبراطورية [راتشنيفسكي، ص١٢٣].

في عام ١٢٢٦ «في الربيع، وفي الشهر الأول آخذين في الحسبان أن سي سيا قد ضمت إلى جانبها عدوه إلا غاسيا لكون (شيلغا كسان خونو) ولم ترسل ابن الحاكم رهينة، قام بنفسه (أي جنكيز خان) وترأس الجيوش، وقام بحملة تأديبية ضده، في الشهر الثاني أخضع مدينة خايشوي والمدن الأخرى» [يوان شي، الفصل الأول، ص١٢أ] يبدو أن جنكيز مرض طيلة شتاء عام ١٢٢٥-١٢٢٦ وربيع عام ١٢٢٦. قام المغول بعبور حدود دولة سي سيا في أسفل نهر إدزين غول، وسقطت مدينة خايشوي، انهزم التانغوت والقبائل التي اتحدت معها بعد، وخسروا عشرات

الآلاف من القتلى، ترك جنكيز خان السكان المدنيين «أي بقية التانغوت» كعادته «للجيش لينهبهم». هكذا بدأت آخر حرب في حياة جنكيز التي استمرت قرابة العامين، وكانت وكان هدفهما الإبادة الكاملة للشعب التانغوتي[1].

من خارا خوتا متجهاً لأعلى مجرى نهر إدزين غول قسم المغول مساحة سي سيا إلى نصفين، وخرجوا إلى سفح نانشان «في الصيف قام [جنكيز خان] باللجوء إلى الجبال هرباً من القيظ محتلاً غانشو وسوتشجو، احتل في الخريف سيلانفا وقضاء شولو ولوخا، وبعدها عبر شاتو ووصل إلى خوانخا عند المعابر التسعة [تسزيو دو]، احتل إنلي وبعض الأقضية الأخرى» [يوان شي، الفصل الأول، ص١٢٠أ]. أما جنكيز خان فقد أمضى الصيف في جبال نانشان في الوقت الذي قامت فيه جيوشه بغزو محافظات سي سيا المجاورة، تكبد المغول في الشهر الخامس (٢٥ مايو - ٢٥ يونيو) من عام ١٢٢ خسائر جمة عند الاستيلاء على مدينة سوتشجو، غضب جنكيز خان على أثر مقاومة أهل المدينة عند حصارهم، وأمر بذبح أهل مدينة سوتشجو أجمعهم، أما المدينة نفسها فهدمها، هذا المصير نفسه كان بانتظار مدينة غانتشجو، لولا ضراعة تشاغان التانغوتي، الذي كان قائداً لألفية جنكيز خان وابناً لغانتشجو الذي وقع في أيدي المغول في سنوات طفولته والذي يخدم تحت إمرة جنكيز خان، فأدى ذلك إلى حماية السكان من الذبح الجماعي، والمدينة من الهدم، حسب إفادة «يوان شي». كان تشاغان (شاخان) ابناً لأحد وجهاء سي سيا من جارية له، زوجة الوجيه أبغضت أمه، ويبدو أنه توجب عليها

(١) إن كراهية جنكيز خان لتانغوت كانت عظيمة إلى درجة أنها استمرت طويلاً، ففي جبال سينلونشان الواقعة بالقرب من مدينة لانتشجار تنمو إلى يومنا هذا شجرة بلوط يناهز عمرها ألف العام، وحسب الأسطورة المحلية إن جنكيز خان ضرب بسيفه هذه الشجرة وهو في حالة غضب وأعلن: «إنني في كل الأحوال سأقضي على دولة سي سيا»، إن مؤلف هذه الأسطر رأى بنفسه في أغسطس عام ١٩٨٩ شجرة البلوط التي شجها جنكيز بسيفه.

وعلى ابنها الفرار، قابل جنكيز خان في أثناء الصيد تشاغان وأعجبه الحديث معه، أعلن الصبي أن من صاروا في عداد كبار الإداريين هم كل من «درس المراسم»، وأقام الصبي في مقر قيادة جنكيز خان، وعندما شب زوجوه فتاة من قبيلة خونغيرات، خدم في الحرب مع تسزين حتى رتبة قائد ألف، وكان من ضمن الذين استولوا على بخارى وسمرقند، وشارك في مطاردة جلال الدين، فلذلك علم بما سيجري للمدينة التي يفوز بها المغول بعد مقاومة عنيدة.

وردت قصة حصار مدينة غانتشو في سيرة حياةتشاغان كالآتي: «عاش والد تشاغان تسزيوي تسيلوي في المدينة المحصنة، ربط تشاغان بالسهم خطابا ودعاه للخروج طالباً منه أن يريه شقيقه الأصغر، الذي له من العمر ثلاثة عشر عاماً، وقد صعد على سور المدينة في منطقة عالية، وتمكن [تشاغان] من مشاهدته، ومن ثم بعثوا رسولاً إلى المدينة حاملاً أمراً بالاستسلام مقدماً، آنشجو مساعد والده [أي تشاغان] وآخرون يبلغ عددهم ثلاثين شخصاً اتحدوا وقرروا قتل تسزيوي تسيلوي، وخلال ذلك قاموا بقتل الرسول، جمعوا كل قواهم للدفاع عن المدينة وصد العدو، وعندما تم الاستيلاء على المدينة أبدى الإمبراطور رغبته في أن تجتث بأكملها ويحفر مكانها حفرة، عدّ تشاغان الشعب غير مذنب، عوقب ستة وثلاثون شخصاً فقط، [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص١أ].

قام المغول في ديسمبر باجتياز نهر خوانجي، واحتلوا الأراضي الشرقية من دولة سي سيا، وفي هذا الوقت نفسه مات دا فان، الذي حاول أن ينظم الصراع مع المغول، تحمّل الأمير سيان حاكم التانغوت الجديد، إضافة للمنصب، إرثاً ثقيلاً، حاول الجيش التانغوتي المكون من مائة ألف بالقرب من مدينة لينتشجو إيقاف زحف المغول نحو العاصمة، تفاصيل هذه المعركة الكبرى ـ التي شارك فيها جنكيز خان

شخصياً ـ بقيت مجهولة، هزم الجيش التانغوتي بشكل مريع وسقطت مدينة ليتشجو، وأضحى الطريق مفتوحاً للجيش المغولي نحو عاصمة سي سيا.

في شتاء ١٢٢٦-١٢٢٧ بدأ آخر حصار لمدينة تشجوتسين، في الوقت الذي حاصرت فيه القوى الأساسية للجيش المغولي المدينة قامت فصائله الأخرى بالاستيلاء على القرى والمدن الأخرى، التي لم يتم احتلالها وتهديمها، ورد في إحدى المدونات التاريخية الصينية الآتي: «سيطر المغول تماماً على مدن دولة سي سيا وأقاليمها، دفن سكان هذه الأماكن أنفسهم تحت الحجارة والتراب لكي ينقذوا أنفسهم من السيوف والسهام، ولكن لم تكتب النجاة إلا لواحد أو اثنين من مائة، وغطت العظام البيضاء السهول» [كيتشانوف، ص٣١٣]، في الربيع والصيف من عام ١٢٢٧ كانت الدولة التانغوتية قد محيت من على ظهر الأرض، وعاصمتها قد حتم عليها بالقضاء لولا قيظ الصيف حيث: حماها من السقوط، الذي ارتبط بموت جنكيز خان بشكل مباشر، الذي مات تحت أسوارها، حسب إفادات رشيد الدين حدث هذا قبل سقوط عاصمة التانغوت، قال جنكيز خان قبل موته لمقربيه:

- لا تعلنوا عن موتي ولا تنوحوا ولا تبكوا حتى لا يعلم العدو بذلك، وعندما يخرج الحاكم وسكان المدينة في الوقت المحدد أبيدوهم كلهم! [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٣٣].

«في اليوم الخامس عشر من الشهر الأوسط لخريف عام الخنزير الموافق لشهر رمضان عام ٦٢٤هـ (١٥ أغسطس - ١٤ سبتمبر أي الثاني من أغسطس عام ١٢٢٧) غادر هذا العالم الزائل تاركاً العرش وأملاكه ودولته لأنساله الوجهاء، قام الأمراء وفقاً لأوامره بإخفاء خبر موته حتى قام ذلك الشعب [التانغوت] بالخروج من المدينة، وحينها قاموا بالقضاء عليهم تماماً» [المصدر نفسه]. حسب إفادة «يوان شي» (سيرة حياة تشاخان) كان جنكيز خان في جبال ليوبان «حاكم سيا دافع

باستماتة عن مدينة تشجونسين، أرسل الإمبراطور تشاخان إلى المدينة مع أمر حوى خيار الكوارث والعطاء الطيب للجيش والشعب [التانغوتي] الذين كانوا على وشك الاستسلام، وكما حدث مات الإمبراطور، قام القواد بأسر حاكم سيا وقتله[1]، من جديد جاء السؤال حول القضاء التام على سكان تشجونسين، قام تشاخان بكل جهده وأقنع الجميع بعدم فعل ذلك، ودخل المدينة بنفسه وهدأ الجميع وجمع ما تبقى من الناس» [يوان شي، الفصل ١٢٠، ص١ب].

حسب إفادة «التاريخ السري» نفسه، قام جنكيز بذاته باستقبال حكام التانغوت الذين جاؤوا للمحادثات محملين بالهدايا الثمينة، الحاكم التانغوتي من أجل إهداء جنكيز خان «جمع بحسب الألوان والأنواع الأشياء والأغراض كافة بالعشرات المكررة، مثلاً: الذهب والفضة والأواني والأغراض المنزلية، الصبية والبنات، الخيول الخصبة والجمال، وعلى رأس كل هذا تأتي الأصنام الذهبية، في خلال مدة الاستقبال الرسمي ساءت حالة جنكيز خان، وأمر بقتل حاكم التانغوت، قام المغول بالهجوم على عاصمة سي سيا بعد أن خرقوا اتفاق السلام، تم إبادة سكان عاصمة التانغوت، وتمت إحالة معابدها وقصورها ومكتباتها كافة إلى أنقاض، يقال إن جنكيز خان بعد القضاء على الدولة التانغوتية أمر «بعدما أن قضيت على التانغوت عن آخرهم بل حتى آخر عبد منهم . . . فدعهم يذكروني بهذه الإبادة الجماعية عند كل غداء . . . مرتين، بعد أن هجم جنكيز خان على الشعب التانغوتي؛ لأنهم

---

(١) وحسب وصف سيرة حياة أتشجولو التي وردت في مؤلف «يوان شي» أن أوتشجولو بالتحديد هو الذي قام بأسر آخر حاكم لدولة التانغوت (سي سيا)، وبعد ذلك وبأمر أوغوداي تم إعدامه، «يحكى: وقعت معركة كبرى مع الأعداء في منطقة خالا خاتشار، وفيها أطبق الحصار على قوات دولة سي سيا، فأصاب الذعر حاكمهم، فطلب الاستسلام، وقبض عليه، وعرض على تاي تسزو أي جنكيز خان الذي نفذ إعدامه» [يوان شي، الفصل ١٢٣، ص٣أ].

أخذوا بهذه الكلمة، وبعد أن قضى على التانغوت بشكل نهائي عاد وصعد إلى السماء في عام الخنزير (١٢٢٧)» [السيرة المكنونة، ص١٩٠- ١٩٢].

في الفصل الأول من كتاب «يوان شي»، الذي ورد فيه عرض لتاريخ حياة جنكيز خان وإدارته للدولة، وعند موته ورد الآتي: «في الخريف في الشهر السابع مات في معسكر خالاوتو غير الثابت بالقرب من نهر ساليتشوان، قبل الموت قال لمن حوله: "الجيوش المختارة لدولة تسزين موجودة إلى الجنوب من بوابة تونغوان، ويرتكزون على جبل ليانشان، من الشمال محميون بنهر داخا العظيم، ومن الصعب الوصول إليهم وهزيمتهم، فهل يمكن استخدام الطريق عبر أراضي سون؟ إن سون وتسزين أعداء قدامى، وسون من المؤكد أن يسمح [بمرور القوات ومرورنا] ولا بد أن نهزمهم [أي التشجورتشجيين]" قال ذلك ومات في عمر ستة وستين عاماً ودفن في أخدود تسيناغو» [يوان شي، الفصل الأول، ص١٢أ].

هكذا حسب السيرة الرسمية لجنكيز خان قبل موته فكر ليس بإبادة التانغوت - الذين تم هزمهم من قبل - إنما في سحق التشجورتشجينيين. إن مؤلفي «يوان شي» كتبوا في آخر ملاحظة التي لا تزال تحمل صوت العقل حتى يومنا هذا «إن الإمبراطور كان صاحب أفكار عميقة وخطط عظيمة، استعمل القوات كما الآلهة، لذلك تمكن من سحق أربعين دولة، وبعد ذلك دمر دولة سي سيا، والدلائل على أفعاله البطولية المدهشة جمة، للأسف في كل ذلك لم يجهز [المغول] موظفين مؤرخين، ولذلك ضاع الكثير من السجلات» [المصدر نفسه] وهذا حقيقة، كما رأينا الكثير مهملاً ومليئاً بالتناقضات. وهذا ينطبق أيضاً على واقعة موت جنكيز خان.

حسب إفادات «يوان شي» ورشيد الدين مات جنكيز خان بسبب المرض، كما كتب لاحقاً ر. ك. دوغلاس «بسبب الداء العجول» [دوغلاس، ص٢٣] عدة

مؤلفين يحددون المرض أو سبب المرض، أبو الفرج يذكر الملاريا [راتشنيفسكي، ص١٨٠]، وحسب «التاريخ السري» يتضح أن سبب مرض جنكيز خان وموته كان من الممكن أن يكون سقوطه من على ظهر الحصان في وقت صيد العير الوحشي حيث «شب حصانه البني الرمادي وسقط الحاكم ولحقه الأذى» [السيرة المكنونة، ص١٨٩]، وحسب رواية «ألتان توبتشي» لمؤلفها لوبسان دانسان قبل موته «أصيب الحاكم المهاب بحمى شديدة»، بعد أن أملى وصيته على أنجاله «في العام السادس والستين من العمر وفي العام الثامن والعشرين من تقلده الحكم، في عام الخنزير الأحمر في اليوم الثاني عشر من الشهر السابع أصبح روحاً سماوياً» [ألتان توبتشي، ص٢٤٠]، وحسب إفادة ألتان توبتشي في القرن الثامن عشر «في آخر قمر من عام الخنزير المائل للحمرة اختطف جنكيز خان شيبان حاكم شعب سي سيا بعد أن تغلب على شعب سي سيا عاد في الخريف، في طريق عودته توقف عند نهر دوورادو مورانا (النهر الأسفل) الذي يتبع لكوكا الأوسوني من سي سيا، الخاغان أصيب بضعف شديد، بعد أن عاش سبعة أيام مات في اليوم الثامن، بعد أن قال وصيته الروحية الأخيرة، أحضر جثمانه مع الاعتبارات كافة وحولوه إلى أونغون (أي دفنوه) في منطقة نهر تشيفما، إنهم يقولون كذلك، ولكن غير معلوم أين توجد هذه المنطقة» [السيرة التاريخية للمغول العائدة إلى القرن الثامن عشر، ص١٥٣-١٥٤].

يحكي جوزجاني أن إمبراطور التانغوت الأسير قد تنبأ لجنكيز خان بالموت في اليوم الثالث من وفاته هو شخصياً، بالفعل نزف الدم من جروح جنكيز خان كاللبن الأبيض «وتوجه إلى نار جهنم» [رافيرتي، المجلد الثاني، ص١٠٩٦].

كتب ماركو بولو عن موت جنكيز خان أنه كان بسبب الجروح، الجروح القديمة التي أصيب بها في أثناء الحرب مع تسزين، [ماركو بولو، ص٨٧]، ويخبرنا بلانو كاربيني أن جنكيز خان قتلته صاعقة [الرحلات، ص٤٤].

بعض السير التاريخية المغولية المتأخرة ـ مثل شارا توجي ـ تحكي عن الصراع الخيالي بين جنكيز خان وحاكم التانغوت، الذي تحول إلى ثعبان، حينها تحول جنكيز إلى طائر التارودو الخرافي، تحول حاكم التانغوت إلى نمر وجنكيز خان تحول إلى الأسد الخرافي «أرسلان»، تحول حاكم التانغوت إلى شاب حينها تحول جنكيز خان إلى آلهة خارموستو، وأخيراً عندما أسر جنكيز خان حاكم التانغوت خاطبه هذا الأخير قائلاً: «إذا قتلتني فإنك في جسمك ستتضرر» أي إن حاكم التانغوت قال إذا قتله جنكيز خان فإنه نفسه سيموت، فإذا لم يقتله فالضرر سيصيب أنسال جنكيز خان، قام جنكيز بقتل حاكم التانغوت وأسر زوجته غور بالجين غوا خاتون، وهي التي قتلت جنكيز خان، «غوبالجين غوا خاتون في مكان سري من جسمها بعد أن وضعت فيه مشبك وتسبب في الأذى للمكان السري لأدزان (أي جنكيز خان. تعليق الولف). بعد ذلك هربت إلى خارا موران وقذفت بنفسها وغرقت» بعد أن أصيب جنكيز خان هذه الإصابة غير العادية والقاسية مرض بشدة «وفي العام السادس والستين من عمره في عام الخنزير الأحمر في اليوم الثاني عشر من الشهر السابع في مدينة غورماغاي بالغاسون مات» [شارا توجي، ص١٣٣-١٣٥]. قرر ر. غوسيّه أن جنكيز خان مات في الثامن عشر من أغسطس عام ١٢٢٧ [غروسيّه، ص٣٠٩].

وهكذا تظل ملابسات موت جنكيز خان غير واضحة، يمكن بكل ثقة القول إنه قد مات في بداية الخريف (أو في نهاية الصيف من عام ١٢٢٧ على أراضي الدولة التانغوتية سي سيا، مباشرة عقب (أو بعد وقت قليل) سقوط عاصمة سي سيا مدينة تشجونسين، وأسر آخر حاكم تانغوتي، وسحق دولة التانغوت، من المحتمل أن الموت قد أدرك جنكيز خان في أوردوس قرب نهر تشجامخاك الواقعة في الوقت الحالي في أراضي الحكم الذاتي لإقليم منغوليا الداخلي حيث ينتصب الآن ضريح عظيم للخان العظيم، وأقيم له تمثال ضخم من حجر أبيض.

حسب إفادات رشيد الدين: إن المغول بعد وفاة الخان «جمعوا رفاته وتوجهوا في طريق العودة حيث أبادوا كل ما هو حي وقع بأيديهم، إلى أن أوصلوا الرفات إلى مقر جنكيز خان وأبنائه، كل أبناء القيصر ونساؤه والأمراء والذين كانوا على مقربة تجمعوا وناحوا عليه» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٣٣].

متلبساً بأجنحة الصقر المحلق الطائر ابتعدت يا سيدي الحاكم!
أهذا صحيح أنك أصبحت حملاً لعربة مقعقعة يا سيدي الحاكم؟
متلبساً بأجنحة الباشق الخاطف لفريسته ابتعدت طائراً يا سيدي الحاكم!
أهذا صحيح أنك أصبحت حملاً للعربة ذات المحور المتحرك يا سيدي الحاكم؟
متلبساً بأجنحة العصفور المشقشق ابتعدت طائراً يا سيدي الحاكم!
أصحيح أنك أصبحت حملة لعربة ذات صرير يا سيدي الحاكم؟

هكذا أو بالتقريب قام الشعب المغولي بالبكاء على قائده جنكيز خان.

حسب إفادات رشيد الدين أن جنكيز خان دفن في منغوليا، وفي ذلك المكان الذي حدده سابقاً، كذلك يخبرنا رشيد الذين عن أنه يوجد في منغوليا جبل عال يسمى بورخان خالدون، من إحدى سفوح هذا الجبل تسيل مجموعة من الأنهار وعلى ضفافها تنمو غابات كثيفة «في تلك المناطق تعيش قبائل التايتشجوت، اختار جنكيز بنفسه هذا المكان لدفنه وأمر: "فلتكن هذه المنطقة مكاناً لدفن أنجالنا الذكور". تمت رحلات جنكيز خان الصيفية والشتوية في تلك المناطق . . . ولد في أسفل نهر أونون ومن هناك حتى جبل بورخان خالدون تكون ستة أيام من الطريق . . . والأمر كان كذلك: كان جنكيز خان في رحلة صيد في إحدى تلك الأمكنة تحت شجرة وحيدة، ولجأ إليها حيث نعم بشكل من السلوى، وهنا قال: "هذه المنطقة تتناسب ومكان مدفني! دعوهم يضعوا عليها علامة!"، في وقت

البكاء عليه الأشخاص الذين سمعوا منه هذه الكلمات رددوها، أبناء القيصر والأمراء حسب إرادته اختاروا تلك المنطقة لمكان قبره، يقال إنه في ذلك العام نفسه الذي دفنوه فيه، وفي ذلك السهل نفسه نمى عدد لا يحصى من الأشجار والأعشاب، في الوقت الحالي هذه الغابة كثيفة جداً بحيث لا يمكن عبورها، وهذه الشجرة الأولى والمكان الذي تم دفن جنكيز خان لا يمكن تعرفه البتة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٣٣-٢٣٤].

إذا صدقنا هذه الرواية فإن جنكيز خان دفن عند أهله في وطنه في جبال خانتاي، في تلك الجبال حيث مارس الصيد منذ طفولته، وحيث يبحث أكثر من مرة عن الخلاص من التايتشجوت والميركيت، يقدر ل. غامبيس أنه من المحتمل أن جنكيز خان قد «دفن مع بعض أهله في منطقة تقرب من منابع ثلاثة أنهر في جنوب منغوليا» [غامبيس، ص١٢٦].

يوافق ب. راتشنيفسكي على رواية رشيد الدين حول مكان دفن جنكيز خان ما خلص إليه تم إعلانها كمنطقة محرمة «خوريغ».

في كتاب «ألتان توبتشي» نقرأ الآتي:

«على الرغم من أن الروح الرحيمة قد فارقتك
إلا أننا سنجمع غالي رفاتك الشبيه باليشم
وسنعيده لقومك كافة
وهكذا تحركت العربة الكبيرة بأزيز
وعمت الفرحة البشر كافة!
إلى أن بلغت أرض الخان العظيمة وهناك ودعوك . . .

إن الجثمان الحقيقي - كما يقول البعض - قد تم دفنه في بورخان خالدون، والآخرون يقولون إنه قد تم دفنه على السفح الشمالي من ألتاي خان أو السفح

الجنوبي لكانتاي خان، أو في المنطقة التي تسمى ياخا أوتاك» [ألتان توبتشي، ص٢٤٢].

يؤكد ماركو بولو أن منطقة دفن جنكيز خان والمغول الحاكمين كافة كانت ألتاي: «اعلموا أن كل الحكام العظماء من سلالة جنكيز خان يدفنون في الجبل الكبير ألتاي، وأينما مات حاكم التتار العظيم ـ حتى لو كانت المسافة إلى هذا الجبل تستغرق مائة يوم من الطريق ـ ينقلونه إلى هناك ويدفنونه، وهاكم هذه الطرفة الغريبة: في أثناء نقل الخانات العظماء إلى ذلك الجبل وفي خلال أربعين يوماً أكثر أو أقل يقتل الذين يصاحبون نقل الجثمان كل من يصادفونه في طريقهم قائلين لضحاياهم: "اذهب إلى الدار الآخرة لكي تخدم حاكمنا!" وإنهم بحقّ يؤمنون بأن المقتولين حين ينتقلون إلى الدار الآخرة سيخدمون حاكمهم، الشيء نفسه يفعلونه مع الخيول، عندما يموت حاكم عظيم يقتلون خيرة خيوله؛ لكي تكون بحوزته في الدار الآخرة» [ماركو بولو، ص٨٨].

يفترض ي. شميدت الباحث في شؤون التبت للقرون الماضية والعالم بالشؤون المغولية معتمداً على عدم معرفة المغول بتحنيط الموتى أن جثمان جنكيز خان في ذاته لم يصل حتى منغوليا، وإنما تم دفن بعض الأغراض التي تخصه [شميدت، ص١٠٧، ٣٩٠][(١)].

(١) يمكن وضع قائمة للأماكن التي من المحتمل أن يكون دفن بها جنكيز خان:

ألتاي [ماركو بولو، ص٨٨].

ألتاي خان [ألتاي توبتشي، ص٢٤٢].

بورخان خالدون [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٣٨-٢٣٩].

ياخا أوتاك [ألتان توبتشي، ص٢٤٢].

كانغاي خان [ألتان توبتشي، ص٢٤٢].

شِعب تسينيانغو [يوان شي، الفصل الأول، ص١٢أ].

=

عندما جلس أوغوداي على العرش ضحى بأربعين فتاة جميلة لروح جنكيز خان، وفي الوقت نفسه تمت التضحية بخيول أصيلة [رشيد الدين، المجلد الثاني، ص١٩].

قام غ. ن. بوتانين في القرن السابع عشر بزيارة إيخي إيجين خورو في هضبة أوردوس حيث يعتقد أتباع اللاما من التبت ومنغوليا بمكان دفن جنكيز خان، حيثما أنشأوا بعض اليورتا، التي كأنما تحوي أنقاض جثمان جنكيز خان.

مرتدياً ثوباً صينياً قشيباً وبصحبة اثنين من المغول توجه غريغوري نيكولا يفيتش بوتانين راجلاً إلى إيخي إيجين خورو قدس الأقداس على رابية مربعة الأركان غير عالية ومغطاة بالطوب، خلف سور شبه مهدم أطلت خيمتان (يورتا) وحيث تماستا تم تشييد معبر سري، على رأس الخيام قباب ذهبية، أما اللباد الذي يغطي مجموعة القباب فقد رسمت نهاياته على شكل ألسن متدلية إلى الأسفل، قام غريغوري نيكولا يفيتش مع المغول بالركوع ثلاث مرات جاثياً أمام أبواب الخيام المشرعة، كان الدخول إلى اليورتا محظوراً، إنما من الأبواب المظلمة فقط، وفجأة تمتد يد حاملة طبقاً أحمر عليه مزهرية تحوي على دهن محروق، المغول الدارفاتيون الذين صاحبوا بوتانين عرضوا عليه أن يمسك بالطبق، وحينها قاموا مرة أخرى بالانحناءة ثلاث مرات وابتعدوا.

= نهر تشيفما [المدونة التاريخية المغولية من القرن الثامن عشر، ص١٥٤].

في خمس حالات من الأحوال المتوقع فيها دفن جنكيز خان يرد اسم الجبال، وهذا أقرب احتمال، وفق التصورات التقليدية القديمة للشرق الأقصى ومن بين المناطق الجبلية أولها ينسب لجبال خانغاي وبورخان خالدون، تلك الجبال المحببة لجنكيز خان، ومنذ سنوات في جمهورية منغوليا الشعبية تعمل بعثة يابانية منغولية مشتركة في البحث عن مقبرة الفاتح جنكيز خان مستخدمة كل وسائل التقنية الحديثة، نأمل أن تكلل بحوثها بالنجاح.

من تساؤلات بوتانين تبين أنه يوجد في اليورتا حوض فضي يحوي عظام جنكيز خان، كل عام في اليوم الحادي والعشرين من الشهر الثالث حسب التقويم القمري ينظم المغول الأوردوسيون احتفالاً كبيراً (تايلغا) على شرف جنكيز خان، وإلى خيمته يجلبون دوندو إيجين خورو قيادة الحكم الوسطى (إيخي إيجين خورو، أي مقر القيادة الكبرى للحاكم)، كذلك قيادة بورتي الزوجة الأولى للخان وباغا إيجين خورو (مقر قيادة الحاكم الصغرى) ورداء الخانة غوربيلجين التي قتلت حاكم العالم بكل غدر وبغير توقع، في ذلك اليوم يقدمون حصاناً كأضحية لجنكيز خان.

حكى أحد المغول لبوتانين أنه في قديم الزمان قدمت الضحايا البشرية لجنكيز خان، ولكن بانتشين لاما من التبت قام بتهدئة جنكيز خان المتعطش للدماء، وذلك عندما بقي وحده في اليورتا مع رفات الخان العظيم، حزم جثمان الخان بوشاح أحمر قائلاً: «من الآن فصاعداً يجب أن تكون متسامحاً ولا تقتل البشر الأحياء! وكالأضحية لك سيقدمون الخيول وليس البشر!»، وبعدها أغلق الحوض بثلاثة أقفال، وأخذ المفتاح معه، منذ ذلك الحين حتى الدارخان الحفظة أنفسهم لا يدرون ماذا يرقد في ضريح الخان (عن كتاب [تسمع الرموز الكتابية فقط، ص١٠]).

في أعوام الحرب مع اليابان تم ترحيل إيخي إيجين خورو إلى دير غومبوم في شمال شرق التبت (عام ١٩٣٨)، وفي عام ١٩٥٤ تم إعادة ترحيلها إلى مكانها السابق في أوردوس، في الذكرى الثمانمائة لميلاد جنكيز خان، الذي احتفل به في جمهورية الصين الشعبية (عام ١٩٦٢)، في عام ١٩٥٦ وفي المكان نفسه حيث وجد مجمع إيخي إيجين خورو تم بناء معبد مهيب بارتفاع ٢٥ متراً ومساحته ٢٤٠٠ متر مربع، صار هذا المعبد في الوقت الحالي مكاناً سياحياً مربحاً ومكاناً للعبادة.

بشكل رسمي وحسب «يوان شي» كان لدى جنكيز خان ثلاث وعشرون زوجة إمبراطورات وست عشرة عشيقة [يوان شي، الفصل ١٠٦، ص١أ-٢أ] في مكان آخر ذكر أن العشيقات والزوجات كان عددهن أكثر من أربعين [المصدر نفسه، الفصل ١١٤، ص١ب]. توزعت الزوجات والعشيقات في أربعة مقار، ويقول رشيد الدين: كان عند جنكيز خان من العشيقات والزوجات قرابة الخمسمائة «حسب العادات المغولية القديمة . . . فإنه أخذ لنفسه ووزع لمقربيه، ولا سيما لأبنائه، زوجات وبنات الحكام الذين ينتصر عليهم من رؤساء القبائل وحكام الدول» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٦٨]. خمس فقط من نساء جنكيز خان حملن لقب الإمبراطورات، وهن: بورتي وخولون (من الميركيت) والتتريات إيسوي وإيسوغان وابنة الفان التشجورتشجيني فايشاو المعروفة بغونتشجو خاتون. حسب ما ورد في «يوان شي» كان لدى جنكيز ستة من الأبناء: تشجوتشي وتشاداي وأغوداي وتولوي وأولوتشي وكوليتسزين [يوان شي، الفصل ١٠٧، ص٤ب].

هكذا في أكثر الأشكال تعميماً كان طريق حياة خان المغول العظيم ومؤسس دولة منغوليا، واحد من أعظم الفاتحين في تاريخ البشرية، الذي لا يزال اسمه معروفاً لملايين البشر، ومنذ القدم، كاسم علم، من المعروف أن ن. ي. بوخارين قد سمّى الرئيس جوزيف ستالين بجنكيز خان.

❀ ❀ ❀

شخصية جنكيز خان

«...............

قائد القتلة

المذيق الموت من سنان السيوف

للعالم الممزق والمهزوم

المقاتل

الصارخ بصلادة الرمح

المتوحش

نازع أبواب أوروبا من عقبها

كان مسخاً»

دميتري كيدرين

«قائد القتلة، الصارخ بصلادة الرمح، المتوحش، نازع أبواب أوربا من عقبها والذي كان مسخاً»، بهذه الكلمات الموجهة إلى راعي قبائل الغون أتيلي، كأنما الشاعر يخلق صورة جامعة للغازي، الذي اشتهر بالمذابح الجماعية والوحشية بدون مسوغ، كان جنكيز خان على النقيض من سلفه، ليس قصير القامة أو متزحلاً مقوس الساقين، بل العكس تفرد بملامح جذابة وقامة فارعة، كتب جوزجاني، الذي شاهد جنكيز خان في خراسان حيث كان شاباً قائلاً: «يتمتع جنكيز خان بالقامة الفارعة والتكوين الجسماني المتين، وكانت عيناه كعيني القط».

من المحتمل أن تشجاو خون نفسه لم يشاهد جنكيز خان، ولكن كتب أوصافه من كلمات الآخرين، إن شهاداته أيضاً مهمة كشهادات جوزجاني، كلاهما كانا

معاصرين لجنكيز خان، كتب جوزجاني: «فيما يخص الحاكم التتري تيموتشجين كان فارع الطول، عظيم الكيان، ذا جبهة عريضة ولحية طويلة، شخصية مقاتلة ومهابة» [التدوين الكامل، ص٤٨]، وأخيراً كما سجل رشيد الدين كان والد جنكيز خان وكل سلالة إيسوغاي باتور وجنكيز خان كانوا شقراً وذوي عيون زرقاء «الابن الثالث (بارتان باخادور. تعليق المؤلف)، كان إيسوغاي باخادور، الذي كان والداً لجنكيز خان، إن قبيلة كيات بورجيغين ترجع أصولها لأسلافه، «تعني كلمة بورجيغين زرق العيون»، وقدر ما يبدو ذلك غريباً فإن السلالة كافة التي خرجت من أنسال إيسوغاي باخادور وأنجاله أو أقاربه و «سلالته» إلى يومنا هذا ابن خاسار شقيق جنكيز «فارع الطول متورد الخدين وذا وجه مستطيل ولحية طويلة» [المصدر نفسه، ص٥٢].

اعتماداً على هذه المعلومات قام المؤلفون بإعادة إنشاء صورة جنكيز خان كل حسب ما يراه، فعلى سبيل المثال الباحث المشهور في روسيا والعالم ف. غ. يان يقول: «لقد رفع محمود يالفاتش رأسه حينما رأى وجهاً قاتماً شائخاً ولحية خشنة شقراء يميل لونها للاحمرار، وجديلتين شائبتين مضفورتين في عقدة، مجدولتين على المنكبين، ومن تحت قبعته السوداء اللامعة المزينة بحجر زمرد كبير، اشرأبت عيناه الخضراوتان الثاقبتان المائلتان للاصفرار» [يان، ص١١٢]. وأيضاً «كان طويل القامة، وعلى الرغم من أن عمره قد بلغ الستين عاماً، إلا أنه كان قوياً جداً، وذا خطى ثقيلة تشبه خطى الدب، وفي دهائه الثعلب، وفي غضبه الأفعى، وفي اندفاعه النمر الأرقط، وفي صبره سفينة الصحراء، وفي كرمه على من يجب هبتهم كان يشبه أنثى النمر المتوحشة المتعطشة للدماء عندما تداعب صغارها، له جبين عريض، ولحية طويلة خفيفة، وعيون صفراء، لا ترمش كأعين الهرة» [يان، ص١٠٩].

كما سبق أن أشرنا إلى أن الشعر الأمغر والعيون الصافية عند البورجيغيين له تفسير عقلاني، إن جدة أهلهم آلان غوا كان لها صلة قربى بالقيرغيزيين، وبما أن قدماء القيرغيز، حسب ما ورد في المصادر، وما ذكره الرحالة، تميزوا بهذه السمات التي تم ذكرها، إن تقبلنا الافتراض، لا يعني أن المؤلف ف. تشيفيليخين الذي يرى أن جنكيز خان «ليس مغولي الأصل» وترجع أصوله إلى مجموعة «الشقر الذين يقطنون في آسيا» [تشيفيليخين، ص١٩٦-١٧٠]، إن آلان غوا تنتمي إلى قبيلة كورالاش، التي حسب معلومات رشيد الدين تعد من ضمن المجموعات «المكونة للشعوب المغولية الحالية، الذين كانوا في منطقة أرغونا كون» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص٧٨]، ومن هؤلاء «المغول الأصليين» كانت قبيلة أولخونوت، التي تنتسب إليها والدة جنكيز خان ويلون، ويتوجب قول الآتي: بين مجموعة قبائل الشيواي التي ينحدر منها مشاهير قدماء المغول أمثال مجموعة خانتو (حرفياً «صفر الرؤوس») من الشيواي ذوي الشعر الأشقر والأمغر والعيون الصافية، التي تلاحظ في سلالة جنكيز خان، وهذا لا يلزم على الإطلاق أن تكون أصولهم من «الغرب»، أي أوروبا.

يشير العديد من المؤلفين إلى أن جنكيز خان كان رجلاً قوي البنية، ويرى راتشنيفسكي أنه «على ما يبدو كان يجد متعة في الجنس» [راتشنيفسكي، ص١٤٥] ففي دولته كانوا سنوياً يبحثون له عن أجمل الفتيات ويجلبونهن له، على الرغم من أنه بعد كل غزوة تتكلل بالانتصار كان يؤوب بزوجة، وفي الحملات كان يسير بصحبة زوجاته (مثل خولان عند الغزو على الغرب، وإيسوي عند غزو دولة سي سيا)، كل هذا لا يمكن أن ينظر إليه كبرهان على أن جنكيز خان كان يحب بكثرة اللهو الجنسي، إن السيطرة على زوجات المهزومين كانت دليلاً على عقد اتحاد سياسي أو الخضوع، (ومثال ذلك زوجات التانغوت والتشجورتشجينيين) أو إظهار

التفوق على المهزوم، (ومثال ذلك زوجة الحاكم النايماني تايان خان)، لا توجد أي دلائل تشير إلى أن جنكيز خان كان مولعاً بالجنس اللطيف بإسراف (أما الاثنتا عشرة ألف فتاة اللاتي جمعن له في غزوة الغرب ـ حسب قول جوزجاني [رافيرتي، المجلد الثاني ص١٠٠٧] ـ هذا أيضاً ليس برهاناً، إنها غنيمة) كما لا توجد دلائل أيضاً تؤكد أنه كان يعاني من داء إدمان الخمر، على الرغم من أن إدمان الخمر كان متفشياً في أسرته، ومثال ذلك ابنه أوغاداي الذي كان سكيراً «يحب اللهو وشرب الخمر» وحفيده كاشي أيضاً «كان من أكثر المحبين لشرب النبيذ وهو في حالة السكر دائماً»، «توفي من جراء الشرب المفرط للخمر» [رشيد الدين، المجلد الثاني، ص١٢].

إن أوصاف جنكيز خان الخارجية يمكن الاطلاع عليها في مؤلف «التاريخ السري»، إن «نظرته كالنار ووجهه كالفجر»، إنها لشاعرية أسطورية، ومن المحتمل أنها تحمل طابعاً نورانياً يشير إلى الأصول الإلهية.

لقد حاول رشيد الدين وصف جوهر شخصية جنكيز خان أيضاً في قسم خاص من مؤلفه «رواية عن جنكيز خان فيما يخص أفعاله التي يستحق عليها الثناء وسماته النفسية، وعن عاداته الفريدة وحكاياته ذات المغزى الجميل» وعلى رأي رشيد الدين كان جنكيز خان يقر بالحكمة الإنسانية، التي تشكلت بصورة جيدة حينها في الصين، عند شعب لم يطع فيه الابن والده، وصغار الأشقاء لا يخضعون لاخوتهم الكبار «لا يعتمد الزوج على زوجته ولا تخضع الزوجة لأمر زوجها»، «ولا يحمي القوي الضعيف، ولا يقبل الصغير الموعظة من الكبير»، «وهكذا حجب المنافقون وقطاع الطرق والمحتالون على مختلف ضروبهم الشمس الساطعة على مراعي هذا الشعب الخاصة»، الذي بوسعه إدارة الأسرة، بمقدوره أن يحكم دولة، «وكل من باستطاعته إدارة منزله بانتظام يمكنه إدارة مقاطعة بكاملها، وكل

من يمكنه إعداد عشرة مقاتلين كما يطلب، يحق له أن يعطى ألف مقاتل أو عشرة آلاف محارب أي (تومان)». وكل مدعو إلى كبير يجب عليه أن يرد على السؤال فقط، وكل من يتفوه بكلمة قبل السؤال يحتمل أن لا يسمع «حسناً له إن لم يسمع، ولو سمع ففي أسوأ الأحوال سيكون كمن يطرق على حديد بارد»، يخدم جيداً ذلك الذي يخدم بصدق ووفاء في الظروف كافة، «جيد ذلك الحصان فقط الذي يسير وهو في غاية الشبع أو نصف جائع، أو حتى وهو هالك من الجوع»، ولبلوغ مراتب القيادة يحق لمن يدرك حاجة رعاياه فقط «والذي بنفسه يدري ما الجوع والعطش، ويحكم من هذا المنطلق على وضع الآخرين» [المصدر نفسه، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٥٩-٢٦٢].

إن كل ما ذكر حقيقة، وكان من الأفضل اليوم أن ننتهج هذه القوانين للخادمين والمخدومين.

إن جنكيز خان يرى أن الشعوب يجب حكمها عن طريق المواعظة (بيليك) والقوانين (ياسا).

إن كل هذه التصورات ومناهج الإدارة كرست من أجل أن تكون الدولة محكمة وقوية، ولكن في سبيل ماذا؟ يمكن أن يكون هذا السؤال أساسياً عندما نتحدث عن إيديولوجيا جنكيز خان وأتباعه، يتوجب على جنكيز خان «إخضاع الشعوب الطائشة غير المعتدلة» بفضل الإرادة العليا، التي تمنحه علامات رحمتها، «ذات مرة في أيام الشباب نهض جنكيز خان عند الفجر، حينها أصاب الشيب جزئياً نواصيه، فسأله المقربون: "يا أيها الوالي السعيد! إن عمرك لم يبلغ بعد سن الشيخوخة، فلماذا ظهر الشيب على نواصيك؟" فرد قائلاً: "بحكم أن الإله العلي أراد أن يجعلني قائداً وزعيماً لعشرات الآلاف (تومان) والألفيات، ونفخ ببوق

خيرات، لهذا وسمني بعلامة الشيخوخة، التي تعدّ مظهراً للزعامة» [المصدر نفسه، ص٢٦٢].

إن جنكيز خان بإرادة السماء، كما نقول، خان الرحمة الإلهية، التي باسمها تسير أموره الخانية، وباسمها أيضاً لبس أنساله الذكور وأسرهم «الزي المطرز بالذهب»، وأكلوا «اللذيذ والدسم»، وركبوا أروع الخيول «واحتضنوا الملاح من النساء»، وبهذا القدر من «الحياة المترفة» يجب أن ينعم بها كل من يخدم الخان، «إن محاولاتي وتطلعاتي فيما يخص الحرس ورماة السهام الذين أصابهم سواد الإهاب كغابة كثيفة عذراء، وزوجاتهم وخطيباتهم وبناتهم اللاتي ترائين بلونهن الأحمر كما لو أنهن ناراً تتوهج، أن أملأ أفواههن باللذيذ المعسول، وأزينهن من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين بثياب مرصعة بالذهب، وأجعلهن يركبن على الأفراس الهادئة الخطى، وأشربهن الماء النقي الطيب، وأهبهن الماشية والمراعي الغنية بالعشب»، ليست هناك كلمة تشير إلى أن من أجل هذا يجب العمل، فكل هذا يجب أخذه بالقوة من «الأقوام الطائشة» بعد القضاء على القوم الخارجين عن الإذعان، ما دمنا «عندما نذهب للصيد نقتل الأيائل بكثرة، وعندما نسير في الغزو نقتل الأعداء بوفرة» [المصدر نفسه، ص٢٦١-٢٦٢].

إن الموازنة بين الصيد والغزو الحربي ليس باستعارة بسيطة، كما الغابة والسهول المليئة بالغنائم للصائد المحظوظ مثلها كالشعب التابع، الذي يمثل الغابة والسهول عند ساعة «الصيد» الناجحة، حينها يمكن بلوغ كل المقاصد للحياة التي تتبدى لشخصك بأنها حياة مثالية، إن الخان وجيشه ورجاله يمثلون الصيادين، «وأعظم ملذة وغبطة للرجل المغولي تكمن في سحق المتنفض والانتصار على العدو واقتلاعه من جذوره ونهب كل ما يملك، وإرغام زوجاته على البكاء والثكل، ومن أجل الجلوس على كل أكفال أفراسه الناعمة، وإلباس زوجاته الملاح ثياب النوم

الليلية على أجوافهن للفراش، ولمشاهدة أجيادهن في مختلف الألوان، وعناقهن وتقبيل شفاههن اللذيذة!».

هل تعدّ هذه الكلمات في الأصل كلمات جنكيز خان؟ يمكن مناقشة هذه الفكرة، ولكن حسب رأي رشيد الدين إن كل هذا «هو حكايته الوعظية، أي حكاية جنكيز خان»، وطريقة تفكيره وتحركاته المفزعة الباعثة للرعب، وليس من الغريب أن يكمل رشيد الدين حديثه بالكلمات التالية: «فليعم السلام كل البشر والكون!» [المصدر نفسه]، وعلى كل إذا أخطأنا، فإن الأكاديمي فلاديمير تسوف ـ الذي لا يمكن الارتياب في احترامه للشعب المغولي ـ محق في أن هذه أيديولوجيا قطاع طرق تحت قيادة راعيها.

كتب ل. غامبيس أيضاً أن جنكيز خان «كان ينظر إلى الدول المتحضرة، مثل الصين وإيران، كأقاليم تمثل مصدر دخل لأسرته وعلية قومه وكل شعبه»، وباستنتاج غامبيس نفسه أن جنكيز خان كان يتمتع بطبع «رجل نبيل» في عصره، إذا لم نضع في الحسبان «بعض الهفوات الصغيرة» مثل «الدمار والقتل، اللذين كانا حسب رأيه ضرورة»، كما أنه كان رجلاً وفياً لأصدقائه وليس رحيماً بأعدائه، كان إنساناً «حافظاً دوماً لمقدار عظمة رسالته، التي كما يرى هو «بأن السماء انتخبته لها»، كان رجلاً معتدلاً قنوعاً في الحياة اليومية، وأيضاً «ورث من أجداده التواضع ورعاية القطعان والصبر ودهاء الصيادين» [غامبيس، ص٥-٦].

إن علم التاريخ في تقييمه لشخصية جنكيز خان على رأي ب. راتشنيفسكي القائل إن جنكيز خان «دخل التاريخ كغاز لا يعرف الرحمة، وفي غزواته جلب الموت والدمار لعدد غير متناه من البشر، وقضت غزواته على قيم ثقافية لا يمكن استعادتها كاملة، ولكن ليس من الحق الحكم على جنكيز خان انطلاقاً من مفاهيم عصرنا السامية، إن أفعاله أملتها قوانين السهول القاسية، تلك السهول التي لا

تعرف الرأفة بالعدو، إن أعماله دارت في المجال الحربي، وفي نجاحاته ليس مداناً إلى موهبته الحربية، بقدر حنكته السياسية وإمكاناته التنظيمية» [راتشنيفسكي، ص١٠-١١]. ولكن هذا لا يمنع المؤلف أن يشير إلى أن «طريقه (أي جنكيز خان، تعليق المؤلف) كان عبر الجثث» [المصدر نفسه، ص١٤١].

إن المؤلف راتشنيفسكي يشير إلى أن صفات جنكيز خان الخاصة، التي تجعل منه رجلاً إيجابياً، هي إحساس بالعرفان، وعلى سبيل المثال نظرته تجاه سورغان شيرا الذي يحتمل أن يكون أنقذ حياته عندما هرب من الأسر التايجوتي، أو عنايته بأطفال أنصاره الذين لاقوا حتفهم في المعارك، «عندما أمر جنكيز خان أن يمنح أبناء صديقه خويلدار ـ الذي استشهد في ساحة القتال ـ وأنساله وحتى أنسال أنساله منحة اليتامى، وقال لنارين تووريل ابن تشاغان غوا: "إن أباك تشاغان غوا لقي حتفه في معركة دالان بالتشجوتوخ على يد تشاموخا، لكنه مات بضراوة أمام عيني، ولهذا فليأخذ الآن تووريل على خدمة والده منحة اليتامى"» [السيرة المكنونة، ص١٦٦]. كان جنكيز خان يأتمن أنصاره، مثلاً موخالي، الذي كان ممثله الخاص في الصين، وفي بعض الأوقات كان الرجل الثاني في دولة الخان. واهتم جنكيز خان أيضاً بجنوده، فقال للقسيس تشان وتشون: «إنني أهتم بجنودي مثل اهتمامي بإخوتي».

انطلاقاً من المصادر التي تم العثور عليها، يصعب تحديد ما إذا كان جنكيز قد تميز بشجاعة خاصة، ولكن في طفولته كان يخاف من الكلاب، وكان ضعيفاً في بنيته مقارنة مع شقيقيه خاسار وبيكتير، ولقد قتل بغتة أخاه بيكتير الذي لم يكن مسلحاً في معركة غير عادلة بمساعدة أخيه خاسار، الذي كان قوي البنية، ومن المحتمل أنه لم يكن شديد الذكاء، نجا تيموتشجين في شبابه بالهرب أكثر من مرة ولا يرى في ذلك عاراً، ولو أنه أسرع وراء خيول الأسرة المسروقة (ولكن تؤكد

المصادر الحديثة حقيقة أنه ذهب برفقة أخيه خاسار)، وشارك في الصراع مع المغول الكيات أي «تشجوركي» الذين جرحوا بيلغوتاي في أثناء حفل سكرهم على غابة الأونون.

في الواقع أن جنكيز خان كان رجلاً شاذاً في ذكائه وداهية وسياسياً محنكاً، عالماً بالناس ونقاط ضعفهم، ويعرف استخدام هذا الضعف لمصلحته، فكم من المكر والدهاء والذكاء استخدمه عندما هرب من الأسر التايجوتي! إننا لا نعلم المرحلة الحاسمة في مستقبل جنكيز، ولكن يبدو أنه عندما عاش في سلام مع تشجاموخا عاماً ونصف عام بفضل ذكائه وفراسته فقط، وليس لأنه رب العائلة، بل لأنه خان دولته، لقد استطاع العثور على قادة أذكياء من بين حاشيته كأمثال موخالي وبرور تشو وسوبيتاي وتشجابي وتشجوتشي وآخرين من القواد الذين جلبوا له الانتصارات، كما أن أغلب مجده القيادي يرجع بالحق لهم.

كان جنكيز خان يطلب من الخاضعين الوفاء لحاكمهم، ومن الخدم الوفاء لخانهم، ولقد شاهدنا أكثر من مرة كيف قام بشنق الذين حاولوا الانضمام إليه والفوز برحمته عن طريق الغدر بحاكمهم، وكالعادة لم يجد هؤلاء القوم عنده الدعم. لقد تميز جنكيز خان بعدم الثقة والارتياب حتى مع أقربائه، إننا لا نعرف شيئاً عن عدم ثقته في شقيقه خاسار، على الرغم من أن الأخير من المحتمل قد أعطاه المسوغ للشك فيه، ومع أخيه أوتشيغين في صراعه مع الساحر تيب تانغري، وكان يتطلع أيضاً بريبة إلى تشجيلمي الذي ذهب إلى مقر تايجوت من أجل اللبن المختثر لكي ينقذ الخان من الجرح، كان يقدر في الرجال الصدق، إنه عفى عن تشجابي الذي اعترف بأنه صوب عليه وجرحه.

الانتقام والقسوة كانا من سمات طبعه ويحددان مزاجه، يقول ب. راتشنيفسكي: «كان تفكيره تفكير منتقم» [راتشنيفسكي، ص١٣٧]، فأدخل

الانتقام في تدرج سلم الدولة السياسي «في ذلك الوقت عندما نظم جنكيز خان الحملة على الأراضي الصينية (خيتاي)، ودخل في معركة مع ألتان خان صعد إلى قمة التل كعادته وحده، وفك حزامه وأزرار عباءته، ثم ركع وقال: "يا أيها الإله الأزلي! إنك السميع العليم بأن ألتان خان كان البادي بزرع بذرة الشقاق وداعية للانتقام، وبغير ذنب صرع أوكين باركاك وخامبا كاي كآن، اللذين لا يهون علي دمهما بالانتقام وبالقصاص فقط، فأرجو إن كنت على عدل، فابعث إلي من أعلى بمزيد من القوة!". أدى هذا الدعاء بخشوع تام، ثم امتطى ظهر جواده وتقدم، فبفضل صدقه وخالص نيته استطاع الانتصار على ألتان خان . . . وأضحت أراضيه وأبناؤه تحت سلطته» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الثاني، ص٢٦٣].

فإذا عد ذلك انتقاماً محضاً لذوي القربى على مثال التفكير المشاعي البدائي، فمن المحتمل أن يكون هذا غير صحيح، لأن الحاكم حينها كان ليس ألتان خان الذي قضى على أقربائه، وإضافة إلى ذلك عندما كان الأمر في صالح جنكيز خان خلق علاقة صداقة مع ألتان خان، حتى إنه لم يرفض الوظيفة التي منحها له، ولهذا لم يكن من المصادفة أن يشير ب. راتشنيفسكي إلى أن جنكيز خان كان في حالة إخفاقه دوماً يبحث عن ملجأ له بالقرب من حدود دولة تسزين، وعلى ذمة جنكيز خان وباسم الانتقام للأقارب قتل شاتشا بيكي وتايتشو وألتان خان وخوتشار، الذين نصبوه على العرش الخاني، كما أنه أيضاً قتل شقيقه المتآخي تشجاموخا، ومن المحتمل أيضاً ابنه تشجوتشي.

يقال إن كل هذه الإعدامات كانت إعدامات سياسية، وهذا صحيح، ولكن بلغ الانتقام عنده مرتبة السياسية الداخلية والخارجية، يكتب ل. ن. غوميلوف أنه «بعد الكم الهائل من الجرائم التي ارتكبها التشجورتشجينيون بالتحديد لا نجد مسوغاً لقسوة سوى أنها رد فعل نفسي . . . وفي مثل هذا الظرف الذي

تشكل تاريخياً لا تعني خصال جنكيز خان الخاصة شيئاً، فإنه قاد شعبه ضد أعداء لا يعرفون الرحمة، وشعبه أراد ذلك، وبخاصة أولاد المقتولين وأشقاء من تم بيعهم كرقيق، فإذا لم يفعل ذلك ما صار خاناً!» [غوميلوف، البحوث، ص١٨٩] من أين هذا؟ وأين الشواهد التي تشير إلى أن الحرب مع دولة تسزين كانت مطلب الشعب؟ ولماذا لا يصبح جنكيز خان خاناً إذا لم يبدأ هذه الحرب؟ فهو قد أصبح خاناً قبل خمس سنوات من هذا! ويواصل غوميلوف: «الحرب بالطبع شيء مريب ومشين، ولكنها حتمية في المجتمع الطبقي، بحكم أنها الوسيلة الوحيدة لحل المتناقضات كلها، أخلاقياً يمكن إدانة من بدأ الحرب، التشجورتشجينيون هم المذنبون، أما إدانة المنتصر الذي نقل ميدان الحرب إلى دار أعدائه فغير معقول وغير أخلاقي، وهنا يبدو جلياً أن المحاباة أكثر من الحرص على التاريخ» [المصدر نفسه، ص١٨٩].

فلنكن منحازين إلى أن جنكيز خان هو الذي رفع القصاص إلى مرتبة التقديس، لقد حض على الحرب، وأعد لها بكل عناية، وأدارها في غاية من القسوة، إن المحاباة ليست هي ألا نفكر بل أن نفكر ونكتب عكس ذلك! كما فعل ل. غوميلوف عندما أوجد المسوغ لهجوم المغول باغتيال رسلهم، بلا شك أن مقتل الرسل شيء غير حميد، غير أنه من المعروف أن المطالب التي تقدم بها الرسل المغول في الغالب كانت استفزازية، وتؤدي إلى شيء واحد، إما الخضوع وإما الحرب وما يليها من موت ودمار.

إن قسوة جنكيز خان من خصائص شخصيته التي وصلت إلى مصاف سياسية للدولة، إنه بوعي متعمد مارس الوسائل القاسية في إدارة الحرب، التي كانت تعني الاستخدام العريض للاضطهاد، كانت الإبادة الجماعية لسكان الكثير من المدن والقوى منهجاً معتمداً في إدارة الحرب، وتشكل سياسته وسياسة قادته، بغرض

زرع الذعر في نفوس خصومه، كان المستشرق السوفيتي إ. ب. بيتروشيفسكي محقاً عندما كتب في مقدمة ترجمته لمؤلفات رشيد الدين إلى اللغة الروسية أنّ «القسوة لم تكن عشوائية، بل كانت منظومة متكاملة من الإرهاب، معلنة من القيادة العليا، وتستهدف إبادة العناصر كافة القادرة على المقاومة من السكان، وترويع المواطنين الأبرياء، وزرع الذعر الجماعي في البلاد المحتلة» [رشيد الدين، المجلد الأول، الكتاب الأول، ص٣٢]. ذكر في المصادر الإسلامية قرابة ثلاثين حادثة من «المذابح الجماعية» عند الاستيلاء على المدن، في واقع الأمر قد تم ذبح سكان المناطق المجاورة عن آخرهم، وكان الكتاب الأسرى يقومون بإحصاء الموتى، على سبيل المثال استمر هذا الإحصاء الرهيب بعد مجزرة ميرف ثلاثة عشر يوماً.

كان جنكيز خان في دأبه لقيادة الحرب يتبنى مثل هذه الأنماط، كما توجد إفادات من المعاصرين تشير إلى أنه كان فخوراً بقسوته، يورد جوزجاني قصة وحيد الدين بوشينجي الشاهد على أحداث تلك الحقبة، إن جنكيز خان كان يفتخر بين مقربيه بقتله ذلك الكم الهائل من البشر بحيث أن مجده سيكون خالداً، إن بوشينجي الذي كان شاهداً على ذلك علق قائلاً وبكل معقولية:

- إذا قام الخان ورجاله بقتل كل البشر، فمن سيتذكر مجده؟

عندها نعته جنكيز خان بالغباء ثم قال:

- الحكام في العالم كثر، إنني أقمت المذابح الجماعية والخراب حيثما كنت وحيثما كانت حوافر خيل جنود محمد أوغوزي خوارزمشاه، أما بقية الشعوب التي تعيش في البلاد الأخرى وحكامها ستنشر القصص عن مجدي! [المصدر نفسه، ص٣٣-٣٤].

كان ل. ن. غوميلوف على حق عندما كتب: «إن القسوة التي مارسها المغول عند انتصاراتهم الحاسمة بالطبع فظيعة، لكنها لا تقل فظاعة عن الوحشية التي

مارسها التشجورتشجينيون في الصين، والسلاجقة في أرمينيا، والصليبيون في دول البلطيق وبيزنطة، فهكذا كان ذلك العهد» [غوميلوف، البحوث، ص٣٩٧]، هكذا كان بالطبع دأب ذلك العهد، ورغماً عن ذلك تفرد جنكيز خان في ذلك العهد، ولم يكن مخطئاً فيما ارتكبه من مذابح بحق الشعوب التي لا تزال تذكر له هذا حتى يومنا، هناك رأي يقول حجم المذابح غير العشوائية التي ارتكبها قادة جنكيز خان وبأوامره بثت الروع حتى في نفوس المغول أنفسهم(١). يضيف ف. ف. بارتولد: (الأسطورة التي احتوتها "السيرة المكنونة" في داخل سطورها تشير إلى أن جنكيز خان ولد وبيده علقة من الدم المتخثر، إن كل هذا يؤكد بوضوح أن كمية الدم المسفوح بإرادة جنكيز خان زلزلت المغول أنفسهم» [بارتولد، فلاديير تسوف، ص٤٥٣]. من المعلوم أن تشجوتشي الابن الأكبر لجنكيز خان لم يؤيد الإرهاب الجماعي.

إن جنكيز خان بلا شك كان محباً للسلطة، كتب ب. راتشنيفسكي: «النزوع نحو السلطة من الصفات الغالبة على شخصية جنكيز خان» [راتشنيفسكي، ص١٤٠] على الرغم من أنه كان يدين بالكثير من العرفان لفان خان إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يقضي عليه وعلى أولوسه، وهو في طريقه لتعبيد سلطته، إن فان خان وتشجاموخا وخوتشار أكثر من مرة كانوا من حلفائه، ولكن ب. راتشنيفسكي

---

(١) هناك حقيقة تشهد بأن جنكيز خان كان دوماً يسعى للمحافظة على حياة الشعوب التي استولى عليها، إذ قال أحد المقربين إليه: «"إن البشر . . . هم عماد الدولة، فإذا تم القضاء عليهم فماذا تستفيد الدولة من المساحات التي تمت السيطرة عليها؟ إضافة إلى أن القضاء على الأبرياء لا يعود إلا بشدة العداء، إنه ليس بمقصد الحاكم!" لقد سمع تاي تسزو (أي جنكيز خان) هذا القول وسنده» إن هذا النص من مؤلف «يوان شي» ويعدّ برهاناً إضافياً إلى أن الإرهاب ضد الذين تم الاستيلاء عليهم وصل إلى مرحلة تدعو للشجب حتى بين أفراد حاشية جنكيز خان في ذاته، (انظر مؤلف [يوان شي، الفصل ١٢٤، ص١]).

يطرح بنفسه السؤال: «هل كان من الممكن أن يبقيهم على قيد الحياة إذا ما رأى فيهم الندية له، أو إذا ما وقفوا في طريقه نحو السلطة؟ إن جنكيز خان افترض أنه دائماً على حق، ودافعه لذلك كانت القوى العليا» [المصدر نفسه، ص١٤١].

أصبحت القناعة التي تمثل البنية الفكرية للدولة المغولية جزءاً لا يتجزأ من شخصية جنكيز خان؛ وقد كان مهووساً بهذه الفكرة، وحسب سياق الأحداث وبإخلاص كامل آمن جنكيز خان، وبشكل أدق، من لحظة غير واضحة لنا، فقد تملكه إيمان تام بأن السلطة على كل العالم وتحديداً كل العالم مهداة إليه من قبل السماء الأزلية، كل من لا يؤمن بهذه الفرضية عدّ «بولغا إيرغين» أي متمرداً، إن هؤلاء شقوا عصا الطاعة على النظام الاجتماعي الذي أرسته القوى العليا، الحرب ضد «المتمردين» لم تكن مسوغة أخلاقياً فقط بل ضرورية، لقد منح الخان من السماء الخالدة القوة؛ أي «كيوتشو» والحماية أي «إيخي إكدا»، وسميت نعمة الإمبراطور بـ «سو» أي النعمة السماوية، ومنها الصفة «سوتو» و «سوتاي» وتعني «السعيد».

لا يشكك الكثير من الباحثين في أن فكرة الكاغانوالخان المنزلين من السماء أو المختارين من قبلها كانت وليدة التأثير القوي للفكرة الصينية (أي ابن السماء)، لقد عرف جيداً جنكيز خان في آخر أيام حياته طريقة الحكم الصينية، فعلى سبيل المثال كان يرى هزيمة حكام تسزين منزلة من السماء نتيجة سلوكهم المشين، عندما شرح تشان تشون تعاليمه لجنكيز خان في عام ١٢٢٢ قال: إن الحكام هم مخلوقات سماوية مبعوثون من السماء لكي يعيشوا بين البشر، ومسطر لهم الصعود إلى السماء، ففي ١٢٢٢ عندما منح يلوي تشوتساي التقويم الزمني للدولة المغولية الذي أعده بنفسه لجنكيز خان طور الفكرة التي تنص على أنه بإرادة السماء فقط تمكن جنكيز خان من الفوز بالإمبراطورية، ذلك العمل العظيم، الذي لا يمكن إنجازه

بقوة الإنسان العادي، اتفق كل الباحثين تقريباً على أن جنكيز خان أكد حقه في الاستيلاء على كل ما هو ممكن ومعلوم لديه[1].

---

(١) في كتابه «روسيا القديمة والسهوب العظيمة» كتب ل. ن. غوميلوف «إن أحداً من الباحثين المعاصرين أطلق على كتابه اسم "حياة تيموتشجين الذي فكر في السيطرة على العالم" إن تيموتشجين لم يستطع أن يحلم بالعرش عندما كان يحمل على عنقه طوق الخشب التايجوتي، وعندما أخذ منه الميركيت زوجته الشابة، وعندما هجره أعمامه وشقيقه، وعندما غدر به فان خان، الذي أنقذه جنكيز خان من قبضة جيوش النايمان، ففي هذه السنوات كان يفكر في خلاص حياته وحياة أسرته فقط، وهذا ما تحقق إنجازه بعد انتصاراته على عدو قاس لا يعرف الرحمة، إنه السؤال الذي يجب طرحه بالتحديد» [غوميلوف، روسيا القديمة، ص٤٥٥] إن ل. ن. غوميلوف محق في طرح السؤال وضرورة التعامل معه بالتحديد، وأنا أيضاً أرى أن تيموتشجين لم يفكر أيضاً في السيطرة على كل العالم في ظل تلك الأحداث التي تم ذكرها، ولكن ألم تخطر بباله هذه الفكرة لاحقاً؟ إنه كتب للحاكم الأونغوتي قبل الحرب على دولة تسزين الآتي: «إن السماء لا تتسع لشمسين، وهل يعقل أن يكون للشعب حاكمان؟» لقد كتب بلانو كاربيني في ظل تلك الأحداث: «إن خطة التتار كانت تهدف إلى الاستيلاء على كل العالم إذا تيسر الأمر . . . ولهذا الهدف كانوا مسلحين بأمر جنكيز خان» [الرحلات، ص٥٩] بديهياً أن جنكيز خان لم يفكر بفتح أمريكا أو أستراليا ولكن راودته خاطرة امتلاك ما تحت السماء وفقاً للمفهوم الصيني الذي يعني الأراضي الأوروبية والآسيوية، عاداً أنه محق ويمتلك القوة لتنفيذ ذلك، انطلاقاً من هبة السماء الزرقاء الخالدة، لم يرفض الباحثون حتى قبل ل. ن. غوميلوف دور تأثير الوسط الطبعي والتقاليد في حياة الشعوب والأعراق (التي يمكن أن تسمى بـ«التقاليد الوراثية») كما لم يرفض الباحثون الأثر النفسي لهما، ففي حالة وجود المصادر يمكن شرح كل التحولات الكبيرة في حياة الأعراق دون اللجوء إلى المفاهيم الغامضة، مثل «الانفجار الباسيونارني». إن المفاهيم الجديدة لا تغير تصورات علم التاريخ عن الأحداث المهمة في آسيا وأوروبا، وهنا يمكن التأسف على شيء واحد هو النظر إلى التسلسل التاريخي من منظور التطور الطبيعي، يعدّ ل. ن. غوميلوف «التقييم الأخلاقي لشخص جنكيز خان غير وارد» [غوميلوف، روسيا القديمة، ص٤٥١].

حاول أنجال جنكيز خان تأدية تلك المهمة، وعلى رأي ب. راتشنيفسكي إن المذهب المغولي مذهب ملكي شمولي، ويختلف عن نظيره الصيني في أن الأخير كان يسعى لإخضاع الموالين إليه إلى الثقافة الصينية، بينما المذهب المغولي كان هدفه الاستيلاء، يمكن الاتفاق مع الباحث راتشينفسكي في أن جنكيز خان لم يكن عدواً للثقافة عامة، إنما تميز بمدخله العملي لمنجزات الثقافة، إنه قيم الكتابة ووظفها لسد متطلبات الدولة، وكحرفة أيضاً ومادة لها، بينما قضى ببشاعة على الثقافة التي كانت في نظره ونظر حاشيته ليست بالمفيدة، وكثير مما حوته ثقافات الشعوب تمت إبادتها بالكامل.

كتب خويني: «خص العلي جنكيز خان بالعقل والبصيرة» قطعاً لم يكن غازياً سافك دماء فحسب، بل كان رجل دولة بارعاً، لقد أسس الدولة المغولية مستخدماً الطرق التقليدية لأواسط آسيا، صابغاً لها بصبغة مغولية محددة، إنه اقتبس من الجيران كل ما تبدى مهماً، الرسل والحكام ذوي البطاقات، نظام خدمة البريد، النظام الأولي الحازم لتقسيم السكان وربطهم بأماكن عملهم وسكنهم، كل هذه النظم تم إدخالها في عهد جنكيز خان، إن المنظومة القانونية نصت على «لا أحد يملك الحق في الخروج من الألفية أو المائة أو العشرة التي تم إحصاؤه فيها، بخلاف ذلك سيتم إعدامه، وإعدام المسؤول عن تلك الجبهة التي لجأ إليها وسجل فيها من جديد». [حول تكوين قاعدة القوانين، ص٥٤]. الحرس والمجندون من الحراس المسؤولين عن المنظومة الإدارية المركزية نهضوا بمسؤولياتهم بشكل رائع، من المحتمل أنه لم يكن لا قبل النظام الرعوي للدولة ولا بعد.ه، إن كانت هذه النظم مصقولة، فإن لم يكن قد قام بإنشاء ذلك بشخصه فإنه عبر اسمه قد اصطفى تلك المنظومة من القوانين التي يعدّها غ. ف. فيرنادسكي الذي قام بدراستها حسب رأيه «لم يكن تقنيناً محضاً لأبعاد الحقوق العادية» إنما «تأسيس أبعاد جديدة للحقوق في توافق مع احتياجات الإمبراطورية الجديدة» [المصدر نفسه، ص٣٣].

«لقد وضع لكل حالة قاعدة ولكل ذنب عقوبة، وبما أن قبائل التتار لم تكن لديها كتابة، أمر بأن يقوم الأويغوريون بتعليم أطفال المغول الكتابة وتدريسهم المنظومة القانونية، والأوامر، وبأن يدونوها على الحواشي، وتسمى بالكتاب العظيم للمنظومة القانونية، وتحفظ في خزانة الأمراء، وعندما يحين وقت جلوسه على العرش كخان، أو توجيه جيوشه للغزو، أو حينما يجتمع الأمراء للتباحث في أمور ممالكهم لمعالجة مشكلاتها فإن هذه الحواشي تحضر إليهم، وعلى ضوئها يضعون أسس الحلول، سواء أكان تنظيم الجيوش أم تحطيم الدول والمدن حسب ذلك النظام المتبع فينفذون» [المصدر نفسه، ص٤٩].

كان جنكيز خان يؤمن بالسحر والشعوذة والتنجيم والفأل والطيرة، لقد احتك بالديانات العالمية كالمسيحية والإسلام والبوذية، ويبدو كذلك أنه استمع إلى أسس الداوية، ولكن مما نرى لم يبد أي اهتمام نحو أي منها، إن عقيدته مجموعة من تلك الاعتقادات التي هي جزء من صميم اعتقادات المغول في ذلك العهد، التي يمكن أن تطلق عليها مجازاً التانغوية، وهي في تعبير فضفاض الخضوع للسماء كمعبود أعلى وخالق كل الكون، لقد كانت هذه عبادة آسيوية صرفة تخص الصينيين القدماء والتبتيين والدول الرعوية كافة السابقة لإمبراطورية جنكيز خان، عبادة السماء تطلب تقديس الأرض، لكن الأرض هنا تلعب دور الخاضعة، على كل حال كان اللجوء إلى السموات في عهد جنكيز خان أكثر من الالتماس للأرض، وجود عقيدة خاصة بهم جعلت من جنكيز خان وأتباعه من المغول لا مبالين تجاه الأديان الأخرى بشكل تام، ومن هنا ظهر التسامح تجاه الديانات الأخرى لدى المغول، الشيء الذي ساعد إلى ما حد ما في نجاحاتهم العسكرية.

يجب علينا أن نذكر أن لدى هؤلاء المؤلفين الذين كتبوا في السنوات الخمس عشرة الأخيرة عن جنكيز خان بشكل محترف بعض الحقائق عن شخصية جنكيز خان، التي تستحق الانتباه، والتي نرى لزاماً علينا أن نطلع عليها القارئ الكريم.

يورد ل. غامبيس الكلمات الآتية: «لقد كان شخصاً يماثل عصره، متسماً بسماته الفظة التي عاشها، هنا تكمن الأسباب التي يجب البحث فيها، المؤدية إلى لا مبالاته تجاه التضحيات بالأرواح البشرية، ولذلك كان يملك القليل من الإحساس المتطور، بدأ سنوات شبابه الغض بقتل أخيه غير الشقيق الذي كان بمقدوره أن ينازعه على مركز رئاسة العائلة، أقصى كل من كان بمقدوره أن يشكل عائقاً في طريق طموحه اللا محدود بغير أدنى تردد، وذلك لأنه بطبعه كان سياسياً بارداً وذا تخطيط دقيق وحسابات دقيقة، الذي عمل على تكملة أفعاله، حيث لا يترك خلفه أي عدو، لم يسامح قط الحنث بالكلمة المعطاة على الرغم من أنه نفسه قد تصرف مراوغاً، حيث كان دائماً يترك الكلمة الأخيرة له معتمداً على أن تصرفاته تشرف عليها وتحميها بدايات إلهية، لم يكن يحتمل سوى الذين يعترفون بقوة شخصيته وكان بلا رحمة أيضاً عندما ينتقم للإهانة، أوعندما يرد على الغدر، في صغره اضطر للانتظار مدة طويلة حتى يحين الوقت لكي يؤكد نفسه، وعندما كبر في العمر تصرف بسرعة ونفذ مشروعات ضخمة في وقت وجيز، لقد كان دائماً حذراً، ولم يبحث عن المتاعب، لقد كان دائماً منضبطاً، على الرغم من أنه كان مولعاً بالنساء والمشروبات الروحية، لقد كان كريماً، فكافأ الذين استحقوا ذلك، لقد أنجز أعمالاً عظيمة، واستمتع بالحياة بكاملها وملذاتها دون الخضوع للشهوات، ودون أن يشغل فكره بمغزى الحياة، لم يتوجه قط إلى غزوة دون أن يأخذ معه إحدى زوجاته، . . . لقد اهتم بآراء الشعوب التي وقعت تحت سيطرته، من غير أن يعطي أولية لأي فرد عاداً كل قواعد الأخلاق جيدة من غير أن يعطي أياً منها أفضلية على الأخريات، كان شخصاً عملياً وإدارياً عظيماً قبل كل شيء، كل شيء في حياته كان مرتباً، حتى في أحلك اللحظات لم يفقد هدوءه، لقد تمكن من أن يربط الناس بمصيره، وعندما بدأوا في الخدمة تحت إمرته لم يودوا أن يروا أنفسهم تحت إمرة حاكم آخر، كانت هذه أسباب نجاحه وعظمته، لم يبلغ أبداً أيٌّ كائناً من كان مثل

هذا المستوى من القوى، دون أن يصيبه شيء من الغرور» [ل. غامبيس، ص١٢٦-١٢٧] لقد كتب هذا فرنسي بسهولة وسلاسة دون أن ينسى ذكر النساء والخمر.

دعونا نمنح الباحث الألماني كلمة: «إن شخصية جنكيز خان تجمع بين القوة والحماس الإنساني الطبيعي المحكم بالالتزام، الذي يمليه العقل، ففي حياته الخاصة كان صديقاً عطوفاً وأباً حميماً، ساعياً لرفاهية أسرته وأهله، رجلاً بسيطاً عادياً في سلوكه، وكحاكم كان رجلاً طموحاً بلا حدود، ولبلوغ هدفه كان لا يخاف من أي شيء، وبدون رحمة كان يسحق أي معارضة، حتى لو كانت صغيرة» [راتشنيفسكي، ص١٤٨]. لقد سطر هذا باحث ألماني: القوة الالتزام والقليل من العاطفة.

يريد المؤلف في هذا الكتاب أن يطلع القارئ على كل الحقائق الأساسية المعلومة لنا من حياة جنكيز خان، إن شخصيته تبدو لنا غير عادية، تلك الشخصية التي أثرت فيها بشدة سنوات شبابه القاسية، والوسط الذي ترعرع فيه، حتى صار رجلاً، إنه رجل دولة عبقري، وإذا لم يكن قائداً حربياً مقتدرا، إنه منظم عسكري رائع، كان رجلاً حاكماً يرى أنه مختار من العلي لهذا الحكم، وفي طريقه للسلطة كان لا يعرف الوسائل، وعند الحصول عليها كان يستخدمها لمصالحه الخاصة ومصالح أنجاله من الذكور، أي أوروغ، وأفراد أسرهم، إن قساوته من المحتمل إيجاد مسوغ لها بالوسط الذي عاش فيه، والحياة، وبصورة أوسع، العصر الذي لم يعرف فيه الناس الرحمة والشفقة، ذلك العصر الفاحش، إنه كان يرى أن الغاية تسوغ الوسيلة.

وباطمئنان يمكننا القول إنه كان ابناً وزوجاً وأباً محباً، ولهذا يبدو أن المصادر الروسية ترسم لنا صورة الخان الحاكم وليس الإنسان، هل كان جنكيز خان يحب

إخوته؟ ومن حب غير نو كيره بصورة عامة، الذين قيم فيهم قبل كل شيء إخلاصهم، ثم بعد ذلك بسالتهم وقوتهم، كان يولي اهتمامه من في خدمته، وكان لا ينسى الخدمات التي قدمت له، ودوماً يثيب عليها، بينما كان يطلب النظام والمثول بدون إبداء أي اعتراض، هل كان يميز بين المغول الذين كانوا تحت إمرته في المدة الأخيرة؟ على ما يبدو لا، بالنسبة له لم يكن ذا أهمية انتماء من كان في خدمته، بل ما يهمه الخدمة بإخلاص له ولأفعاله، وفي هذا المضمار كان بعيداً عن المحدودية القومية.

كان جنكيز خان رجلاً شكاكاً كنظائره من الحكام، الذين وصلوا للسلطة عبر الجثث، العارفين بأن هذه الطرق التي استخدموها ضد الآخرين يمكن استخدامها ضدهم، إننا لا نعرف أمثلة لرجولته حتى استخدام السلاح في سن رشده، ففي حالة الحرب كان يأتمن الآخرين، وجعل لنفسه مثال الحاكم السارق، واتبعه، ونعتقد أن الكثيرين سيتبعون طريقه لهذه الأسباب، كان مخموراً بالسلطة إلى درجة أنه لم يعرف حدوداً لاستخدامها، هل كان يحب شعبه؟ غير معلوم، ولم يكن أحد يثير هذا السؤال في تلك الآونة، كان يطلب من شعبه الخدمة والنظام، خدمة الطائع الأعمى للإدارة الخانية، وبعنف كان يعاقب من يخرق الخدمة ومن يحاول الخروج عن إمرته.

تصوروا ذلك العجوز الأشيب القوي ذا الشعر الأشقر المائل للاحمرار، وبوجه مستطيل الشكل، تبدو عليه سمات قوة الإرادة، ولحية نامية من تحت الذقن في الأساس، ذلك الرجل الماكر والمراوغ والمخبول باستيلاء سلطة حكام الجوار وتبجيل أنجاله الذكور أي أوروغ، ولهذا الهدف أفنى كل حياته، وعلى أسوأ الفروض منذ عام ١٢١١، إنه لم ير في حياته سقوط نظام منافسه الأساسي الإمبراطور التسزيني، يبدو أن إمبراطور دولة سي سيا قتل بعد وفاته، لكن

خوارزمشاه محمد كان هديته الحقيقية، إننا لا نعرف هل أطفأ ظمأ حب السلطة، هنا يمكن الموافقة مع الرأي القائل إنه كان معتدلاً في شغفه، الذي كان يرى فيه عرقلة لبلوغ هدفه بنجاح، فإذا كان حسب ما يرون مولعاً ببعض الأشياء وبالأحرى «النساء والخمر» ولم يخرج عن ذلك، فهذا دليل إضافي على أنه يملك إرادة قوية، من المحتمل أنه لم يكن موفقاً في أبنائه، لذا عندما رحل عن هذا العالم كان قلقاً على مصير أبنائه وأنجاله الذكور؛ أي أوروغ، هكذا كان جنكيز خان الساحق لأعدائه والمسرف بالعطاء عل أحبائه، والذي كان يرى سعادته في القضاء على خصمه الطريح وسلب شرفه.

يمكن الاعتراض على هذا الوصف، لكن هناك كتباً ومصادر أساسية، اثنان منها «التاريخ السري»؛ أي «السيرة المكنونة»، و «مجموعة المدونات التاريخية» لمؤلفه رشيد الدين، اللذان ترجما إلى اللغة الروسية، ويمكن للقارئ الاطلاع عليهما بنفسه واستنتاج ما يراه.



سمة العصر

إن المهزومين . . . مذنبون بقدر

ليس أقل من المنتصرين»

ل . ن . غوميلوف

البحث عن الإمبراطور المزعومة

لم يكن بالمصادفة البحتة أن رشيد الدين العظيم في مؤلفه «مجموعة التدوينات التاريخية» قد صاحب كل مراحل حياة جنكيز خان «مدونات الحكام المعاصرين لجنكيز خان» . إن مصادر انتصارات جنكيز خان لم تكن في موهبته كرجل دولة سياسي وقائد عسكري ، أو في المهارة العسكرية لقواده أو المهن العسكرية لجنوده ، إنما تكمن في الضعف الموضوعي لأعدائه ، وفي ذلك الوضع السياسي الذي نشأ في آسيا في بداية القرن الثالث عشر ، والأسباب هذه تكمن في نفسية المنتصرين والمهزومين ، وفي تقبلهم للأحداث وتفاعلهم مع ذلك .

كانت اليابان بوجودها على الجزر خلال أوائل الثلث الأول من القرن الثامن عشر خارج إطار اللعبة ، بعد ذلك بكثير قام المغول بمحاولات غير ناجحة للاستيلاء عليها ، قامت كوريا بالاستسلام طواعية بعد غزوات المغول على منتشجوريا في عام ١٢١٨ ومن ثم أعلن فان كوريو استقلاله عن جنكيز خان .

حدثت عند لحظة ميلاد جنكيز خان في شمال الصين تغيرات مهمة ، في عام ١١١٥ قام التشجورتشجينييون بإعلان تأسيس دولتهم تسزين في منتشجوريا الوسطى ، قرابة العام ١١٢٥ قاموا بإبادة دولة لياو الكيدانية ، في العام نفسه أي ١١٢٥ بدأ التشجورتشجينيون الهجوم على الصين ، حيث حكمت أسرة سون ،

وفي العام التالي استولوا على عاصمة سون مدينة بيانتسزين، ووقع في أسر التشجورتشجينيين اثنان من الأباطرة الصينيين، وتم ترحيلهم شمالاً إلى منتشجوريا، في عام ١١٢٧، تم إعلان تنصيب أحد أعضاء الأسرة الإمبراطورية كإمبراطور صيني جديد (غاو تسزون، الأعوام ١١٢٧-١١٦٢) للدولة الصينية الجديدة، التي احتلت الجزء الجنوبي من الصين الحالية، التي سميت سون الجنوبية، وأصبحت خانتشجاو عاصمة لها، استمرت الحروب بين سون الجنوبية وتسزين حتى عام ١١٤١، وانتهت بتوقيع معاهدة السلام التي بموجبها بقي الجزء الشمالي من الصين تحت يد التشجورتشجينيين.

في ذلك العام حين تجمع في منغوليا الكوريلتاي الكبير وأعلن جنكيز خان كحاكم لمنغوليا كافة (العام ١٢٠٦)، هجمت جيوش سون الجنوبية على تسزين، استمرت الحرب ثلاث سنوات، وفي عام ١٢٠٨ عقد اتفاق السلام، عندما استعد جنكيز خان للهجوم على تسزين لم يكن على علم بهذه الأحداث، لقد كان على علم تام بأن إمبراطورية تسزين في حربها ضده لم تكن تتمتع بظهر آمن، وذلك لأن جارتها الجنوبية إمبراطورية سون الجنوبية كانت مشحونة بالعداء تجاه الجارة الشمالية.

وجدت الدولة التانغوتية سي سيا إلى الجنوب من منغوليا، تم الإخلال بعلاقات حسن الجوار ما بين دولتي التانغوت والتشجورتشجينيين، في آخر القرن الثاني عشر، وكما نعلم امتنع التشجورتشجينيين عن مد يد العون للتانغوت في أحرج الأوقات؛ أي خلال حصار عاصمتهم من قبل المغول، أدى هذا إلى تزايد العداوة، وانتهى بنشوب الحرب بين سي سيا وتسزين (عام ١٢١٤). ومن هذا العام ١٢١٤ امتنعت سون الجنوبية عن دفع الإتاوات لدولة تسزين، قررت سي سيا وسون الجنوبية توحيد جهودهما ضد التشجورتشجينيين، الذي بخلاف ذلك لا

يكادون يدرؤون ضربات المغول القاضية، تحول الصينيون في سون الجنوبية عام ١٢١٧ إلى الهجمات العسكرية المباشرة ضد تسزين التي استمرت حتى عام ١٢٢٤، هل من الجدير أن يذكر أن هذه الحرب كانت لفائدة موخالي، الذي حارب في شمال الصين؟ قامت سون الجنوبية وبعد موت جنكيز خان بإشعال الحرب مرة أخرى ضد تسزين، وحينها تمكن الصينيون بجهودهم المشتركة مع المغول من القضاء على الدولة التشجورتشجينية.

وهكذا كان الوضع السياسي في الثلث الأول من القرن الثالث عشر ملائماً تماماً لصالح المغول، لم يستطع التسزين وسون الجنوبية وكوريو أن يكوّنوا اتحاداً شاملاً ضد العدوان المغولي، وفي نهاية الأمر تم القضاء على الدول الثلاث الرائدة في شرق آسيا وإبادتها، كل واحدة منها على حدة.

إذا ما نظرنا إلى الغرب نجد هيمنة العداوة والتناحر مما أعطى المغول فرصة ملائمة، الأويغوريون والترك الكارلوكي استسلموا طواعية لجنكيز خان، وصاروا معاونين نشطاء في حروبه ضد دولة خوارزمشاه وكوتشلوك، لأن خوارزمشاه كان يحارب دول الجوار، وبما أن كثيراً من أرجاء دولة خوارزمشاه نفسها انضمت لها قبل خمس أو خمس وعشرين سنة فقط قبل غزوة جنكيز خان، وذلك بقوة السلاح حسبما يأتي: خراسان في الثمانينات من القرن الثاني عشر، إيران الغربية في عام ١١٩٤، ما وراء النهر في عام ١٢١٠، أفغانستان ١٢١٥، كل هذا لم يؤد إلى شدّ عضد الدولة، لذلك واجهته في شمال دولة خوارزمشاه بشكل دائم الصدامات مع قبائل الترك الكيبتشاكيين الرحل.

عانت دولة الصينيين السود من مشكلات داخلية جسيمة، وتجرعت كثيراً من الهزائم الخارجية من دولة خوارزمشاه، وتم الاستيلاء أخيراً على العرش من قبل النايمان بقيادة كوتشلوك، إن الترصد القاسي للمسلمين تسبب في انبعاث موجة

عارمة من عدم الرضى وأدى إلى انتصار المغول ومقتل كوتشلوك واندثار تلك الدولة التي كان يرأسها، وقبلاً تم القضاء على دولة النايمان في ألتاي على يد جنكيز خان، أما القيرغيزيون، الذين قاموا من قبل في القرن الثامن بإنشاء دولتهم (كاغانات) في وسط آسيا، وتحكموا بمنغوليا قبل أن يستتب الأمر لسلطة الكيدانيين عند مشارف القرن الثامن، هؤلاء القيرغيزيون كانت لديهم عدة ممالك مفتتة في أعالي نهر ينيساي، ولم يشكلوا القوة المقدرة لها الجادة للتصدي لجنكيز خان، كل المذكور إضافة إلى الغياب الطويل في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للسلطة القوية والمركزية في منغوليا ذاتها أدى لخلق حال سمحت لجنكيز خان بالتفوق وتوحيد منغوليا وتجميع كل القوى في قبضة واحدة والانعتاق خارج نطاقها.

قوة الجيش المغولي التي اصطدم بها شرق آسيا ووسطها كانت في داخلها نفسها وخارج نطاقها، اعتمدت قوتها على جهاز التنظيم العسكري المعهود لدى آسيا الوسطى، ولكن من المحتمل تم تحسينه من قبل جنكيز خان، كانت قوتها في صلابة المحارب المغولي الفارس بالميلاد وحصانه المدرب وقوة تحمله، في براعة استخدام الخيالة من قبل قادة الجيش وفي فنهم التكتيكي، وفي جودة التأصيل بالعتاد الحربي قبل مغادرتهم إلى خارج حدود منغوليا، وفي استيعاب قواد الجيش المغولي لاستخدام التقنية الحربية لجيرانهم وقبل كل شيء المنجنيق.

حسب معلومات أبي الفرج، يجند الرجال في الجيش المغولي من عشرين سنة [عن مكونات ياسا العظيمة، ص٥٤]. كتب تشجاو خون «يولد التتار ويشبون على السروج، يتعلمون القتال بأنفسهم، من الربيع حتى الشتاء كل يوم يركضون ويصطادون، هذه وسيلة للبقاء، ولذلك فليس لديهم مشاة ولكن كلهم خيالة» [التدوين الكامل، ص٦٦-٦٧]، يؤكد جنكيز خان أهمية الصيد في اكتساب المهارات الحربية: «عندما لا تكون هناك حرب مع الأعداء، دعهم ينخرطون في

الصيد، تعليم الأبناء مطاردة الحيوانات البرية، حتى يتأقلموا مع القتال ويكتسبوا قوة التحمل، وبعدها ينقضون على العدو كما ينقضون على الحيوانات البرية غير مراعين لأنفسهم» [عن مكونات ياسا العظيمة، ص٤٣]. حسب إفادات جويني المقاتلون المغول بالعشرات والمئات والآلاف في وقت السلم، يعملون في شؤون الدار «مثل المزارعين» [المصدر نفسه، ص٤٧]، عند التجنيد للحرب يحضر المقاتل وحصانه وأسلحته ودروعه وطقم معداته المهمة عند الحرب، يتم التفتيش بشكل منتظم في تشكيلات العشرات أو المئات الذي يُفحص خلاله وجود الأسلحة والدروع وحالتها، حسب كلمات جويني «في يوم التفتيش يعرضون عتادهم، وإذا نقص ولو قليلاً فإن ذلك الشخص يصيبه ما يصيبه ويعاقب بشدة» [المصدر نفسه، ٢١].

إننا نجد هذه المنظومة بالضبط في مواد الحقوق التانغوتية للقرن الثاني عشر، كانت سيوف المغول خفيفة ورفيعة ومقومة، تصنع أخشاب السهام من الصفصاف، أما القوس والسروج فمن الخشب، لم يعرف المغول الصدرة المزررة، وكانوا يجمعون أجسادهم بالدروع التقليدية لأواسط آسيا والصين، التي تصنع من شرائح جلدية أو معدنية وتربط بأحزمة، سميت الدروع التي تصنع من المواد الصلبة ومن أجزاء مربوطة بعضها ببعض بواسطة أحزمة «خوياغ»، وهناك نوع آخر يسمى «خاتانغو ديغيل»، هذه كانت عبارة عن قفطان» من النسيج الناعم كاللباد، النسيج أو الجلد تزرر إلى بعضها، ويتخللها المعدن، يعلق الخوياغ على الجسم بوساطة حمالات تاركاً الكتف عارياً، أما الخاتانغو ديغيل فيحمي الكتف، وكانت لديه كتفيات مجسمة ومفصلة في أشكال كالجاروف، أما العنق فتحميه ياقات دفاعية من الجلد الناعم التي تخاط فيها شرائح معدنية، كان ذرع المحارب أو ما يسمى بالخاخا ينسج من أغصان الصفصاف بشكل مستدير، يبلغ قطره خمسين سنتيمتراً، الخوذة

عند المحاربين المغول كانت مخروطية الشكل ومبرشمة من عناصر مختلفة، وتغطى على طول مكان الخياطة بشرائح معدنية منتهية عند رأسها بشكل مخروطي أو نصف كروي أو مسطحة، والجبهة تغطى بشريحة مربعة أو مجسمة، والقفا يغطى بالكتفيات، وجدت في ذلك الزمان دروع للخيل [غوريليك، ص٢٤٧-٢٥٩] كانت المعادن لدى المغول بكميات وافرة، وكانوا حدادين مهرة، ولذا فإن أسلحتهم وعتادهم الحربي كانت مضمونة الفعالية في القتال.

تمر الخيول الحربية بتدريب خاص، كما يخبرنا تشجاو خون: «الخيول . . . في العام الأول أو الثاني من ولادتها تروض بشكل مكثف في السهول وتعلم، ومن ثم تربى لمدة ثلاثة أعوام، وبعدها من جديد تروض . . . في خلال اليوم لا يطعمونها العشب، وخلال الليل فقط يطلقونها في المراعي . . . وعند مطلع الفجر يسرجونها وينطلقون بها . . . عندما يخرج التتار للغزو لدى كل فرد عدة خيول ويمتطونها بالتبادل مبدلين إياها كل يوم، ولذا فإن الخيول لا تجهد» [التدوين الكامل، ص٦٨-٦٩].

كان يتوجب على القائد خلال زحف الجيش الاهتداء بأكثرهم ضعفاً، ووتيرة حركتهم هي الملزمة للبقية كافة، يعتقد جنكيز خان أن «اللائق بقيادة الجيش ذلك الذي يشعر بالعطش والجوع يماثل ذلك الإحساس مع الآخرين، ويمشي في الطريق واضعاً في اهتمامه ألا يسمح للمقاتلين بمعاناة الجوع والعطش، وذوات الأربع بالهزال» [عن مكونات ياسا العظيمة، ص١٨].

بعد أن يخصم من الغنائم مستحقات الخان للخان، ينال كل مقاتل نصيبه، وقد كان هذا بحق حافزاً مهماً، ويدفع أياً كان للفوز به، وهذا لم يكن ممكناً إلا عن طريق هزيمة العدو، في الأثر التاريخي للقوانين المغولية في القرن الثالث عشر، الذي تم العثور عليه في كوريا منذ زمن ليس بالبعيد، يذكر بشكل مباشر أن كل ما

غنمه الجندي يؤول إليه «كل الغنائم الحربية التي يعثر عليها الجندي في أثناء الغزو مثل الأسرى والماشية والأغراض كلها تؤول لذلك الجندي فقط، ويمنع قائده من مصادرتها ولكن يصادرها عقاباً له أو إرهاباً» [سومياباتور، ص٣٥٨].

تعفى الأسرة التي فقدت أحد أفرادها في ساحة الوغى من تجنيد أي من رجالها مدة عام، إذا مات عضو الأسرة المقاتل في الخدمة بسبب المرض فاستنفار عضو آخر من الأسرة يؤجل إلى نصف عام، يتعرض الهارب من الخدمة لعقوبة الإعدام التي تنفذ أمام المقاتلين.

أول فصيل للجنود الرماة الحجارة مكون من خمسمئة شخص، تم تأسيسها احتمالاً على يد المغولي أغموخاي، حسب سيرته الذاتية الواردة في «يوان شي» قام جنكيز بسؤال أغموخاي عن المخططات الممكنة لاحتلال المدن، رد أغموخاي قائلاً: « "عند الهجوم على مدينة من المفترض، وقبل كل شيء، أن يستعمل المنجنيق، عندما تتجمع قوة كافية منه يمكننا التقدم إلى الأمام" . اغتبط الإمبراطور، وفي الحال أمر بأن يتولى قيادة فصيل رماة الحجارة (المنجنيقيين) قام بجمع خمسمائة شخص ودربهم» [يوان شي، الفصل ١٢٢، ص٦ب، ٧أ].

لقد كتبنا أن المبدأ المغولي في التعامل مع الجيران يتطلب منهم بخضوع دون تحفظات عند أول طلب «عند أول رفض من قبل العدو للأوامر أطلق ولو سهماً واحداً أو اقذف بحجر، وحسب نظام الدولة المعمول به فإن الجميع يقتلون بلا رحمة في الأحوال كافة» [المصدر الصيني، ص٧٦]. فضل المغول بداية الحرب في الخريف عندما تكون الخيول قد اكتنزت شحماً، أما خطط الحرب المقبلة وأهدافها فتكون قد نوقشت وحددت في الربيع وفي أول الصيف.

يتم تناقل الأوامر عن استعدادات الجيش لبداية الغزو بسرعة ووضوح وغالباً عن طريق السعاة، شفهياً دون أي أوامر مكتوبة.

لا يقل التقسيم أهمية عن المناورات والخطط الحربية في إدارة المعارك عند المغول، ومن ضمن ذلك ما كتبه الأوروبيون، كتب الراهب المجري الأخ يوليان معلومات تتحدث عن ١٢٣٥-١٢٣٧ ما معناه «أنبئكم في الحقيقة عن الحرب الآتي يقال إنهم يصيبون أهدافاً بعيدة أكثر من أي شعب آخر، عند أول اصطدام في القتال السهام، كما يقولون عندهم، لا تطير وإنما تنهمر كالمطر، أما السيوف والحراب ـ حسب الأقاويل ـ فإنهم يضربون بها بمهارة أقل، صفوفهم ينظمونها كالآتي: يترأس كل عشرة أشخاص واحد من التتار، وعلى كل مائة ما يسمى برأس المائة، إن هذا الترتيب وضع بذلك الدهاء بحيث إن الجواسيس الذين يتسللون لم يتمكنوا من الاختباء وسطهم . . . والأشخاص الذين جمعوا من الممالك كافة التي هزموها بألسن مختلفة وشعوب لا يتمكنون من ارتكاب أي خيانة. إنهم بلا تباطئ يقتلون الأمراء والسادة الذين يوحون بالخطر لاحتمال أن يُبدوا أي مقاومة، المحاربون والسكان الذين يصلحون للقتال يسلحونهم ويرسلونهم قسراً في المقدمة، بقية السكان الذين هم أقل صلاحية للقتال يتركونهم لعزق الأرض، أما الزوجات والبنات وقريبات أولئك الأشخاص الذين أرسلوا للقتال أو قُتلوا فيقسمونهن على أولئك الذين أبقوهم لعزق الأرض، ويلزمون هؤلاء الناس من تلك الآونة فصاعداً بأن يتسموا بالتتار، أما المحاربون الذين دفعوهم إلى القتال، حتى إن حاربوا بشكل جيد وانتصروا، فالمكافأة ليست بالجزيلة، فإذا ماتوا في القتال فليس هناك اهتمام كبير بهم، ولكن إن تراجعوا في أثناء القتال فلهم الموت تحت سيوف التتار، ويقاتلون بشجاعة أكثر حتى لا يعيشوا طويلاً ويموتوا بأسرع ما يمكن»، إنهم لا يهجمون في البداية على الحصون المنيعة، بل يجتاحون البلاد وينهبون الشعب، وبعد أن يجمعوا شعب تلك البلاد ويدفعونهم إلى ميدان القتال، ويحاصرون بهم قلاعهم، ومن الدول المهزومة كافة يدفعون إلى القتال أمامهم المقاتلين الذين لديهم القدرة على القتال» [أبناء الرهبان المجريين، ص٨٧-٨٨].

جمع الأخ يوليان معلومات مؤكدة عن طريق إدارة المعارك والتخطيط للاستيلاء على الحصون والمدن، وفي ذلك كان جيش المغول عظيماً؛ لأنه تكون من عدة ألسن وشعوب، وقسم منه سار إلى القتال قسراً، لقد أوردنا سابقاً أن كلّ ما ذكر سابقاً، وبالتقريب الكلمة بالكلمة، تتكرر الأحداث عند تشجاو خون وجويني «من حدود تركستان حتى أقاصي سوريا . . . وبكل مكان حيثما وجد قيصر أو والي مدينة، قابلوه بغير ترحاب، أبادهم جميعاً مع أسرهم وورثتهم وأقاربهم وحتى الأغراب، وهكذا حيثما كان الشعب مائة ألف، وبدون مبالغة، لم يتبق منهم حتى المائة» [عن مكونات ياسا العظيمة، ص٤١] في عام ١٢٣٣ وعند الاستيلاء على كايفينا، أعلن سوبيتاي «لقد قاومت هذه المدينة مدة طويلة وقد جرح عدد كبير من المحاربين أو قتل، ولذلك أود أن أبيدها عن آخرها» [المصدر الصيني، ص٧٦] وهذه أصبحت قاعدة.



إن كان جنكيز خان مختار السماء ليفتح العالم وينقذ هذه الرسالة المخصصة من أعلى، أما الذي أوقع عليهم قوة جيوشه فعدوه عقاباً إلهياً ومخلوقاً مرسلا إليهم كعقوبة من قبل هذه القوى السماوية، الاعتقاد بالخضوع لإرادة القوى العليا[1] أو فيما يمكن أن تسميه «الحرفة الإلهية» التي أعطت البعض الثقة في النصر وحرمت الآخرين من إرادة المقاومة.

---

(١) يرى الباحث الصيني سون تسزيتشجين أن غزو جنكيز خان لشعوب شمال الصين يعدّ عقاباً بإرادة السماء، «إن بداية ازدهار الدولة يرجع في الأساس إلى جهة الشمال التي نال فيها تاي تسزو أي جنكيز خان أمراً عظيماً من السماء بالجلوس على العرش لحكمته وخير أفعاله، وبتبجيل قام بمعاقبة الشعوب بإرادة السماء، وأينما حل رأس فرسه لم تكن هناك دولة كان بمقدورها الوقوف أمامه (المصدر الصيني، ص٦٨).

حطم الإرهاب الجماعي معنويات الخصوم، حكى لنا ابن الأثير بكل امتعاض عن حوادث عديدة وغير عادية عن تغلب الخوف عند ملاقاة التتار المغول «على سبيل المثال يحكى أن أحداً منهم (أي التتار) عرج على قرية أو شارع حيث كان جمع كبير من الناس، وقام بقتلهم جميعاً الواحد تلو الآخر بلا انقطاع، ولم يجرؤ أحد أن يتعرض لهذا الفارس، نقل إلي أن أحدهم قبض على شخص ما، ولما لم يكن لديه ما يقتله به فقد أمره قائلاً: "ضع رأسك على الأرض" وذهب التتري وأحضر سيفاً وقتله به، وحكى لي شخص أيضاً الآتي: "كنت مع سبعة عشر شخصاً آخرين في الطريق، اقترب منا فارس من التتار، وطلب منّا أن يوثق كل منّا الآخر، قام رفاقي بالبدء بما أمرهم بذلك، عندها قلت لهم إنه وحده، فلم لا نقتله ونهرب، فردوا علي: إننا خائفون، حينها قلت: إنه يود قتلكم الآن، فمن الأفضل أن نقتله، فمن المحتمل أن اللّه أراد لنا النجاة، أقسم باللّه لم يجرؤ أحد على القيام بذلك، عندها أخذت السكين وقتلته وهربنا وكتبت لنا النجاة"، مثل هذه الأمثلة كثيرة» [ابن الأثير، ص٤٢].

سبق أن تحدثنا أن القسوة أصبحت سياسية، عن هذا «في خلال وقت الحروب إنهم يقتلون الجميع، حتى الذين يقعون في الأسر، ما عدا أولئك الذين يودون الإبقاء عليهم كأرقاء» [الرحلات، ص٥٤]، القرى هُجرت وفلاحو الأرض خرجوا عراة، «إنهم يعملون سيوفهم في الجميع بغض النظر عن العمر أو الوضع أو النوع»، «إن الأبحاث الأثرية وحدها التي تستطيع بحق وبشكل منقطع النظير أن تعطي تصوراً عن حجم المذبحة التي ارتكبت ضد الروس: عواصم الإمارات التي أقفرت، آلاف المنازل التي حرقت، هياكل النساء والأطفال الذين قطعت أوصالهم السيوف» [موقعة كوليكوف، ص٩]. سافر اسمبات اسبارابيت في عام ١٢٤٧ إلى قاره كوروم، وفي منطقة سمرقند سجل في التقرير عن السفر الآتي: «لقد شاهدت

عدة مدن خربها التتار، ولقد شاهدت بعضاً منها خلال ثلاثة أيام، الطريق وعرة جبال مدهشة، مكونة من أكوام عظام أولئك الذين قتلوهم» [المصادر الأرمنية، ص٦٥]. كتب مؤلف أرمني آخر: «لقد كانوا بتلك الدرجة من القسوة، حتى لو أنني امتلكت تلك البراعة في البلاغة الجيدة لما استطعت أن أصف تلك المعاناة والمأساة التي أذاقوها للبشر في وادي المقاومة أو قمعت لوقت طويل مما أدى لظهور ذلك الخضوع العبودي، الذي كتب عنه ابن الأثير بكل تلك البلاغة الأدبية، أليس من الجلي والواضح أن الصورة كانت متشابهة في كل مكان في الصين وآسيا الوسطى وإيران والقوقاز وروسيا وشرق أوروبا.

ما عاد هناك نبع أو نهر
الذي لم تقض به دموعنا
ما عاد هناك سهل أو جبل
الذي لم تطأه أقدام التتار
أنفاسنا فقط تكاد لا تتصاعد
أما عقولنا وأحاسيسنا في دواخلنا قد مات
(فريك، الأعوام ١٢١٠-١٢٩٠)
[المصادر الأرمنية، ص١٠-١١).

إن هذا بالضبط ما كان يرغب فيه الغزاة: أن تكون العقول والأحاسيس عند المقهورين ميتة، لقد سعوا إلى ذلك وحققوه، الشيء الذي ساعد في انتصاراتهم، كل هذا ساعد في صنع أسطورة أنه لا يوجد في هذا العالم جيش يمكن أن يقارن بجيش التتار.

أصبحت الخيانة الجماعية واحدة من نتائج الإرهاب بجانب الأسباب الأخرى حيث تحول الناس إلى الجانب الأقوى، وتقديم الخدمة المخلصة لصالح الذي كان

قبل مدة من الزمان عدواً، فأصبح ذلك جزءاً من التركيبة النفسية والأخلاقية لذلك العهد، فساعد حفنة غير ذات عدد كبير من المغول أن يقودوا خلفهم جيوشاً كاملة تتحرك في إطار مصالحهم، ويخضعوها ويرغموها على ذلك، هذه الجيوش التي تتكون من ممثلي الشعوب التي أخضعت واستسلمت، أولئك «الألسن والشعوب المختلفة» الذين خدموا بغير تفان أقل من أولئك النو كير المخلصين لجنكيز خان، الذين عبدوا له الطريق إلى النصر، نحن نرى سيلي تسيانبو التانغوتي على أسوار مدينته الأم، التي حوصرت من قبل المغول، وتمضي عشر سنوات وهو بكل اجتهاد يقبل على اقتحام مدن ريازان وكوزيلسك، وهذه وقائع من «يوان شي» [الفصل ١٢٢] وليست من تخيلنا المحض. بالنسبة لحاكم ريازان يفباتي كولوفرات فإنه كان «تترياً محضاً» أما لدينا فلا، لقد كان من ضمن الجي التتري، صنع له النصر، منقذاً بذلك شخصه فقط، ومهملاً مصير شعبه ومعاناته الشيء الذي لم يعرفه آنذاك أن هذا الشعب محتوم عليه بالقضاء المبرم والاختفاء بشكل كامل كسلالة منفصلة.

يؤكد مؤلف السير الذاتية لسوبيتاي [«يوان شي» الفصل ١٢٠، ص١ب-٢أ] على المغول بعد أن وحدوا منغوليا أسسوا ألفيات من الميركيت والنايمان والكيريت وجيرانهم الترك، والكانغال والكيبتشاك، تنكر تسيسيلي الكيريتي لفان خان، وانتقل إلى خدمة جنكيز خان، كذلك أذعن ماتشا النايماني لإرادته، وعمل تحت إمرة جنكيز خان، الذي تقلد فيما بعد قيادة الجيش المغولي والصيني، خدم تحت إمرة جنكيز خان تشاوسي النايماني أيضاً الذي لم يكن من العامة، وإنما ابن حفيد تايان خان وحفيد كوتشلوك، استسلم كانغل خاشيبول (خاسبولات) للمغول وفيما بعد صار يرعى الماشية في حاشية إحدى الإمبراطورات.

انضم المسلم جعفر خوجه في عام ١٢٠٣، وانضم إلى جنكيز خان المسلم الآخر التاجر حسن، وقد شرب الماء من بحيرة بالتشجون، وأصبح أول

داروغـاتشي من المغـول، كـمـا أصبح داروغـاتشي الأويغـوري تسـيويلي، الذي استسلم طواعية للمغول من قبل، خدم الأويغوريان المتعلمان مانسوسي وبولوخاي تحت إمرة جنكيز خان.

تخـبـرنا السـيـرة الذاتيـة لموخـالي في مـؤلف [يوان شي، الفـصل ١٢٠، ص١ب-٢أ] أن القـادة الكيـدانيين والصينيين والتـشجورتشجينيين استـسلموا في وقت الحرب مع تسزين، وأعطوهم جيشـاً ومسـاحات لإدارتهم وأرسلوهم إلى الحرب ضد حكامهم السابقين، أصبح المغول منذ عـام ١٢١٦ يأخـذون أبناء قـادة الجيوش وعظماء دولة تسزين. الذين يستسلمون في الحرس، وباختصار أصبح استنفار المهزومين لمواصلة الفتوحات قاعدة، في عام ١٢٣٥ وبعد وفاة جنكيز خان نوقش مشـروع اسـتخدام المسلمين لغزو جنوب الصين، والصينيين لغزو شرق أوروبا، قام يلوي تشوتساي ـ الذي يتمتع بنفوذ كبير في البلاط الإمبراطوري ـ بإقناع الخان بالعدول عن هذه الفكرة، محتجاً على ذلك باختلاف الطقس، ولكن قدم اقتراح يقضي بأن «من الأفضل لو أن هؤلاء والآخرين اشتركوا في الحملات التأديبية في بلادهم» [المصدر الصيني، ص٧٨].

يشكل الصينيون جزءاً أساسياً من سكان إمبراطورية تسزين، ومنهم كذلك التشجورتشجينيون والكيدانيون والبرخايتسيون، كان الكيدانيون يحلمون ببعث دولتهم، الصينيون في أغلبيتهم العامـة يميلون بالطبع إلى جانب سون الجنوبية، وكانوا يفكرون بإخلاء الغزاة التشجورتشجينيين، ولعل البوخاتسيون لم ينسوا أنه منذ مئتي عام مضت قد كانت لديهم دولتهم، التي أبادها الكيدانيون، ولذلك كان الوضع ملائماً جداً للمغول في غزوهم، كثيرون بل الكثيرون جداً في إمبراطورية تسزين كانوا لا مبالين بمصير الأسرة الحاكمة، لم يكن جنكيز خان يعاني من قلة المستطلعين، حتى قبل توحيده لمنغوليا انتقل إلى الخدمة تحت إمرته كل من الإخوة

يلوي وآخاي ويلوي توخا أبناء حاكم الدولة الكيدانية، لقد كانوا مبعوثين من قبل إمبراطور تسزين إلى فان خان الكيريتي، ولكنهم انتقلوا إلى الخدمة تحت إمرة جنكيز خان، وشربوا معه الماء من بحيرة بالتشجون، إنهم كانوا يعرفون جيداً الوضع في تسزين، وبخاصة المناطق الحدودية، في عام ١٢٠٨ قام أربعة من كبار الموظفين الصينيين التسزينيين مع عائلاتهم بالهرب إلى صف جنكيز خان، وأصبحوا مستشارين له، كان أحدهم لي تساو ذكياً، وهو الذي حرض جنكيز خان بشدة على الحرب ضد تسزين، والآخرون كانوا باي لون وأُو فانتشان وتيان غوانمين، شغل كل من لي تساو وباي لون في عام ١٢٢١ منصبين عاليين في الإدارة المغولية، ليست الأسباب التي أرغمت هؤلاء الأشخاص على الانتقال واضحة (عدا رغبتهم في تأجيج المغول على تسزين. يفترض إيغور دي راخيفيلتس أن ثلاثة منهم أعدوا العدة لغزو المغول، ولكن الإمبراطور تشجان تسزون حسب أنهم يودون الالتحاق بالمغول، وحتى ينجوا من التحقيق والعقوبة لجأوا بالفعل إلى المغول [راخيفيلتس، الخاصية والشخصيات، ص٩٦-٩٨].

شارك يلوي آخاي في الحملة الغربية، تقلد منصب مأمور مغولي في سمرقند، ومات وهو في ذلك المنصب، قبل بداية الحرب مع تسزين انتقل إلى جانب المغول يلوي نيار الكيداني، وإليه يؤول الفضل في رسم خطة الهجوم على تسزين المكونة من عشر نقاط، شغل يلوي نيار وظيفة الكاتب، الذي كان يعد منصباً مهماً، ينتمي الكاتب إلى الحراس، ولم يكن كاتباً فحسب، إنما كان سكرتيراً مستشاراً متخصصاً، يعادل موقع الكاتب حسب مقترح إيغور دي راخيفيلتس منصب الوزير [المصدر نفسه، ص١٠٠-١٠٣].

جلبت الحرب معها موجة جديدة من المجموعات المتنقلة من جانب إلى آخر، وبعد عام ١٢١١ وتحديداً بفضل هؤلاء المتنقلين تمكن المغول من تعليم استعمال

آليات الحصار والاستيلاء على المدن، حسب تقديرات إيغور دي راخيلفيتس، الذي درس هذا الموضوع بشكل خاص، وفي الإفادات التي بقيت عن خمسة وثلاثين من رجال دولة تسزين المبرزين، الذين انتقلوا لخدمة المغول [المصدر نفسه، ص١٠٥] كان من بينهم اثنان وعشرون من الصينيين، وتسعة من الكيدانيين، وأربعة من التشجورتشجينيين، وفي عام ١٢١٣ أمكن إنشاء أول جيش من السكان المحليين لدولة تسزين، الذين حاربوا في صفوف المغول، سمي هذا بالجيش الأسود، وصار الصيني شي خوايدا أول قائد له، وبعد موته ناب عنه شي تيانسيان، خدمت أسرة شي بكل إخلاص تحت إمرة جنكيز خان ورأسها شي بينتشجي انتقل إلى صف المغول في عام ١٢١٣، أما ابنه شي تياني فأصبح تيمنيكاً في عام ١٢١٤، ومنح الوشاح الذهبي من يد جنكيز خان، وفي عام ١٢١٥ منح الوشاح الذهبي النمري، ومنصب القائد العام للجيوش غير المغولية في غرب خاباي، أما شي تيانسيان نفسه فقد خدم حتى رتبة يوانشواي، التي تعادل رتبة المشير، ومنذ عام ١٢٢٠ أصبح الساعد الأيسر للقائد العام موخالي، كان من ضمن عداد الصينيين في الجيش المغولي، الذين حاربوا في تسزين، ثلاثة تيمنيك هم جالار ولو خايما وشي تيانتسزا، بقيت سيرة فان تسزي حتى أيامنا من سيرة حياة الصينيين الملتحقين بالخدمة العسكرية لدى المغول، وكان مستشار موخالي الصيني خا شي.

يذكر إيغور دي راخفيليتس أربعة أسباب لانتقال مواطني دولة تسزين إلى جانب المغول، هي: الإحساس بقرب نهاية دولة تسزين، ونهوض أسرة حاكمة جديدة، واستخدام المغول في الصراع ضد العدو القديم؛ أي التشجورتشجينيين، والسعي للحفاظ على حياتهم وحياة ذويهم، وأخيراً الرغبة في اللحاق بأقاربهم، الذين سقطوا في أيدي المغول [المصدر نفسه، ص١٠٦]. سأل شيمو يسيان

الكيداني والده أكثر من مرة عن أسباب انهيار دولة لياو، فأجابه والده قائلاً: «باستطاعتك أن تبعثها من جديد!» خضع شيمو إيسيان للمغول ونصحهم بالهجوم على العاصمة الشرقية التي تعدّ الأراضي الأصلية لتسزين في منتشجوريا، قام موخالي بالاستيلاء على العاصمة الشرقية لتسزين بمساعدة الكيدانيين، حصل المغول نتيجة لذلك على مساحة من عدة آلاف لي، وجيش من مئات الآلاف، والكميات التي تم الاستيلاء عليها من العلف والعتاد والآليات الحربية حسب أقوال المصدر «تكومت جبالاً»، وفي الختام «ناح أهالي تسزين على أراضيهم الأصلية» [يوان شي، الفصل ١٥٠، ص١ب].

في عام ١٢١٦ وقع في يد المغول يلوي تشوتساي المستشار الشهير والشخص الواسع العلم، الذي شجع على مواصلة التعليم خلال الخدمة، ذلك لأن النهار مكرس للخدمة والليل له، استقبل جنكيز يلوي تشوتساي وأجرى معه الحديث الآتي:

- إن لياو وتسزن أعداء أزليين، وقد أخذت بثأري من التشجورتشجينيين نيابة عنك.

لكن يلوي تشوتساي لم يتفق مع جنكيز خان فقال:

- إن جدي ووالدي قد خدما بلاط تسزين كالمواطنين الأصليين، فهل يعقل أن أجرؤ على أن أكون مزدوج الشخصية، وأصبح عدواً للحاكم والأب؟ [المصدر الصيني، ص٧٠].

فنتيجة لهذه المحادثة التقليدية ـ كما رأينا أنها كانت تقليدية أكثر من مرة ـ، قام جنكيز خان بتقليد يلوي تشوتساي مستشاراً في معيته، إذا تخير يلوي تشوتساي خدمة المغول أو موته الحتمي، فإن ذلك من روح أخلاق ذلك العصر فخدم جنكيز خان بتفان «كالأب والحاكم» الجديد، وكما ذكر هو لاحقاً خلال ثلاثين عام من

الخدمة «لم يدر ظهره للحاكم»، قدر جنكيز مستشاره حق تقدير، قال يوماً ما لأوغاداي: «لقد تفضلت السماء على ديارنا بهذا الرجل»، الفضل يرجع إلى يلوي تشوتساي، أو هكذا على الأقل تؤكد المصادر، في أن يمنع التصفية الجسدية الكاملة للصين الشمالة، كثير من المغول عدوا الصينيين عديمي الفائدة «لا ترجى منهم البتة أيّ فائدة، من الأفضل إبادتهم جميعاً»، قام يلوي تشونساي بإقناع الإمبراطور أنه من الأفضل إبقاء سكان شمال الصين على قيد الحياة، وعدم تحويل البلاد إلى مرعى، من الأنفع فرض ضرائب على السكان، والحصول على كثير من الفضة والمنسوجات الحريرية والغلال، وهو نفسه الذي أوحى للمغول بأن ما تحت السماء (الصين) يمكن الفوز بها من على ظهر الحصان، ولكن إدارتها من على ظهره غير ممكنة (انظر [المصدر الصيني، ص٦٨-٨٠، ١٨٧]). إن المنحازين والأشخاص الذين أضحوا في خدمة المغول من التسزين وسي سيا جلبوا معهم الخبرة الفنية لإدارة الدولة، التي امتدت عدة قرون.

عرف من التانغوت الذين خدموا تحت إمرة المغول أيضاً فاتشجاتسزا، الذي عمل في إدارة تسجيل التاريخ في دولة سي سيا، وقد استسلم عند حصار سيليانا مع الشيوخ ورجال المدينة البارزين، بعد انهيار دولة سي سيا أصبح حاكماً لعاصمتها السابقة مدينة تشجونسين، وصار يعمل في إمدادات الجيش المغولي بالعلف والمواد الغذائية [يوان شي، الفصل ١٣٣، ص١أ]. أصبح سياو نيو التانغوتي الصانع الماهر في صناعة الأقواس قائداً لمائة من صناع الأقواس في قاره قروم [المصدر نفسه، الفصل ١٣٤، ص١٢].

برز في خلال الحرب في شمال الصين جيش تانماتش (خليط من القبائل) مكون من فصائل الكيدانيين والصينيين والتشجورتشجينيين، ومن ثم برز جيش من الصينيين، ابتداءاً من عام ١٢١٩، ومنذ غزو جنكيز خان للغرب تم احتلال شمال

الصين بشكل أساسي وواسع أكثر فأكثر على أيدي الأجانب، وأساساً على أيدي الصينيين، من الممكن الاتفاق مع إيغور دي راخيفيلتس من أنه من المستبعد أن يقوم المغول وحدهم باحتلال المحافظات الشمالية لدولة تسزين والسيطرة عليها، بقي عدد المنحازين من الصينيين ثابتاً بشكل متصاعد من ثلاثة وعشرين من المرموقين منهم، بعد عام ١٢١٦ كان واحد منهم فقط كيدانياً واثنان وعشرون صينياً، وسط رؤساء ما يسمى بالإدارات المحلية المتنقلة التي تأسست، بعد عام ١٢١٦ كان مغولي واحد فقط وأيضاً أويغوري وتشجورتشجيني واحد، وواحد منحدر من آسيا الوسطى، وأربعة من الكيدانيين وتسعة من الصينيين، وإجمالاً شكل الصينيون ثمانين بالمائة في أجهزة إدارة المناطق المحتلة من دولة تسزين [راخيفيلتس، والخصوصية والشخصيات، ص١١٨، ١١٩-١٢٠]. أصبحت سلطتهم وبشكل أساسي وراثية، وتساوت حقوقهم مع حقوق المغول، والأشخاص الذين كانوا تحت سيطرتهم عدوا أرقاء، احتفظ المغول للصينيين والكيدانيين الذين انحازوا إلى جانبهم بألقابهم التسزينية، التي كانت غير ذات معنى للمغول، ولكنها تحمل معنى في أعين المواطنين المحليين، كان المنحازون البارزون حسب وضعهم الاجتماعي يتساوون مع النوكير.

كان للمنحازين وجود خلال الاستيلاء على آسيا الوسطى وإيران، بعد سقوط بخارى انحاز لجانب جنكيز خان كل من حاكم كوندوز علاء الدين وحاكم بلخ ماخ روي، كان بدر الدين من أبرز هؤلاء، وقد أعلن لجنكيز خان: «فليعلم الخان أن السلطان من أبغض خلق الله إلى نفسي، وذلك لأنه قتل الكثير من أقاربي»، يرجع الفضل إلى بدر الدين شخصياً باقتراحه على جنكيز خان بزرع المذابح بين الترك وغير الترك في دولة خوارزمشاه، قام بتعليم كتابة الرسائل المزورة بأسماء أقرباء تيركين خاتون والدة خوارزمشاه إلى جنكيز خان، التي ورد فيها: «نحن مع قبائلنا

وكل من لجأ إلينا، حضرنا من بلاد الترك إلى خوارزمشاه بغرض الخدمة لدى والدته، وقد ساعدنا ضد حكام الأرض كافة إلى أن استولى عليها، وإلى أن أخضعنا حكامها واستسلم مواطنوها، الآن تغيرت نواياه تجاه حقوق والدته، ويتصرف حيالها بشكل متعجرف من غير تقدير، ولهذا أمرت بتركه دون معونة، أما نحن ففي حالة انتظار حضورك حتى نمتثل لإرادتك ونذعن لرغباتك» [بونياتوف، ص١٤١]، مثل هذه الرسائل أصبحت مبعثاً لعدم الثقة عند خوارزمشاه تجاه الترك من المحيطين بوالدته، وأرغمته على اتخاذ تدابير الخطة اللازمة لتبديد القوى التي كانت بيد الغزاة.

يؤكد الباحث الشاب ف. ف. تريبافلوف من مدينة اسفيردلوفسك نظرة جنكيز خان الخاصة إلى الترك، إنه يفترض وجود خطط «التوحيد» و «الدعوة إلى الوحدة التركية المغولية»، كان ضم القيرغيزيين والألتايين والكيماكيين والأويغور والكارلوك من شرق تركستان إلى الإمبراطورية من ضمن خطط «التوحيد» التي أعدها بعد هزيمة كوتشلوك، ومن ضمن الخطة «الإعلامية لتوحيد الترك والمغول» أدخل في عام ١٢١٨-١٢٢٣ الكانغليين والتركمان والكيبتشاكيين الذين هزمهم المغول، وانفصلوا عن خوارزمشاه إلى جيوش تحت إمرة المغول، وتساعدهم في مواصلة الفتوحات [تريبافلوف، ص١٠-١١]. على الرغم من أن وجود «الخطط الخاصة» بإعادة بناء للأحداث من قبل ف. ف. تريبافلوف إلا أنه كان صادقاً في الشيء الأساسي أن المغول بالفعل قد أبرزوا الترك وقاموا بتحويلهم إلى حلفاء لهم، كان للترك لاحقاً وخلال حكم أسرة يوان في الصين دور كبير في إدارة البلاد.

حسب إفادات النسوي ساعد خاباش من كاسيج المغول بصورة فعالة في خراسان، «عانى منه الناس مساوئ فظيعة»، لقد أرغم السكان المحليين والحكام على محاصرة المدن والاستيلاء عليها، والذين لم ينصاعوا «فقد أعمل فيهم السيف وأرسلهم في درب الموت» [النسوي، ص٩٨].

ومن ثم كـان على حق كل من أكـد أن نجـاحـات الأسلحـة المغـولية ترجع إلى أولئك الذين انحازوا إلى جانبهم وخدموهم بإخلاص مهما كانت دوافعهم، الخيانة والاستسلام، عنوة أو طواعية، الخدمة بعد الوقوع في الأسر، أو بكل بساطة الانتقال طواعية لخدمة المغول، وبوعي كامل أملته عليهم الرغبة في انتزاع نصيبهم من الغنيمة والمجد، كان مثل هؤلاء الأشخاص كثيرين، وخلفهم قوة كبيرة، وقد عاضدوا بشكل نشط جنكيز خان في إحراز انتصاراته وهزيمة كل من قام جنكيز خان بغزوه.



الشخصية والحقبة التاريخية:

ليس دور الشخصية في التاريخ بالمسألة البسيطة، عندما تنتقل من المناقشات العـامـة إلى حـقـائق محـددة خـاصـة، أين تكمن سنة التطور وبأي شكـل، هل هي المصادفة كما حدث في تسلسل الأحداث، التي دفعت إلى مسرحها الكبير شخصية مثل جنكيز خان؟ على مدى ألف عام ونصف عام سادت ثم بادت الدول المترحلة في منطقة آسيا الوسطى مثل الغون والسيانبي والجوانجوان والترك والأويغور والقيرغيزيين والكيدانيين، حتى إن مغول جنكيز خان أنفسهم لا يغلقون هذه السلسلة، ذلك لأنه حدث بعث لدولة المغول بعد سقوط أسرة يوان الحاكمة على يد الأوريات، على خلفية الأحداث التاريخية التي حدثت في وسط آسيا كان ظهور الدولة المغولية، اتحاد المغول تسلسل طبيعي، كما هو بديهي ومنطقي الانهيار اللاحق والانحطاط، ذلك لأن كل هذا حدث أكثر من مرة قبل ذلك وبعده. بما أن اتحاد المغول في بداية القرن الثالث عشر شيء طبيعي فإنه من منطلق هذا التسلسل الطبيعي غير ذي بال من الذي يقوم بذلك جنكيز خان أو تشجاموخا أو فان خان.

لكننا نعلم أن الشعوب والأعراق تقوى وتضعف لذلك قيام المغول بتوحيد منغوليا ومن ثم آسيا، إلى حد ما يسوغه أن السلالة المغولية عند خروجها إلى السهوب الفسيحة لخالخي ومكتسحة من هناك الترك ومسؤولة على كل ما هو دون فائدة، كانت في حالة صعود، وليس من قبيل المصادفة أن المغول أنفسهم، الذين ذاقوا في بادئ الأمر الهزيمة، التي نتج عنها انهيار الأولوس خاماغ منغول، وحدوا البلاد التي تسمى حالياً منغوليا.

لكن لماذا تم هذا على يد جنكيز خان وبالأحرى تيموتشجين؟ إن تيموتشجين حسب انحداره من أسرة خان كان لديه الحق الكامن في السلطة، ولكن هذه الفعالية الكامنة كان من الممكن ألا تستغل، كما لدى الكثيرين من ممثلي سلالته الآخرين، عانى في مقتبل العمر من المطاردة والفقر، على الرغم من أن هذا لم يكن طبيعياً بالنسبة لأسرته، لعب دور تسلسل الأحداث غير الملائم، الذي ارتبط بالموت المفاجئ لإيسوغاي باتور، وكان من المحتمل أن يموت جنكيز خان أو يقضي بقية حياته في الأسر أو العبودية، كان من الممكن أن يكون في مكانه أي شخص آخر، لو لم تكن شخصيته وتأثيرها في أحداث تلك الحقبة، مقتل تيموتشجين أو بلوغه سن الرجولة هذا عامل مصادفة، إنما كون الزمن تطلب حيث عاش وترعرع ظهور شخصية مثله أو مشابهة له نداء الضرورة، لا يبدو لنا مطابقة تشاموخا كحامل قديم للكيدونة الأسرية القبلية مع جنكيز خان، الذي يمثل حملة التركيبة الجديدة غير مؤسس بشكل عميق، إننا نجد في المصادر تأكيد عدم تشابههم في الصفات الشخصية أكثر مما هو اختلاف في «برنامجهم»، كانت طموحاتهم متشابهة وتمثلت في القضاء على خصومهم وتوحيد المغول والأولوسات المجاورة تحت سلطتهم، وجدير بالذكر أنه من الخطل القول إنّ المغول في القرن الثاني عشر عاشوا في مجتمع قبلي عشائري حتى وإن لم تكن على ذلك المستوى، الذي سبق أن أبرز تحت اسم الديمقراطية الحربية، هذه المشكلة يجب أن يواصل البحث فيها.

لقد تخطى تيموتشجين خصومه الحكام الحقيقيين لمنغوليا كافة في تلك الأعوام تشجاموخا وفان خان وتايان خان وتورغوتاي وكيريلتوخا، بفضل صفاته الشخصية، التي جعلها تروق لكل من شكل قوة حقيقية، ومن ثم أخضعهم لإرادته، وانتقلوا للخدمة تحت إمرته وتحقيق مشيئته، في هذه الحالة لعبت شخصية جنكيز خان الدور الفعال بغض النظر عن تقييمنا لها من منظور أيامنا الحالية.

من المحتمل أن الشيء الأساسي لم يكمن في أن تيموتشجين بكل صدق ومسؤولية آمن في الرسالة كمختار من قبل السماء، بل في أنه تمكن من الإيحاء بهذا الإيمان للآخرين، وهذا يعني أيضاً قناعتهم بضرورة (إن لم يكن في أحقية) أفعاله، لقد تمكن من تحقيق أول نجاح كبير، وذلك بالقضاء على الحروب الداخلية والخلافات ووحد البلاد، ووجد من يجذب جيشه إلى خارج حدود البلاد، ويبدو أنه حدثت في هذه الحالة تلك النادرة في توحد التاريخ والشخصية لأحد صناعه، التي شكلت جوهر الأحداث التاريخية كافة، يعدّ المثل الأفضل لحياة المحارب المترحل أن يجندل عدوه وينهبه، والاستيلاء على الغنائم وتقسيمها، وحيث يمكن الاستيلاء عليها من غير خطر التعرض للرد الحاسم أو الموت.

كان من الموضوعي والمنطقي أن الجيران الصينيين (يجب ألا يفهم معنى الصين في المعنى الحديث لحدودها الحالية المحددة تاريخياً لكل حقبة معينة) بالانتظام نفسه، كما أن الجيران من العالم المترحل عانوا من عهود الاتحاد والتشتت والقوة والضعف، من جانب وعلى الأراضي المجاورة للصين نفسها، وفي الحقبة السابقة مباشرة لظهور جنكيز خان سارت بلا انقطاع عملية ازدياد قدرة السلالات وظهور نظام دولتهم الأصيل، سواء أكانت هذه التبت أو الكاغانات الترك أو النانتشجاو على أراضي محافظة يونينان الحديثة، أو دولة الكيدانيين أو التانغوت أو التشجوتشجينيين، ومن جانب آخر عانت الصين في نفسها من التوحد والتشتت

بشكل منتظم: حقبة القياصرة المحاربين في القرن الرابع والخامس قبل الميلاد؛ الانهيار من القرن الثالث قبل الميلاد حتى نهاية القرن السادس الميلادي، التوحد من القرن السابع حتى بداية القرن العاشر الميلادي، والانهيار حتى الاستيلاء المغولي الكامل على الصين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، إن توحيد العالم المتنقل لم يكن البتة مصاحباً لتشتت الصين، ولكن بروز دويلات مترحلة قوية أدت إلى انضمام بعض أجزاء البلاد إلى تكوينها.

نحن نملك كل الأسس التي يمكن من خلالها القول إن تفتت الصين وتوحدها قانون طبيعي، قام جنكيز خان بتوحيد منغوليا، وامتلك القوة في تلك اللحظة عندما كانت الصين مجزأة إلى نصفين: شمالي وجنوبي، الجزء الشمالي دخل قوام دولة تسزين، قسم من الصين خضع لدولة سي سيا التي أسسها التانغوت، الموقف في البلاد كان مهيئاً تماماً لاحتلال جزء من البلاد (أو كلها).

إن انعدام التوحد في البلاد والتدهور حسب رأي المؤلفين الصينيين كان سببه الموقف السياسي، الذي قاد جنكيز خان إلى انتصاراته [يوان شي، ص٢-٣]. لم تكن تسزين أو سون الجنوبية في واقع الأمر في حالة تدهور، كما هي الحال أيضاً في دولة التانغوت، وعملت دولة خوارزمشاه على الرغم من ضعفها على استعادة قواها، لم تخرج المصاعب التي برزت في هذه الدول عن الإطار الطبيعي أو حتى اليومي، ولم تصبح مصيرية بعد أن تعرضت هذه الدول لهجمات المغول، من المعلوم أن هذه الدول مأهولة بسلالات عرقية مختلفة، وبالأخص أن إحدى هذه السلالات كانت تحكم الأخرى الأضعف منها، تفاقمت الخلافات العرقية في دولة تسزين خلال الغزو المغولي وأدت إلى نتائج مأساوية.

من غير المستبعد (بكل بساطة نحن لا نملك إفادات المصادر) تفاقم الصدامات العرقية في دولة سي سيا، عاش في هذه الدولة خلال سيطرة التانغوت على أقل

تقدير ثلاث سلالات، هم الصينيون والأويغوريون والتبتيون، الأويغور وجزء من الصينيين والتبتيين تم ضمهم إلى قوام دولة التانغوت عن طريق قوة السلاح، كانت دولة سي سيا، أو الصينيون السود أيضاً، متعددة الأعراق، تفاقمت في عهد سيطرة الغزاة الكيدانيين التناحرات الداخلية في هذه البلاد بفضل العداء على ضوء الخلافات الدينية (معظم الرعايا مسلمون، أما سائر الشعب والأسرة الحاكمة فبوذيون)، كانت التناحرات في دولة خوارزمشاه موجودة، حتى في البيت الحاكم فيما بين السلالات حملة اللغة الإيرانية واللغات التركية.

يجب مراعاة التركيبة النفسية لشعوب تلك الحقبة من الزمان، أكثرهم خدموا حكامهم أو الأسر الحاكمة بإخلاص وتفان، ولكن ليس شعوبهم أو أوطانهم، ليست الوطنية كما نستوعبها في الوقت الحالي المفهوم الأخلاقي الوحيد أو السائد على الإطلاق، وتعدّ خدمته مقبولة أخلاقياً كما في السابق، فبرغم ذلك لم تخامره فكرة إعادة بعث الدولة الكيدانية، من خطل القول نفي قوة العلاقات العرقية على الرغم من أن علاقات المحكوم والحاكم كانت أقوى بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية في أحوال ليست بالقليلة.

يرى العلم الصيني الحديث أن الصين كانت تمثل وحدة ثقافية جغرافيا سرمدية منذ القدم وبحدودها الحالية، وعند إعلان عدد من الدول بصورة أو أخرى داخل حدود دولة الصين الحالية ما هي إلا سلطات سياسية؛ أي دويلات كانت تتجزأ إليها أحياناً دولة الصين عند انهيارها، لذلك كتب المرحوم خان جولين في مقدمة مؤلف «تاريخ أسرة يوان»: «عند ازدهار المغول كانت الصين تنقسم إلى سبع أو ثماني وحدات سياسية هي: سون الجنوبية وتسزين وسي سيا وسي لياو ودالي والتبت» [يوان تشاو شي، ص٢]. لقد تم ذكر ست وحدات سياسية ويبقى اثنتان، وما لم يتم ذكرها يبدو أنها كوريا وفييتنام، ولكن ليس العبرة في ذلك.

لذلك لدى الصين في وقتنا الحاضر مفهوم الصين كوحدة ثقافية جغرافية متعددة الأعراق في إطار الهيمنة الثقافية الصينية (للوقت الماضي ليس سياسياً بالضرورة) وعند سيادة دولتهم لا تشكل له أي عقبة استيعاب احتلال بلاده من قبل المغول في القرن الثالث عشر، ليس كقيام «النير التتري المغولي»، إنما «كتوحيد للبلاد»، لم استطاع المغول توحيدالصين قاضين بذلك على تناحر الخمسائة عام؟» يقدم هذا السؤال جان جولين، الذي لا يمكن أن يمر بخلدنا، ويقوم بنفسه بالإجابة عنه: «قوة الخيول» و «المهارة الصينية» أي «التقنية» والموهبة الشخصية لجنكيز خان، النمو غير المتوازن للقوميات (أي القوميات الصينية)، حيث إن المغول كانوا في حالة نهوض، أما سون وتسزين فكانا في مرحلة انحطاط «المغول وحدوا الصين، وكان هذا في ذلك الظرف الموضوعي شيئاً طبيعياً» [المصدر نفسه، ص٤]. لم يكن الاحتلال (الدموي) لتسزين وسي سيا وسون الجنوبي وسي لياو ودالي إخضاع التبت، وإنما «توحيد البلاد».

هل فكر المعاصرون على ذلك النحو؟ من الواضح في الغرب لم يفكروا، لقد عدوا ظهور جنكيز خان عقاباً لهم بسبب ذنوبهم، وليس موحداً لهم إطلاقاً، في شرق آسيا، وبمفهومهم عن «أويكومون»: كما تحت السماء مع أفكار قديمة في توحيد ما تحت السماء تحت إمرة إمبراطور واحد، وهذه المزاجات كان من الممكن أن توجد، من الخطأ التفكير بأن هذا الاتجاه كان سائداً، وحمل ذلك الشكل النهائي الذي منحه المؤرخون الصينيون المعاصرون، خلال عشرين السنة الماضية مهتدين في ذلك بمزاج سياسي معين، ولكنه كان كامناً في شرق آسيا، وبشكل موضوعي ساعد جنكيز خان في «توحيد» ما تحت السماء، كتب خان جولين: «إمبراطور أسرة يوان كان من المغول، يقول بعض الذين لم يألوا جهداً في البحث عن الزمن، الذي جلس فيه على العرش الإمبراطوري الغالي للسهول الوسطى، إمبراطور من

الأقليات الوطنية، إنه كان زماناً مظلماً، إن هذا ليس بمدخل علمي، إن التوحد تحت سلطة يوان أكمل حقبة خمسمئة عام من التناحر الوطني والحروب الداخلية، وسمح لكل من الوطنيات في البلاد بالعمل وتطوير ثرواتهم المادية والروحية في ظروف هادئة نسبياً، وهذا بلا شك يعدّ تقدماً تاريخياً» [المصدر نفسه، ص٤]. أصبح التبت منذ حقبة يوان «جزءاً لا يتجزأ من الوطن» و «المغول كانوا قلة» ولذلك «فمن غير العلمي عدّ حكم أسرة يوان نقطة سوداء» [المصدر نفسه، ص٥].

يصعب علينا استيعاب مثل هذا «التطور التاريخي» ما يعدّه البعض «توحيداً»، كان الآخرون وما زالوا يعدونه «النير التتري المغولي». تظهر خلاصة معظم التقييمات الصينية لنشاطات جنكيز خان في تحولاتهم، التي عبر عنها لوسين جيداً في زمانه: «في العشرين من العمر سمعت بأنه عندما قام "قيصرنا" جنكيز خان باحتلال أوروبا كان "عصرنا" الذهبي، وعندما صار عمري خمسة وعشرين عاماً أدركت أنه في الحقيقة في "عصرنا" الذهبي هذا سيطر المغول على الصين، وأصبحنا عبيداً» (انظر [تشولوون دالاي، ص٤]).

حاول علم التاريخ إعادة بناء الجذور الاقتصادية والاجتماعية لظاهرة جنكيز خان مرتكزين على أن ظهوره مرتبط بتطور المجتمع المغولي، ومن انتقاله إلى الإقطاع، أول من كتب بشكل أكثر وضوحاً الأكاديمي ب. ي. فلاديمير تسوف عن الإقطاع في المجتمع البدوي المغولي، كتب المؤرخون المغول والسوفييت لأعوام مديدة أن المغول قد انتقلوا إلى إقطاع متخطين الشكل العبودي في المجتمع، نقرأ في الكتيب المشهور «تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية» ـ الذي يعدّ بمنزلة المقياس الدراسي للسوفييت والمغول ـ الآتي: «إن تأسيس الدولة المغولية قد رافقه تغيير النظام الاجتماعي القبلي بنظام اجتماعي جديد هو الإقطاعي» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص١٣٣]. إن الإقطاعيين المغول امتلكوا قاعدة استغلالية

محدودة متمثلة في رعي الماشية من جانب، و «الاحتياجات المتعاظمة» من جانب آخر، دفعوا الفلاحين إلى الغزوات، وقد عبر جنكيز خان عن «احتياجات النبلاء الإقطاعيين الرحل» [المصدر نفسه، ص١٣٦-١٣٧]. كتب تشولوون دالاي وناشره السوفيتي ب. ب. غوريفيتش عن جنكيز خان «كمعبر وقبل كل شيء عن احتياجات الإقطاعيين المغول» [تشولوون دالاي، ص٣]. يتحاشى المؤرخ الفرنسي المختص بشؤون المغول جاك ليغران تعبير «الإقطاع»، إنه يفضل استعمال مصطلح «الأرستقراطية»، إن الأرستقراطية رغبت في تثبيت سلطتها المستقرة والتوسيع العاجل لقاعدتها الاقتصادية الاجتماعية «وذلك للطبيعة المتدنية ولقوى الإنتاج غير كاملة النمو للمجتمع المغولي في حد ذاته واقتصاده»، «وتحديداً على هذه الأرضية، التي تمثلت في الخصوصية السياسية لظهور المجتمع الطبقي عند المغول والحاجة الملحة للأرستقراطية الجديدة البروز بالشروع في تنفيذ سياستها التوسعية، هنا برز جوهر الشخصية الجنكيز خانية كنوع تاريخي جديد للتفرد» [ليغران، ص١٦٥].

كتب بعض العلماء من غرب أوروبا عن تحول المجتمع المغولي إلى الإقطاع في أواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر. منهم رالف فوكس الذي افترض أن اتحاد المغول «مرحلة لا مفر منها خلال عملية المجتمع الإقطاعي عند هذا الشعب الرعوي المحارب» [فوكس، ص٢٤٩].

كان المجتمع المغولي في القرن الثاني عشر طبقياً، وبلا شك أنشأ جنكيز خان تدرجاً اجتماعياً للترقي (العسكري الإداري)، وثبت المنتجين في أماكن الإنتاج، من الجائز أنه لم يكن في ذلك أي شيء أساسي جديد بالنسبة لآسيا الوسطى وتاريخها الذي يربو على ألف عام، لكن يبدو أن هذا شيء مستجد للمجتمع والدولة المغولية. إن إطلاق تسمية الإقطاعيين أو نبلاء السهول على أتباع جنكيز خان من النويون المغول، النوكير وقادة الجيش، إلى حد معلوم عرفياً يعدّ شيئاً في

محاولة لإعطاء هذه الطبقة من المجتمع تصنيفاً أوروبياً، إن هذا مدعاة بروز أسئلة جمة، ومن ضمنها عادة يؤدي النظام الإقطاعي في المجتمع إلى تمزيقه وبروز ظاهرة «التناثر الإقطاعي» لكن لماذا بالنسبة لمنغوليا حيث قام بتوحيدها؟ لا نود التكهن عما إذا كان في واقع الأمر إعطاء تقييم محدد مقنع وعلمي صعباً.

من المعروف جيداً لا توجد تقييمات موحدة في العلوم العالمية عن جنكيز خان ودوره في التاريخ، الاهتمام بشخصيته وتقييمها مرتبط في الغالب بالحالة السياسية لتلك الأيام والسنين، وعندما يقوم الكتاب فجأة بالكتابة فإنهم مجدداً يبعثون من العدم شكل ذلك الغازي الرهيب، لحقبة زمنية طويلة كان جنكيز خان يستوعب كحاكم، تغلبت عليه الروح الشريرة، يوجه وحوشه الناهبة نحو جيرانه من الشعوب، كتب روبروك: «وبالطبع لو سمحوا لي لقمت، وبقدر ما سمحت لي قواي في كل أنحاء العالم، بالتبشير بالحرب ضدهم» [الرحلات، ص١٣٧]. أكد المؤرخ الفرنسي الشهير في القرن الثامن عشر ج. دي غين أن المغول لا يمكن أن يكونوا شعباً متحضراً، ولم يسعوا إلى نشر الحكمة الكافية في قوانينهم، لقد كان هؤلاء متوحشين، توجهوا إلى الدول المجاورة من أجل الاستيلاء على ثرواتها وتحويل الشعوب المقهورة إلى أرقاء وإعادة المقهورين منهم إلى الهمجية، وأصبح ذكر اسمهم كافياً لبث الذعر في قلوب الجميع، فسر داوسون المؤرخ المشهور بشؤون المغول كل هذه الأحداث بحب الرفعة لدى زعماء المغول والإرادة الشريرة لجنكيز خان، والرغبة المتعطشة وغير المنضبطة لدى «الجماعات الرحل المشحونين بالفظاظة والقسوة» للنهب والاحتلال (انظر [غولمان، ص٤٠-٤٢]). من الممكن ملاحظة أنه في هذه الحقبة من الزمن انصب اهتمام خاص، ليس على شخصية جنكيز خان في ذاته، إنما على الفتوحات المغولية وطابعها الممعن في السلب والنهب.

بدأ المؤلفون منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر في إبداء اهتمام أكثر بشكل مباشر بجنكيز خان «عندما ورث جنكيز خان في الثالثة عشرة من عمره عرش أبيه فقد ورث قطعة فقط من مساحة غير مضافة على نهر أونون لشخص يملك تلك الطبيعة الحربية، لم يكن من السهل عليه الاقتناع بهذه الإمبراطورية الصغيرة إلى ذلك الحد، وأخذ بطاقة بلا حدود في توسيع مملكته حتى بلغت ذلك الحد. حينما وصلت تلك اللحظة، حيث لم ير جيشه المنتصر من شواطئ بحر الصين حتى ضفاف نهر دنيبر» [دوغلاس، ص٥]، «لقد وضع هدفاً أمام الناس الذين كانوا تحت إمرته . . . وهب كل حياته لهذا الهدف . . . جنكيز خان العظيم جعل ذويه العديدين وأتباعه قادرين على الهيمنة ليس على الإمبراطورية السهوبية فحسب، ولكن على الدول المتحضرة التي تم احتلالها من شرق وغرب آسيا» [كراوزي، ص٣-٤] كتب لامب: «منذ سبعمائة عام اغتصب هذا الشخص الكرة الأرضية، لقد أصبح مالكاً نصف العالم المعروف آنذاك، وبث في البشرية الإحساس بالخوف، الذي دام فيهم أجيالاً»، «لقد كان جنكيز خان فاتحاً في حجم أكبر من رجال الدولة الأوروبيين المعروفين». يكمن سر جنكيز خان في «بدائية بساطة الروح المغولية»، «لقد أخذ من العالم ما كان يريده لأبنائه وشعبه، لقد حقق ذلك عن طريق الحرب؛ لأنه لم يعرف وسائل سواها، فإذا كان قد دمر فإنه لم يرغب في ذلك، ولكنه لم يدر ماذا سيفعل بذلك»، لكن من المحتمل أن يبرز في كلمات لامب فكرة مثل هذه: «إن جنكيز خان مدمر كسر حواجز قرون الظلام، لقد فتح الطرق، دخلت أوروبا في اتصـــال مع الصين» [لامب، ص١٣، ١٦، ٢١٠، ٢١١] عن الفكرة الأخيرة يجدر الحديث عنها بشكل خاص فيما يأتي:

تساهم ألمانيا الهتلرية في إلقاء بعض الضوء على تقييم جنكيز خان، كتب جورج مونتادون مترجماً كتاب إ. بار كهاوزن إلى اللغة الفرنسية «إمبراطورية

جنكيز خان الفتية، قائلاً في المقدمة: «يلعب المغول للجنس المغولي العظيم الدور نفسه الذي يقوم به الشقر للجنس الأوروبي»، جنكيز خان «حمل في داخله عوامل التشقر» على الرغم من أنه «لا يمكن القول إن هذه العوامل هي التي أصبحت عوامل قوته الشخصية». يصف بار كهاوزن نفسه جنكيز خان بأنه «شخصية خارقة تجسد السلالة والرعي المتنقل»، «اتحدت في داخله ـ وتحديداً لآخر مرة في التاريخ ـ كل طاقة صفاء بداوة الوسط الآسيوية، التي بلغت فائق حدود العظمة وغيرت وجه العالم» [بار كهاون، ص٨-١٦].

يتحدث ر. فوكس بشكل مفصل جداً لتحليل شخصية جنكيز خان ونتائج غزواته: «التاريخ لا يعرف موازياً لهذه الأعوام العشرين لاحتلال العالم من قبل البدو الرحل الأميين»، توحيدهم لمنغوليا «كمرحلة لا بد منها في عملية تطور الإقطاع». الاتصال مع الحضارات الآسيوية العظيمة «حاجة الحياة الاقتصادية»، لكن «هب أن الصين دولة قوية ومتحدة وذات اقتصاد ثابت لم يستطع أي جنكيز خان كائناً ما كان أن يستولي عليها، حتى ولو بفضل موهبته العسكرية الفذة التي تضاهي الآلهة»، الشيء نفسه ينطبق على آسيا الوسطى وإيران، يقصد ر. فوكس بمفهوم آسيا الوسطى، وسط آسيا، «لو لم يكن هذان المجتمعان العظيمان: الصيني من جانب، والترك الإيرانية من جانب آخر، منهارين انهياراً كاملاً، لبقي تيموتشجين تيموتشجين الذي لا يدري عن العالم ما خلف سهول وطنه».

يقف ر. فوكس ضد تقييم جنكيز خان كمغتصب دموي فقط، فإذا نظرنا إلى الأمر كذلك فإن «... النصب التذكاري الحقيقي للشعب المغولي هو البرج المشهور من الجماجم من لوحة الفنان فيريشاغين، نعم... برج من الجماجم لا يمكن تجاهله، البرج أساس طبيعي، إنما هذا ليس الحقيقة كاملة»، النتيجة لم تكن «سلبية بالكامل» كانت مسوغات ر. فوكس هكذا: قام جنكيز خان بإبطاء الانهيار في

المجتمعات الآسيوية، حدث بعد الفتوحات نهضة للحضارة في يوان الصينية وبلاد فارس؛ أثبت المغول جدارتهم في الواقع العملي، ذلك أنهم كانوا أيضاً منظمين بارعين كما هم، كمحاربين (البريد، النظام في الجيش، تشجيع التجارة، تهدئة الحدود). وأخيراً أدخلت فتوحات جنكيز خان «تغييرات كبيرة في العلاقات ما بين آسيا وأوروبا»، «الشرق والغرب دخلا في اتصال مباشر»، «تم تأسيس العوامل الحقيقية للسوق والتجارة العالميتين»، «فتح تيموتشجين ثروات آسيا أمام العالم الغربي»، «وبذلك جعل الأمر ممكناً لولادة الإنسان الجديد»، وأخيراً فإنه «جدد وحدة الصين»، (يبدو أن هذا هو المصدر الذي جاءت منه أفكار خان جولين وغيره من المؤرخين الصينيين، الذين شاطروا رأي ر. فوكس). يختتم ر. فوكس استنتاجاته قائلاً إن «اسم جنكيز خان من أكثر الأسماء المعروفة لعامة الناس الذين يؤكدون أنهم يمتلكون أحكاماً أفضل من أحكام معظم المؤرخين» (انظر [فوكس، ص٢٤٤-٢٦١]).

إن رينيه غروسيه الذي جمع في أعماله أكثر المواد اكتمالاً، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه تحاشى الأحكام، جنكيز خان في رأيه «هو أكبر العظماء وأشهر فاتحي الشرق»، إنه الشخص الذي «في حدود إطار حياته . . . أبرز ميلاً فطرياً للنظام والإدارة الجيدة» [غروسيّه، ص٤، ٣١١] «القتل قد ينسى . . . أما الحفاظ على النظام من قبل رجالات الخان والنظام المكتبي الأويغوري فقد بقيا، هذا العمل بعد الهدم الذي حدث في البداية أثبتت فعاليته في نهاية الأمر للحضارة . . . وبتوحيده للشعوب التركية والمغولية كافة في إمبراطورية واحدة، ومرسياً نظاماً حديدياً من بكين إلى بحر قزوين، إن جنكيز خان قد أخمد الحروب الخالدة لبعض القبائل ضد الأخريات، وأعطى أماناً لم يسبق له نظير للقوافل» [غروسيّه، ص٣١٦].

يفترض ب. راتشنيفسكي أن النقاش حول ما إذا كانت «أفعال جنكيز إيجابية أم سلبية» غير ذات جدوى، حيث إنه لم يكن أول من أطلق العنان لتطلعات البدو

التوسعية»، «ولم يكن مبتكر فكرة الحاكمية الملكية الشاملة»، لقد كان نموذجاً فقط مناسباً هذه القوى، «لم تكن انتصارات جنكيز خان المحاولات الأولى ولا الأخيرة لرحل آسيا الوسطى؛ لتثبيت سيادتهم على الشعوب المتحضرة» [راتشنيفسكي، ص١٨٤].

لقد أوردنا كثيراً من الأحكام التي تزدان بها الكتابات عن جنكيز خان، تسترعي انتباه القارئ إلى نقطتين، وقبل كل شيء على التوسع «الفطري» عند الرحل، هذه حجة مهمة، تأكيداً لها يُرى في طريقة الإنتاج البدوي ذاتها في الحاجة الاقتصادية انعدام التجارة العادية، التي تدفع بالرعاة الرحل إلى التبادل عن طريق القوة بنهب الجيران المستقرين، و «النزعة الحربية» المتزايدة لدى الرعاه الرحل المتولدة نتيجة نمط عيشتهم، حول هذا السؤال لا يزال العلم لا يملك وضوحاً كاملاً، لكن لو ألقينا نظرة على الطريق الذي سلكته البشرية لا يمكن أن نؤكد أن الرعاة الرحل كانوا أكثر وحشية دائماً وفاتحين أقل مهارة من الشعوب المتحضرة، إذا ما ألقينا نظرة مثلاً على علاقة الحضارات المستقرة للصين الحديثة مع الرعاة الرحل لآسيا الوسطى، فمن الممكن ملاحظة أن الصينيين أخذوا في التضييق تدريجياً على الرحل وإزاحتهم إلى داخل آسيا ببطء، ولكن باطراد دافعين بحدودهم وأماكن هيمنة سلالتهم إلى الشمال، ليس من المصادفة بتاتاً أن يرى المؤرخون المعاصرون الوجه الإيجابي في أفعال جنكيز خان في أنه سدد ضربة «للسياسة الاستيلائية للأباطرة الصينيين ورجالات دولتهم، الذين سعوا بصورة مستمرة لاضطهاد الشعوب الرحل، و المغول» [تشولوون دالاي، ص٣].

وأخيراً نذكر مرة أخرى شيئاً مهمّاً جداً، لم يكن ر. غروسيّه على حق عندما قال: إن القتل قد ينسى والأبراج من الجماجم لا تنسى، إن البشرية تذكر جنكيز خان ليس كحاكم وفر تجارة مأمونة بالكامل بين الشرق والغرب (بالمناسبة إن هذه

هذه الفرضية لم يقم العلم على تأكيدها عن طريق أبحاث محددة)، ولكن قبل كل شيء كفاتح دموي، مهما كان المجد وضيعاً فإن هؤلاء «العظماء» وبكل أسف لا يخسرون؛ لأنهم يظلون في الذاكرة، إن البشرية لا تستطيع أن تتجاهل الثمن الذي دفعته مقابل الطريق، من آسيا إلى أوروبا والعكس، الذي عبده المغول، إن لدى المؤرخين دائماً الحق في القول: «ماذا لو أن . . . » لو أن منغوليا تم توحيدها ليس على يد تيموتشجين بل على يد تشجاموخا أو فان خان أو تايان خان أو شخص آخر من «الخانات المغول بالفطرة»؟ هل كان هذا الاتحاد انتهى بالتوسع الخارجي أم لا؟ هل كان ولع جنكيز خان وتعطشه للغزو من متطلبات العصر أم من ملامح شخصيته؟ هب أن بعض صفات شخصية جنكيز خان كانت انعكاساً لخصائص ذلك المجتمع الذي عاش فيه، إن معيار قسوته يرجع لصفاته الشخصية لا غير، وإن كان في مكانه شخص آخر فحجم الدم المهراق يقل، ودفعت البشرية ثمناً أقل لهذا «النعيم»، الذي يربطونه باسم الغاصب، لا يمكن أن تفكر البشرية بثمن تلك الأحداث التاريخية، ولذلك فإنها بشكل أو بآخر قدمت وما زالت تقدم كشف الحساب للجنكيزخانات كافة، مهما وضعوا أمامهم من أهداف.

أما جنكيز خان فلم يبحث لنفسه عن مسوغات، إن أ. بورشاغوفسكي، الذي كتب التعقيب لإحدى طبعات كتاب ي. كالاشنيكوف «القرن القاسي» وعلى هدى الراحل المغولي الأكاديمي رينتشين، الذي جرت بينهم محادثة عن جنكيز خان، يفترض أمام هذا الأخير أنه «قد انفتحت بشاعة عدم جدوى حياته الشخصية وعدم حيلته في الانتصار على الموت، الذي هو أمامه أكثر بؤساً من راع فقير وقنوع»، إنه يفترض أن الهدم لم يلحق بممتلكات الشعوب المجاورة، إنما قبل كل ذلك قد تحطمت شخصية جنكيز خان في ذاته [كالاشنيكوف، ص٧٤٦-٧٦٧] «الإعدام الأخلاقي» الذي أصدره أ. بورشاغوفسكي بحق جنكيز خان، الذي من الصعب

ملاحظته في رواية ي. كالاشنيكوف، وفي موعظة رينتشين، اللذين على هديهما سار أ. بورشاغوفسكي فإننا نجد اختلافاً تاريخياً لا نجد له أدنى تأكيد في كل ما نعرفه عن جنكيز خان، لم يكن لدى جنكيز خان أدنى إحساس بالندم عما ارتكبه من أفعال، إنما كان واثقاً من أن كل ما آمن به كان مبعثه السماء، ولم يتراجع في أفعاله حتى الساعة الأخيرة من حياته.

لكن لا يجوز أن نفترض ـ كما فعل ف. تشيفيليخين ـ أن تيموتشجين جنكيز خان «إنسان بلا أخلاق» [تشيفيليخين، ص١٧٥]، لقد كان ملتزماً بأخلاقيات مجتمعه الذي عاش فيه، أخلاقيات «الخانات الفرطيين»، الذين انتمى إليهم، وجدت طريقها وسط هذه المبادئ (على سبيل المثال الإخلاص للواجب) التي لا تبعث على الانتقاد حتى الآن.

ينطلق علم التاريخ المغولي والسوفيتي الحديث من أن «الدور التاريخي لجنكيز خان لا يجوز أن نقيمه بشكل أحادي المعنى، لقد كان تقدمياً في ذلك المضمون، الذي يواكب التاريخ الموضوعي لعملية تكتل القومية المغولية، وتكوين الدولة المغولية الإقطاعية الموحدة، عندما بدأ جنكيز خان السير بالفعل في طريق غزواته الحربية المسيطرة اكتسب نشاطه طابعاً رجعياً». أضحت هذه الحروب قاتلة حتى لمنغوليا في ذاتها «لقد ساعدت على تفرقة القومية المغولية في ذاتها، أنهكت المصادر البشرية لمنغوليا، وتسببت في الانهيار الطويل لها اقتصادياً وسياسياً وثقافياً في القرون المقبلة» [تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، ص١٣٦-١٣٧] كتب ب. راتشنيفسكي: ضاعت «مجهودات جنكيز خان هباء، وأصبحت منغوليا منذ بداية عهده مغولية، ولكن المغول أنفسهم لم يصيروا مغولاً كالسابق في عهد جنكيز خان» [راتشنيفسكي، ص١٨٤-١٨٥].

نعم، وجد جنكيز خان بالفعل القبائل التترية المغولية التي كانت ممزقة ويعادي بعضها بعضاً، مكوناً منهم دولة منغولية موحدة، لكن لا يتوجب في هذه الحالة أن ننسى أي ثمن تم دفعه مقابل بلوغ هذه الوحدة، خير مثال لذلك مصير التتار، إن دولة جنكيز خان التي كبرت على الحروب الدامية توسعت نتيجة ذلك حتى صار حجمها كبيراً عملاقة، لم تعد إلا بالقليل من النفع على الدولة المغولية في ذاتها، في كتاب مغولي ينسبه بعض الباحثين إلى القرن الثامن عشر «أسطورة عن أرغاسون خرورتشي» فإن الرسول الذي أتى من منغوليا إلى جنكيز خان، الذي كان يحارب في الأراضي الشرقية البعيدة، أجاب عن سؤال هذا الأخير «كيف حال زوجتي وأبنائي وشعبي؟» منشداً:

زوجتك وأبناؤك في تمام الصحة!
لكنك لا تعلم كيف يعيش شعبك!
زوجتك وأبناؤك في تمام الصحة
لكنك لا تدري كيف حال شعبك العظيم
يأكلون الجلود ولحاء الأشجار قدر ما يحصلون
بأفواههم الممزقة
لا تدري ما حال شعبك العظيم!
يعبون الماء والجليد بأفواههم العطشى
حال مغولك وعاداتهم ما عدت تدري
[شاستينا، شخصية جنكيز خان، ص٤٤١]

لم تجلب الحروب الغنائم فقط، ولكن جلبت مصائب ليست بالقليلة للمغول، تنبئنا المصادر عن تمزق الأسر، الرعاة الرحل بلا خيول، وعن بيع المغول كرقيق، البؤس الذي حل بالفلاحين الرعاة، تؤكد «تلك الحقيقة أن الغزاة المضطهدين

للشعوب الغربية لم يكونوا مغولاً بتاتاً، إنما من النويون فقط» [مونكويف، ص٣٨٥] كان دفع ضريبة الدم قاسياً، أرسلت أفضل القوى البشرية إلى خارج حدود البلاد إلى الحروب وبقيت هناك، إما أنهم سقطوا في ساحات الوغى، وإما أنهم استقروا في الأراضي المغتصبة، ملأت حروب جنكيز خان منغوليا بطوفان من متطلبات الرفاهية المنهوبة والحرفيين الأسرى، الذين كانوا ينتجون الأسلحة بشكل أساسي، متطلبات الرفاهية هذه نفسها، ولكنهم لم يقدموا (ولا ينبغي لهم أن يقدموا!) أي قدر من التغيير الملموس في أساس اقتصاد المغول، وهو الرعي، ليس من المستغرب، وبالتقريب عبر مائة عام بعد نهاية الحروب، أن الشعوب المضطهدة تحررت من نير التتار المغول، ووجد الفلاحون الرعاة المغول أنفسهم يعيشون في تلك الظروف نفسها، التي كانت في نهاية القرن الثالث عشر، تراثهم من جنكيز خان ذكرى غزواته فقط، ومجده المبني على الدماء، رغماً عن ذلك لم لا ينعت المغول جنكيز خان برجل دولتهم المبرز الفذ؟ أما سكان آسيا الوسطى وإيران والقوقاز وروسيا لم لا يعدونه مغتصباً دموياً؟ وحتى الصينيون لم لا يكتبون عنه «كموحد للصين» ورجل دولة بارز المخلد اسمه في تاريخهم الصيني؟

كما علمتنا الحياة من غير الممكن رسم شخصية رجل دولة في مثل حجم جنكيز خان بشكل قاتم فقط، أو رسمه بألوان فاقعة، إن فظائعه التي ارتكبها كانت جسيمة وعبقرية، مثله في ذلك مثل اسكندر الأكبر (المقدوني) قائد حربي عبقري استراتيجياً وتكتيكياً، ومنظم بارز للانتصارات، وهو الذي وأد الحرية والديمقراطية الإغريقية، شجاع ومحارب لا يقهر، فارس لا يعرف الخوف وبلا نقائص، وفي الوقت نفسه إنسان متهم بقتل أبيه، سفاح دموي، لا يتواني عن التعذيب والاعتداء والقصاص القاسي في حق شعوب وبلاد ومدن بأكلمها (انظر [شيفمان]).

هكذا كان جنكيز خان. إن عدداً ليس بالقليل من الكتب ستكتب عنه سواء أكانت علمية أم علمية اجتماعية أم روايات، كما سيتم عمل أفلام سينمائية، وفي كل مرة سيقف العلماء والأدباء وكتاب الحوارات أمام معضلة كيفية تقييم تيموتشجين جنكيز خان، وسيقومون بجلها انطلاقاً من انتماءاتهم القومية وحقبهم التاريخية وطبائعهم وتعاطفهم معه وكراهيتهم له. قد يكون ليو تولستوي محقاً في أنه لا توجد هناك عظمة حيث لا يوجد الخير أو الحق، ويا لبعد الناس ليس عن الفهم الواحد لمعنى الخير فقط بل الحق. غالباً عند الاصطدام بهذه الأحداث نفسها يعظم البعض صانعها والآخرون يثكلون ضحاياها، لكن كليهما محق في ذلك.



المصادر

- ابن الأثير: مجموعة المؤلفات المكرسة لدراسة تاريخ المعية الذهبية، المجلد الأول، سان بطرسبورغ، ١٩٨٤.
- التاريخ السري، انظر «السيرة المكنونة».
- ألتان توبتشي، أي «السيرة المكنونة» ترجمة ن. ب. شاستينا، موسكو، ١٩٧٣.
- السيرة المكنونة، التسلسل التاريخي المغولي في عام ١٢٤٠، المجلد الأول، موسكو، لينينغراد، ١٩٤١.
- السيرة المغولية القديمة عن جنكيز خان، ترجمة وتعليق وملاحظات أرخماندريت، مؤلفات المبشرين الروس في بكين، المجلد الرابع، سان بطرسبورغ، ١٨٦٦.
- المدونة التاريخية المغولية في القرن الثامن عشر، أولان أودا، ١٩٧٠.
- الرحلات في الدول الشرقية، بلانو كاربيني وروبروك، موسكو، ١٩٥٧.
- المصادر الأرمنية عن المغول، موسكو، ١٩٦٢.
- المصادر الصينية عن أوائل خانات المغول، ب. س. مونكويف، موسكو، ١٩٦٥.
- الون لي: تاريخ الدولة الكيدانية، ترجمة وملاحظات ف. س. تاكسين، نقوش الخطوط الشرقية، موسكو، ١٩٧٩.
- إلنتشيجين: قوميات شمال الصين وأصول المغول، فصلة مستقلة.
- النسوي شهاب الدين محمد: وصف حياة السلطان جلال الدين مانكبورني، ترجمة وتعليق وملاحظات د. م. بونياتوف، باكو، ١٩٧٣.

- أنباء المبشرين المجريين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر عن التتار في شرق أوروبا، أرشيف التاريخ، موسكو، لينينغراد، ١٩٤٠ .
- الوصف العام للتتار المغول، ترجمة مونكويف، مجلة نقوش الخطوط الشرقية، العدد ٢٦، موسكو، ١٩٧٥ .
- ف . ف . بارتولد: جنكيز خان ١٩٢٢، عرض نقدي ب . ي . فلاديمير تسوف، المؤلفات، المجلد الخامس، موسكو، ١٩٦٨ .
- ف . ف . بارتولد: نشأة إمبراطورية جنكيز خان، المؤلفات، المجلد الخامس، موسكو، ١٩٦٨ .
- بارتولد: تركستان في عهد الغزو المغولي، المؤلفات، المجلد الأول، موسكو، ١٩٦٣ .
- بانزاروف: مجموعة المؤلفات، إعداد وملاحظات غ . أ . روميانتسوف، موسكو، ١٩٥٩ .
- ز . م . بونياتوف: دولة خوارزمشاه في الأعوام ١٠٩٧-١٢٣١، موسكو، ١٩٦٨ .
- أ . ب . بيتروفسكي: حملات الجيوش المغولية في آسيا الوسطى في الأعوام ١٢١٩-١٢٢٤ ونتائجه، موسكو، ١٩٧٠ .
- بين دا يا: معلومات قليلة عن التتار السود، مجلة قضايا الاستشراق، ١٩٦٠، العدد ٥ .
- تاريخ أول أربعة خانات من بيت أسرة جنكيز خان، سان بطرسبورغ، ١٨٢٩ .
- تاريخ جمهورية منغوليا الشعبية، الإصدار الثالث، موسكو، ١٩٨٣ .
- تشجان دي خوي: مذكرات رحال صيني في أيام تجواله في منغوليا في النصف الأول من القرن الثالث عشر، إيركوتسك، ١٨٦٧ .
- تسزو تان شو: التاريخ القديم لأسرة تان، شنغهاي، ١٩٣٥ .

- تشولوني دالاي: منغوليا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، موسكو، ١٩٨٣.
- خان جولين: جنكيز خان، بكين، ١٩٨٢.
- دوروناتيب: الترجمة الجديدة مع تعليق مختصر «للتاريخ السري للمغول» خُوت خَوت، ١٩٧٩.
- رشيد الدين: مجموعة المدونات التاريخية، المجلد الأول، الكتاب الأول، ترجمة ل. أ. خيتاغوروف، موسكو ـ لينينغراد، ١٩٨٣.
- ساندراغ: نشأة الدولة المغولية وجنكيز خان، التتار المغول في آسيا وأوروبا، موسكو، ١٩٧٠.
- ت. د. سكرينّيكوف: المصطلحات النورانية المغولية للحاكم، المؤتمر الخامس للباحثين في منغوليا، أولان باتور، ١٩٨٧.
- ب. سومياباتور: النقش الأول المغولي للتشريع في القرن الثالث عشر، أولان باتور، ١٩٨٤.
- سوي شو: تاريخ أسرة سوي، شنغهاي، ١٩٣٥.
- سين تان شو: التاريخ الجديد لأسرة تان، شنغهاي، ١٩٣٥.
- سي يوي تسزي: وصف الرحلة إلى الغرب، ترجمة ب. كافاروف، أعمال أعضاء البعثة التبشيرية الروسية في بكين، المجلد الرابع، سان بطرسبورغ، ١٨٦٦.
- شاراتوجي: المدونة التاريخية المغولية في القرن السابع عشر، ترجمة شاستينا، موسكو ـ لينينغراد، ١٩٥٧.
- ن. ب. شاستينا: شخصية جنكيز خان في أدب القرون الوسطى المغولي، التتار والمغول في أوروبا وآسيا، موسكو، ١٩٨٥.
- إ. ش. شيفمان: اسكندر المقدوني، لينينغراد، ١٩٨٨.

- غاو فيندي: العبودية عند المغول، فصلة مستقلة.
- م. ف. غوريليك: الأسلحة الدفاعية عند التتار المغول في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، معركة كوليكوف في تاريخ وثقافة روسيا، موسكو، ١٩٨٣.
- ل. ن. غوميلوف: البحث عن المملكة المختلقة، موسكو، ١٩٧٠.
- ل. ن. غوميلوف: روسيا القديمة والسهوب العظيمة، موسكو، ١٩٨٩.
- ف. ب. فاسيليف: تاريخ وقدم الجزء الشرقي لآسيا الوسطى من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر؛ مع ملحق لترجمات المعلومات الصينية عن الكيدانيين والتشجورتشجينيين والمغول والتتار، سان بطرسبورغ، ١٨٥٧.
- ب. ي. فلاديمير تسوف: العصر الاجتماعي المغولي، الإقطاع المغولي المتنقل، لينينغراد، ١٩٣٤.
- م. ف. فوروبيوف: التشجورتشجيون ودولة تسزين، موسكو، ١٩٧٥.
- ر. ف. فياتكين وس. ل. تيخفينسكي: حول بعض الأسئلة عن علم التاريخ في جمهورية الصين الشعبية، «القضايا التاريخية»، ١٩٦٣، العدد ١٠.
- ل. ل. فيكتوروفا: المغول، أصل الشعب ومنابع الثقافة، موسكو، ١٩٨٠.
- م. س. كابيتسا: ولمرة أخرى حول دور جنكيز خان في التاريخ، «القضايا التاريخية»، ١٩٨٨، العدد ٧.
- إ. كالاشنيكوف: القرن القاسي، أولان أودا، ١٩٨٥.
- كوماي يويسياكي: مدخل في تاريخ المغول، كيوتو، ١٩٦١.
- ي. إ. كيتشانوف: سيرة تاريخ دولة التانغوت، موسكو، ١٩٦٨.
- ي. إ. كيتشانوف: مذكرة مساعد القائد العام لخاراخوتو، مارس ١٢٢٥، «الدراسات التاريخية الفلسفية» مجلة سنوية ١٩٧٢، موسكو، ١٩٧٧.
- ماركو بولو: كتاب ماركو بولو، موسكو، ١٩٥٦.

- مذكرات رحال صيني في النصف الأول من القرن الثالث عشر، ترجمة كافاروف، إركوتسك، ١٨٦٧ .
- ن . ت . موكنويف : مواد جديدة عن وضع الرعاة المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، التتار المغول في آسيا الوسطى وأوروبا، موسكو، ١٩٧٠ .
- غ . أ . ميخايلوف : الموروث الأدبي للمغول، موسكو، ١٩٦٩ .
- ناموبون : عن طبيعة المجتمع المغولي في الفترة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، فصلة مستقلة .
- ف . غ . يان : جنكيز خان، نوكوس، ١٩٧٢ .
- يوان تشاو شي : تاريخ أسرة يوان، المجلد الأول، بكين، ١٩٦٨ ، تحرير خان جولين .
- يوان شي : تاريخ أسرة يوان، شنغهاي، ١٩٣٥ .

Ata-Malik-Juvaini. The History of the World Conqueror. Trans. A. Boyle. L., 1958 Barckhausen I. L'Empire jeaune de Genghis-Khan. P., 1935.

Ch'i-ch'ing. The Military Establishment of the Yuan Dynasty. Cambridge-Mass and London, 1978.

Cleaves F.W. The Historicity of the Baljuna Convenant. Harvard Journal of Asiatic Studies. Vol. 18, 1955.

Douglas R.K. The Life of Jenghiz Khan. L., 1877.

Edeni-yin Tobci. Geschichte der Ost-Mongolen und Ihres Furstenhaus. St. Petersburg, 1829.

Franke H. From Tribal Chieftain to Universal Emperor and God. The Legitimation of the Yuan Dynasty. - Bayerische Akademic der Wissenschaften. Philosophisch-Historusche Klasse. Sit-

zungsberichte. Jahrgang. 1978. Hf. 2.
Franke H. Fremdeherrschaften in China und ihr Einfluss auf die staatichen Institutionen. (10-14 Jahrhundert). - Osterreichischen Akademic der Wissenschaften, 122. Philosophische-Historische Klasse. 1985, no. 3.
Grousset r. l'Empire du Monde. P., 1941.
Hambis L. L'Histoire des Mongols avant Gengis-Khan d'apres les sources chinoises et mongoles et la documentation conserve par Rashidu-d-Din. - Central Asiatic Journal. Vol. 19. 1970, No. 1-3.
Krause E.A. CingisHan. Die Greschichte seines Leben nach den Chinesischen Reichs Annalen. Heidelberg, 1922.
Lamb H. Genghis Khan. Empetor of all Men. L., 1928.
O sostave velikii G. V. O sostane velikoi Iasy Chingis-khana. - Studies of Russian and Oriental History. Bruxelles, 1939.
Pelliot P. Notes on Marco Polo. I. Ouvrage posthume. P., 1959.
Pelliot P. Mongols et la papaute. P., 1923.
Rachewiltz I. de. Personal and Personalilities in North China in the Early Mongol Period. Journal of the Economic and Social History of the Orient. Vol. 9. 1966.
Rachewiltz Ig. de. Some Remarks on the Ideological Foundation of Chingis Khans Empire. Paper on F Ar Eastern History. Vol. 7, 1973.
The Secret. History of the Mongol. Transl by Igor de Rachewiltz - Papers of Far Eastern History. 1971. No. 4; 1972, No. 5; 1974,

No. 10; 1976, n. 13; 1977, No. 16; 1978, No. 18; 1980, No. 21; 1981, No. 23; 1982, No. 26; 1984, No. 30; 1985, No. 31.
Ratschnevsky P. Cinggis-Khan. Sein Leben und Wirken. Munchener Ostasiatische Studien. Bd. 32. Wiesbaden, 1983.
Raverty. Tabakat-k-nasiri. A General History of Muhammadan Dynasty. Vol. 1-II. L., 1881.
Tamura Jitsuzo. The Legend of the Origin of the Mongol and Problem Concerning Their Migration. - Acta Asiatica, 1973, 24..

الفهرس



مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

ص.ب ٥٥١٥٦ - دبي - الإمارات العربية المتحدة

هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+ - فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+

E-mail: info@almajidcenter.org - www.almajidcenter.org